

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة حسية بن بوعلی الشلف
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية
شعبة التاريخ



أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل.م.د) في تاريخ الجزائر
الحديث

سياسة الدولة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى في النصف الثاني من
القرن 10 هـ / 16 م (956-1011 هـ / 1550-1603 م)

بإشراف:
أ- د/ محمد شبوب

من إعداد الطالب:
روابي نذير

المناقشة بتاريخ 2023/05/11 من طرف اللجنة المكونة من:

محمد شبوب	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشلف	مشرفا ومقررا
شعشوع معمر	أستاذ محاضر أ	جامعة الشلف	رئيسا
سريج محمد	أستاذ محاضر أ	جامعة الشلف	ممتحنا
بوتشيثة عبد القادر	أستاذ محاضر أ	جامعة الشلف	ممتحنا
عاشور محفوظ	أستاذ محاضر أ	جامعة البليدة	ممتحنا
بلعربي نور الدين	أستاذ محاضر أ	جامعة خميس مليانة	ممتحنا

الموسم الجامعي: 1443-1444 هـ / 2022-2023 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة شكر

أحمد الله سبحانه وتعالى الذي منحني الصبر ووهبني الصحة لكي أتمم هذا العمل.

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى الأستاذ المشرف الدكتور محمد شبوب الذي كان سندي العلمي والمعنوي والمادي، فكانت تشجيعاته وتوجيهاته الدائمة خير عون لي في إتمام هذا العمل فجزاه الله خيراً.

وأتوجه بالشكر الجزيل للإخوة الكرام الأستاذ مصطفى حليمي الذي ساعدني علمياً ومادياً، والدكتور الحاج مولج أستاذ الفيزياء النظرية بجامعة الشلف.

كذلك لا يفوتني أن أشكر الدكتور غربي بغداد رئيس مشروع الدكتوراه الذي احتضنا من خلال نصائحه وتوجيهاته، والأستاذ محمد الصالح بوقشور، كما أشكر كل أعضاء مخبر تاريخ الإنسان وال عمران بمنطقة حوض الشلف الذين منحوا لنا فرصة التكوين في تنظيم وإعداد الملتقيات العلمية وعلى رأسهم الأستاذ بن شرقي حليلي والأستاذ خالد بلعربي، كما أشكر الدكتور ضامر وليد عبد الرحمان، وأتوجه كذلك بالشكر إلى الطاقم الإداري لكلية العلوم الانسانية والاجتماعية وعلى رأسهم عميد الكلية الدكتور محمد جعير.

كما لا أنسى أساتذتي بجامعة خميس مليانة وعلى رأسهم الدكتورة فاطمة صحراوي، الدكتور نورالدين بلعربي، الدكتور أحمد بن يغزر، الدكتور عبد الرحمان تونسي والبروفيسور سعد الدين بوطبال أستاذ علم الاجتماع.

أيضا لا يفوتني التوجه بالشكر إلى السادة الدكاترة من جمهورية مصر العربية وعلى رأسهم الدكتور محمد خليل رئيس المركز العربي للنشر بإسطنبول والدكتور أحمد عبد الوهاب الشرقاوي مدير المركز الآسيوي للنشر.

أشكر كل الباحثين الذين سبقوني في دراسة الموضوع وفتحوا لنا أبواب البحث وعلى رأسهم الدكتور المرحوم أحمد توفيق المدني الذي جلب لنا الوثائق الأرشيفية والدكتور عمار بن خروف.

أشكر لجنة المناقشة لقبولها مناقشة موضوعي وتوجيهي الى الصواب.

فإليهم جميعا جزيل الشكر والتقدير والشكر أولا وأخيرا لله سبحانه وتعالى فمنه نستمد العون والتوفيق وبه نستعين.

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع للوالدين الكريمين محمد ووردة، وإلى إخوتي: عبد الله، عبد الرزاق،
الحاج، عبد القادر، عبد الرؤوف، يزيد، فدوى وصلاح الدين، وكل عائلتي الكبيرة.
إلى كل من ساعدني في بحثي وشجعني، وعلى رأسهم الأختان فاطمة وبختة تدرس.
إلى أساتذتي بجامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف وجامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة.

قائمة المختصرات

باللغة العربية والأجنبية:

الرمز المختصر	معناه
أ و ج	الأرشيف الوطني الجزائري
أ ر و ت	أرشيف رئاسة الوزراء التركية
ص-ص	صفحات متتابعة
ص، ص	كل صفحة على حدى
د م	دفتر مهم
T	Tome
F P-P	Follow the previous page
E P, P	Each page is independent of the other Page

المقدمة

يعد تاريخ 1519 البداية الفعلية والرسمية للوجود العثماني ببلاد المغرب الأوسط، من خلال انضمام الجزائر كأول ولاية مغربية للدولة العثمانية، والتي جاءت على خلفية سقوط الأندلس سنة 1492م، وما تبعها من ظهور حروب الاسترداد Al Reconquista "الريكونكيستا"، التي قادتها كل من إسبانيا والبرتغال، لتبدأ في ذلك مرحلة جديدة في الصراع الحضاري بين العالمين الإسلامي والمسيحي، قامت على إثره الخلافة العثمانية بتمديد حكمها في المنطقة، وتوحيدها ضد هذه القوى بحيث انضمت تونس سنة 1574م، وتلتها طرابلس الغرب سنة 1551م، لتبقى مملكة المغرب الأقصى خارج نطاق الحكم المباشر نظرا لعدة أسباب، مع الإبقاء على الحضور العسكري في المناطق الساحلية المغربية لما لها من دور محوري متقدم في الصراع الإيبيري العثماني، وكذلك الإبقاء على الطرق الدبلوماسية، والسياسية قائمة في محاولة إخضاع السلطة السياسية الحاكمة خاصة في الفترة 1550-1603، والتي شهدت صراعا سياسيا داخليا بين السلطة الوطاسية التي كانت في آخر مراحل حكمها، وكانت فاس عاصمة لها، والسلطة السعدية التي تأسست سنة 1517م بالجنوب، وعاصمتها مراكش.

فالدراسة الموسومة بعنوان: "سياسة الدولة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 10هـ/16م (956-1022هـ/1550-1603م)" من المواضيع التي تعرضت لسجال تاريخي اختلفت فيه زوايا النظر بين الباحثين كل حسب موقعه وانتمائه، بحيث تعرضت الكثير من الدراسات لفصول وأطوار العلاقات العثمانية المغربية ضمن إطار زمني واسع، إضافة إلى تعدد مجالات الدراسة ما بين سياسية، اقتصادية، اجتماعية وثقافية، لتكون هذه الدراسة المتناولة محدودة زمنيا وموضوعاتيا، من خلال دراسة طبيعة العلاقات الثنائية في فترة 50 سنة، مع التركيز على بعض النقاط الجزئية التي لم تتل حظوظها في الدراسات السابقة للموضوع.

ولعل أهم الأسباب التي جعلتنا نتناول هذا الموضوع رغم كثرة الدراسات ما بين أطروحات أكاديمية، ومقالات محكمة، وندوات علمية هو دراسة بعض الجزئيات التاريخية التي بقيت عالقة لعدة اعتبارات أهمها ندرة المادة العلمية، وعدم وجود دراسات سابقة باعتبار أن المغرب حسب

أغلب الباحثين لم يخضع للنموذج العثماني مطلقاً وبذلك لم يشهد تأثير مباشر، حيث ترسخت هذه الفكرة كمسلمة تاريخية، وانطلاقاً منه حاولنا التطرق إلى هذه الجزئيات والمجازفة بدراستها رغم هذه الصعاب محاولين التعمق، واستطلاع مختلف الجوانب، وإلقاء الضوء عليها حرصين في نفس الوقت على الابتعاد عن الحكم المطلق والثابت لما توصلنا إليه من نتائج، ومن هذه الجزئيات: مسألة المجندين العثمانيين في الجيش السعودي، القواعد العسكرية أو الحضور العثماني في سواحل المغرب الأقصى، وإشكالية الخلافة بين الخلافة العثمانية والدولة السعودية، ولاء السلطان عبد الملك السعودي للدولة العثمانية، وكذلك مسألة الحدود بين الجانبين في هذه الفترة، إضافة إلى تفاصيل المشاركة العثمانية في معركة وادي المخازن سنة 1578، وقضية توسعات أحمد المنصور الذهبي وموقف الخلافة العثمانية من ذلك. ولعل الوثائق الأرشيفية التي وجدناها في الأرشيف الوطني الجزائري والتركي أهم دافع ساعدنا على اقتحام هذه الجزئيات ودراستها، حيث أضافت لنا نظرة جديدة أضيفت لنظرة الكتابات السابقة، وخاصة تلك التي اعتمدت على المصادر والأرشيفات الفرنسية والإسبانية وحتى البرتغالية مصدراً لمعلوماتها.

أما فيما يخص الإطار الزمني لهذه الدراسة الذي يبدأ من سنة 956هـ/1550م تاريخ أول محاولة رسمية سعودية للتوسع على حساب أراضي ولاية الجزائر العثمانية، ويعتبر حدث محوري في العلاقات الثنائية، بحيث كان يمثل أول احتكاك رسمي بين الدولة العثمانية والدولة السعودية المغربية، وكانت بمثابة إعلان رسمي لسياستين مختلفتين تسعى كل منها للإطاحة بالأخرى والتخلص منها، أو بالأحرى المحافظة على أسسها وكيانها في حالة المغرب السعودي، ممهدة لفصول جديدة من الصراع انقسم إلى مرحلتين متباينتين 1550-1574م و 1574-1603م عرفت خلالها عدة أحداث كانت لها صدى دولي في بلاد المغرب العربي، والحوض الغربي للمتوسط، ولعل وجود الأرشيف وما احتواه من معلومات حول هذه الفترة جعلتنا نحدد الإطار الزمني لهذه الدراسة.

وبعد الاطلاع على محتويات هذه الوثائق ومراجعة المصادر والمراجع الخاصة بالموضوع تشكلت لنا صورة عامة عنه، لذلك عملنا على التركيز على الجوانب غير المدروسة في الدراسات السابقة مع تأكيد بعض الجوانب، ونقد البعض الآخر، ليعتبر الموضوع على البحث في إشكالية الحضور العثماني في مملكة المغرب الأقصى في الفترة 1550/1603م؟،

والصراع العثماني المغربي حول الولاء والخلافة؟، وفيما تميزت سياسة الخلافة العثمانية في هذا الإطار؟.

وهذه الإشكالية الرئيسية تتفرع عنها إشكاليات فرعية منها:

- ماهي بوادر وأشكال الحضور العثماني في منطقة المغرب الأقصى؟.
- ما الدوافع الكامنة وراء اهتمام العثمانيين بالمغرب الأقصى؟.
- فيما تمثلت سياسة الخلافة العثمانية في محاولة إخضاع المغرب الأقصى؟.
- كيف تمكنت الدولة العلية من تحقيق التقارب واختراق منظومة الحكم في المغرب في عهد المولى عبد الملك السعدي؟
- هل كان للنسب الشريف دور في الصراع العثماني السعدي؟.
- لماذا لم يخضع السلاطين السعديين الباقين للخلافة العثمانية؟.
- هل خضع المولى أحمد المنصور السعدي للدولة العثمانية؟.
- ماهي نظرة الدولة العلية لمسألة الحدود والتوسع المغربي في غرب أفريقيا؟.

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخي من خلال جمع الأرشيف، والمصادر والمراجع، واستقرأها بطريقة نقدية مع مقارنتها تاريخيا ووصفها وتحليل محتواها ومعرفة الظروف المحيطة بالحدث آنذاك وصولا إلى التركيب والاستنتاج، كذلك اعتمدنا على المنهج الوصفي والمقارن الذي يظهر خلال دراسة الصراعات العثمانية اليمينية ومقارنتها مع المغرب، إضافة إلى وصف التأثيرات العثمانية في المغرب السعدي خلال فترة الدراسة.

وقد بني هيكل الدراسة الذي اعتمدها على مقدمة للموضوع وأربعة فصول، تبدأ بالفصل الأول التمهيدي الذي تناولنا فيه بوادر السياسة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى في النصف الأول من القرن 16م، من خلال دراسة أوضاع وواقع منطقة المغرب الأقصى في تلك الفترة، ورد فعل المغاربة ضد القوى الاستعمارية، إضافة إلى تحديد بدايات النشاط العثماني في غرب المتوسط وهذا في المبحث الأول، لنتناقش بعدها في المبحث الثاني مسألة الحضور العثماني في المنطقة وإبراز أوجهه ومعرفة موقف السلطة المغربية منه.

أما الفصل الثاني تناولنا فيه قضية السياسة العثمانية اتجاه المغرب السعدي من 1550م إلى 1574م في مبحثين: تناول المبحث الأول العوامل المؤثرة في سياسة الخلافة العثمانية في ثلاثة مطالب تنوعت ما بين دينية، سياسية وجغرافية، لناقش في المبحث الثاني سياسة السلاطين العثمانيين في سبيل إخضاع المغرب، وموقف السلاطين السعديين من ذلك، وذلك من وجهة نظر مغايرة بناء على معلومات الوثائق الأرشيفية بصفة خاصة.

ليبدأ الفصل الثالث من الدراسة بداية 1574م إلى 1581م، ارتأينا فيه دراسة هذه الفترة الزمنية القصيرة تحت عنوان "التقارب العثماني المغربي ومظاهره وعوامل تشكيله 1574-1581" نظرا لأهميتها وتهميشها من جهة أخرى من طرف الكتابات التاريخية، وعلى مدى مبحثين ناقشنا في الأول العوامل المؤثرة في التقارب العثماني المغربي، وتطرقنا إلى طبيعة هذا التقارب ومظاهره الإجتماعية والإدارية والسياسية في المبحث الثاني.

وفيما يخص الفصل الرابع الذي تناول دراسة طبيعة العلاقات العثمانية المغربية في عهد المنصور في فترة 1581م-1603م، وبدايات ظهور التحدي المغربي من جديد وتبلوره في مواجهة السياسة العثمانية وموقف هذه الأخيرة من ذلك، حيث احتوى الفصل على مبحثين لكل مبحث مطلبين ناقش الأول طبيعة علاقات المنصور السعدي بالعثمانيين، ومناقشة مسألة الحدود التي برزت على خلفية السياسة التوسعية للمنصور، ليتطرق المبحث الثاني إلى موقف الخلافة العثمانية من ذلك عبر نشاطه في بلاد السودان ونشاطه في الحوض الغربي للمتوسط انطلاقا من القواعد المغربية.

لتنتهي الدراسة بخاتمة بمجموعة من الاستنتاجات حول الموضوع شملت مختلف الجوانب محاولين فيها البعد عن الحكم المطلق للأحداث، وكذلك تقديم نظرة أخرى لطبيعة تلك الأحداث وتأثيراتها المستقبلية.

أما فيما يخص مصادر ومراجع الدراسة فإنها انطلقت من الأرشيف وبالذکر وثائق الأرشيف الوطني الجزائري من دفتر مهم، وبعض وثائق أرشيف رئاسة الوزراء التركية التي أمدنا بها الدكتور محمد خليل رئيس مركز التاريخ العربي للنشر بإسطنبول، والبعض مما حصلنا عليه من الأرشيف العثماني من وثائق الديوان الهمايوني، دفتر المهمة، حيث احتوت هذه الوثائق على

معلومات ومعطيات قيمة، وهي عبارة عن مراسلات رسمية من السلاطين العثمانيين خلال فترة الدراسة إلى ولايتهم بولاية الجزائر، أو ولاية تونس وطرابلس الغرب، وكذلك مصر وولاية الحجاز تحتوي على أوامر همايونية تخص علاقاتهم بمملكة المغرب الأقصى.

كما كانت هناك مراسلات رسمية للسلاطين المغاربة وسكان المغرب الأقصى، وهو ما فتح المجال للتحليل والمقارنة والنقد بالنسبة للمصادر والكتابات الأخرى سواء الأجنبية أو المحلية، حيث حملت هذه المراسلات خطابات وأوامر باللغة العثمانية أو العربية المكتوبة بالخط المغربي جاءت الكثير من عباراتها مبهمة وخاصة في تحديد تسمية الأماكن، وعدم احتوائها على تاريخ المراسلة، مما جعل تحليلها ووضعها في السياق العام للدراسة صعبا، إضافة لذلك وتنبيرا لمعلومات القارئ نوه أن محتويات الأرشيف التركي أصبحت مرقمنة، وبالتالي عملية استلام الوثائق يكون عبر أقراص CD لا عبر النسخ الورقي، لذلك يلاحظ عدم وجود ختم مؤسسة الأرشيف عليها، ولتوسيع المعلومات وشرحها قمنا بالاستعانة بمختلف المصادر والمراجع المتخصصة والمقالات والدراسات القديمة والحديثة وهي كما يلي:

1-المصادر: تناولنا جملة من المصادر التاريخية ذات قيمة علمية مهمة تنوعت ما بين محلية وأجنبية.

أ/ الأجنبية: يعتبر كتاب وثائق عربية تساهم في كتابة تاريخ البرتغال للأب دي سوزا كنزا علميا لمعرفة أوضاع بلاد المغرب الأقصى في النصف الأول من القرن 16م، لما احتواه من وثائق أرشيفية، ومراسلات بين القبائل والسلطة المغربية بالبلاط البرتغالي المحتل، حيث كتبت هذه المراسلات بلغة عامية ركيكة جدا، تحتوي مصطلحات متداولة محليا يصعب فهمها، إضافة إلى الأخطاء في تسمية الشخصيات المرسل لها وخاصة الأعجمية، لذلك وجب التعامل معها بنوع من الحرص الشديد، استفدنا منه في الفصل الأول من الدراسة.

كما يعد كتاب المصادر الدفينة لتاريخ المغرب للمؤرخ هنري دوكاستري الذي احتوى على نخر علمي تاريخي، ومعلومات قيمة عن مختلف أطوار العلاقات العثمانية المغربية، والحضور العثماني في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط طيلة فترة الدراسة، من خلال وثائق الأرشيفات الأوروبية، وبالأخص وثائق الأرشيف الفرنسي، الإسباني والإنجليزي، وهو كتاب

أرشيفي مهم جدا في الدراسة، اعتمدت عليه الكثير من الكتابات المغربية للبحث في موضوع العلاقات العثمانية المغربية ككتاب المغرب في عهد الدولة السعدية للباحث عبد الكريم كريم، إضافة إلى دراسات أخرى، لكن هذه المراسلات تحتوي في مضمونها على نظرة أحادية لتحديد العلاقات العثمانية المغربية، حملت الكثير من المبالغات في وصف طبيعتها، استفدنا منه في فصول الدراسة.

ب/ المحلية: يعتبر كتاب تاريخ الدولة السعدية التكمارية لمؤرخ مجهول من أهم الكتب التي تناولت أطوار الصراع الداخلي المغربي، والتأثير العثماني السياسي على المنطقة، لكن يجب التعامل معه بحذر باعتبار أن المؤلف كان مناهض لدولة السعديين لذلك حملت كتاباته نوع من النقد اللاذع لدولتهم.

أما كتاب مناهل الصفا في مآثر مولينا الشرفا لعبد العزيز الفشتالي الذي تناول الفصل الأخير منه التواصل العثماني المغربي فقد اعتبر من أهم المصادر للدراسة، وهو الآخر يجب التعامل معه بحذر لكون الفشتالي كتب عن دولة السعديين بنوع من التعظيم نظرا لمكانته داخل البلاط باعتباره كاتب للسلطان المنصور، كما حمل نقد لاذع للخلافة العثمانية باعتبارها خلافة غير شرعية.

إضافة إلى ذلك هناك الكثير من الدراسات الأجنبية المعربة التي تناولناها في الدراسة ككتاب افريقيا لمارمول كارخال الذي يحتوي على حيثيات بعض الأحداث المهمة، كالصراع السعدي الوطاسي حول السلطة، واحصائيات عن المجندين القادمين من الأراضي العثمانية في الجيش السعدي، وهو مصدر مهم باعتبار الكاتب عايش الأحداث آنذاك، وهو نفس الأمر بالنسبة لكتاب تاريخ الشرفاء لدييغو دي طوريس الذي حمل نفس القيمة العلمية، يضاف لذلك الكثير من الكتابات المحلية المصدرية، ككتاب نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي للأفراني، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصرى، وكتاب العز والصولة في نظام الدويلة لابن زيدان وغيرهم.

2-المراجع: هي الأخرى تنوعت بين محلية وهي كثيرة وشملت أطروحات أكاديمية وكتب ومقالات ومن أهمها: كتاب "العلاقات بين الجزائر والمغرب 1517-1659م" للمؤرخ الجزائري

عمار بن خروف الذي يعتبر رائد الدراسات العلائقية، حيث تناول في إطار زمني وموضوعاتي واسع حيثيات العلاقات الثنائية، وهي أطروحة ماجستير طبعها الكاتب في مؤلف (كتاب) فيما بعد، نوقشت سنة 1983 بكلية الآداب بسوريا، وهذه الرسالة عبارة عن عمل موسوعي تضمن ثلاثة أبواب وعشرة فصول شملت مختلف أوجه العلاقات بين الجزائر العثمانية والمغرب، اعتمد فيها المؤلف على مصادر متنوعة وثرية، فالعلاقات العثمانية السعدية ماهي إلا صورة طبق الأصل للعلاقة الجزائرية السعدية، وقد استفدنا منها في تحديد معالم الموضوع، ودراسة بعض الجزئيات التي لم تتل القدر الكاف من الدراسة، مع نقد بعض المعلومات الأخرى بناء على وثائق حديثة، كما استفدنا منها في الابتعاد عن التكرار من خلال تحديد بعض المسائل التي نلت القدر الكافي من البحث، وخاصة في الدراسات الجديدة.

رسالة ماجستير للمكي جلول والمعنونة ب: «مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من 1234-1847م»، نوقشت بتاريخ: 1993م، بجامعة غرداية (الجزائر)، ناقشت قضية الحدود التاريخية بين الجزائر والمغرب، استفدنا منها في تحديد الثغرات التاريخية في هذه المسألة، وخاصة في فترة السلطان أحمد المنصور الذهبي 1578/1603م، حيث لم تذكر الرسالة تفاصيل هذه المسألة في هذه الفترة، لذلك عملنا على البحث في ذلك، كما استفدنا منها في إثراء الدراسة بالنسبة للفترات الأخرى.

كتاب "السلطان الشريف الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب"، للباحث المغربي محمد نبيل ملين وهو أطروحة دكتوراه نوقشت سنة 2013 ذات قيمة علمية مهمة جداً، تناولت جوانب كثيرة من المواضيع في مسألة العلاقات بين الجانبين، بناء على محتويات الوثائق المغربية، ووثائق الأرشيفات الأوروبية المستخلصة من كتاب المصادر الدفينة لتاريخ المغرب، استفدنا منه في الفصل الأول والثاني، وبدايات الفصل الرابع من الدراسة، لكن هذه الدراسة الأكاديمية حملت نظرة أحادية من خلال اعتمادها على المصادر الأوروبية والمغربية دون المصادر العثمانية، لذلك وجب التعامل معها بنوع من النقد والتحفظ في معالجة الكثير من القضايا التاريخية، رغم ما قدمته من معلومات مهمة في الدراسة.

كتاب المغرب في عهد الدولة السعدية للدكتور عبد الكريم كريم الصادر سنة 2006، الذي احتوى على معلومات قيمة مصدرها الأساسي وثائق الأرشيف المغربي والاسباني، ووثائق كتاب المصادر الدفينة لتاريخ المغرب، عالج من خلاله التطورات السياسية، والمظاهر الحضارية طيلة فترة حكم الدولة السعدية، بنوع من التفصيل، وهو دراسة مهمة جدا استفدنا منه في معرفة أوضاع المغرب السياسية وخاصة الصراع السعدي الوطاسي، وكذلك محاولات السلاطين المغاربة في بناء النظم الإدارية والعسكرية لمملكتهم، لكنه تميز بنوع من الطرح الذاتي للمعلومات الخاصة بعلاقة الدولة السعدية مع الخلافة العثمانية.

كتابات المؤرخ المغربي أحمد بوشرب ومنها كتاب قرصنة المحيط الأطلسي الذي تمكنا من خلاله من اكتشاف طبيعة العلاقات العثمانية المغربية، وخاصة في الجانب العسكري، وهو كتاب مهم استقى معلوماته من الأرشيف البرتغالي، إضافة إلى هذا هناك كتب أخرى للمؤرخ لا تقل أهمية عن هذا، وما يميز كتابات المؤرخ هي الحياد والموضوعية في الطرح، لذلك تعتبر كتابات مهمة جدا في الدراسات التي تتناول موضوع العلاقات العثمانية المغربية.

ب/ المراجع الأجنبية: تعتبر دراسة الباحث سيباستيان فلين المعنونة ب"علاقات الدولة العثمانية مع مملكة كانم برنو في عهد السلطان مراد الثالث" وهي: عبارة عن أطروحة أكاديمية نوقشت سنة: 2015 بتركيا، ناقشت مسألة التواجد والتواصل العثماني مع إمارات بلاد السودان الغربي والأوسط في فترة دراستنا بناء على وثائق أرشيفية عثمانية، قدمت لنا معلومات مهمة عن سياسة المنصور التوسعية وموقف الخلافة العثمانية منها.

وكأي بحث خضعت دراستنا لجملة من القيود البحثية المتمثلة أساسا: في قلة الوثائق الأرشيفية والمصادر باستثناء التي استقيناها من الأرشيف الوطني الجزائري (وثائق دفتر مهم) والبعض من تركيا، بحيث لم تسفر جولاتنا البحثية للأسف لكل من الأرشيف الوطني والمكتبة الوطنية التونسية في العثور على المصادر المحورية لدراستنا، وهو نفس الشيء بالنسبة لدور البحث في الجزائر مثل أرشيف ولاية وهران ومحتويات مكتبة المركز الثقافي الفرنسي ومحتويات مركز البحث في الانثروبولوجيا، وكذلك المتحف الولائي وشواهد التاريخ العثماني (قصر الباي، جامع الباشا) وهو نفس الأمر بالنسبة لأرشيف مدينة قسنطينة، إضافة إلى عدم تمكننا من

الحصول على رحلة علمية إلى الأرشيف أو دور البحث المغربية وهو ما أثر صراحة على بعض الجوانب في الدراسة.

إضافة إلى ذلك هناك عامل آخر هو كثرة الدراسات المتكررة حول بعض القضايا في الموضوع ساهم في صعوبة تحديد خطة بحث للدراسة وذلك تفاديا للتكرار، لذلك اعتمدنا إلى دراسة الجزئيات التي لم يتطرق إليها أو التي لم تتل الحظ الكاف من حيث الدراسة وخاصة مسألة الحضور العثماني في المغرب الأقصى ومظاهره الذي يعتبر ضعيفا من حيث المعلومات. إضافة إلى معالجة الكثير من الكتابات لبعض المسائل من وجهة نظرها الذاتية مما جعلنا نتعمق في بعض المسائل كمسألة الحدود، وكذلك مسألة تحديد طبيعة العلاقات العثمانية المغربية، إضافة إلى إبراز مظاهر التواجد العثماني في سواحل ومدن المغرب وهي: مواضيع لم يتطرق إليها بصفة مباشرة سوى تقديم بعض الإشارات حولها بنوع من السطحية لذلك غامرنا بالغوص في حيثياتها رغم قلة المصادر آملين في فتح المجال أمام باحثين آخرين للبحث في هذه المسائل.

الفصل الأول

ملامح السياسة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى خلال النصف الأول من القرن 16م
(1550-1500)

1-أوضاع المغرب الأقصى خلال النصف الأول من القرن 16م

1-1 ممارسات الإحتلال البرتغالي في الثغور المغربية

2-1 رد الفعل المغربية اتجاه الإحتلال البرتغالي (حركة الجهاد)

3-1 الحضور العثماني في الحوض الغربي للمتوسط والأطلسي في الربع الأول
من القرن 16م

2- الحضور العثماني في منطقة المغرب الأقصى ومظاهره خلال النصف
الأول من القرن 16م (سياسة الإختراق)

1-2 الحضور العسكري العثماني في المغرب ومظاهره.

2-2 الإختراق السياسي العثماني لمنطقة المغرب الأقصى

3-2 موقف المغاربة من سياسة الدولة العثمانية(1520-1550)

أولاً: ملاح السياسة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى خلال النصف الأول من القرن 16م (1500-1550).

1- أوضاع المغرب الأقصى خلال النصف الأول من القرن 16م.

1-1 - ممارسات الاحتلال البرتغالي في الثغور المغربية:

شهدت مملكة المغرب الأقصى مع نهاية القرن الخامس عشر، وبداية القرن السادس عشر عدة تغيرات جيوسياسية بسبب ظهور قوى جديدة، تمثلت في القوى الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) المنتشية بانتصارها على المسلمين سنة 1492، ففي القرن العاشر تأسست مملكة البرتغال على يد فرديناند الأول I Ferdinand ملك قشتالة وليون (426هـ/1045م - 457هـ/1065م) بعدما انتزع أراضي لوزيتانيا الواقعة من نهري دويره ومانديجو إلى ما بعد قلميرية من المسلمين¹، وفي القرن الرابع عشر ظهرت البرتغال كقوة بحرية خاصة في عهد الملك جان الأول (1385-1433) الذي سيبدأ في عهده توجيه الحملات العسكرية لغزو المدن الساحلية المغربية مستغلاً حالة الانهيار التي كان يمر بها المغرب آنذاك².

حيث ساهم موقعها الاستراتيجي الرابط بين موانئ البحر الأبيض المتوسط، وموانئ غرب إفريقيا في تعزيز مكانتها البحرية، وبالتالي ربط علاقات تجارية وزيادة الاهتمام بالأسطول بصفة أكبر. وبذلك بدأ التوجه البرتغالي الاستعماري يتبلور، حيث وصف الرحالة البرتغالي بارابوسا Barabosa في رحلته سنة 972هـ/1565م مدن الساحل الشرقي لإفريقيا قائلاً: "منذ بداية القرن الرابع عشر كانت قلاع الاسلام تمتد بطول الساحل الشرقي للقارة على شكل خيط من اللآلئ، وكان هذا الساحل يعج بالتجار ورجال البحر والقوافل التي تتاجر في العاج، والتوابل والصمغ والرقيق والذهب"³.

¹ محمد محمود النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ط 1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 1995، ص 09.

² عباس الجراري، "البرتغال بصمات تاريخ مشترك"، مجلة المناهل، ع 12، 1978، المغرب، ص 63. (ص 55-74).

³ أحمد سالم علي، استراتيجية الفتح العثماني، ط 1، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 2012، ص 144.

ومن خلال هذا الوصف تتضح أهمية رحلته في رسم وتوجيه الاستراتيجية الاستعمارية البرتغالية في إفريقيا الشرقية والغربية، والشمالية مستقبلا، أما بخصوص القوة الإيبيرية الأخرى المتمثلة في مملكة إسبانيا التي تكونت سنة 1469 بزواج ملك أراغون Aragon فرديناند الثاني Ferdinand II (1479-1516) مع ملكة قشتالة Castulle إيزابيلا Isabella I (1474-1503) بعد صراع طويل، وكذلك بعد مراحل كانت بدايتها توحيد ليون leon وقشتالة في القرن الحادي عشر¹.

ليدخل المغرب الأقصى الذي كان تحت قيادة الدولة الوطاسية (1471-1553) بعدها في موجة من التنافس بين هاتين القوتين، حيث تم احتلال كل من سبتة في 21 أوت 1415 بقيادة د. ألفون D. Alphone، وكذلك احتلال أصيلة في 24 أوت 1471 بقيادة ريستيلو Restelo، وكذلك احتلال إسبانيا لمدينة حجر بادس سنة 1508²، مستغلة الفوضى السياسية السائدة آنذاك من خلال ظهور إمارات مستقلة مثل أسرة المنظري، وبني راشد وإمارة دبدو إضافة إلى الفوضى والاضطرابات جنوب وادي أم ريغ، ونزوح بعض المدن الأخرى للاستقلال³، لتدخل هذه القوى بعد ذلك في صراع النفوذ على المنطقة انتهى باتفاق سياسي برعاية بابوية عرف بمعاهدة توردي سيلاز le traite de tordislase في 07 جوان 1494⁴، تم من خلالها منح البرتغال حق الاستحواذ على أراضي مملكة المغرب الأقصى.

¹ عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية: دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، ط 3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، المغرب، 2006، ص 03.

² نفسه، ص 06، ص 08.

³ المصطفى نشوي، جيوبوليتيك التراب المغربي عبر التاريخ، ج 2، مجلة المجال الجغرافي والمجتمع المغربي، ع 16، 2017، المغرب، ص 01.

⁴ تم انعقاد هذه المعاهدة بمدينة سيلاز الإسبانية بتاريخ: 07 جوان 1494، بين مملكتي إسبانيا والبرتغال، وبرعاية البابا ألكسندر السادس عشر Alexander VI، تم من خلال تقسيم بلاد المغرب إلى قسمين ما هو شرق قلعة حجر بادس (قلعة صخرية تقع شمال المغرب الأقصى حاليا على الساحل الأطلسي) يدخل تحت سيطرة الإسبان، وما غربها للبرتغال. للمزيد ينظر: H. De Castries, la source Inédite de l'histoire de Maroc, T1, Espagne, paris 1921, p16. ينظر كذلك: سمير عبد الرسول العبيدي، "الحملة الإسبانية على الموانئ الجزائرية 1505-1510"، مجلة العميد، م 08، ع 31، 2019، ص 145. (ص-ص 123-163).

1-1-أ سياسة الترهيب والتنصير:

بعد انفراد البرتغال بالمغرب بعد اتفاقية توردي سيلاس سعت إلى فرض سياستها الاستعمارية في عدة مجالات، ففي المجال الاجتماعي والديني لجأت إلى سياسة الترهيب والتنصير، والتي تظهر بصورة جلية في مراسلات سكان الثغور المحتلة إلى الملك البرتغالي بغرض الشكوى.

ففي رسالة مؤرخة في 02 يوليو 1509 وجهها سكان آسفي إلى ملك البرتغال إمانويل الأول يشكون فيها انتشار الآفات الاجتماعية وغياب الأمن، حيث جاء في متنها ما يلي: "أمر عاملك بفتح الباب من غير علم أحد وما انتظر جوابك ولكن تكلم مع علي بن وشان ومع قبيلة سراق وبني ماجر وأدخلهم إلى المدينة فلما دخلوا بدأوا يسرقوا بيوتنا وحوايجنا ويفسدوا مع نساءنا وبناتنا ولا سمحوا كبير وصغير ويتيم وغني وفقير وشيخ وعجوز"¹، وفي نفس الرسالة يضيف أهل المدينة حالة الفوضى واستفحال الظلم: "وبعد ذلك كانوا زوج نصارى ساكنين في صومعة في الخلاء بناحية آسفي ويخزنون به الذي يسرقون ويخبون النساء مع من كانوا يفسدون فوق عليهم رجالان من أهل دكالة وقتلوهما فلما عرف عاملك بذلك من غير فحص على ذلك الأمر أمر ناسه ليدخلوا علينا كمثل السباع وقتلوا منا سبعة أناس وبهذا الحال أخلعوا النساء وأسقطوا البنين"².

إن هذه الممارسات مقصودة من البلاط البرتغالي بل وبمباركة منه، وقد شملت كل الثغور المحتلة ففي رسالة أخرى من سكان أزموور إلى الملك البرتغالي إمانويل سنة 1520 جاء فيها ما يلي: "فاعلم أننا ضعنا في بلادك، وضاقنا الجوع وقلة الأمان فيه كأنه بلاد المسلمين، زرنا أكله الشريف وتركنا ميتين بالجوع لا نقدر على شيء ومتاعنا وأولادنا أخذهم جرجي دياس ومع هذا ما تريد تعمل لنا الحق"³، ويجب التنبيه إلى أن خطاب الخضوع هذا كان ناتجا عن قلة حيلة هؤلاء السكان الذين فرضت عليهم الأحوال الأمرين الخضوع لابتنزاز البرتغاليين والذعر من وصمة العمالة التي لصقت بهم من طرف سكان المدن المغربية الأخرى، وحالة الخضوع هذه ميزت حتى النظام الرسمي الوطاسي.

¹Joao De Sousa, Documentos Arabicos para a historia portugueze copiados originaes, lesboa, 1789, p 15.

² Ibid, p16.

³ Ibid, p143.

ففي رسالة مؤرخة في 20 صفر 931هـ/22 ديسمبر 1526 من محمد الشيخ سلطان فاس (1505/1471) الى دون جوان Don Juan يصف فيها تبعات الممارسات البرتغالية بنوع من الخنوع قائلاً: "وأهالي آسفي أرسلوا سراقينهم وسرقوا بقر بلادنا وباعوهم عيلنا في أزموور وفي هذه العافية الأخرى التي كان على اليهودي ابراهيم بن زميرا أخذوا أهل أزموور قافلة غنم وجمال وطلقوا الرعاة والناس، وبعد ذلك بعث قبطان آسفي الحناشة والتقوا مع قافلة تخص لخدامنا فأخذوها وقتلوا ناسها لكي لا يظهر فعلهم وقبضوا أيضا زوج مسلمين وبعثوهم إلى بركم"¹، وإلى جانب الفوضى الأمنية والاجتماعية قام الحكام البرتغاليين بسياسة دينية جد متعصبة ضد كل ما هو اسلامي، حيث كان سندهم في ذلك الكرسي البابوي تنفيذاً لوصية الملكة إيزابيلا التي أوصت أنه لا ينبغي إيقاف غزو افريقيا ولا انتهاء الصراع ضد الكفار (المسلمين) من أجل العقيدة².

وفي رسالة مؤرخة في 12 نوفمبر 1494 بارك البابا ألكسندر السادس Alexander VI (1503/1492م) أرواح الذين سيشاركون في عمليات الغزو التي سيقوم بها ملوك اسبانيا والبرتغال كما منحهم براءة فتح ممالك إفريقيا في فيفري 1495³، ومن الجدير بالذكر أن نشير للقرار الذي اتخذه البابا نيكولاس الخامس بتاريخ 08 فبراير 1454 الذي يخول فيه للبرتغال حق التمسك بسببته وضواحيها بل وإلى الاستلاء على الساحل الأطلسي من رأس نون إلى غينيا⁴.

وتتجلى مظاهر الحقد الديني في رسالة أهل آسفي السابقة بتاريخ 1509 حيث جاء فيها ما يلي: "...إن زبوجة أمر بهدم ديارهم وحرق خشبها وبهذا الأمر بداو رجالك يهدموا جوامعنا ويسرقون حصورهم ودخلوا فهدموا الجامع حدا القبور قريب باب البحر وما تركوا فيه حجر على حجر، وكذلك زاوية يقال لها زاوية سيدي بوعلي والجامع الكبير وسرقوا حصوره ودفافه، وكانوا أيضا حاشاك يغيطوا ويبولوا به، وزاوية

¹ De Sousa, Opcit, p 160.

² H .D .Grammont de, histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830, Edition Ernest le Roux, paris, P05.

³ De Castries, Opcit, P04.

⁴ عبد الهادي التازي، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، م2، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، المغرب، 2001، ص271.

الجامع الكبير المسمية زاوية الشعب أخذها عاملك ديكو زمبوجة مع جنانها وزوج أبيار كانت حداها التي كانت للعامة...¹.

ولم يكتف الحكام البرتغاليون بذلك بل لجأوا إلى التنصير حيث تحول الكثير من المغاربة نتيجة للظروف القاسية إلى الديانة المسيحية، فالمؤرخ أحمد بوشرب يطلعنا على الكثير من محاضر محاكم التفتيش البرتغالية فمن محاضر محكمة التفتيش بمدينة يابرة Yabra البرتغالية وصل 79 محضر اعتقال ومحاكمة مغاربة كانوا يعيشون في البرتغال بتهمة رجوعهم إلى دينهم الأصلي²، ومن تلك المحاضر محضر محاكمة امرأة مغربية منتصرة تدعى أنو دوميلو Ano de Mello من مدينة آسفي عاشت في البرتغال ما يفوق 22 سنة حيث كانت التهمة الموجهة إليها هي الرجوع للدين الأصلي الاسلام³.

فالمؤرخ والجغرافي حسن الوزان (1483-1554) يعطي نماذج عن التنصير في المدن المغربية، حيث يقول: "...وقد قتل قسم كبير من السكان وأسر القسم الآخر واقتيد إلى البرتغال وحدث هذا عام 920هـ⁴، ويتحدث الوزان هنا عن مدينة تيوت بعد معركة بولوان في هذا التاريخ حيث نستنتج من حديثه أن التنصير كان إجباري ومصير كل من وقع في الأسر حيث كانت لشبونة وجهة لهؤلاء، كما كان للأوبئة والمجاعة الناتجة عن التقلب الطبيعي دور في عملية التنصير ففي سنة 918هـ/1513م عرف المغرب مجاعة كبرى تسببت في هجرة طائفة من أهل دكالة إلى البرتغال الى جانب العدد الكبير من الأسرى الذين كانوا ينقلون إلى المدن البرتغالية، هذا الى جانب ما كان يسببه الاضطهاد والظلم من تحول قبائل بأكملها إلى مدن أخرى⁵.

ويؤكد الوزان ذلك بقوله: "فضلا عن ذلك فإن المجاعة التي سادت في السنوات الأخيرة في افريقيا قد أرهقتهم كل الإرهاق حتى أصبح هؤلاء الفقراء يهاجرون بمحض إرادتهم الى البرتغال، ويبيعون أنفسهم

¹ De Sousa, Opcit, p18.

² أحمد بوشرب، "محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية 1559"، مجلة المناهل، ع 21، المغرب، 1978، ص224.

³ نفسه، ص130.

⁴ حسن الوزان، وصف افريقيا، تحقيق عبد الرحمان حميدة، مراجعة علي عبد الواحد، ج1، د ط، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، 1399هـ، ص115.

⁵ التازي، مرجع سابق، ص317.

بيع الرقيق لمن أراد أن يقدم لهم الطعام، وهكذا لم يبقى أي واحد منهم في دكالة"¹، كما يقدم وصفا دقيقا لمدينة تغسة التي أصابها الجراد سنة 1513 قائلا: "ولقد مررت راجلا في هذا المكان في عام كانت فيه أعداد هائلة من الجراد أكثر من السنابل بضعفين بحيث لم تكن رؤية الأرض بسهولة، وكان هذا في عام 919هـ"²، ومن خلال كتابات الوزان وبعض الوثائق الأرشيفية البرتغالية تتضح معالم سياسة التصير وأركانها وأساليبها وعواملها، وظروفها.

1-1-ب تجارة الرقيق:

تعتبر تجارة الرقيق إحدى أهم الموارد الاقتصادية البرتغالية لذلك كانت لها مكانة خاصة في استراتيجية الاحتلال البرتغالي في إفريقيا، وتظهر تلك الممارسات في الرسائل التي وجهها سكان الثغور إلى ملك البرتغال يشتمون أحوالهم.

فمحتوى رسالة سكان آسفي السابقة إلى ملك البرتغال تصف الأمر كالتالي: "...وربط البعض منهم وباع منهم ستة أنفس إلى قبطان جزيرة الخشب، وعن الأمر الذي أمره لفرسانك ورجالك بأن كل من وجد منهم وقبضه يقدر يبيعه ويشتره، وبهذا الأمر يا مولانا بداو البرتغيز يسرقوا أولاد العرب وأناس الكبار الذين يأتون لبيع حوايجهم، وحتى اللي ساكنين في المدينة، ولهذا قامت ناس سراقين يهود ومسلمين وانفقوا مع رجالك وقهروا هذه البلاد والبر، وكل واحد كان يقبض ما أصابه وكثير من الذين قبضوهم فباعوهم إلى جزيرة الخشب من غير أن ديوكو زمبوجة يمنع هذه الأفعال"³.

وتؤكد رسالة أخرى مؤرخة في سنة 916هـ/1510م من أهالي ماسة إلى ملك البرتغال ذلك حيث جاء فيها ما يلي: "وصارت لنا عداوة مع أهل هكسيمة وبين العرب الذين في الخلاء وهؤلاء يعيروننا ويحملون علينا ويأخذون أولادنا ويبيعوهم إلى جان لويس فرسلنا لسبب ذلك شيخنا مع بعض فرسان"⁴، وفي رسالة أخرى مؤرخة في 20 صفر 931م/ 22 ديسمبر 1526 بعثها السلطان الوطاسي أحمد الشريف

¹ الوزان، مصدر سابق، ص72.

² الوزان، مصدر سابق، ص117.

³ De Sousa, Op,cit, p 17.

⁴ Ibid, p 50.

1506م/1516م¹ الى ملك البرتغال جاء فيها ما يلي: "نعلمك بأن عملينا العافية بأمرك مع خدامك قبطان آسفي...وبعد هذا أخذ أهل أزمور زوج معلمين مسلمين وبعثوهم الى بلادك، وبعثنا نطلبهم مرة بعد مرة، وحتى في هذا الوقت ما رأينا لهم خبر"².

ومن خلال هذه الوثائق نستطيع تحديد بعض ملاح هذه الساسة القائمة على السرقة والنهب ونكتشف خلاها حجم هذه العملية التي كان لها الأثر كبير في المجتمع المغربي، فالمؤرخ المغربي محمد رزوق يقدم لنا احصائيات عن هذه السياسة، حيث يقول أن عدد الرقيق الذين بيعوا في أسواق لشبونة سنة 1539 وصل الى عشرة آلاف عبد ونظرا لتزايد الطلب على الرقيق لجأت الحكومة البرتغالية في مستعمراتها الى استغلال الأسلحة النارية للقنص³.

وكان البرتغالي لا يخاطر بالتوغل في الداخل فاكتفى بالبقاء في المراكز الساحلية حتى يسلم له الرقيق عن طريق الوسطاء، ثم يتم نقلهم الى العالم الجديد، وقد تألفت شركات برتغالية بقصد التجارة في الرقيق وحصلت على مراسيم من البلاط البرتغالي باحتكار هذه التجارة في مناطق محدودة⁴. ويبدو أن البرتغاليون استغلوا أحوال المغاربة الصعبة فإضافة للخراب والذعر الذي تسببوا فيه لهم ومطاردة السكان وأخذ الأسرى لبيعهم في أسواق الرقيق⁵، كانت للظروف الطبيعية دور في ذلك أيضا، فخلال مجاعة 1520 الكبرى الجوع أرغم المغربي في تلك الفترة على بيع جميع أبنائه قبل بيع نفسه، وقد كان العرض كبيرا الى حد أنه لم يعد أي شيء أرخص من الانسان⁶.

فخلال هذه المجاعة التي ضربت المغرب استغل البرتغاليون هذه الظروف من أجل تهجير قسري لأعداد كبيرة من المغاربة الى البرتغال حيث كان السكان المجاورون للثغور يضطرون الى بيع أبنائهم

¹ H. De Castries, Op,cit, p163.

² De Sousa, Op,cit, p 159.

³ محمد رزوق، دراسات في تاريخ المغرب، ط1، دار افريقيا الشرق، المغرب، 1991، ص10.

⁴ نفسه، ص 11.

⁵ الصديق ابن العربي، "صفحات من تاريخ الصويرة"، مجلة المناهل العدد 11، 1978، ص314. (ص303-324).

⁶ أحمد بوشرب،(محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية....)، مرجع سابق، ص226.

مقابل قفة من التين¹، "غير أن البرتغاليين كانوا يفضلون شراء المغريات الجميلات صغيرات السن أما الرجال فكان يختار منهم الأقوياء للعمل في الزراعة ومختلف الأعمال الشاقة"².

ويقول المؤرخ البرتغالي المعاصر برودريغز Brodregue: "ومع انتشار المجاعة بدأ المغاربة يأتون بكثرة إلينا للحصول على ما يقتاتون به، وكان يبيع بعضهم بعضا فالأب يبيع أبنائه والأخ إخوانه... وهذا شيء لم ير من قبل"³، ويقول المؤرخ المغربي أحمد بوشرب: "أن المغربي كان معرضا للقصص من طرف البرتغاليين المتهافتين على أسر المغاربة إما بعد دخولهم الى أسواق المدن المحتلة أو بسبب قناصة مختصين يختطفون المغاربة العزل"⁴، ويقدم المؤرخ الاسباني دييغو توريس Diego de Torres وصفا دقيقا لهذا الوضع بالقول: "أصبحوا يتملصون من بعضهم البعض وأصبحوا يبيعون أنفسهم لمسيحيي الثغور بثمن بخس جدا، حتى أنهم كانوا يعطون مسلما أو مسلمة مقابل قفة من التين أو من العنب، لقد كانت المجاعة عامة الى حد أنه لم يعد شيء أرخص من الانسان"⁵، ومن ذلك يتضح مدى الاستغلال البرتغالي لأوضاع المغاربة الطبيعية والاقتصادية التي أثرت عليهم مقابل ازدهار تجارة الرقيق.

1-1 ج سياسة الضرائب:

نظرا للموقع الجغرافي المغربي المتميز كانت حركة الاقتصاد جد نشيطة استفادت منها البرتغال في استمرارية التطور الحضاري الذي كانت تشهده آنذاك من خلال اتخاذ سياسة خاصة اتجاه المدن المحتلة سواء من خلال التبادل التجاري أو النظام الضريبي أو من خلال الاحتكار والقرصنة البحرية، فمن خلال الوثائق الارشيفية المتاحة يظهر أن البرتغال انتهجت وسائل مختلفة في فترات متباينة، فهناك وثيقة أرشيفية مؤرخة سنة 916هـ/1510م من أهالي مدينة ماسة الى الملك البرتغالي تكشف عن القرصنة البرتغالية على السواحل المغربية "ولما جاء بعضنا من آسفي في هذا الوقت في البحر في قارب دميان

¹ محمد القبلي تاريخ المغرب تحيين وتركيب، ط1، مطبعة عكاظ الجديدة، المغرب، 2011، ص375.

² رزوق، مرجع سابق، 14.

³ نفسه، ص14.

⁴ بوشرب، دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي ونتائجه، ط1، دار الأمان، المغرب، 1997، ص68.

⁵ D. de Torres, Relation d'origine et sucez des chérifs, et de liftât des royaumes de Maroc, fez et taraudant, Mife en François par M.S.D.V.D.D.A, paris, 1630, p195.

دموطة مع سلعتهم فوق عليهم النصارى وأخذوهم بحوايجهم ومرو بيهم إلى آسفي، وكان معاهم علامك لأجل أمانتهم"¹.

أما الطريقة الثانية التي انتهجها البرتغاليون فهي: احتكار التجارة مع المدن المغربية بواسطة مؤسسات متخصصة كدار لامينا Caza Da Mina ودار الهند Caza Da India في بيع السلع التي كان إقبال المغاربة عليها كثيرا، والتي كانت تضمن أرباحا كثيرة وترك للتجار العاملين لحسابهم الخاص من برتغاليين وأجانب حق الإقبال على الثغور شريطة أداء الضرائب الجمركية²، وإضافة إلى القرصنة والاحتكار هناك طريقة أكثر مرونة وفاعلية، وهي سياسة الضرائب حيث عمل الحكام البرتغاليين على ائصال كاهل السكان بمجموعة من الضرائب، ومنها ضريبة قرية وپرس في 03 يونيو 1510، وضريبة موكرس في 05 يونيو 1510 وكذلك ضريبة بني ماكر في 13 ماي 1511³. وما يلاحظ في محتوى هذه الضرائب أنها كانت في فترة متقاربة اضافة الى نوع أو قيمة الضريبة كان يعتمد أساسا على القمح والشعير والخيول بحيث يفسر ذلك بالأزمة الاقتصادية التي تعرض لها البرتغال في عهد الملك جان الثالث⁴.

ولأجل اضعاف الصبغة الشرعية والحفاظ على مكتسباتها في الثغور أبرمت السلطات البرتغالية معاهدة سنة 945هـ/1538م مع مولاي أحمد الوطاسي جاء في شقها الاقتصادي ما يلي: على المغاربة التابعين لملك فاس وابراهيم المقيمين في الأراضي المنبسطة حول المواقع البرتغالية أن يؤدوا إتاوة سنوية تتضمن عشرة خيول لملك البرتغال⁵، وعن قيمة ما كان يجمع في المغرب صرح البرتغالي لورانسو Loranso أنه أرسل مرة الى شريكه بلشبونة 4000 صندوق من السكر، و200 برميل عسل وألف قنطار من السكر غير المقولب حيث بلغت القيمة الاجمالية أكثر من تسعة ملايين ريال أي 23 ألف

¹ De Sousa, Op,cit, p 21.

² بوشرب، (دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي...)، مرجع سابق، ص09.

³ أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي الى سنة اخلاء آسفي وازمور (قبل 28 غشت اكتوبر 1541)، ط1، دار الثقافة، المغرب، ص497.

⁴ الجراري، مرجع سابق، ص64.

⁵ التازي، مرجع سابق، ص290.

كروزادو Crusada¹، ولتسهيل عملية جمع الضرائب أوكلت السلطات البرتغالية ذلك الى مجموعة من الموالين لها من المغاربة من خلال تنصيبهم على الثغور المحتلة باسم الملك البرتغالي ومنهم شيخ آسفي يحي بن تعفوفت الذي جمع 500 فارس برتغالي و 2000 فارس عربي لجمع الضرائب لملك البرتغال²، ومن خلال تعدد طريقة الاستغلال الاقتصادي البرتغالي في المغرب وقيمة ما كان يجمع تتضح الأهمية الاستراتيجية مملكة المغرب الأقصى كموقع ذي مؤهلات اقتصادية كبرى.

1-2: رد الفعل المغربي اتجاه الاحتلال البرتغالي "حركة الجهاد":

نظرا لحالة الانفلات الأمني والاجتماعي والتدهور الاقتصادي الناتجة عن حركة الاستعمار البرتغالية وممارساتها في المناطق المحتلة ظهرت ردة فعل مغربية خاضها مجاهدون من علماء وشيوخ وبحارة على المدن الساحلية بعيدا عن البيت الوطاسي المتهاوي الذي كان يقوم بمحاولات يائسة، حيث كان مغلوب على أمره جراء الفوضى السياسية وعدم تحكمهم بالحالة الأمنية، وفشلهم في صد العدوان البرتغالي تركوا مكانهم للطرق الصوفية، فالضعف الوطاسي يظهر في الكثير من المواقف ففي رسالة مؤرخة في 930هـ/1523م من بابا أحمد ابن عم الشريف سلطان فاس الى ملك البرتغال جواو الثالث João III (1521-1557م) جاء فيها ما يلي: "واعلم يا سيدي بعدما وصلت الى تافللت حسبت أنني أجد قوارب سفابنك حاضرين حتى أسافر بهم، ولكن كيف لأرمادة سافرت مضوا معها وبقيت محتارا ولا عندي مأفرج عن نفسي وخدامي وخيليلهذا خديمك يا سيدي يطلب منك أن تسلفه خمسمائة كروزا حتى أقيت روحي"³.

وحالة الخنوع هذه تعكس واقع الأوضاع الكارثية في المغرب آنذاك، ففي رسالة مؤرخة في 24 رجب 931هـ / 22 ماي 1525م من أبا حسون (1526-1554)⁴ إلى الدون جوان ملك البرتغال يشكره فيها على المساعدة بخطاب يحمل نوع من الإذلال: "ونعلمك يا مولاي أنني قد وصلت مدينة فاس حفظها الله اليوم

¹ بوشرب، (دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي....)، مرجع سابق، ص 23.

² الوزان، مصدر سابق، ص 137.

³ De Sousa, Op,cit, p149.

⁴ De Casteries, tom1, espagnol, Op,cit, p163.

تحت كنف الله وكنفك، ولا أزال مقر بإحسانك التي فعلتها معي وعمري ولا أنساها وجميع ما يكن لكم في هذه البلاد من الحوايج والأغراض نسلها اليكم على الرأس والعين"¹.

ويجب التذكير هنا أن أبا حسون بن عمر الشريف ابن سلطان فاس كان يمثل الموقف الوطاسي الرسمي حيث لم يكن يتعامل بصفة فردية مع البرتغاليين وهو ما تؤكد رسالة مؤرخة في 29 ديسمبر 1526 من دون جوان الى الشريف محمد سلطان فاس: "تعلمك بأن قبولنا لابن عمكم بابا أحمد والذين جاءوا معه فعلناه بالتأميل لأنه ابن ذلك الأب والدم الكبير والنسل الشريف، ويستحق أكثر ما فعلناه معه وكل من قصد مقامنا وسلطتنا وجاء إلينا نفعل معه هكذا لأن هذا هو فعل الملوك"².

وفي الرسالة المؤرخة في 20 صفر 931هـ/1524م من الشريف محمد سلطان فاس الى دون جوان ملك البرتغال تظهر حالة الانفلات الأمني وعدم القدرة على حماية السكان من ممارسات حكام الثغور ومشايخهم من الموالين للبرتغاليين وكذلك عدم القدرة على مواجهة عمليات الاقتتاص للمغاربة وتهجيرهم القسري للبرتغال وبالتالي تنصيرهم واستعبادهم³، كما تظهر ملاحم التدهور في عمليات الغزو البرتغالي بداية من سنة 1415 تاريخ احتلال مدينة سبتة ففي نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السابع عشر تم احتلال كل من آسفي سنة 1508 باعتبار أن ميناء آسفي كان محطة تجارية بين البرتغال وغانا، حيث أقاموا فيها حصن Château De Mer كما قاموا باحتلال مدينة غصاصة سنة 1506م⁴.

كما قام الاسبان باحتلال مليلية في سبتمبر 1497م و بادس سنة 1509م، وفي ظل التحريض المتزايد للبابوية لاحتلال وغزو أراضي المسلمين كان ألفونسو الخامس (1438-1481) الذي اعتلى العرش سنة 1438م من الأوائل الذين استجابوا للنداء، وتم على إثرها احتلال القصر الصغير سنة 1458 وبنجة سنة 1471م⁵، وتظهر ملاحم الحقد الديني على الاسلام في رسالة حاكم وهران الكونت ألكوديت إلى ملكه شارلوكان CharleQuin في 12 أوت 1556م التي يصف فيها الحرب ضد

¹ De Sousa, Opcit, p153.

² Ibid, p155.

³ Ibid, p160.

⁴ كريم، مرجع سابق، ص08.

⁵ سالم، مرجع سابق، 143.

المسلمين بالحرب المقدسة مفتخرا بما تم انجازه من احتلال المدن المغربية¹، وفي ظل هذه الأوضاع كانت ردة الفعل المغربية عنيفة جدا وتمثلت في جبهتين: حركة الجهاد الصوفي وحركة الجهاد البحري المحدودة.

إن عمليات الجهاد الصوفي التي قادها رجال الطرق الصوفية في البداية ثم تولها الأشراف السعديين بعد مبايعة هؤلاء لهم كانت عنيفة جدا ولها أثر كبير في تراجع الضغط الاستعماري، فالمؤرخ أبو القاسم الزياني يطلعا على ذلك بقوله: "ولما انحلت عرى الملك الوطاسي المريني وقصرت أيدي ملوكهم عن الامتداد للسوس وتعطلت الأحكام المخزنية منه اغتتم انتهاء الفرصة (القائم بأمر الله) وأسدى في ذلك وألحم وجعل صنيعا وهو الموسم عندهم، فدعا الناس له من أشياخ القبائل وأعيانهم ولما اجتمعوا عنده بزوايته أطعمهم وتكلم إليهم في أمر السوس وفساده، وما صار إليه أحوال الناس، وأن ملك المغرب عجز وقصرت يداه عن الامتداد لبلادنا... فعينوا رجلا يقف في إصلاح بلادكم..."².

وانطلاقا من ذلك قامت الحركة السعدية بقيادة القائم بأمر الله الذي بويع للجهاد في منطقة السوس بإشارة من محمد بن مبارك الأفاوي شيخ الطريقة الجزولية بالجنوب وقد توطدت علاقته أكثر بالسعديين بعد مصاهرة الأمير محمد الشيخ بن القائم بأمر الله³، ولتفعيل حركة الجهاد قام السعديون بتوحيد كل الطرق الصوفية بعدما كان جهادها مشتتاً، حيث اشتهرت في تلك الفترة شخصيات صوفية كبيرة، وتزايدت عدد الزوايا وأصبحت أكثر من عدد المساجد⁴ ومن أشهر الشخصيات الصوفية المقاومة للاستعمار البرتغالي الشيخ محمد بن باعزي البطريرطي السعدي الرجراجي، وسيدي علي بن أبي علي الذي تبدأ منه موسم رجاجة وكانت له زاوية كبيرة بأسفي أفسدها البرتغاليون⁵، حيث كان لهؤلاء بطولات كبرى ضد البرتغاليين بالشياطمة وحاحا وهو ما جعل الشياظمة من رجاجة وغيرهم، وشيوخ حاحا يذهبون إلى

¹ Ernest Renan, Documents Inédits Sur l'histoire de l'occupation en espagnol en Afrique (1506-1574), Editeur Journal Libraire, Alger 1875, P231.

² أبو القاسم الزياني، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، تحقيق رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، المغرب، د ت، ص 34.

³ القبلي، مرجع سابق، ص 374.

⁴ رزوق، مرجع سابق، ص 09.

⁵ محمد السعدي الرجراجي، رجاجة وتاريخ المغرب، ط1، مطبعة بات نت، المغرب سنة 2004، ص 21.

السوس ويطلبون من أبي عبد الله القائد بأمر الله السعدي أن يحضر لبلادهم ليجاهدوا وإيَّاه ويخوضوا معارك الحرب معاً¹.

ولم تقتصر عملية المبايعة على قبائل رجراجة بل امتدت إلى القبائل الأخرى حيث ساهمت قبائل الرحامنة سنة 1525 في صد العدوان الصليبي للسواحل الجنوبية الغربية إلى جانب السعديين الذين ما إن استتب حكمهم حتى نزحوا إلى شمال مراكش معلنين هيمنتهم على المنطقة الممتدة من آسفي إلى مراكش بداية من 1565²، ولتوطيد الصلات أكثر قام محمد الشيخ السعدي بالزواج من اللاسحابة الرحمانية³، ويجب التنويه هنا إلى أن سياسة السعديين في بناء حركتهم كانت ذكية جداً، حيث عملوا على كسب ولاء الطرق الصوفية بطريقة مميزة ومنسجمة، من خلال عملية المصاهرة بين الأمراء السعديين وزعماء الطرق الصوفية، وهو ما لاحظناه في مصاهرة محمد الشيخ السعدي لشيخ الطريقة الجزولية⁴، ثم مصاهرته كذلك لقبائل الرحامنة التي كان لها ثقل كبير في عمليات الجهاد.

لتبدأ عمليات الجهاد الفعلية بقيادة الحركة السعدية بداية من 1517، حيث يحفظ التاريخ أن أبا عبد الله القائم بأمر الله وولده أبا العباس أحمد الأعرج نزلاً بأفوغال وضلاً يقاتلان ومن معهم العدو البرتغالي إلى أن استشهد الوالد سنة 923 هـ/1517 م⁵، ففي الفترة الممتدة من 1524 م إلى 1576 م قام السعديون بعدة أفعال في سبيل توحيد المغرب ودحر التغلغل البرتغالي حيث قاموا سنة 930 هـ/1524 م بالقضاء

¹ الرجراجي، مرجع سابق، ص 36.

² عبد الرحيم العطوي، الرحامنة القبلية بين المخزن والزواوية، ط4، مطبعة توب بريس، المغرب، 2013، ص 25.

³ هي أم عبد الملك المعتصم السعدي كان لها دور كبير في التأثير على قرار السلطان العثماني في دعم ابنها المعتصم لاسترجاع ملكه من السلطان عبد الله الغالب أثناء مكوثها رفقة ابنها عبد الملك وأحمد المنصور في اسطنبول. أنظر: العطوي، مرجع سابق، ص 62.

⁴ الجزولية: نسبة إلى مؤسسها أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي، من قبيلة جزولة الأمازيغية في السوس من بلاد المغرب، حيث بدأ تعليمه من هناك وانتقل إلى فاس، وحج إلى مكة المكرمة ومنها انتقل إلى المدينة المنورة والقدس أين مكث فيها حوالي أربعين سنة، عاد إلى فاس وأنشأ الطريقة الجزولية، توفي نحو سنة 1470. راجع: مسعود بقادي، "العلماء الجزائريون بالمغرب الأقصى ودورهم في الحياة الثقافية خلال القرن 10 هـ/16م"، مذكرة مدممة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجبالي اليايس بسيدي بلعباس، الجزائر، 2019-2020، ص 134.

⁵ الرجراجي، مرجع سابق، ص 36.

على إمارة هنتانة، والسيطرة كذلك على درعة الغنية بالنحاس والحديد، وكذلك استرجاع المدن المحتلة سواء في دكالة أو في سوس حيث تم محاصرة أكادير سنة 943هـ/1536م، وتم تحريرها سنة 947هـ/1541م، وكذلك القيام ببناء الحصون العسكرية، ففي سنة 956هـ/1549م تم بناء قسبة تاكمدارت¹.

والى جانب الجهاد الصوفي بقيادة السعديين كان للجهاد البحري دور كبير في دحر الاحتلال البرتغالي أو على الأقل مزاحمته والتشويش عليه في ظل الامكانيات القليلة التي كان يعتمد عليها قادة الإمارات البحرية في سلا وتطوان والعرائش، ومن أشهر المجاهدين المغاربة في المدن الساحلية عائلة المنظري، وهي من عائلة أندلسية الأصل توارث أبنائها الحكم في تطوان وكونوا من المجاهدين الأندلسيين قوة بحرية للدفاع عن المدينة والقيام بعمليات الغزو، وخاصة في البحار ضد الإيبيريين، كما اشتهر علي بن راشد الشفشاوني بمصارعته للبرتغاليين شمالي المغرب، وهو الذي بنى مدينة شفشاون واتخذها مقراً لقاعدة جهاده، وقد أسره البرتغاليون في طنجة في أكتوبر 1457 وأطلق سراحه في عمليات تبادل الأسرى²، ويبدو أن المغاربة استفادوا كثيرا من قدوم الأندلسيين والدور الكبير الذي قام به المهاجرين الأندلسيين في عمليات الجهاد البحري نظرا لخبرتهم البحرية، وكذلك رغبتهم في استرجاع أملاكهم المسلوبة في بلاد الأندلس.

ومن أشهر العمليات الجهادية البحرية عملية فارو Faro وسان لوكار، فالإخباري البرتغالي دوسوزا Dosouza يذكر " أن صيادا من أصيلة التجأ إلى مدينة القصر الكبير، وأسلم هناك وأصبح يتراأس مراكب تحمل بحارة من مغاربة وأترك لمهاجمة الجنوب البرتغالي ومنطقة الأندلس الإسبانية، حيث استطاع أن يأسر ويغنم الكثير حيث نزل يوما بمدينة فارو البرتغالية على رأس أسطول صغير مكون من سفينتين جزائريتين وأخرى من بادس ومركب من تطوان فضلا عن سفينة من العرائش التي كان على متنها مائة بحار"³، حيث تمكن خلال هذه العملية من أسره 60 نفرا وفي طريق عودته استولى على سفينة برتغالية

¹ القبلي، مرجع سابق، ص 376.

² نفسه، ص 16.

³ بوشرب، (دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي...)، مرجع سابق، ص 196.

عائدة من الرأس الأخضر¹، وانطلاقاً من هنا يتضح معالم أو بدايات الحضور العثماني في الحوض العربي المتوسط والمحيط الأطلسي ودورهم في دعم عمليات الجهاد البحري المغربية.

1-3 الحضور العثماني في الحوض الغربي للمتوسط والأطلسي في الربع الأول من القرن 16م:

ما هو معروف أن التاريخ العثماني في مملكة المغرب العربي، والحوض الغربي للمتوسط والأطلسي كان منذ بداية الربع الثاني من القرن السادس عشر، وبالضبط تاريخ التحاق إيالة الجزائر بالخلافة العثمانية، وكذلك البداية الفعلية للحروب البحرية بين الخلافة العثمانية، ومملكة البرتغال في المحيط الهندي، في حين أن الفترة التي سبقتها ظلت مجهولة غائبة عن كتابات المؤرخين، ولعلّ السبب في ذلك قلة المصادر التاريخية التي تثري هذا الموضوع.

إن التواصل العثماني مع دول أو ممالك حوض المتوسط الغربي يرجع إلى القرن 15 تاريخ بزوغ نجم العثمانيين بعد 1453، وكذلك بداية التوجه نحو بلاد المغرب، حيث تشير بعض الكتابات أن الوجود العثماني البحري في سواحل المغرب العربي المطلة على البحر المتوسط، قد سبق الوجود العثماني في المشرق ومصر²، فلإشارة الكثير من الكتابات التاريخية ربطت الوجود العثماني في المتوسط بمجئ ونشاط الإخوة بربروس³ بجزيرة جربة سنة 1512 غير أن النشاط البحري الفعلي موجود قبل ذلك التاريخ.

فالكتابات التاريخية العثمانية تشير إلى أن جربة كانت مقصد البحارة العثمانيين قبل تاريخ 1512، حيث تردد عليها البحار العثماني كمال ريس مرات عديدة، وقد كان كمال ريس توفي قبل أن تتطأ أقدام

¹ بوشرب، قرصنة المحيط الأطلسي، د ط، مطبعة أوقاد، المغرب، 1998، ص 07.

² فاروق عثمان أباضاً، أثر تحول التجارة العالمية على مصر وعالم البحر المتوسط الشمالية، ط5، دار المعارف، مصر، د ت، ص 136.

³ في مطلع القرن 16م ظهر الإخوة بربروس في البحر الأبيض المتوسط وهم: إسحاق، إلياس، خير الدين وعروج، وهذين الأخيرين اشتهرا أكثر بغزواتهما الجهادية ضد الإسبان، تعود أصولهم إلى جزيرة ميدللي باليونان، حيث كان أبوهما عاملاً في الجيش العثماني، كان لهما الفضل في طرد الإسبان من السواحل الجزائرية، وتأسيس ولاية الجزائر العثمانية للمزيد ينظر: طاهر تومي، "العلاقات الجزائرية الإسبانية مابين القرنين السادس عشر والثامن عشر على ضوء المصادر المحلية"، أطروحة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2015، ص29.

عروج الجزيرة بسنتين ونصف، وكان للبحارة الذين ذهبوا معه الدور الكبير في مجيء عروج إلى جربة¹، فكمال ريس قدم إلى جربة حسب بعض الباحثين سنة 1505 وظل يستخدم موانئ أخرى في المنطقة كميناء عنابة²، وانطلاقاً من هذا نستخلص بدايات الحضور العثماني ودوره في المتوسط، وخاصة في حوضه الغربي الذي كان يشهد صرحاً مطرداً، فكلما زاد العثمانيون الضغط في أوروبا الشرقية زاد الضغط على منطقة الشمال الإفريقي.

كما يجدر التنويه أيضاً إلى أن المصادر المغربية حفظت جزء من الروابط السياسية بين المغرب الأقصى والخلافة العثمانية من خلال سفارة السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني إلى العاصمة العثمانية في النصف الثاني من عام 857هـ/1453م³، ففي هذه الفترة تزايدت السفارات القادمة من الحوض الغربي للمتوسط وخاصة من الأندلس، في سبيل كسب دعم الدولة في حربهم ضد الصليبيين، وما هو معلوم أن الطلائع العثمانية للحوض الغربي للمتوسط كان هدفها الأول هو الجهاد البحري سواء من خلال دعم وانقاذ أهالي الأندلس، أو دعم الإمارات البحرية المغربية في المتوسط والأطلسي فالاستطلاعات والبعثات البحرية كانت تتم بصفة رسمية وبأوامر مباشرة بالسلطان العثماني⁴.

ومن الرياس الذين يشهد لهم التاريخ بغزواتهم البحرية في الحوض الغربي للمتوسط الريس طرغوث⁵ الذي قام بغزوات عظيمة في الجهة الغربية مثل خير الدين بربروس، وانظم رفقة أصدقائه المشهورين

¹ يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، مراجعة محمود الأنصاري، ج1، ط2، منشورات مؤسسة فيصل، تركيا، 1988، ص 244.

² نسبية عبد العزيز عبد الله الحاج علاوي، "النشاط البحري لكمال ريس 1451-1511"، مجلة كلية أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد 14، العدد 01، 2017، ص 410.

³ التازي، مرجع سابق، ص 266.

⁴ نسبية عبد العزيز، مرجع سابق، ص 404.

⁵ هو قائد وبحار عثماني عينه السلطان سليمان حاكماً على ولاية طرابلس الغرب سنة 1556م، قام بتوطيد الحكم العثماني في الولاية، شارك إلى جانب الأسطول العثماني في عدة معارك بحرية جهادية ضد الإسبان وحلفائهم منها صده للحملة الإسبانية على طرابلس سنة 1560، وشارك في حصار مالطا سنة 1565 أين يسقط شهيداً في ذات المعركة. راجع: وليد خالد يوسف، "الأوضاع العامة في ولاية طرابلس الغرب تحت حكم الولاة العثمانيين البكريكية 1551-1606"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، م21، ع01، سنة 2014، العراق، ص 190. (ص 177-212).

أمثال غازي مصطفى، وأولوج علي وحسن كولة¹، ويجب الإشارة إلى أن غزوات طرغوث ريس كانت بصفة أحادية قبل الانضمام للدولة العثمانية، وتشير المصادر العثمانية كذلك إلى أنه من الممكن أن يكون قد شوهد بعض الرياس الأتراك في المياه المغربية قبل آل بربرسا من أمثال الريس بوراق والريس كورت أوغلو مصلح الدين، والريس سنان، والريس بييري والريس كمال سنة 900 هـ / 1494 م، إضافة إلى هؤلاء فهناك بعض الأبطال من أدوا دورا بارزا في تلك المنطقة، لم نتمكن من التعرف عليهم².

كما يوجد مصدر تاريخي عثماني غاية في الأهمية وهو كتاب البحرية لمحي الدين بييري ريس³ الذي يقدم وصفا دقيقا لسواحل الحوض الغربي للمتوسط والأطلسي فمن خلال خرائطه نستخلص عدة أمور أهمها:

- الموقع الجيو سياسي المهم لمملكة المغرب الأقصى من خلال إطلالها على المتوسط والأطلسي يسهل عملية مراقبة الملاحة.
- تكشف الخرائط مراكز تحصن البرتغاليين في حصون سبتة ومليلة وتحديد أهم القلاع مثل سبتة وتطوان.
- التضاريس الساحلية لبلاد المغرب الأقصى واحتواءها على مقومات التجارة والدفاع، وكذلك صناعة السفن.
- طول مساحة السواحل وقربها من بلاد الأندلس وإطلالها على مضيق بوغاز (جبل طارق).
- توفرها على المجاري المائية التي تربط الساحل بالمناطق الداخلية كنهر تطوان والأنهار الأخرى التي تصب في الأندلس.

¹ حاجي خليفة، تحفة الكبار في أسفار البحار، ترجمة محمد حرب، تسنيم حرب، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، 2006، ص 132.

² عزيز سامح إتر، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تر محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، لبنان، 1989، ص 39.

³ محي الدين بييري ريس، البحرية، طبعة بالعثمانية، ص 531.

وانطلاقاً من ذلك نستطيع القول أن حملات الدولة العثمانية لإنقاذ أهالي الأندلس حملت في طياتها نوع من الاستطلاع للمنطقة باعتبارها كانت مجهولة مقارنة بالشرق، وذلك لبعدها الجغرافي عن مقر الخلافة العثمانية، ومع بداية الثلث الأول من القرن 16 وبالتحديد سنة 1512 تاريخ مجيء خير الدين بربروسا إلى جزيرة جربة، ازداد حجم النشاط العثماني في الحوض الغربي وذلك توافقا مع نشاط الأمير العثماني قورقود¹.

فمجيء خيرالدين إلى جربة كان بناء على طلب الشهرزاده قورقود: " جاء أروج إلى مانيسا واجتمع بالسلطان قورقود، وتسلم منه سفينتين حربيين كهديّة حيث كان قورقود يفكر في تأسيس أسطول قرصنة (الصاعقة البحريين) وعندما مثل عروج عند الشهر زادة ليشكره سأله عن سبب عدم ذهابه إلى غرب البحر الأبيض المتوسط ، وأخبره أن المسيحيين هناك يستولون على المسلمين، وأوصاه بالذهاب ومشاهدة الوضع شخصياً"²، فما هو معروف عن السلطان قورقود أنه كان حامياً كبيراً للبحارة الأتراك البحرية وصاعقة البحر إلا أنه كان محدود القوة أمام القوة الانكشارية³. ومن هذا يتبين أن مجيء الإخوة بربروسا كان ضمن نطاق رسمي في إطار مشروع بحري استراتيجي.

وبعد الأزمة التي حدثت بين قورقود وأخوه السلطان سليم (1470-1520)، وما رافقها من أحداث "اضطر عروج بربروسا إلى تحميل سفينة بالقمح واتجه إلى سواحل المغرب....ولدى وصوله إلى ولاية المغرب قام بتبديل قمحه بالمأكولات والجواري ومن ثم اتجه إلى بروزة prevze وباع حمولة سفينته هناك"⁴، ليستمر نشاط بربروسا في المتوسط من خلال التجارة في بادئ الأمر حيث تشير الكتابات إلى

¹ هو الشهرزاده قورقود ابن السلطان بايزيد الثاني وأخو السلطان سليم الأول (1470-1520) كان أميراً على أنطاليا وأثناء تولية السلطان سليم قام بإعدام أخوته وبنائهم ومن بينهم الأمير قورقود، ولم يبقى سوى ابنه سليمان لينفرد بالحكم سنة 1512 للمزيد أنظر: عبد الرحيم عبد الرحمان، الدولة العثمانية، د ط، دار الفكر العربي، مصر، 2006، ص 34. عثمان نوري طوباش، العثمانيون رجالهم العظام ومؤسستهم الشامخة، ترجمة محمد حرب، مراجعة وتصحيح أحمد أوقوش، اسطنبول، 2016، ص 172.

² أوزوتونا، مرجع سابق، ص 243.

³ نفسه، ص 208.

⁴ إلتز، مرجع سابق، ص 35.

أن خير الدين سابقا " قد اشترى سفينة أخرى فأرسلها إلى جربة محملة بالأخشاب والمجاديف"¹، ومن خلال هذا يتضح أن خير الدين ربما كان يبيع المجاديف لأصحاب السفن، وممكن أنه يكون قد تواصل مع المجاهدين المغاربة في الثغور الشمالية للمتوسط الذين كان جلهم من الأندلس يجاهدون في الحوض الغربي.

وعن النشاط الجهادي الذي قام به البحارة العثمانيون في إطار سعي الخلافة العثمانية لنجدة مسلمي الأندلس "ربط هؤلاء اتصالات مع الأندلس بمختلف الأشكال لتقديم العون لهم وهكذا سوف يجري تكليف رسول عثماني بتنسيق الاتصالات والعمليات بين إسبانيا وشمال إفريقيا وإسطنبول"². ومن أشهر الحملات الجهادية العثمانية في ذلك الإطار حملة بييري ريس لإنقاذ مسلمي الأندلس وما صاحبها من تخطيط استكشافي، وكذلك نشاط كورت أوغلو في تونس حيث قاوم محاولات الفرنسيين لغزو تونس ليقوم بعدها بإرسال هدايا كثيرة للسلطان العثماني سليم الأول بعد فتحه لمصر 1517 عارضا عليه الخضوع لخدمته³.

أما فيما يخص نشاط الإخوة بربروسا في غرب المتوسط فقد كان مميزا جدا من خلال المحطات التي يذكرها التاريخ حيث جاء في مذكرات خير الدين الكثير من تلك المغامرات الجهادية، ففي ربيع 1514 السنة التي فشل فيها آل بربروسا في فتح بجاية خرج بحملة بحرية جهادية مكونة من 08 مراكب، حيث وصلت هذه المراكب إلى سواحل الأندلس حيث كانت المدينة الإسلامية غرناطة قد سقطت تقريبا بيد الإسبان⁴، كما قام الأخوان بحملة أخرى على سواحل الأندلس جاء ذكرها كالتالي: "وعندما كنا في سواحل المرية almeriyya لاحت لنا سبعة سفن للكمفار فلحقنا بإحداها واستولينا عليها... ومن هناك توجهنا إلى جزيرة مينورغا minorka حيث دخلنا إلى خليج صغير كان قد مضى على خروجنا من

¹ إلتز، مرجع سابق، ص36.

² روبرير مانتيان، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ج1، ط1، دار الفكر للدراسات، مصر، 1993، ص550.

³ خليفة، مصدر سابق، 88.

⁴ خير الدين بربروس: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، شركة الأصالة للنشر، ط01، الجزائر، 2010، ص54.

تونس خمسون أو ستون يوماً¹، ومن مشاهير البحر آنذاك الذين ذكرهم صاحب المذكرات بقوله: "كان معي أخي الكبير إسحاق ريس، ومصالح الدين ريس، وكورد أوغلو ريس ودلي محمد ريس وغيرهم من مشاهير البحر"²، حيث كان يطلق على هؤلاء لافنت levent باللغة التركية³، وقد استعمله المؤرخون والباحثون في التاريخ العثماني في كتاباتهم تمييزاً عن غيره من الرتب⁴.

وفي ضل هذا النشاط العثماني سواء الرسمي الممثل في الحملات التي كان يرسلها السلطان العثماني، أو غير الرسمي التي كانت من مبادرات فردية جهادية، نتساءل عن علاقة هؤلاء البحارة واحتكاكهم مع امارات ودول الحوض الغربي، وهل كانت لهم نشاطات بحرية في الأطلسي؟.

"المعطيات التاريخية وإن كانت قليلة تعطي إجابة عن ذلك وحيث تحفظ لنا حملة سنان ريس سنة 1514 التي تمكن خلالها من التوغل في مضيق جبل طارق رفقة تسعة قطع بحرية حيث أغارت على السواحل الجنوبية لإسبانيا وقام بإنقاذ ثمانمائة أندلسي، حملهم جميعاً في سفنه وقدم بهم إلى الجزائر"⁵.

المحطة الثانية التي تشير إلى النشاط العثماني في الأطلسي هي حملة أيدين ريس aydin reis حيث يقول صاحب المذكرات: «غادر أيدين ريس مرسى الجزائر بعشرة سفن، وتوغل في غرب البحر الأبيض المتوسط، كما أمرته حتى بلغ مضيق سبتة فصادف في طريقه خمس قطع بحرية عملاقة من نوع قادرغة...ومن جهة أخرى استمر أيدين ريس في الإغارة على المدن والبلدات المطلة على الساحل الجنوبي لإسبانيا وقصفها»⁶. وانطلاقاً من ذلك يتضح لنا أن السياسة العثمانية قبل 1520 تاريخ انضمام انضمام الجزائر للباب العالي في الحوض الغربي للمتوسط كانت جهادية خالصة، ولم تكن مبنية على الاستقرار والتوسع.

¹ مذكرات خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص55.

² نفسه، ص75.

³ تسمى بقوات اللوند أو المشاركة في الأصل أطلقت على البحارة المشرقيين المستخدمين في أسطول البندقية، وقد أخذ العثمانيون هذه التسمية وأطلقوها على بحارتهم الأوائل. ينظر: نسيبة عبد العزيز، مرجع سابق، ص417.

⁴ مذكرات خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص75.

⁵ نفسه، ص125.

⁶ نفسه، ص140.

وما يؤكد النشاط العثماني في الأطلسي حملة ايدين ريس الثانية: "كنت أريد أندريا دوريا، ولتحقيق ذلك بعثت أيدين ريس على رأس أسطول كبير، وأمرته أن يتعقب أندريا دوريا فخرج أيدين ريس بأسطوله حتى بلغ سبتة وتوغل في سواحل العدو إلى أن أتى جبل طارق، ومن هناك عبره إلى المحيط الأطلسي إلا أنه لم يقف على أثر العدو"¹، وبذلك يتبين أن التوغل العثماني في غرب المتوسط لم تكن وليدة انضمام الجزائر للباب العالي بل سبقتها سنوات، والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف كانت صلات العثمانيين مع أمراء الضفة الجنوبية لغرب المتوسط، وخاصة المغاربة الذين كانوا في نفس اتجاه العثمانيين في الجهاد ضد العدو الإسباني والبرتغالي؟.

للإجابة على هذا التساؤل تحفظ لنا بعض الكتابات ولو الشيء القليل من المعطيات، فالمؤرخ المغربي محمد حجي يعترف بدور الأخوة بربروسا في نصرته أهالي شمال إفريقيا بقوله: "لذلك اعتبر وصول الأخوين التركيين عروج وخير الدين بأسطولهما البحري الجهادي إلى جزيرة جربة بارقة أمل للأفارقة الشماليين...وأخذ هذا الأمل يقوى كلما انتصر هذا الأسطول على المسيحيين أو هاجمهم في الثغور المحتلة، فحاصره واستنزله من حصونهم أذلاء أسراء"².

ومن ذلك يتضح أن البحارة العثمانيين خففوا من ضغط المسيحيين على سواحل المغرب العربي وربطوا اتصالات فعلية مع كل أقطار المغرب العربي ومن بينها المغرب الأقصى، وتعد إشارة الإخباري البرتغالي لويس دو سوزا Louis Dosouza إلى الحروب البحرية بين مجاهدي مدينتي سلا والعرائش والأسطول البرتغالي الذي كان يراقب المضيق مهمة جدا، فما هو معلوم حسبه أن إرسال ذلك الأسطول إلى تلك المناطق كان نتيجة مباشرة لتزايد النشاط الجهادي المغربي والتركي³، فعمليات الجهاد البحري في سواحل المغرب الأقصى "أطرها وأشرف عليها قواد المدن الساحلية الحرة كتطوان وبادس قبل احتلالها سنة 1508 والعرائش وسلا، واعتمد هؤلاء القواد على بحارة مغاربة وأتراك وعلوج"⁴، ولتأكيد التعاون العثماني المغربي في ميدان الجهاد نستكشف أهم العمليات الجهادية البحرية المشتركة بين الجانبين.

¹ مذكرات خير الدين، مصدر سابق، ص152.

² محمد حجي، "العلاقات المغربية التركية"، مجلة المناهل، العدد25، 1978، ص 08.(ص07-ص22).

³ بوشرب، (قراصنة المحيط...)، مرجع سابق، ص05.

⁴ بوشرب، (دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي..)، مرجع سابق، ص96.

فالإخباري دوسوزا يقول أن صيادا من أصيلة التجأ إلى مدينة القصر الكبير وأسلم هناك أصبح يتراأس مراكب تحمل بحارة من مغاربة وأتراك لمهاجمة الجنوب البرتغالي ومنطقة الأندلس المحتلة، حيث استطاع أن يغنم ويأسر الكثير، فقد نزل يوما بمدينة فارو على رأس أسطول مكون من سفينتين جزائريتين أخرى من بادس ومركب من تطوان فضلا عن سفينة من العرائش على متنها مائة بحار¹، ومن ذلك نستشف أن العلاقات العثمانية مع المجاهدين المغاربة كانت تمثل جزء مهما في الاستراتيجية العثمانية العامة في صراعها مع القوى الإيبيرية خصوصا وأن المغرب الأقصى كان يتوفر على موانئ صخرية وحصون دفاعية طبيعية قوية جداً وهو ما أدى إلى صمود حركة الجهاد البحري في المنطقة رغم قربها من مركز النقل الحربي للقوى الإيبيرية، وهو ما سيوجه السياسة العثمانية للمنطقة لاحقا.

فمدينة سلا والعرائش وتطوان أصبحوا مركز قرصنة نشطة، وأصبحت محج السفن والمراكب التركية حسب وصف البرتغالي دوسوزا الذي سرعان ما نقلت بدورها عملياتها إلى المحيط، فقد اتخذ قرصنة الجزائر من العرائش أولا ثم من سلا فيما بعد مركز للتزويد بالمؤن، والاحتفاء فيها في حال مطاردة الأساطيل الأوربية لها²، ومن هذا المنطلق نستخلص حجم الحضور العثماني في حوض الغربي للمتوسط والأطلسي وعلاقته بالمجاهدين المغاربة، ومعه تتضح أهمية المغرب الأقصى في الصراع الحضاري بين الشرق والغرب.

2- الحضور العثماني في مملكة المغرب الأقصى ومظاهره خلال النصف الأول من القرن 16م "سياسة الاختراق"

2-1 الحضور العسكري العثماني في المغرب ومظاهره:

بعد انضمام إيالة الجزائر بصفة رسمية وأصبحت قاعدة خلفية للجيش العثماني سعى من ورائها الخلافة العثمانية إلى توسيع حضورها في المناطق المغاربية الأخرى، ومنها المغرب الأقصى الذي كان يشهد حركة جهادية شرسة ضد القوى الإيبيرية بقيادة الأشراف السعديين المنتشرين بنسبهم الشرف، والتفاف الطرق الصوفية حولهم، لذلك كان أمر إخضاعهم تحت المظلة العثمانية أمر جد صعب، لذلك لزم عليها

¹ بوشرب، (دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي..)، مرجع سابق، ص96.

² بوشرب، (قرصنة المحيط...)، مرجع سابق، ص07.

تغيير استراتيجيتها من الهيمنة المباشرة سواء بالقوة أم بالنفوذ إلى استراتيجية أكثر ليونة وفعالية، وهي ما يسمى باستراتيجية الاختراق الصامت، والتي مست بعض الجوانب المهمة لمملكة المغرب الأقصى.

الاختراق العسكري: يعتبر الاختراق العسكري من المهمات الأساسية للدول الكبرى نفوذها على الدول الأقل منها، فالدولة العثمانية سعت إلى استعمال هذا النوع من الاستراتيجيات في المناطق ذات الخصوصيات الدينية والسياسية كحال مملكة المغرب الأقصى، فجهودها أو مخططاتها كانت على شقين رسمية وغير رسمية، والذي نستقيه من خلال بعض الإشارات التاريخية لمصادر شاهدهت الحادث آنذاك وخاصة الأجنبية كصاحب كتاب تاريخ الشرفاء ديبغو طوريس، وكذلك صاحب كتاب إفريقيا لمارمول كريخال إضافة لمصادر عربية أخرى.

2-1-أ: الاختراق العسكري غير الرسمي: إن مصطلح اختراق تبدو مبهمة في دراسة طبيعة الاستراتيجية العثمانية اتجاه المغرب الأقصى، والأكثر إبهاما مصطلح غير الرسمي، الذي لم يشر إليه الباحثين في دراستهم لموضوع العلاقات العثمانية المغربية بصفة شاملة، وذلك لقلّة المصادر التاريخية من جهة، وكذلك عدم وجود دراسات حديثة خاصة بهذا الموضوع.

وبدون إطالة ندخل في حيثيات هذا الموضوع بصفة تحليلية بسيطة، في محاولة لإثارة الدراسات حول هذا الجانب، فما هو معروف أن استخدام واستخدام العناصر الأجنبية في الجيش هو تقليد عالمي فأكبر الجيوش استعانت بهؤلاء المستفيدين واستفادت من خبراتهم، فالمغرب الأقصى كغيره من هاته الأمم سعى إلى استخدام عناصر أجنبية إلى صفوف جيشه سواء في العهد الوطاسي أم العهد السعودي، وما يهمننا أكثر هو استخدام العنصر العثماني.

إن تتبع مسار استخدام هؤلاء الجنود وتوقيتته يكشف أن الأمر لم يكن خارج سيطرة الخلافة العثمانية سواء من قريب أو من بعيد، ويكشف أن الأمر لم يكن عفويا، فالمعطيات التاريخية تشير إلى أن الوطاسيين ربما كانوا أول من استعان بهم، حيث يقدم مارمول إحصائيات عن حجم هذا الوجود حيث يقول: "كانت قوات الوطاسيين تتكون من 30 ألف فارس وهم خير ما في المملكة من فرسان فاس وبلش،

غمارة، دبدو، ومن العرب ومعهم ثمانمائة من الرماة الأتراك أو مسلمي العلوج تحت قيادة ضابط أصله فارسي (اسمه سفيان) قدم من الجزائر ومعه 400 من الأتراك¹.

يجب التذكير هنا أن هذه الإحصائيات قدمها مارمول أثناء حثيات المعركة القائمة بين الوطاسين والسعديين سنة 1545 والمسماة بمعركة أم العبيد، حيث نجده في المقابل يقدم إحصائيات عن عدد الجنود الأجانب، وخاصة العثمانيين في جيش السعديين حيث يقول: "أما محمد (محمد الشيخ) فقد كان له 18 ألف فارس، و 300 من الرماة الأتراك وأكثر من ألف من البندقيين العلوج وغيرهم"².

ومن هذا المنطلق نلاحظ أن هؤلاء المستقدمين لم يكونوا حديثي عهد في كلا الجانبين، وحتى تاريخ 1545 كان هؤلاء مجندين، وبالتالي يكون قدومهم قبل هذا التاريخ، فكما هو معلوم أن الدولة المرينية استعانت بالجنود الأجانب في حروبها ومن بينهم العنصر التركي حيث كان من بين فرق جيشها فرقة تسمى الأغزاز مكونة من 1500 فارس تركي³، لذلك نستخلص أن استقدام العنصر التركي رغم اختلاف جنسيته (ماليك أو عثمانيين) كان سنة متوارثة في الجيوش المغربية، كما نستخلص من أقوال مارمول مسار هؤلاء المستفيدين أي طرق قدومهم وبذلك تتضح المعالم أو الرؤى حول دور الدولة العثمانية ومخططها ولو بصفة غير مباشرة، فمن الصعب قدوم فرقة عسكرية من الجزائر اتجاه المغرب الأقصى مكونة من 400 جندي بصفة عادية، دون وجود ترتيبات مسبقة ومخطط لها.

ولتحديد تاريخ بداية قدوم هؤلاء نستطلع كتاب تاريخ الشرفاء لدييغو طوريس الذي يقدم لنا لمحة عن ذلك، حيث يقول عن حصار محمد الشيخ السعدي لمدينة أسفي سنة 1539: "وفي هذه الأثناء حفر الإسلاميون والأتراك خندقا يمتد إلى الباب الواقع، قرب القصبة المطلة على الشرق، وهنا بنو أكواخا بأغصان الأشجار والطين، نصبوا أجبتهم، وأخذوا يقصفون المدينة بمدفيعتهم"⁴، أما المؤرخ المغربي أحمد

¹ مارمول كارخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، المغرب، 1984، ص 469.

² نفسه، ص 469.

³ عبد الحق المريني، الجيش المغربي عبر التاريخ، ط5، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1997، ص52.

⁴ ديغو طوريس، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، د ط، شركة النشر والتوزيع، المغرب، 1989، ص 86 .

بوشرب فله رأيه في الأمر بناء على دراسة أجراها المؤرخ البولوني زيوبينسكي Ziubinski اعتمادا على مصادر إسبانية، حيث يذكر أن استقدام هؤلاء كان بطلب سعدي رسمي من الدولة العثمانية، ويحدد سنة 1547 تاريخ توقيع الدولة العثمانية لمعاهدة السلم مع هنغاريا، التي تم بموجبها تسريح لآلاف البحارة والمهندسين حسب قوله بداية لاستقدامهم¹، ويؤيده الباحث المغربي المصطفى نشوي في ذلك بقوله: "أن السلطان العثماني أصدر فرمان يقضي بالسماح للمجاهدين في الشرق وخاصة الأتراك بالتوجه إلى شمال أفريقيا لمساعدة المغاربة"²، ويسايرهم المؤرخ الجزائري عمار بن خروف في ذلك أيضا³.

لكن طرح هؤلاء يواجهه غياب المستندات الأرشيفية فمصدر معلوماتهم من المصادر الإسبانية المبنية على تكهنات استخباراتية، ومن خلال عملية البحث يظهر أن الدولة العثمانية حقيقة وقعت المعاهدة للتفرغ لحرب الدولة الصفوية، كما نلاحظ في تلك الفترة اشتداد ضراوة الصراع العثماني البرتغالي في المحيط الهندي، وكذلك اشتداد التضيق العثماني على الأوروبيين في المتوسط⁴، وبذلك نتساءل ما لداعي لأن ترسل أو تسرح الدولة العثمانية مهندسيها في فترة حرجة؟.

وعليه وانطلاقا من إشارات تاريخية في مصادر عثمانية ومغربية نحاول إعطاء وجهة نظر أخرى حول طرق وعمليات تجنيدهم:

1- كانوا من المضطهدين في بلادهم فالمغرب الأقصى في تلك الفترة أصبح ملاذا للمضطهدين سواء من طرف المسيحيين أو العثمانيين ودخل المغرب في هاته الفترة أقواما كثيرين أفرادا وجماعات⁵، لذلك يمكن القول أن المجندين العثمانيين في صفوف الجيش المغربي، ربما يكونوا ممن كانت لهم سوابق عدلية في أقطارهم التابعة للدولة العثمانية لذلك فروا إلى المغرب.

¹ بوشرب، (دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي..)، مرجع سابق، ص 98.

² النشوي، مرجع سابق، ص 09.

³ عمار بن خروف، "العلاقات بين الجزائر والمغرب (923-1069هـ/1517-1659م)"، أطروحة لنيل شهادة

الماجستير في التاريخ، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، 1983، ص 145.

⁴ أوزوتونا، مرجع سابق، ص 283.

⁵ رزوق، مرجع سابق، ص 79.

2- كانوا بحارة قدموا الى سلا والعرائش في اطار عمليات الجهاد البحري التي كانت تقوم بها بعض الامارات الساحلية في المغرب الاقصى، فالتاريخ يحفظ أن الست الحرة قائدة تطوان التي خلفت زوجها علي المنظري وظفتهم في اطار ذلك فالسيدة الحرة كانت تحرس ثغور تطوان وتنظم عمليات الحصار على سبتة لذلك كانت في حاجة دائمة لخبرات هؤلاء البحارة¹، فوثيقة محاكمة علج جنوي الأصل سنة 1550 من طرف محكمة التفتيش البرتغالية تظهر أن هذا العلج المدعو مامي كانت العرائش منطلق لعملياته الجهادية تحت علم العثمانيين وتشير إلى أن السفن الجهادية في سلا لم تكن لقائد سلا بل كانت لبحارة ومجاهدين علوج وأتراك حسب ما جاء في الوثيقة²، وبالتالي عملية تجنيدهم من هذا الجانب احدى أوجه التجنيد.

3- كانوا من المغامرين الذين يريدون المال فالمؤرخ عزيز سامح التر ومن خلال كتاب دوغرامون يقول أن الإنكشارية القادمين إلى بلاد المغرب كان جلهم ممن يسعون إلى المال والشهرة³، وللتأكد من ذلك نستطلع كتاب مذكرات خير الدين الذي يعطي إشارة حول ذلك حيث صرح أنه لما تمرد ابن القاضي عليه واستولى على مدينة الجزائر بعد خروجه هو منها انظم إليه بعض الجنود الذين كانوا في صفه القادمين من الأناضول⁴.

ويقدم لنا الباحث والمؤرخ المغربي محمد نبيل ملين في كتابه الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب لمحة عن طرق قدومهم وهي تتمثل في ثلاثة طرق:

أولاً: عن طريق المعارك حيث يتم أسرهم وإدخالهم للإسلام (ليس طوعاً) واستخدامهم في الجيش، ويقصد الباحث هنا المعارك الجهادية ضد الإيبيريين (الأعلاج).

ثانياً: عن طريق هجمات المجاهدين على الثغور الأولى.

ثالثاً: عن طريق الشراء بالأغلبية العظمى كما يقول من العلوج تم شراؤهم ويقدم مثالا لذلك ففي عهد أحمد المنصور الذي كان يستقدم العلوج بفضل وساطة التجار المسلمين واليهود حيث كانوا يستقدمونهم من

¹ المريني، مرجع سابق، ص 57.

² بوشرب، (قراصنة المحيط الأطلسي)، ص 08.

³ التر، مرجع سابق، ص 133.

⁴ مذكرات خير الدين، مصدر سابق، ص 130.

مواطنهم الأصلية وهم صغار¹. وانطلاقاً من هذا نؤيد قول المؤرخين نبيل ملين وأحمد بوشرب أن الرواتب المغربية كانت سبباً لقدم بعضهم، ونؤيد كذلك سامح التر في رأيه؛ ولكن بصفة محدودة وليست عامة تنطبق على كل المجندين، كما نؤكد على وجهة نظرنا حول أن الجهاد أهم عامل لقدمهم باعتبارهم مسلمين.

ولاكتشاف حجمهم ووزنهم داخل الجيش المغربي وبالأخص السعودي آنذاك نستطلع تصريحات البرتغاليين الغزاة آنذاك حول الأمر حيث يقول المؤرخ المغربي أحمد بوشرب: "خصوصاً أن كثرة المرتزقة في جيشهم جعلته (الملك البرتغالي)، وجعلت كثيراً من البرتغاليين يظنون أنه متحالف مع الخليفة العثماني"، ويقول في موضع آخر: "سفارة البرتغال إلى الإمبراطور الإسباني شارل الخامس كانت على رأسها إحدى الشخصيات الكبرى في البلاد، وكانت مهمتها هي التنبه إلى خطورة الشرفاء على إسبانيا نظراً لتحالفهم مع الأتراك"²، ويتراءى من تصريحات الملك البرتغالي وقادته حجم تواجد العنصر العثماني الذي يسمى في المصادر الأجنبية كما رمول وطورس، وبعض الدراسات التاريخية العربية بالمرتزقة وهي تسمية لا يجوز إطلاقها على هؤلاء فهم أولاً كانوا مسلمين وكانوا كذلك في جهاد ضد عدو مشترك والدليل على ذلك أن العباسيين استقدموهم وأدخلوهم الإسلام وعملوا في الجيش وفي حمايتهم الشخصية بأجور وارثى بعضهم إلى مراتب القيادة في دولة الخلافة الإسلامية³.

ومن هذا كذلك يتضح أن هذا التواجد لهؤلاء كان مدروساً من الخلافة العثمانية في استراتيجية لاختراق المنطقة والتحكم في الأوضاع بعد ذلك، وذلك نظراً لقوة تموقع هؤلاء المستقدمين في قيادة الجيش السعودي، حيث نجد محمد الشيخ قد استعملهم في حراسته الشخصية.

ولتأكيد هذا الرأي نستدل بحادثة استناد الدولة العثمانية على هؤلاء أثناء قيامها بتصفية محمد الشيخ السعودي، حيث كان لهم دور كبير في ذلك حيث يقول صاحب كتاب الروضة السليمانية أبو القاسم الزياتي: "أنه لما قدم الجنود المبعوثين من الجزائر استقبلهم محمد الشيخ، وكانوا قواماً في البنية، واعتقد

¹ محمد نبيل ملين، السلطان الشريف الجنور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، تر عبد الحق، عامر بن عبد الله الزموري، د ط، مطبعة الكوثر، المغرب، 2013، ص 294.

² أحمد بوشرب، (دكالة والاستعمار البرتغالي الى سنة اخلاء آسفي وازمور...)، مرجع سابق، ص 395.

³ أوزوتونا، مرجع سابق، ص 283.

محمد الشيخ، أنه حصل على ملك الجزائر، وأمر بأن يكرمهم، وأمدهم بالخيول والسلاح، وكانوا يدخلون معه كلما دخل فكانوا يدخلون مع الكاهية كل صباح لتقبيل يد الشيخ كعادة الأتراك، كما أمر الشيخ بإكرام من قدم عليهم، وكان يوجه معهم من يدلهم على الطريق لوقت الحاجة، وكان الكاهية وقتئذ يتحين الفرصة، ولما دخل يوما على الشيخ، وتمكن من اقتناص فرصة وجاء الثاني والثالث وضربوه¹.

في هذا الصدد نستخلص الأمور التالية: أولاً طريقة قدوم هؤلاء الجنود كانت الدولة العثمانية على علم بها، وكانت محل مراقبة، وإلا كيف يتم تسيير هذه الخطة بدون معرفة المسلك وطريقة الوصول إلى شخص محمد الشيخ، وكذلك الفرار بعدها، ثانياً الدولة العثمانية ممثلة في قادة إيلاتها في الجزائر كانوا على اتصال مع الأتراك المجندين في الجيش السعودي، وإلا فكيف يفكرون في تصفية محمد الشيخ بهذه الطريقة الصامتة والهادئة، فالبلط السعدي كان مكشوفاً لحكام الجزائر، وبالتالي استقدام الجيش السعودي لهؤلاء كان مقصوداً من الخلافة العثمانية، وإلا كيف تسمح الدولة العثمانية بانضمام هذا الكم الهائل من الجنود للسعديين الذين كانوا يقاسمونهم الطموح والعداء، وللتدقيق أكثر في الموضوع نطلع على دور هؤلاء في الجيش المغربي وكذلك طرق استقدامهم والامتيازات الممنوعة لهم.

كان استقدام هؤلاء نظراً للمهارات التي كانوا يملكونها سواء في القتال أم في المهارات اليدوية كالصناعات وغيرها، وصيتهم حول ذلك ذاع حول العالم آنذاك، فما هو معروف أن العثمانيين تميزوا بصناعاتهم العسكرية وخاصة في مجال المدفعية، لذلك كانوا محل إعجاب من الأمم الأخرى، وسعوا إلى تقليدهم حيث صنعت آلات الحصار عامي 936هـ/1529م-948هـ/1541م تحت مراقبة أخصائيين أتراك حسب قول المؤرخ المغربي بنعبد الله².

وهو حال المغاربة كذلك الذين سعوا إلى امتلاك أسلحة ثقيلة لاستعمالها في جهادهم ضد الكفار يقول أحمد بوشرب: "وبتزايد الأسلحة النارية، تم الاعتماد على التقنيات العصرية، وتجنيب الأجانب من

¹ أبو القاسم الزباني، الروضة السليمانية في ذكر ملوك الدولة الاسماعيلية ومن تقدمها من الدول الاسلامية، مكتبة الملك عبد العزيز، المغرب مخطوط رقم 3033، ص 32.

² عبد العزيز بنعبد الله، " القوام العسكري في الحضارة المغربية"، مجلة المناهل، ج 12، المغرب، 1978، ص 168،

علوج وأتراك وغيرهم، والذين كانت تجذبهم الرواتب المرتفعة¹، إضافة لذلك مثل عنصر القوة والشجاعة والمهارة القتالية عامل جذب لاستقدامهم والأهم من ذلك كله حسب النظرة المغربية وهو عدم وجود عصبية لهم وبالتالي ضمان إخلاصهم².

هذا بصفة عامة عن العنصر الأجنبي في الجيش المغربي، فأما فيما يخص العنصر العثماني موضوع الدراسة، فقد كان قدومهم أكثر تنظيماً على شكل فرق عسكرية، وكانوا يدينون بالإسلام، وكانت أسباب قدومهم متعددة، أما عن طريق قدومهم، وبناء على ما سبق فهما طريقتان:

1- الطريق البرية: والذي كان تحت السيطرة العثمانية (إيالة الجزائر) حيث كانوا يأتون على شكل فرق منظمة تعرض خدماتها على المغاربة .

2- الطريق البحرية: هذا الطريق يمكن أن نستخلصه من كلام المؤرخ نبيل ملين حول أعمال الجهاد البحري الذي كان قائماً على السواحل الشمالية للمغرب الأقصى حيث يقول أن الاحتلال الأيبيري لسواحل المغرب نتج عنه حركة جهادية تسمى بالمقاومة الشعبية بقيادة أمراء حرب محليين يسمون «مقدمين» وبذلك أصبح الجهاد تجارة مريحة، مثل بيع الرقيق والطعام وغيرها مما أدى إلى إنشاء بعض الإمارات المحلية المختصة في الجهاد على غرار بني عروس والقصر الكبير³.

2-1-ب: الاختراق العسكري الرسمي:

سعت الدولة العثمانية في سياستها اتجاه المغرب الأقصى إلى اختراق المنطقة عسكرياً بشكل صامت وهادئ عبر السيطرة على قواعد عسكرية بحرية، مستغلة حالة الشغور البحري التي كانت آنذاك، حيث لم يعرف المغاربة منذ عهد الموحدين قوة بحرية تستطيع مجابهة الكفار الغزاة، عدا بعض الإمارات البحرية الصغيرة التي كانت تقوم بأعمال الجهاد البحرية كإمارة سلا وغيرها.

¹ بوشرب، (دكالة والاستعمار البرتغالي..)، مرجع سابق، ص 304.

² ملين، مرجع سابق، ص 292.

³ نفسه، ص 301.

فمحاولة السيطرة العثمانية على السواحل المغربية كانت في إطار الصراع الحضاري ضد القوة المسيحية الإيبيرية، وبالأخص مشروع أو عمليات الإنقاذ العثماني للمورسكيين¹، حيث سارع السلطان سليمان (1520-1566) بإرسال فرمان إلى خير الدين (1518-1531) يأمره بالدخول إلى اسطنبول للمشورة وعلى ضوء المقابلة أدرك السلطان جيدا خلفية وأهداف السياسة الإسبانية في المغرب، ووضع المورسكيين الدقيق، ووجوب العمل على تقوية الوجود العثماني في البحر المتوسط الغربي وهذا وفقا للاستراتيجية العسكرية التي يسعى خير الدين إلى تحقيقها وتنفيذها².

وفي إطار هذه المساعي كانت السفن العثمانية تقلع من إسطنبول ربيع كل سنة لتجوب البحر الأبيض المتوسط وخاصة غربه حيث تتمركز فيه أهم قوى عدوهم³، ويجب التذكير هنا أن السواحل المغربية الشمالية والغربية كانت تحت سيطرة القوى المسيحية (إسبانيا، البرتغال) حيث كانت أعمال القرصنة والتجارة صادرة عن إذنها باستثناء مدن الجهاد البحري كسلا وتطوان، ففي رسالة مؤرخة في 23 جمادى 920هـ/1514 بعث بها الملك الوطاسي أبو عبد الله محمد الملقب بالبرتغالي (1505-1526) إلى الملك البرتغالي دون مانويل ما يؤكد ذلك، حيث يطلب فيها السماح للوفد المغربي بالذهاب والسفر بحرا إلى الجزائر ومن هناك إلى تونس حيث كان طلبه كالتالي: "فمرادنا أن توصون خدامكم أن لا يتعدون عليه برا وبحرا من التقى به، أو ظهر من بلاد المشرقية هذا هو غرضنا"⁴، ومن هذا الطلب نستطيع أن نلخص الحالة العامة والوضع العام السيئ للمنطقة في النصف الأول من القرن 16م، وتجدر الإشارة أيضا أن المقصود من مصطلح الاختراق الرسمي أن القوات المخترقة "المحدودة" كانت تتلقى الأوامر مباشرة من الخلافة العثمانية عكس الاختراق غير الرسمي الذي كانت له أهداف بعيدة المدى.

¹ المورسكيين هم الذين وقع تنصيرهم جبرا بعد سقوط غرناطة فكانوا مسيحيون في الظاهر مسلمون في الباطن، وقد ظل تواجههم في إسبانيا مئة عام ونصف حتى تم طردهم بقرار ملكي عام 1018، وكلمة موريسكي تصغير لكلمة مورو الإسبانية، وهي كلمة أطلقها الإسبان على مسلمي الأندلس وتعني الاحتقار والذل والازدراء... أنظر: محمود شاكر محمود، "الشاعر الموريسكي مؤرخا"، مجلة كلية الآداب العدد 103، مصر، د ت، (ص 93-126).

² عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكين، ط 1، مطبعة باريس تونس، 1989، ص 16.

³ نفسه، ص 89.

⁴ فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ 930هـ-1134م/711هـ-1720م، ط 1، منشورات المجمع الثقافي، الامارات، 1957، ص 301.

ولتأكيد ذلك نستشهد بوثيقة محاكمة البحار الإسلامي (علج) المدعو مامي، والتي قام بتعريبها المؤرخ المغربي أحمد بوشرب فالمدعو مامي الذي كان في الأسر في الجزائر ثم أسلم وانتقل بعدها إلى حجر بادس سنة 1542 كما تشير إلى أن هذا العلج سخر خلال إقامته بالجزائر والمغرب في أنشطة ذات ارتباط بالبحر¹.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا البحار كان تحت خدمة بعض القادة البحريين في إيالة الجزائر كما ذكرنا سابقا وبالتالي يكون أمر مجيئه إلى المغرب مقصود ومنسق وذلك بعد ترتيبات مسبقة، ومنه تتضح طموحات الخلافة العثمانية على السواحل، كما تشير بعض الإشارات التاريخية في كتاب العلاقات الإنجليزية المغربية لبداية الاختراق العثماني الصامت عسكريا حيث نجد العثمانيون يسعون بكل ثمن إلى الحصول على موطأ قدم لهم في مملكة المغرب الأقصى، حيث قاموا سنة 1522 من طرد الإسبان من حصن بنون دي فليز دي لاجوميرا Benon de Filiz de La Gomera (حجر بادس)².

فالشواطئ المغربية التي كانت بها نشاطات الجهاد المغربي، كانت واجهة آمنة لسفن العثمانيين التي كانت تجاهد وترابط في شمال المتوسط حتى جبل طارق، حسب ما يذكر مارمول أنه خلال شهر سبتمبر 1540 غادرت ميناء الجزائر قوات بحرية تتألف من 16 بارجة فيها 1600 جندي تحت قيادة قارة مامي والقرصان على أحمد، قصد مهاجمة السفن الإسبانية، وبعد مرور الأيام وتوالي الأحداث رحلوا بعد انتهاء الغزوة إلى المغرب قاصدين تطوان، حيث باعوا في أسواقها غنائم وسباياهم، ثم توجهوا إلى بادس لتطهير سفنهم³.

ولحماية مصالحها في المتوسط وفي المنطقة، عملت الدولة العثمانية على اختراق الوضع بصفة صامتة وهادئة، فالمعطيات التاريخية تشير إلى أن بدايات الاختراق كان في العهد الوطاسي "فمنذ 1531

¹ أحمد بوشرب، "محاولات عودة المغاربة إلى البحر خلال النصف الأول من القرن السادس عشر نموذج بعض المبادرات الفردية من خلال محضرين لمحكمة التفتيش"، فصل من كتاب البحر في تاريخ المغرب، مراجعة عبد الجواد السقاط، سلسلة رقم 07، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، المغرب سنة 2013، ص 88.

² ب. ج. روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900، تر يونان لبيب رزق، ط1، دار الثقافة، المغرب، ص38.

³ مارمول، مصدر سابق، ص 500.

والتقارير تفيد بوجود قطع من أسطول خير الدين بربروسا في مينائي تطوان والعرائش، وبعد زمن قصير أثمر التعاون الوطاسي العثماني على استعادة مرسى غيساسة المتوسطي الذي كان بيد الإسبان ومحاصرة ثغر مليلة¹.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاختراق العثماني كان بصفة رسمية، كما أن التعاون العثماني الوطاسي حسب قول ملين السابق الذكر، كان في إطار التعاون الرسمي لمحاربة القوى الأيبيرية، ويبدو كذلك أن الخلافة العثمانية استغل حالة الضعف السياسي والعسكري للوطاسيين لإنجاح استراتيجيته خاصة في ظل النكالب المسيحي على المغرب الأقصى، والذي يتلخص عموما في قصيدة الشاعر جيل فنسنت Gil vicent البرتغالي لتشجيع المقاتلين البرتغاليين أثناء عملية غزو واحتلال أزموور سنة 1513م من قبل D.jaime دوق برافانكا Bravanka، والمتضمنة: الدعوة للموت في سبيل استرجاع إفريقيا المسيحية من المسلمين في زعمه، حيث أنشد قائلا:

ملك فاس، ملك فاس

كانت إفريقيا للمسيحيين².

وأمام عجز المغاربة عن مواجهة القرصنة البحرية الأيبيرية، وحمل راية الجهاد وذلك لافتقادهم لقوة بحرية، وبالتالي كان الوجود العثماني ضرورة لذلك "فأعمال القرصنة المنطلقة من العرائش وسلا من تدبير قرصنة أتراك وأندلسيين"³، فنشاط القرصنة في سلا يعود الى العقود الأولى من القرن 16 فقد كان في ملكية قائدها عدد من المراكب جل رؤسائها من الأتراك والعلوج⁴، وتبين من ذلك أن الاختراق العسكري الرسمي العثماني كان في أحيان عدة خارج نطاق السلطة الرسمية في المغرب، حيث كانت المدن البحرية المغربية تحت سيطرة الأندلسيين خاصة، والذين كانوا يسعون إلى ربط تعاونهم مع الأسطول العثماني فالعرائش وتطوان وبادس كانت وجهة البحارة العثمانيين وهو ما تشهد عليه الفترات اللاحقة.

¹ ملين، مرجع سابق ص 03.

² Antonio dias farinha, os portugueses em marrocos, tradutor bader youmis, yousef haranein, edicoinstitutu camos, bortugal, colle ccao lazuli, 1999 p25.

³ بوشرب، (محاولات عودة المغاربة للبحر..)، مرجع سابق، ص 27.

⁴ بوشرب، (قرصنة المحيط..)، مرجع سابق، ص 07.

إن عملية الاختراق الرسمي البحري الاستراتيجي هذه عرفت تزايد وتطورا ملحوظا خاصة في منتصف القرن 16م، أين بدأت ملاح هذه الاستراتيجية تتضح للعيان، فما هو ملاحظ لدى الباحثين والمهتمين بموضوع العلاقات العثمانية المغربية عامة هو أن الدولة العثمانية لم تولي عنايتها الكافية لضم المغرب بغض النظر عن الظروف الأخرى المتمثلة في المسألة الدينية، ورغبة الدولة العلية توجيه ثقلها وقواتها صوب القوى المسيحية إضافة إلى عوامل أخرى، لكن بمجرد التدقيق والتعمق في الاستراتيجية العثمانية يتضح مدى الاهتمام الذي خصت به المغرب الأقصى.

ولعل أهم ما يؤكد نوايا الدولة العثمانية في التمركز على سواحل المغرب الأقصى بصفة مباشرة هو سيطرة العثمانيين على حجر بادس، تلك القلعة الصخرية الاستراتيجية، يأتي ذلك كنتيجة الأوضاع المغرب الأقصى السياسية المتمثلة في الصراع السعودي الوطاسي، فمن خلال وثيقة محاكمة العليج مامي نستنتج دور العثمانيين في الجزيرة ونظرة الاسبان والبرتغاليين لهم، فمن خلال شهادة أحد الأسرى البرتغاليين في القضية يقول أنه " كان أسيرا في بادس منذ ثمانية سنوات (1542) تعرف على العليج مامي الذي كان تحت خدمة سيده التركي وقد علم أنه غادر مرتين بادس رفقة سيده كان خلال أولاهما في مركب من سعة 12 شخصا وكان خلال الأخرى في ثلاثة مراكب هاجم بها البلاد المسيحية وأسروا في المرة الأولى 33 برتغاليا وفي الثانية 17 مسيحيا"¹، وفي محضر محاكمة عليج آخر المدعوا سينون غونزاليش Sinon gonzalez يشير إلى أن بادس كانت أهم مرفئ قرصني بالمغرب الأمر الذي دفع الاسبان سنة 1564 إلى احتلال الحجرتين المقابلتين له فقد أخبر العليج المذكور المحققين أن المركب الذي كان يعمل به كمحارب غادر مرة بادس باتجاه مضيق جبل طارق، وبعد تجاوز مضيق طنجة لحقت به سفينتان عثمانيتان k ومن هناك توجهت المراكب الثلاثة لمهاجمة مدينة ألبوفيرا Albufeira وبعد أن نقلوا ما غنموه إلى أصيلة التحقت بهم هناك ثمانية مراكب تركية أبحرت تلك المراكب، واستولت على كرفلتين اسبانييتين².

وانطلاقا من هذا تتضح أهمية وحجم الحضور العثماني على السواحل المغربية، ففي رسالة وجهها السفير الفرنسي في مدريد سانت سولبيك Saint sulpic الى الملك شارل التاسع تكشف حال

¹ بوشرب، (قرصنة المحيط...)، مرجع سابق، ص10.

² نفسه، ص11.

جزيرة بادس حيث يقول بأن يحي رايس أصبح يلقب بسيد المضيق Seigneur de detroit ولم تكن أي سفينة لتستطيع العبور دون إذن منه وقد عم الخوف سكان الساحل الاسباني لدرجة أنهم لم يكونوا يزرعون أراضيهم إلا بكل حذر¹. إن الاختراق أو الحضور العثماني البحري على السواحل المغربية كان يتم بصفة صامتة وهادئة قبل تاريخ تمكن المغاربة من تقوية وتوحيد أركان دولتهم، لكنها لم تتوقف يوما (الدولة العثمانية) عن طموحها لضم المغرب الأقصى، والدليل على ذلك استراتيجية السلاطين اتجاه المغرب الأقصى وخاصة في عهد السلطان مراد الثالث (1574-1595).

2-2 الاختراق السياسي العثماني لمملكة المغرب الأقصى:

بعد انغلاق الساحة السياسية في المغرب الأقصى وخاصة مع بداية الربع الثاني للقرن 16م كنتيجة للصراع السلطوي بين بني وطاس والسعديين، ومع تنامي قوة السعديين المعارضين للدولة العثمانية لم تستطع هذه الأخيرة التوسيع أو على الأقل ربط علاقات جيدة، من خلال كسب المغاربة إلى صفها ولذلك كانت استراتيجية الاختراق الصامت لا مفر منها. حيث كانت أولى أوجه التواصل العثماني المغربي في سنة 1517 من خلال بعثة خير الدين بربروسا بعد فتحه لتلمسان إلى ملك فاس السلطان أحمد المريني يطلب منه التحالف، واعداء إياه بمساعدته والوصول إلى معاهدة هجومية ودفاعية ضد المسيحيين²، حيث تجسد ذلك التعاون في طلب عروج الامدادات من السلطان الوطاسي بعد محاصرته من طرف الاسبان لكن تلك المساعدات لم تصل في وقتها وتم على إثرها مقتل عروج من طرف الاسبان³.

ويفسر المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني عدم وصول المساعدات في وقتها هو أن ذلك الجيش سار على طريق مليلية فطال به السير، ولم يتمكن من الوصول إلى ميدان المعركة في الوقت اللازم فلم تم الأمر قفل راجعا⁴، أما المؤرخ الجزائري الآخر مبارك الملي وبناء على رأي دوغرامون D.Grammont فيشكك في صحة الاتفاق بين الجانبين بدليل أنه لم يكن من مصلحة سلطان فاس أن يعزز جانب قائد

¹ كريم، مرجع سابق، ص90.

² F. De Haedo, Op,cit, P30.

³ Ibid, p 34.

⁴ أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر واسبانيا، 1492-1792، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ت، ص190.

مثل عروج الذي شاهده كيف قتل سلطان تلمسان ويقول أنه لعله كان مشروع معاهدة عرضه عروج ورفضه سلطان فاس¹.

وبناء على ذلك نشكك نحن كذلك في هذه الرواية نتيجة لغموضها من عدة نواحي: أولاً طريقة قدوم أو مسار الجيش المغربي إن كانت صحيحة فهي مجهولة، فإذا كانت على جانب البحر فالوطاسيين لم يكونوا يملكون مراكب جهادية تابعة لهم بصفة رسمية أما إذا كانت عن طريق البر فالمصادر الإسبانية والبرتغالية كانت غائبة عن ذكر الحدث كما أن السلطان الوطاسي لم يكن ليرضى بالتحالف مع قادة يقاسمونه الطموح، فخيرالدين بربوسا من خلال مذكراته صرح قائلاً: "في هذا الوقت كان سلطان المغرب يعتبر أكبر ملوك العرب في إفريقيا كنت أعتقد أنه مالم يتم إخضاع سلطان المغرب فإنه من المستحيل سيطرة الأتراك على إفريقيا"²، ومن هنا تتضح نوايا وطموحات العثمانيين كما أن خير الدين لم يشر إلى أي اتفاق بين أخيه عروج وسلطان فاس.

وتظهر نوايا الاختراق العثماني بصورة صريحة في تصريح خيرالدين: "وذاًت يوم طلبت حضور عدد من أمراء العرب إلى الجزائر وخطبتهم قائلاً: إن السلطان المعظم سليم خان الآن هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف تسنى لكم أن تتركوا خليفة المسلمين وسلطان العالم وتقروون الخطبة وتضربون النقد باسم سلطان المغرب...؟ إن مستقبلكم ومستقبل بلادكم مرهون بضرب السكة باسم السلطان المعظم والويل لكم إن خالفتم وعصيتم"³، ويشير المؤرخ الجزائري عمار بن خروف إلى أن السلطان الوطاسي كان يسمح للسفن العثمانية بالرسو في الموانئ المغربية والتزود منها بما يلزمها في عمليات الجهاد البحري⁴.

ويجدر التنبيه هنا إلى أن هذا القرار لم يكن من طرف السلطان الوطاسي بل من طرف زوجته الست الحرة حاکمة تطوان التي كانت على علاقة بالعثمانيين من قبل في إطار سياسي وعسكري فالسلطان الوطاسي زواجه منها كان في إطار سياسي لتوحيد مملكته وتقويتها، وبالتالي مسألة الحضور

¹ مبارك الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج3، مطابع بدران وشركائه، لبنان، 1964، ص48.

² مذكرات خير الدين، مصدر سابق، ص95.

³ نفسه، ص95.

⁴ بن خروف، مرجع سابق، ص140.

العثماني البحري والسياسي مع الامارات الجهادية الساحلية المغربية كان خارج نطاق السلطة الوطاسية التي لم يكن من مصلحتها معارضة المد العثماني آنذاك.

فالسُلطان الوطاسي المولى أحمد قام بمعاودة مع البرتغاليين سنة 945هـ/1538م ومن أهم بنودها منع استقبال السفن المعادية لأحد الطرفين في ميناء كل من الطرفين "إذا وردت سفن تركية أو فرنسية أو سفن تابعة لمسيحيين ليسوا برتغاليين على موانئ برتغالية وهي تحمل أسرى مغاربة للبيع فلا تشتريهم البرتغال، وبالمقابل اذا وردت السفن تحمل مسيحيين برتغاليين، فلا يشتريهم المغرب، ويساعد كل طرف الطرف الآخر على الاحتفاظ بالأرقاء"¹، كما نلاحظ أنه في سنة 1544 قام الوطاسيين بإيواء النائرين على الحكم العثماني بالجزائر ومن بينهم النائر المنهزم بوطريق وكذلك الملك الزياني عبد الله الذي استجد بالإسبان ولما انهزم توجه الى فاس كلاجئ عند ملكها².

ومن هذا تتضح أطوار العلاقات السياسية بين الجانبين الوطاسي والعثماني، ويتأكد كلام خير الدين السابق حول خطورة ملك المغرب على سياسة التوسع العثمانية ولا مفر من سياسة الاختراق الصامت من خلال استغلال أي فرصة. ولتتبع مسار هذا الاختراق السياسي نستطيع تحديده، من خلال أول حدث والمتمثل في التدخل في حيثيات الصراع بين الوطاسيين والسعديين، فالفرصة الأولى التي أتت أمام الخلافة العثمانية استغلتها، حيث كانت البداية بمراسلة والدة السلطان الوطاسي للسلطان العثماني سليمان القانوني بعد اجتماعها بالأشراف ووكلاء البلاد لطلب المساعدة في استرداد الأسرى وعلى رأسهم أحمد الوطاسي لدى محمد الشيخ من خلال توجيه أمر له « وكان هذا العرض معقولا مع آمال السلطان سليمان لأنه كان يريد سحق الأشراف لكونهم يدعون أنهم من سلالة النبي صلى اله عليه وسلم وأن الخلافة من حقهم وأن السلطان سليمان مغتصب للخلافة وكان أتراك الجزائر يسعون إلى ذلك أيضا»³.

¹ التازي، مرجع سابق، ص291.

² F. de Haedo, Opcit, p71.

³ عبد المنعم الجميعي، الدولة العثمانية والمغرب العربي، د ط، دار الفكر العربي، مصر، 2007، ص177.

وعلى إثر ذلك بدأت الدبلوماسية العثمانية تتحرك على وتر الخلافات الوطاسية السعدية حيث قام السلطان سليمان بإرسال مبعوث له إلى محمد الشيخ السعدي لهذا الغرض ففي سنة 1548¹ حلت سفارة السلطان العثماني على بلاط محمد الشيخ، وكان خطاب السلطان العثماني استفزازيا حيث وصف محمد الشيخ بشيخ العرب مما جعل هذا الأخير يمتعض ويغتاظ من ذلك.

وبهذا يمكن تفسير خطاب السلطان سليمان الاستفزازي من خلال جانبين: الجانب الأول هو أن نبرة الخطاب كانت تحمل ثقة تامة ويرجع ذلك ربما لتيقن السلطان العثماني من قوة الاختراق الذي حققه، وإطلاعه على الوضع العام بالمغرب، الجانب الثاني ربما يكون ناتج عن سوء تقدير السلطان العثماني لقوة محمد الشيخ السعدي، أما فيما يخص أمر دعوة بني وطاس للسلطان العثماني وضرب اسمه عليه فإنه لا توجد شواهد على ذلك حتى الآن لا في المراسلات الرسمية، ولا حتى في الشواهد المادية، لكن يبقى مجال البحث فيها مفتوحا خصوصا أن الأرشيف العثماني لم يستغل بصفة عامة لكن هناك بعض الكتابات التاريخية تتحدث عن ذلك في إطار الاتفاق بين أبو حسون الوطاسي وصالح رابيس فيما بعد. لتدخل بعدها العلاقات العثمانية المغربية مرحلة جديدة من خلال سقوط الحكم الوطاسي وظهور السعديين كقوة أولى وشاملة في المغرب الأقصى.

2-3 موقف المغاربة من سياسة الدولة العثمانية (1520-1550):

إن الموقف المغربي من سياسة الدولة العثمانية من خلال هذه الفترة تميز بموقفين يمثلان سلطتين متصادمتين هما السلطة الوطاسية الآفلة والسلطة السعدية الصاعدة، فالسلطة الأولى أي الوطاسية كان موقفها متحفظا ويميل إلى الإيجابية في فترات متفرقة اتجاه الدولة العثمانية وذلك بغض النظر عن تخوف سلاطينها من أطماع الخلافة العثمانية اتجاههم، حيث كان موقفهم هذا ناتجا عن حالة الضعف التي كانوا فيها، حيث كانت في صراع على جبهتين: الجبهة الخارجية المتمثلة في المسيحيين (إسبانيا، البرتغال) والجبهة الداخلية المتمثلة في الشرفاء السعديين الذين التفت حولهم الطرق الصوفية ومن ورائها الشعب المغربي وخاصة في الجنوب لذلك لم يكن لها خيارات اتجاه الاختراق العثماني سوى المهادنة والحفاظ على استقرار الجبهة الشرقية لمملكتهم، ويبرز موقف السلطة الوطاسية في الكثير من الأحداث

¹ إلتز، مرجع سابق، ص 178.

من بينها رسالة أم مولاي أحمد الوطاسي للسلطان سليمان وكذلك لجوء أبو حسون الوطاسي للعثمانيين في الجزائر فيما بعد لطلب مساعدتهم في استرجاع عاصمة ملكه فاس فيما بعد، كما يظهر حسن الموقف هذا في سياسة الخلافة العثمانية، فما هو ملاحظ أن الاختراق العثماني كان في قمة نشاطه وفعاليته في العهد الوطاسي.

أما فيما يخص السلطة السعدية التي بدأت تأخذ زمام الحكم مع مطلع النصف الثاني من القرن 16م بصفة نهائية، فكان موقفها عدائيا اتجاه سياسة الدولة العثمانية التي بدأت تأخذ زمام الحكم مع مطلع النصف الثاني من القرن 16م بصفة نهائية، هذا الموقف يترجم من خلال مواقف أو أعمال السلاطين السعديين وخاصة محمد الشيخ.

فأول شيء قام به محمد الشيخ توحيد الجبهة الداخلية وذلك بواسطة أمرين مهمين: الأول هو القضاء على السلطة الوطاسية والتي كانت بالفعل سنة 1550 أما الأمر الثاني، فهو التخلص من المنافسين له في الحكم وخاصة إخوته " الأعرج، " « وقد ظل محمد المهدي لفترة طويلة ساكنا هادئا، يحاول الحصول على الاستقلال في ملكه، وتجنب خلال تلك الفترة الاعتداء على أي طرف من الأطراف، لكنه كان يطمح لتوسيع أملاكه، فكلف ابنه عبد القادر بالسيطرة على فشتالة الواقعة على سفوح جبال الأطلس، فلما سمع أحمد الذي كان بتافيلالت جهز جيشه لمواجهة ابن أخيه حيث انتهت المعركة بانهزام قوات الأعرج وتم أسره واعترافه بحكم أخيه محمد المهدي على مدينة فشتالة وتادلا سنة 1544»¹.

لتنزيد طموحات محمد الشيخ السعدي بعد ذلك إلى التوسع على حساب مملكة فاس والتي دانت له سنة 956هـ/ 1549م² ليوجه أنظاره بعدها إلى الحدود الشرقية المتاخمة لحدود إيالة الجزائر العثمانية وبذلك يكون محمد الشيخ قد وفى بوعدده للسلطان سليمان القانوني حينما خاطبه سنة 1548 بسلطان القوارب في رده على مبعوث السلطان العثماني والذي أمره بإخبار السلطان سليمان نوايا محمد الشيخ في الملك والخلافة وأخبره أن الملتقى يكون بمصر.

¹ إلتز، مرجع سابق، ص176.

² محمد الصغير الأفراحي، زهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف، الشادلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب 1998، ص73.

حيث كانت البداية بتجهيز جيشه لغزو تلمسان سنة 958هـ/ 1550م بقيادة ابنه محمد الحران وعبد القادر حيث اخترقت قواتهما العمق الجزائري لتصل إلى سهل الشلف بالسيطرة على مستغانم ومحمد الشيخ كان يريد بعمله هذا التقرب من الجزائريين أكثر ويكون ذلك ربما إلى التقارير التي كانت تأتيه من جواسيسه في الجزائر، فبعض المصادر التاريخية كأوغست كور Auguste Cour تقول أن السلطان السعودي أرسل جيشه لاحتلال تلمسان بناء على طلب أهلها¹، لكن محمد الشيخ لم يكن على علم بالاختراق العثماني لجيشه الذي كان به كثير من الجنود العثمانيين.

وبعد فشل حملته في التوسع على حساب إيالة الجزائر العثمانية ومقتل ابنه الحران لجأ إلى التواصل مع القوى المعادلة للدولة العثمانية وفق «قاعدة عدو عدوي صديقي» المشهورة في عصرنا هذا، حيث "وصل التحالف بين السعوديين والإسبان إلى قدم التحالف وإقامة المشاريع لطرد العثمانيين من الجزائر الأمر الذي لم يكن ليزيد العلاقات الجزائرية السعودية إلا توترا"².

فمحمد الشيخ الذي اتخذ لقب ملك إفريقيا حسب طوريس³ سعى جاهدا لوقف الاختراق العثماني والحد منه، وخاصة في الجانب العسكري فنظرا لتركز القوات العثمانية المحدود على السواحل الغربية، وقيامها بعملياتها العسكرية من خلال هذه القواعد، الأمر الذي لم يعجب محمد الشيخ الذي سعى لامتلاك أسطول قادر على تسهيل مهمته، في استرجاع الثغور المحتلة وضمان استقلال بلاده أمام الأطماع التركية⁴، وما هو ملاحظ هنا هو أن مشروع محمد الشيخ البحري هذا فشل لعدة اعتبارات منها وبدرجة أقصى عدم الاهتمام بهذا الجانب مقارنة بالجانب البري، وذلك بسبب إنشاء أسطول بحري يحتاج جهد كبير وكذلك وقت طويل وكذلك مهارات عالية، وهو ما كان يفتقده السعوديون الذين كانوا يقاتلون على عدة جبهات.

لكن الباحث المغربي محمد زروق له رأي مخالف، اتجاه فشل مشروع محمد الشيخ في بناء أسطول بحري حيث يقول أن السبب الأول في فشله هو الأطماع العثمانية في المغرب، ويؤكد كلامه ذلك استنادا

¹ الجميبي، مرجع سابق، ص 178.

² بن خروف، مرجع سابق، ص 52

³ طوريس، مصدر سابق، ص 64.

⁴ بوشرب، (البحر في تاريخ المغرب...)، مرجع سابق ص 22.

على مجموعة من الوثائق الاسبانية التي تتحدث عن مشروع محمد الشيخ وإنقاذ مسلمي الأندلس من خلال إنشاء أسطول بحري فالوثيقة الأولى عبارة عن تقرير بعثه حاكم وهران الكونت الكوديت Conte d alcudatre إلى حكومته في 21 أبريل 1549، ذكر أن محمد الشيخ كتب إلى باشا الجزائر يعرض عليه القيام بعمليات مشتركة لفتح وهران والمرسى الكبير، وأنهما يستطيعان بعد ذلك أن يعلنوا الحرب على إسبانيا¹.

وفي وثيقة أخرى بعثها من جبل طارق لويس دو ريودو Luis de ruedo بتاريخ 06 فبراير 1549، تشير على أنه "محمد الشيخ" على اتفاق مع الأتراك وأنه يسعى لبناء أسطول لتحرير جميع السواحل المغربية²، ومن خلال هذا يمكننا تحليل خطاب هذه الوثائق وفق معطيات تاريخية راهنة آنذاك فصاحب التقرير المؤرخ سنة 1549، ربما يكون قد أخطأ في تقديرته حول العلاقات العثمانية المغربية آنذاك، وأنها ربما كانت بناء على تخمينات سطحية، بدليل أن حلفائهم البرتغاليون كانوا قد ظنوا سابقا في سفارة إلى ملك إسبانيا شارل الخامس أن السعوديين هم في تحالف مع العثمانيين، وذلك نظرا لكثرة الجنود العثمانيين المستأجرين، وهو تقرير خاطئ عن طبيعة العلاقات السعودية العثمانية آنذاك، وبالتالي فالموقف الإسباني البرتغالي كان في طريق واحد، وهو ناتج عن التخوف من النشاط العثماني في غربي المتوسط.

والدليل على ذلك أن السفير فاركاش varkache في رسالته إلى جان الثالث سنة 1542 يقول فيها: "إن أخبارا وردت عن طريق الحجاج المغاربة تفيد أن البرتغاليين تحركوا أخيرا في البحر الأحمر..... فإن هذه الأخبار تنقل أن المسلمين في الاسكندرية يهيئون العدة لمنع الامبراطور شارلوكان من التغلب على الجزائر"³، وانطلاقا من هذا يتضح مصدر المعلومات الاستخباراتية التي كان يجمعها قناصل وجواسيس الاسبان والبرتغال مبنية على تكهنات شخصية فهذه المعلومات لم تكن صادرة عن جهات رسمية فمصدرها كان الحجاج القادمين من المشرق وكذلك بعض العامة من العملاء.

¹ محمد زروق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16م و17م ط3، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 1998، ص155.

² نفسه، ص 165.

³ التازي، مرجع سابق، ص295

أما المؤرخ بوشرب فقد قدم رأياً تاريخياً معقولاً حول سبب فشل المشروع السعودي البحري وهو أن محاكم التفتيش البرتغالية قامت بالتضييق على التجار المهريين للخشب للمغاربة الذين كانوا بحاجة ماسة إليه وبفضل هذه الإشارة نفهم الصعوبات التي واجهت المغاربة في احياء أسطولهم¹، لكن بغض النظر عن هذه الآراء، لا يمكن إنكار جهود السعوديين في إنقاذ أهالي الأندلس، ولا يمكن كذلك تحميل العثمانيين لوحدهم فشل المشروع السعودي.

¹ بوشرب، (دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي..)، مرجع سابق، ص26.

الفصل الثاني

سياسة العثمانيين للتوسع في منطقة المغرب الأقصى (1550-1576)

1-العوامل المؤثرة في اهتمام العثمانيين بالمغرب الأقصى.

1-1النسب الشريف وإشكالية الخلافة

1-2 موقع المغرب ودوره في محور الصراع العثماني الإيبيري

1-3 الأهمية الاستراتيجية للمغرب في استقطاب العثمانيين

2- سياسة الدولة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى وموقف المغاربة منها (الاستنزاف أو

الاختراق) (1550-1576)

1-2 سياسة التوسع العثماني في عهد سليمان القانوني وموقف محمد الشيخ

منها (1550/1557)

2-2 عبد الله الغالب في مواجهة سياسة الدولة العثمانية وموقف هذه الاخيرة منه (1557-

1576)

ثانيا: سياسة العثمانيين للتوسع في مملكة المغرب الأقصى (1550-1574).

1-العوامل المؤثرة في اهتمام العثمانيين بالمغرب الأقصى.

1-1 النسب الشريف وإشكالية الخلافة:

تعتبر مملكة المغرب الأقصى من الجغرافيات التي عرفت نشاطات، وتحولات جيوسياسية بفعل دوافع أو عوامل التاريخ والدين، نظرا لاحتضانها العديد من التجارب التاريخية في تأسيس الدول والكيانات، المبنية على أسس وقواعد مذهبية دينية وعرقية، تخص التحول الديمغرافي في المنطقة.

ومن أهم تلك الأسس ما يعرف بمسألة النسب الشريف التي عرفت بها المنطقة، والتي كانت قاعدة أساسية في تأسيس الدول وإضفاء الشرعية الدينية عليها من دولة الأدارسة الأشرف (172هـ/788م - 375هـ/990م) مروراً بالدولة السعدية (1510-1610م)، وصولاً إلى العلويين بحيث يذكر الشيخ الجزولي السوسي القائد الروحي للعصبة الدينية للدولة السعدية أهمية ودور ذلك النسب في قوله: "ليس العزيز من تعزز بالقبيلة وحب الجاه، وإنما العزيز من تعزز بالشرف والنسب وأنا شريف في النسب جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقرب إليه من كل ما خلق الله"¹، فهذه الهبة الإلهية التي اختص بها بعض أهالي المغرب الذين يطلق عليهم الأشرف Ashraf وهي جمع لكلمة الشريف، أي من أصل الرسول صلى الله عليه وسلم²، وهي كلمة تفيد سمو و"العلو" فالشريف هو الرجل الحر الذي ينحدر من أجداد ضاربين في المجد الشيء الذي يجعله يتوق لمكانة اجتماعية سامية في المجتمع³.

بالإضافة إلى النسب الشريف هناك أيضا قاعدة دينية قامت عليها دول المغرب وبالأخص الدولة السعدية وهي المهدوية التي عرفت ابتداء من القرن الخامس عشر ميلادي تحولات كبرى مع ظهور حركة الجزولي الذي تنسب لها الرواية ادعاء المهدوية واللقاء بالخضر⁴، حيث نجد صدى هذه القاعدة في ألقاب السلاطين السعديين، فمحمد الشيخ كان قد تلقب بعدة ألقاب كالمهدي، أمير المؤمنين، الإمام

¹ زروق، مرجع سابق، ص 37.

² Encyclopédie of the Ottoman Empire, crabor Agoston and Bruce Maslers, Am imprimint of infobax publishing, New York, 2008, p116.

³ آكنوش، تاريخ المؤسسات الوقائع الاجتماعية بالمغرب، ط1، دار إفريقيا الشرق المغرب، دت، ص 102.

⁴ رابحي رضوان، "إطلالة على ظاهرة المهدوية في المغرب الأقصى الوسيط والحديث، مقارنة بين اليهود والمسلمين"، دورية كان التاريخية، العدد 33، سنة 2016، ص 94 (ص 90-ص98).

والخليفة¹. وانطلاقاً من ذلك يتبين أن العصبية الدينية كانت أهم ركائز قيام الدولة السعدية في المغرب الأقصى، إضافة إلى العصبية القبلية التي سنتطرق إليها، فالنسب القرشي الشريف للأسرة السعدية بوأها للجلوس على كرسي الإمامة العظمى التي لا يتمطق حرمتها إلا بشريف النسب قرشي المحتد حسب وصف المؤرخ المغربي اليفرني².

فالمؤرخ أبو القاسم الزياني ينقل لنا البعض من رواية مبايعة أهل سوس معقل الحركة السعدية ومهد انطلاقها بما يلي: "ولما انحلت حركة الملك المريني الوطاسي، وقصرت أيدي ملوكهم عن الامتداد للسوس، وتعطلت الأحكام المخزنية منه اغتتم (محمد بن عبد الرحمن القائم) انتهاز الفرصة، وأسدى في ذلك وألحم، وجعل ضيفاً وهو الموسم عندهم فرحا الناس له من أشياخ القبائل، وأعيانهم ولما اجتمعوا عنده بزوايته، أطعمهم وتكلم إليهم، في أمر السوس وما صار إليه حال الناس.... وأن ملك المغرب قصرت يده عن الامتداد لبلادنا فعينوا رجلاً يقف في إصلاح بلادكم"³.

كما ينقل لنا المؤرخ المغربي الآخر أبي عبد الله الكنسوسي جانب من حيثيات مبايعة أهل سوس للأشراف السعديين بقوله أن ابتداء دولة الشرفاء سببها أن بعض السادات الصلحاء وهو سيدي بركات بن محمد توسط لفداء بعض الأسرى، فأراد أن يكون الاتفاق مع النصارى على أن لا يقتضوا أسيراً، فكلمهم في ذلك، فقالوا له حتى يكون لكم أمير، فإن ملككم قد تفكك ليقوم بجمع أهل سوس، ودلهم على رجل شريف كان مؤذناً بدرعة اجتمعت حوله الكلمة⁴.

ومن هذا المنطلق تتضح أسس قيام دولة الأشراف السعديين، وهو النسب الشريف الذي بوأهم مكانة دينية عظمى التفت حولها القبائل السوسية مشكلة عصبية دينية⁵، وقبلية متمثلة في العصبية العربية، فما هو

¹ مليون، مرجع سابق، ص 36.

² اليفرني، مصدر سابق، ص 12.

³ أبو القاسم الزياني، البستان الطريق في دولة أولاد مولاي، الشريف، تحقيق رشيد الزاوية، مركز دراسات والبحوث العلوية، المغرب، د ت، ص 34، للمزيد ينظر: أبو القاسم الزياني، تحفة الحادي المطرب، مصدر سابق، ص 76.

⁴ أبي عبد الله بن أحمد الكنسوسي، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولاي علي السجلماسي، ج 1، تقديم وتحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، د ط، المغرب، د ت، ص 82.

⁵ هي الحث على نصره الأولياء والأقرباء ظالمين أو مظلومين، كما تعني الدعوة إلى المدافعة والمحاماة والمطالبة في سبيل الأقارب والأولياء. للمزيد ينظر: بوزياني الدراجي، العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية على ضوء الفكر =

معروف أن الدعوة السعدية انطلقت من الجنوب المغربي، الذي كان يحتوي على كتلة اجتماعية ذات عصبية عربية تعود أصولها إلى قبائل بني معقل القادمة من اليمن، ويقول آخرون أنهم أشرف من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم وذلك مع بداية القرن 12هـ/12م، لتتكاثر بمن انحاش إليها من القبائل العربية الأخرى مثل فزارة وأشجع والصباح والمهايا والسعود وغيرها، كما اندمجت فيها بعض العناصر الزناتية وغيرها، حيث شكلت جموع قبائل بني معقل التي ظل تاريخها مرتبطا بالجنوب المغربي عامة، ومناطق الواحات وتافالت بصفة خاصة¹.

ويجدر التنبيه هنا إلى رؤية المؤرخ المغربي عبد الكريم حول العصبية القبلية للشرفاء التي يقول فيها: إنها عصبية بربرية بحكم انتماء الطريقة الجزولية إلى قبيلة جزولة البربرية حسب وصفه معقلها بمنطقة سوس²، ولكن وحسب الروايات التاريخية السابقة يتضح أن العصبية البربرية أو الأمازيغية انصهرت في العصبية العربية، وأصبحت سوس معقل لها، ومعقل للأسر الشريفة في المغرب الأقصى وهو الذي سنتطرق إليه لاحقا.

إذا من هذا المنطلق نستخلص أن الدولة السعدية كانت نتاج تاريخي للعصبية الدينية والعصبية القبلية³، ساعدها في التبلور والنشاط عنصر ثالث وهو بمثابة العنصر الحيوي الذي يخرج بين العصبيتين ويشكل لنا تفاعل حقيقي وهو عنصر "الجهاد"، حيث كان للتهديد الصليبي على بلاد المغرب الأقصى دور في التقاف المغاربة حول الشرفاء السعديين، حيث كان سببا في إثارة رد فعل ديني تمثل في مزيد من التمسك بالإسلام والإخلاص للملوك الجدد من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم⁴.

=الخدوني، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2003، ص 23، للتفصيل أكثر ينظر: ابن منظور لسان العرب، تحقيق علي عبدالله الكبير وآخرون، ج4، د ط، دائرة المعارف، القاهرة، ص 790.

¹ أحمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لحركة مطلع القرن 17 و19، دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، د ط، دار آفاق متوسطة، المغرب، 1994، ص 426.

² كريم، مرجع سابق، ص22.

³ العصبية القبلية من أهم عوامل تماسك الدول وقيامها ونجاحها وهي ضرورية لقيام الدولة، وهناك تجارب تاريخية تبين ذلك، وأن العصبية تتلاشى في البيئة الحضرية بينما تقوم في البيئة البدوية للمزيد ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج2، تحقيق عبد الله محمد درويش، ج02، ط01، دار البلخي، سوريا، 2004، ص 27.

⁴ محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، محمد الأخضر (1664-1894)، ط1، دار الرشد الحديثة، المغرب، 1977، ص57.

وما كاد السعديون يساهمون في قسم من حياة المغرب السياسية، حتى وجدوا فيهم عوناً، ووجدوا أغلب الأمة منظماً إلى الزوايا، وبعبارة أخرى وجدوا المغرب قد استرجع نظامه الإقطاعي، حيث انتشرت الطرق الصوفية في كل ربوع المغرب وأصبح على رأس كل طريقة " شيخاً" يقود قوة من مريديه ومؤيديه ذوي قوة وحماسة شديتين وتفانياً في العقيدة وهو ما أعطى دفعة قوية لقيام الدولة السعدية¹. وقد كان للنسب الشريف السعدي دور كبير في استقطاب المغاربة باختلافهم من علماء وفقهاء وزعماء محليين، وكانوا السند لهم في قيام دولتهم، وكذلك في حروبهم، ومن بينهم أحفاد القطب الشيخ عبد السلام بن مشيش وعلى رأسهم الشيخ مسعود بن عبد الرحمن المعروف بالشعل وكذلك الشيخ عبد الله المجاهد الجد الجامع لأشراف قرية طردان ببني عروس والشيخ عمر الشنتوني دفين قبيلة سماتة، وكان جد هؤلاء وهو القطب عبد السلام السابق من الشرفاء من ذرية الأدارسة من بسط الحسن ونسل السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها².

إضافة لذلك حظيت الدعوة السعدية بقدر كبير من الدعم والاحترام في المجتمع المغربي خلال القرن 16م، الذي برز فيه عدة مشايخ وعلماء دين أمثال الشيخ أحمد بن يحيى اللمطي الذي كان من أهل الولاية والفرقان والرسوخ والتمكين حسب وصف الكتاني، وكذلك الولي الصالح الشيخ سيدي عمر بن محمد الشريف المتوفى في أواسط القرن 16م³. ونظراً لمكانة الأصل الشريف في المجتمع المغربي ظهرت أو برزت العديد من الأسر الشريفة في المغرب الأقصى بمختلف مناطقه، ففي الجنوب بمنطقة درعة ظهر البيت الزيداني وهم من ذرية القاسم، وكذلك البيت الجوني نسبة إلى موسى الجون وهو من الشرفاء، ومن ذريته الشرفاء القادريون في المغرب (منهم بفاس، مراكش والسوس)⁴.

أما في الشمال فكانت أسرة بني راشد العلمية الإدريسية في النصف الأول من القرن 16، هي المتحكمة في مدينة شفشاون التي كان يحكمها سيدي محمد بن مولاي علي بن موسى بن راشد الإدريسي

¹ عبد الله بن إبراهيم، "الحركة الصوفية في المغرب"، مجلة المغرب الجديد، ع 12، 1355هـ/1937م، ص36.

² محمد أعبيد، الشيخ المولي عبد السلام بن مشيش، قطب المغرب الأقصى، ط3، مطبعة دار أبي رقرق للطباعة والنشر، المغرب، 2013، ص 44.

³ محمد بن جعفر إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس بمن أقر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني وآخرون، ج01، د ط، دار الثقافة، المغرب، د ت، ص209.

⁴ الزباني، (تحفة الحادي...)، مصدر سابق، ص49.

الحسني¹، أما في الجنوب الغربي وبمدينة أسفي فإنها احتوت على العشرات من الأسر والبيوتات الشريفة ومن أهمها: بيت الشرفاء الوزانيين ومنهم مولاي إدريس ابن مولاي التهامي الحسني الإدريسي اليمحلي الوزاني وخلفه عبد الرحمن، وبيت الشرفاء أولاد ناظر جامع شعبتهم هو الفقيه العلامة أبو الفضل وأبو يعقوب سيدي يوسف بن عبد الصمد الحنين الإدريسي، وكذلك بيت الشرفاء الأمغاريين، وجامع شعبتهم الشيخ محمد أمغار الكبير، وأول من استوطن أسفي الشيخ البركة سيدي ألوان بن سعيد في أواسط القرن 12هـ، إضافة إلى بيوتات عريقة أخرى كبيت الشرفاء الوحيديين وبيت أولاد مولاي الحاج، والبيت البوعناني الشريف².

ولعل في بروز هذه الأسر وانتشارها هو الاهتمام والمكانة الاجتماعية التي كانت تحظى بها، حيث يتحدث المؤرخ الزياتي في ذلك قائلاً: "وأصبحت أعناق العامة تشرئب لهم وتطمع في وساطتهم إما لأجل إبداء خدمة أو فض منازعة أو إجارة من مكروه بل هناك من ذهب إلى الاعتقاد بأن من كراماتهم إشفاء المرض أو نزول الغيث"³، ومن مظاهر التبرك بالأشراف التي أصبحت سائدة في ذلك العصر تقبيل رؤوسهم وأطرافهم والتقرب إليهم بشتى الوسائل إلى درجة أنه كان من الفئات الشعبية من يهدي بناته إلى الأشراف تبركا ليتزوجهن من غير تكاليف تلتزمهم⁴. في الجنوب المغربي بدرعة كانت ظواهر التوقير والاحترام تسلم لعائلات الأشراف والمرابطين، والأشراف على كاهل الإكرام والمحاشاة مما يطالب به العوام من الوظائف المخزنية والتكاليف الإمامية⁵.

ويقدم لنا المؤرخ البلجيكي المعاصر جون لوكليرك عدة نماذج لمكانة الأشراف في المغرب، ومدى التقاف المغاربة حولهم حيث يقول: "إنهم المنحدرون من سلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يشكلون الشرف الوحيد للبلد، يعيشون من الهدايا التي يقدمها لهم المؤمنون ويمتلكون عموماً ثروات ضخمة"، وقد سماهم الكاتب ب " سادة المطر والجو الجميل"، والسبب في ذلك أنه رأى سيرا من المغاربة حاملين هدايا

¹ Exposition de photos, Mosquées Marocaines A travers L'histoire, 1 exposition, Fondation de la mosquée, Université EL Hasan II, Casablanca, 2010, P 56.

² محمد بن أحمد العبدوي الكانوني، أسفي وما آلت إليه قديماً وحديثاً، تحقيق علال ركوك وآخرون، تقديم محمد بنشريفية، مطبعة نّت المغربية، الرباط، 2005، ص 111.

³ الزياتي، (تحفة الحادي...)، مصدر سابق، ص 13.

⁴ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، دار الرشاد الحديثة، المغرب 2000، ص 544.

⁵ البوزيدي، مرجع سابق، ص 15.

وكباشا قاصدين الشريف من أجل الدعاء لهم طول المطر (الاستسقاء)، أين توغل الموكب أو الحشد نحو البادية بتعرجاتها الطويلة الممتدة في طريق محفوف بالصبار إلى بيت الشريف كما وصف¹.

وانطلاقاً من هذه الحقائق التاريخية وعلى ضوء آراء المؤرخين نستخلص أن المنظومة الاجتماعية المغربية في العصر الحديث، وخاصة في الفترة السعدية جد متماسكة وتعتبر استثنائية يصعب اختراقها، وقد أثبتت المراحل التاريخية ذلك، حتى أصبح المغرب الأقصى مقبرة لأحلام القوى العالمية آنذاك، وبالأخص البرتغال، ومن ذلك نستنتج مدى الصعوبة التي واجهت سياسة الاختراق العثمانية في المنطقة من جهة، ومن جهة أخرى مدى الذكاء أو الحنكة الاستراتيجية العثمانية التي انتهجت الأسلوب الصامت المهادن في محاولتها السيطرة على المغرب الأقصى، كما نتوافق مع فكرة المؤرخ المغربي نبيل ملين الذي يقول أن الشريفية والمهدوية والتصوف هي منظومة عقائدية متماسكة ومتنامية حسب ظروف تلك المرحلة²، وهي معادلة اجتماعية، عقائدية، سياسية يصعب فكها.

وأمام هذا التماسك الاجتماعي، السياسي العقدي الاستثنائي توقفت السياسة التوسعية العثمانية، باحثة عن ثغرات دينية أو سياسية وعسكرية للالتفاف حولها واختراقها، خصوصاً مع تزايد رغبة السلاطين المغاربة، وتطلعاتهم إلى الخلافة التي شكلت إشكالية حقيقية أمام العثمانيين للتوسع في المغرب، ويظهر ذلك الطموح والافتخار في الرسائل العديدة لسلاطين الدولة السعدية، حيث يصف عبد الله كنون في مقدمة كتابه أن السعديين كان لهم موقف سلبي من الخلافة العثمانية " فالسعديون كانوا يدلون على الأتراك بانتسابهم إلى الغرة النبوية، ويلوحون بذلك إلى استحقاقهم للخلافة العظمى دون خلفاء بني عثمان، ورغم أنه لم يكونوا يصرحون بذلك فهم يكنون عنه كنايات مفهومة، وأعظمها الضرب على وتر العلوية والوراثة الشريفة"³.

كما ظهر ذلك جلياً في رسائل السلاطين السعديين ففي رسالة السلطان أحمد المنصور الذهبي (1578-1603) إلى الخليفة العثماني مراد الثالث (1574-1595) نجد أن ديباجة الرسائل دائماً تذكر النسب الشريف بقوله: " فهم أصحاب الكساء، وليس إلا بهم الانتساب والافتداء والانتساب والمعنيون بقوله

¹ جيل لوكليرك، من موكادور إلى بسكرة، رحلات داخل المغرب والجزائر، ترجمة بوشعبي الساوري، مراجعة الطاهر

لكنيزي، د ط، منشورات الجمل، لبنان، 2016، ص 56.

² ملين، مرجع سابق، ص 23.

³ كنون، (رسائل سعدية)، مرجع سابق، ص 10.

تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾¹ فمن أسعده الله بمودتهم منحه في حضرة قدسه، ومقام أنسه، حدائق غلبا...².

حيث كانت القاعدة الشرعية التي تمسك بها علماء المغرب وسلاطينه في بيان أحقيتهم في الخلافة واضحة وهي عدم جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل³، لذلك نجد نظرية السيادة في المغرب بالرغم من أنها مستمدة مبدئيا من نظرية الخلافة ظلت مستقلة عن دار الخلافة متأثرة في نظامها العام بالتقاليد الأطلسية العريقة غير منفعلة بالتقلبات الشرقية الكبرى⁴، وهو ما يلاحظ في موقف محمد الشيخ السعدي وخلفاءه عدا السلطان عبد الملك السعدي الذي تأثر بالتقلبات الشرقية، وهو ما سنتطرق إليه في الفصل الثالث، لذلك ونظرا للمعادلة السيوستاسية المغربية لم تتمكن الخلافة العثمانية من بسط سيطرتها المباشرة على المغرب، بالرغم من بسط نفوذها على بلدان وعواصم أكبر بكثير وأقوى منه بكثير آنذاك كدمشق والقاهرة، وبلاد الحرمين وغيرها⁵.

وللمؤرخ الفرنسي جورج مارسيه Georges Marçais حديث في الموضوع بقوله: "وضع المغرب قواته الذاتية لمقاومة سيطرة الحكام المشرقيين، وبذلك تجنب التبعية العثمانية التي فرضت على المناطق البربرية الأخرى، والموجة العثمانية التي غطت معظم العالم الإسلامي، والتي مرت ببلاد فارس، واكتسحت الإمبراطورية البيزنطية، واندفعت حتى فيينا، وغمرت شبه جزيرة الأناضول والبلقان وسوريا والعراق والحجاز، ومصر، وطرابلس والجزائر هذه الموجات تلاشت وضعفت أمام الحدود المغربية"⁶، حيث نجد المؤلف يقدم بعض التفسيرات في ذلك وهي: عدم المغامرة الشاذة حسب وصفه، والوضع

¹ ينظر: القرآن الكريم، سورة الشورى، الآية 23.

² كنون، (رسائل سعدي)، مرجع سابق، ص 20.

³ ملين، مرجع سابق، ص 44.

⁴ حسن أحمد الحجوني، العقل والنقل في الفكر الإصلاحية المغربي (1757-1912)، د ط، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2003، ص 25.

⁵ بيهم جميل محمد، فلسفة التاريخ العثماني كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية، مطبعة مكتبة صادر، لبنان، 1925، ص 201.

⁶ جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمد عبد الصمد هيكيل، مراجعة مصطفى أبو ضيف أحمد، منشأة المعارف، مصر، 1991، ص 24.

الجغرافي، طابع السكان البربري، التدين (التصوف)، كل هذا حسب قوله فرض على المغرب مكانة خاصة في العالم الإسلامي¹.

وفي هذا الإطار يمكننا تقديم وجهة نظرنا وتعليقنا حول ذلك استنادا إلى مقاربات تاريخية واقعية، فبخصوص المعادلة الاجتماعية السياسية المغربية من حيث القوة والتماسك نتفق مع المؤرخ إلى أبعد الحدود ولكن بنوع من التحفظ، وذلك من خلال ما لاحظناه في تعامل الخلافة العثمانية مع مسألة الأشراف في البقاع الأخرى من العالم الإسلامي حيث لم تستعمل القوة أبدا معهم سواء في الحجاز أو الشام، وقد خصتهم بمكانة مرموقة في أوساط المجتمع، بل وأشركتهم في منظومة حكمها هذا بالنسبة للنسب الشريف، أما بالنسبة للتدين وطابع السكان فهناك الكثير من البلدان ذات عقيدة دينية متعصبة، ومخالفة لرؤية العثمانيين تماما في الحكم نجدها قد رضخت للعثمانيين وهو حال الدولة الصفوية التي كانت تمثل قوة كبرى في بلاد فارس، كما كانت تمثل قاعدة بشرية متعصبة بأفكارها الشيعية والعرقية ولها عقيدتها الخاصة في الحكم والسياسة، ونلاحظ تلك العصبية العمياء في الحروب العديدة التي خاضوها اتجاه الخلافة العثمانية، أما بخصوص الموقع الجغرافي فنجانب المؤرخ في الصواب، وذلك حسب وجهة نظرنا وهي أن الموقع الجغرافي للمغرب البعيد كان له دور في إنقاص مفعول الزحف والتوسع العثماني، فما يلاحظ أن سياسة الخلافة العثمانية اتجاه الأقاليم البعيدة كانت استثنائية، وأن الولاء كان أساسيا كما هو الحال بالنسبة لدول شرق آسيا وشرق إفريقيا، حتى أن بعض الأقاليم كانت أضعف بكثير لكنها لم تنطوي تحت المظلة العثمانية رغم الامتدادات التي عرفتها الخلافة العثمانية في عصرها الذهبي أو عصر السعادة كما يسميه المؤرخون العثمانيون².

ويجب التوقف هنا عند مسألة الخلافة التي حازت على اهتمام الكثير من المؤرخين والعلماء وبالتحديد شرعية الخلافة العثمانية من عدمها، حيث نلاحظ أن هناك موقفين في ذلك، الموقف الأول يقر بخلافة العثمانيين استنادا على فتاوى ونصوص فقهية، أما الموقف الثاني فيرى أن الخليفة العباسي المتوكل تنازل عن لقب الخليفة للسلطان العثماني، بعد فتح مصر، وكان أصحاب هذا الرأي من المستشرقين ومنهم موراجيا دوسون الذي لم يشر إلى أي مصدر يؤيده مقابل أن هناك مواقف المؤرخين

¹ مارسيه، مرجع سابق، ص 249.

² إليبر أورتايلي، العثمانيون في ثلاثة قارات، ترجمة عبد القادر عبد اللي، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان،

2014، ص 25.

العرب أمثال ابن إياس مؤرخ مصر، ومحمد الاشبيلي لم يشيروا لحادثة التنازل عن الخلافة حيث كان وصفهم للسلطان العثماني بـ "المرتقي كرسي الخلافة بالاستحقاق"¹.

وللخوض أكثر في تفاصيل الموضوع وخاصة في إطاره الشرعي نستعرض آراء العالم الفقهي العثماني لطفي باشا الصدر الأعظم سابقا في عهد الخليفة سليمان القانوني من خلال ما قدمه لنا في كتابه خلاصة الأمة في معرفة الأئمة، المبني على مستندات فقهية وشرعية، فيقول بخصوص مسألة الخليفة أو السلطان أن من شروطها عند الشرع هي المبايعة والعلية والقهر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أطيعوا السلطان ولو أمر عليكم عبد حبشي" والمراد من الخليفة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإذا اجتمعت الشروط المذكورة في شخص وهي الغلبة والقهر وإقامة الدين بالعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، استحق إطلاق لقب الإمام والخليفة والوالي والأمير بلا خلاف، ويجب لقوله صلى الله عليه وسلم: "من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية"، وقال: "من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق"، وقال: "وأطيعوا السلطان ولو أمر عليكم عبد حبشي أجدع"، كما اتفق العلماء على أن المرء يصير سلطانا بأمرين الأول بالمبايعة والثاني أن ينفذ حكمه².

أما بخصوص مسألة النسب القرشي وهي بيت القصيد في إشكالية الخلافة والتي قال فيها صلى الله عليه وسلم: "الأئمة من قريش" هو قول متفق عليه من أهل السنة والجماعة، فهذا الحديث حسب لطفي باشا محمول على أوائل زمن الإسلام لا على هذا الزمان أي زمان العثمانيين، فأما إذا كان المراد من قوله الأئمة من قريش ولا يجوز غيرهم، لأن الإمامة من زمان خلافة أبي بكر الصديق إلى نهاية الخلافة العباسية فبعد الخلافة العباسية يكون الأمر مشكلا، كما قال أسعد الدين التفتازاني: "وقال بعضهم الأمر مشكل، لأن بعدهم لا يكون خليفة لأن الخلفاء الراشدين تمت بهم خلافة النبوة، ولا يكون إماما أيضا لأن الإمام من قريش وأما حال السلاطين يصير بالغلبة والغصب لا باللياقة والاستحقاق فحينئذ لا يجوز إطلاق اسم الإمام والخليفة للسلاطين إن كانوا من غير قريش"³.

¹ مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية (1517-1924)، ط، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2000، ص 25.

² لطفي باشا، خلاص الأمة في معرفة الأئمة، دراسة وتحقيق ماجدة مخلوف، ط1، دار الأفاق العربية، مصر، ص 43.

³ نفسه، ص 44.

فمن قول العالم التفتازاني نستنتج أن الخلافة لا تجوز في غير النسب القرشي، لذلك ما هو رد لطفي باشا عليه: "فهذا القول باطل مردود خارج عن أهل السنة والجماعة وموافق لقول الإمامية من الروافض وهم الذين قالوا بالنص الجلي على إمامة علي ويقولون بإمامة اثني عشر إماما..." مؤكدا قوله بفتاوى علماء عصره وسابقه من فتاوى التاتارخانية¹ بأن السلطان هو الولي الذي لا والي فوقه، وكان كذلك الخلفية وأن المرء يصير سلطانا بأمرين بالمبايعة، وتصير المبايعة بمبايعة أشرفهم وأعيانهم، والثاني أن ينفذ حكمه، أما إذا عجز عن قهرهم، فلا يصير سلطانا، فإذا كان سلطانا بالمبايعة فجاز إن كان له قهر وغلبة يكون سلطانا ولا يعزل بارتكاب المنكر لأنه لو انعزل يصير سلطانا بالقهر والغلبة فلا يفيد العزل إن لم يكن له قهر وغلبة².

ليختم كلامه بالقول: "وقد انتهى الكلام في بيان الإمامة والخلافة فمن أنكر بعد إطلاق اسم الإمام والخليفة لسلطان الأمم وهو السلطان بن السلطان سليمان فإن ابن السلطان سليم خان ... فعليه البيان بالنقل الشرعي دون العقلي"³، وبذلك يكون قد اكتمل اللواء الخامس المبارك كما وصفه المؤرخ المغربي أبو عبد الله الكنسوسي، وهو الخلافة رقم خمسة في تاريخ المسلمين وهي خلافة آل عثمان⁴. ومن خلال بيان خلافة آل عثمان نتساءل عن موقف الأشراف منها في العالم العربي والإسلامي؟ وكذلك ما موقفها هي في حد ذاتها اتجاههم؟.

للإجابة على هذين السؤالين يستوجب البحث عن ذلك في حيثيات الأحداث التاريخية فبالنسبة لأشراف المغرب الأقصى فقد كان موقفهم واضحا من الخلافة العثمانية وهو الرفض والانتواء على الذات في تجربة استثنائية ناجحة، استطاعت من خلالها النأي بنفسها من الزحف العثماني بغض النظر عن بعض المراحل التي لنا فيها حديث لاحقا.

¹ هو كتاب في الدين والأصول يحتوي على فتاوى شرعية مقسمة في 20 مجلدا كل مجلد يتضمن قضية أو مسألة دينية، تم تأليفه من قبل العالم الشيخ فريد الدين بن العلاء الأندريتي الدهلوي المتوفى سنة 876هـ/1471م، ويعتبر موسوعة فقهية وتسمى بالفتاوى التاتارخانية نسبة للأمير والوزير الأكبر الهندي تاتارخان الذي أمر العلامة فريد الدين بتأليف الكتاب على المذهب الحنفي للمزيد ينظر: الشيخ فريد الدين بن العلاء الأندريتي الدهلوي الهندي، الفتاوى التاتارخانية، ترتيب وجمع وتدقيق بشير أحمد القاسمي، م01، ط01، مكتبة زكريا بديونتي، الهند، 2010، ص08.

² لطفي باشا، مصدر سابق، ص 50.

³ نفسه، ص 68.

⁴ الكنسوسي، مصدر سابق، ص 61.

والموقف ذاته انتهجه الأشراف في اليمن أين لقي العثمانيون مقاومة شديدة من طرف اليمنيين وهم الطاهريون في عدن والزيدية في صنعاء والمدن الأخرى¹. ويجب التنبيه أن كل من الطاهريين والزبيديين كانوا أشرافا ولكن منهجهم في الخلافة مختلف فالأوائل كانوا من أهل السنة والجماعة أما الفريق الثاني فكانوا على المنهج الزيدي ولهم نظرية خاصة في الإمامة والحكم وتصنف ضمن النظريات الشيعية، فمن شروط الإمامة عند الزيدية هي:

- 1- الإمامة تكون باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص، فقالوا بالإمامة لعلي ثم لابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه علي زين العابدين ثم لابنه زيد بن علي.
- 2- أن يكون الإمام مكلفا، ذكرا، حرا، مجتهدا، علويا، فاطميا، عدلا، سخيا، ورعا.
- 3- شروط الإمامة بالسيف².

ومن هذا نلاحظ مدى الفرق الشرعي بين النظريتين السنية والشيعية وهو ما ذكره العالم الجليل لطفي باشا في السابق، لذلك نجد الأشراف الزبيديين يقومون بالعديد من الثورات على الحكم العثماني في اليمن وأخطرها ثورة الإمام القاسم ودعوته سنة 1006هـ/1597م ضد العثمانيين، وحارب كذلك الصوفية المواليين للعثمانيين، حيث كانت طبيعة دعوته دينية خالصة وهي أحقية أهل البيت بالحكم وفضلهم على سائر الناس، وهذه النقطة أكد فيها الإمام القاسم أنها لا يجب التفاوض عليها حيث قال: " وأقسم بالله لأبلغن في حركم وقتالكم كل مبلغ"³.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن البنية السوسيودينية اليمنية تشبه إلى مدى كبير جدا البنية السوسيودينية والسياسية بالنسبة للمغرب الأقصى من حيث التماسك والقوة ولو كانت أقوى منها في اليمن من حيث العصبية، فالخلافة العثمانية ما بين 1538-1547 أرسلت نحو ثمانون ألف جندي حيث قال عن هذه

¹ سهيل صابان، "نظرة عامة في السياسة العثمانية لتثبيت الحكم باليمن من واقع دفاتر المهمة (1559-1591)", أعمال المؤتمر الدولي الأول "اليمن في العهد العثماني الأول (1517-1635)", إعداد محمد شكر، مراد أوننتغ وآخرون، ط1، تركيا، 2016، ص 131.

² أميرة علي وصفي، "العثمانيون والإمام القاسم محمد بن علي في اليمن (1598-1620)", رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، 1980، ص 12-20.

³ حسين عبد الله العمري، "موقف العثمانيين والقوى اليمنية المعارضة لدعوة الإمام القاسم بن محمد"، أعمال المؤتمر الدولي الأول، "اليمن في العهد العثماني الأول (1517-1635)", إعداد محمد شكر، مراد أوننتغ وآخرون، ط1، تركيا، 2016، ص 399.

القوة أحمد جلبي دفتر دار خلال تلك الفترة: "ما رأينا مسيكا مثل اليمن لعاكرنا كلما جهزنا إليها عسكريا ذابت، كما يذوب الملح، ولا يعود منهم الفرد النادر"¹، ويجب التنويه هنا إلى أن الخلافة العثمانية ربما لم يكن يريد تكرار سيناريو التجربة اليمينية في المغرب الأقصى، بالرغم من اختلاف الجانبين اليمني والمغربي سواء من حيث المذهب الديني والتعصب إليه ومن حيث القوة، فاليمينيين استفادوا كثيرا من الدعم الشيعي سواء في إيران أو العراق، لذلك استمرت ثورتهم، واستمرت معها السياسة العثمانية العسكرية حتى إخضاعها، إذن فالأمر يختلف بين الجانبين، بحيث لم تخمد ثورة الزيديين حتى عام 1569م/976هـ، الذي يعتبر الفتح الثاني لليمن بقيادة سنان باشا في عهد السلطان سليم الثاني (1566-1574)².

أما بخصوص موقف الأشراف في الحجاز والشام، فقد كان مسالما وعبروا عن خضوعهم للخلافة العثمانية لذلك نجد الخلافة العثمانية تقف موقف ايجابي اتجاههم، ولم يقتصر الأمر على أشراف الحجاز والشام فقط بل حتى أشراف اليمن الطاهريين وأشراف المغرب السعديين، حيث وقفت موقف محترم اتجاههم ويظهر ذلك في الكثير من النصوص والخطابات المبعوثة أو المرسلة لهم، ففي رسالة أرشيفية مؤرخة في 22/10/978هـ-19/03/1571م وجهها السلطان العثماني إلى سلطان المغرب جاء في فحواها: "وقد أعرينا في خطابنا الهمايوني السابق عن رغبتنا في إحلال الصلح والصلاح بينكم، لا سيما وأنكم من سلاطين المسلمين، بالإضافة لكونكم من الأشراف والسادات"³.

وهذا اعتراف ضمني من الخليفة العثماني بقيمة، ومكانة الأشراف شرعا وفي رسالة أرشيفية أخرى بعث بها الخليفة العثماني سليمان إلى محمد الشيخ السعدي بتاريخ 959هـ/1552م يثني فيها على الشرفاء ومكانتهم الاجتماعية والدينية بقوله: "وأنت من أولاد سيد المرسلين وقائد الغر المدجلين، صلوات

¹ عبد الكريم علي صالح العزيز، "التنظيم والتقسيم الإداري أثناء الحكم العثماني الأول في اليمن 1517-1635، أعمال المؤتمر الدولي الأول " اليمن في العهد العثماني الأول(1517-1635)، إعداد محمد شكر، مراد أونتنغ وآخرون، ط1، تركيا، 2016، ص 43.

² أباضه، مرجع سابق، ص 129.

³ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 14، خطاب همايوني إلى سلطان فاس، حكم 625، تاريخ 978/05/22.

الله عليه وسلم، وقد سمعنا بسدنتنا العلية، حسن إقدامك، وكمال دينك وديانتك، وخلوص طويتك، وصفاء سيرتك وقيامك في الذب عن المسلمين، وقمع أعداء الدين ولذلك الشأن حباك إحساننا"¹.

كما يطلعنا المؤرخ العراقي فاضل بيات على بعض رسائل السلاطين العثمانيين للأشراف، ففي رسالة مؤرخة في 957هـ/1550م من الخليفة العثماني إلى طاهر الدين الشريف اليميني بعد التمرد الذي خاضه ضد الخلافة العثمانية، حيث جاء في متنها: "لكن غلب جانب حلمنا عليه من تعجيل النكاية إليه كونه من سلالة سيد المرسلين ومن آل النبوة المطهرين فلزم على ناموس سلطاننا الشريفة، ووجب علينا أن ننبه قبل اتساع الحرب عليه"². ومن هذا يجب التبيين إلى مدى الحرص العثماني على عدم الخوض في غمار الحروب مع الأشراف، ونبرة هذا الخطاب نجدتها متقاربة، ومتشابهة بالنسبة للخطاب السابق الذي ذكرناه حول رسالة الخليفة العثماني إلى محمد الشيخ السعدي.

هذا من حيث الجانب المعنوي أما من الجانب الواقعي الذي يمثل الموقف الأصح والحقيقي فالمؤرخ الفرنسي روبرت مانتييران R. Mantran يشيد بسياسة الخلافة العثمانية اتجاه الأشراف بقوله: "أما الأشراف سلالة النبي (صلى الله عليه وسلم) فقد استفادوا بهذه الصفة من المراعاة والامتيازات والحصانات التي عززها العثمانيون، والتي أثارت قدرا كبيرا من الحسد، بحيث أن عددا كبيرا من المسلمين كانوا يسعون إلى الاندماج في صفوفهم"³، ولعلم أهم سياسة أو عمل قامت به اتجاههم هو إشراكهم في الحكم من خلال ما يعرف بنظام الشرافة وهو نظام يقوم على الثنائية في الحكم، وقد تم تطبيقه في الحجاز حيث كان إلى جانب حكم الوالي العثماني وجود نظام الشرافة أو حكم الأشراف⁴، وهو الحال بالنسبة لليمن ويظهر ذلك من خلال أمر سلطاني إلى الوزير حسن باشا في 11 ديسمبر 1587 جاء فيما يلي: " أن المطهر كان على صدق وإخلاص مع دار سعادتنا اسطنبول ولذلك تم منحه السنجق، كما تم منح أولاده السناجق"⁵.

¹ أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر المهمة، الديوان الهمايوني رقم 888، رسالة من خليفة العثماني سليمان القانوني إلى محمد الشيخ السعدي، بتاريخ: أول محرم 959هـ/ 1557م، ص 09. (مركز التاريخ العربي للنشر - اسطنبول -).

² بيات، (البلاد العربية في الوثائق العثمانية...)، مرجع سابق، ص 287.

³ مانتييران، مرجع سابق، ص 571.

⁴ وصفي، مرجع سابق، ص 24.

⁵ صابان، مرجع سابق، ص 345.

وانطلاقاً من ذلك نستخلص أن الخليفة العثماني هو الحاكم والخليفة الأول للدولة الإسلامية العثمانية بغض النظر عن وجود بعض الحكام الأشراف في الأماكن البعيدة كمراكش، وما وراء النهر والهند، ولكن كان هؤلاء بعيدين بحيث لا يمكنهم التأثير في الأحداث الكبرى بالعالم¹.

1-2 موقع المغرب الأقصى ودوره في محور الصراع العثماني الإيبيري:

يعتبر المجال الجغرافي والاقتصادي من أهم المحاور التي وجهت العلاقات الدولية في العصر الحديث، والذي تجلى في ذلك الصراع الحضاري بين العالمين الشرقي الإسلامي والغربي الصليبي، حيث سعى كل طرف إلى محاولة اختراق منظومة الآخر، بحيث كان المجال الاقتصادي أهم عامل ومحرك لهذا الصراع وكانت الجغرافيا موقعا له بواسطة سياسات التوسع والامتداد.

وفي إطار هذا التنافس أو الصراع الحضاري، سعت الدول الأوروبية وعلى رأسها إسبانيا والبرتغال إلى محاولة تطويق العالم الإسلامي والوصول إلى مصادره الاقتصادية وتمويلها ولذلك قامت البرتغال التي كانت قوة بحرية ناشئة في العصر الحديث برسم سياسة توسعية ذات طابع اقتصادي وديني، لتغيير محاور الاقتصاد العالمي آنذاك الذي كان بيد المسلمين، وفي إطار ذلك قامت سنة 1415م، بأول عملية غزو خارج حدودها باحتلال مدينة سبتة المغربية واتخاذها كقاعدة لحملاتها القادمة، فسياستهم كانت تهدف إلى حماية سفنهم من هجومات الأساطيل الإسلامية، وكذلك ضمان طريقهم التجاري البحري إلى غرب إفريقيا أولاً، ثم إلى الهند والبرازيل².

لتشرع بعدها البرتغال في سياستها التوسعية والاقتصادية والدينية من خلال إرسال رحلات استكشافية لبلاد الهند، أين تكمن منابع المنتجات التي كان يحتكرها التجار العرب والمسلمين، فكان اكتشاف ذلك الطريق سنة 1492 بواسطة البحار فاسكو ديجاما، ومنه بدأت القوة البرتغالية تتغلغل إلى مناطق الثروة³.

¹ برنارد لويس، اسطنبول حضارة الخلافة الإسلامية، تعريب سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، الرياض، 1982، ص 63.

² المريني، مرجع سابق، ص 88.

³ ميلاد المقرحي، تاريخ أوروبا الحديث، 1453-1848، ط1، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 1996، ص 64.

وتسعى إلى رسم أو تجسيد منطقتها السياسي، والديني في المناطق الإسلامية التي وصلها المد ويظهر ذلك في الرسائل المتبادلة بين الملك البرتغالي مانويل الأول (1495-1521) والمستكشف فاسكو ديجا ما Vasco da Gama (1460-1523م)، حيث جاء على لسان الأول: "هذه المغامرة النبيلة، والمنافع التي ترجى من ورائها مرضاة الله....فما هو إلا أن تفتح الهند حتى تبلغ رسالة سيدنا وإلهنا يسوع إلى أولئك الذين لا يعلمون عنه شيئاً"، وكان رد ديجاما على الملك كالتالي: "أنا فاسكو ديجاما المكلف من ملكي باكتشاف بحار الشرق وبلاد الهند الشرقية، أقسم برمز هذا الصليب الذي أضع عليه يدي بأن أرفعه عاليا مطويا في سبيل خدمة الله ... أينما حلت سواء في بلاد المغرب، أو في بلاد الشعوب الأخرى من أي جنس ولون"¹.

فمن خلال ذلك تمكن البرتغاليون في ظرف وجيز من الوصول إلى سواحل إفريقيا الشرقية وسواحل اليمن وعدن وسواحل الهند التي كانت تحتوي على مراكز التجارة البحرية والتي كانت مصدر تجاري عالمي حيث كانت هرمز مفتاح الخليج العربي في مجموعة الطرق التجارية الدولية بين الشرق والغرب، حيث كانت أكبر مدينة في الخليج كان يرتادها التجار الأجانب²، كما كانت موانئ الهند ذات قيمة تجارية كبرى كميناء المليبار الذي كان مصدرا للفلل الذي اشتهر بكثرة في أواسط الأوروبيين، وكذلك سواحل كجرات التي امتازت بتصدير الأقمشة الرقيقة الغالية حيث كانت تشحن سفن كثيرة تبلغ الخمسين سنويا إلى الشرق والغرب³.

كما تعتبر كاليكوت مركزا هاما لتجارة التوابل في الهند وقد كان العرب والمسلمين ينقلون إليها الأحجار الكريمة والمنسوجات على مراكبهم ثم يحملون من التوابل إلى هرمز وعدن اليمنية⁴، فاليمن كان يمثل موقع استراتيجي هام، حيث كان مركز عبور للمواد الآتية من الهند مروراً بالبحر الأحمر لتصل إلى

¹ شوقي أبو خليل، وادي المخازن، معركة الملوك الثلاثة، ط1، دار الفكر المعاصر، لبنان، 1988، ص 22-23.

² george wiliam Stripling, the Ottoman turks and the arabs 1511-1574, the university of illemois pres mbrand, 1942, p24.

³ غسان علي محمد الرمال، " صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلاد"، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الملك عبد العزيز السعودية، سنة 1981، ص 23.

⁴ نغم محمد علي جواد، "تأثيرات الديانة الكاثوليكية والبروتستانتية خلال القرن السادس عشر والسابع عشر في العالم العربي"، أطروحة دكتوراه، العراق، 2013، ص 62.

مصر ومن هناك إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن أجل ذلك حاول البرتغاليون السيطرة على ميناء عدن سنة 1513 لكنهم فشلوا¹، كما قاموا أيضا بإنشاء محطات مسلحة لتموين أساطيلهم ومراقبة منافذ البحار الهندية وحراستها، واتخاذها مركزا لتجارة التوابل².

ولتعزيز نشاطهم قامت الاستراتيجية البرتغالية باستعمال القوة العسكرية لبسط نفوذها وخاصة في ظل غياب خصم قوي لها يمنعها من ذلك سواء في مملكة المغرب الأقصى التي تعتبر بوابة أو قاعدة تلك السياسة أو في البحر الأحمر الذي كان تحت سيطرة المماليك في مصر الآخذين في التراجع وصولا إلى الإمارات الإسلامية في الهند التي كانت ضعيفة القوة نسبيا، وتظهر ملامح أو بدايات الهيمنة البرتغالية سنة 1509 في عهد القائد البرتغالي السفاح البوكيرك Albuquerque الذي قاد زمام حكم المستعمرات، أين كانت المدن العربية والإسلامية تعاني من وحشيته، حيث كان يضمم حقدا لا مثيل له للعرب والمسلمين، حيث صرح عند احتلاله لمدينة كوا الهندية الساحلية بأنه وضع السيف على رقبة كل عربي حيثما أمكنه العثور عليه وكان إفلاته من يديه من المحال وأضاف: "وقد ملأت بهم المساجد وأضرمت فيهم النار"³.

ففي سنة 1509 كانت موقعة ديو التي انتصر فيها البرتغاليون على سفن سلطان مصر الغوري، وخلالها سيطروا على المحيط الهندي، ومن بعد على بحر الصين، وظلوا لحوالي قرن ونصف كما ذكر المؤرخ الهندي المليباري يكسبون خلالها كل سنة من الهند مليون ونصف ديوك ذهبيا يبعثون بثلاثها إلى لشبونة، فأثرت ثراء فاحشا وازدهرت شواطئ المحيط الأطلسي مقابل ركود ثغور المتوسط الأبيض والبحر الأحمر⁴، وفي سنة 1515 أمر الملك البرتغالي مانويل بتجهيز حملة بحرية بقيادة فرانسيسكو دالميدا

¹ محمد المصالح بوقشور، "اليمن في العهد الأول من خلال المصادر الأجنبية"، أعمال المؤتمر الدولي الأول "اليمن في العهد العثماني الأول (1517-1635)"، إعداد محمد شكر، مراد أوننتغ وآخرون، ط1، تركيا، 2016، ص 290.

² علي جواد، مرجع سابق، ص 66.

³ الشيخ أحمد زين الدين المليباري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تقديم وتحقيق محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء، لبنان، ط1، 1985، ص170.

⁴ نفسه، ص23.

تهدف إلى السيطرة على حركة التجارة البحرية، وإغلاق معايرها التقليدية عند البحر الأحمر والخليج العربي ومحاولة حرفها على طريق رأس الرجاء الصالح¹.

لتنوالى الحملات البحرية العسكرية بقيادة قائد المستعمرات البوكيرك في المحيط الهندي الذي كان يهدف إلى السيطرة على الملاحة في المحيط من خلال السيطرة على هرمز واتخاذها قاعدة لجيوشه ثم سبو وعدن الاستراتيجيتان وكذلك السيطرة على ملقا في بلاد الهند للسيطرة على مضيقها وكذلك الحال بالنسبة لمدينة سيلان²، وفي إطار توسعهم حفظت لنا المصادر التاريخية الكثير من جرائمهم وممارساتهم الهمجية في كل المجالات، ففي الجانب الاقتصادي عملوا على السيطرة على حركة الملاحة والتجارة وأسسوا نظاما جديدا يقوم على الاحتكار والفساد المالي والإداري وخاصة في فترة حكم لوبو سواريز على المستعمرات (1515-1518) خلفا للبوكيرك، حيث عرف عهده زيادة الاحتكار البرتغالي للتجارة مما سبب معاناة للتجار والسكان العرب والمسلمين إضافة إلى ارتفاع الضرائب التي كانوا يفرضونها على الموانئ الإسلامية³.

أما ممارساتهم في الجانب الإنساني فكانت أكثر همجية وظلما حيث تنقل الكتابات التاريخية العديد من ذلك، ففي رسالة أرشيفية برتغالية بتاريخ أبريل 1498 تتحدث عن اعتقال بحارة مسلمين بممباسة حيث جاء وصف الشاهد كالتالي: "أمر ديجاما بربطهما بالحبال ثم أمر بتعذيبهما بسكب زيت الزيتون الملتهب على جسميهما العاريين، حيث يباشر بالسكب على الظهر ثم الصدر ثم البطن، ثم الأعضاء التناسلية ثم قاموا بكسر كتف الأول... أما الثاني فقد مات في صباح اليوم التالي وألقوا به في البحر أيضا"⁴.

كما كان للقائد ألفونسو البوكيرك Afonso de Albuquerque نصيبا مهما في تعذيب السكان المسلمين ووصلت به الجرأة إلى حد التفكير في نبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم بحثا عن الكنز حسب معتقداتهم⁵، فالبرتغاليون كانوا في كل مكان يحتلونهم مثلا للعنف وعدم التسامح، حيث ارتكبوا في

¹ بشير زين العابدين، البحرين وعلاقتها الخارجية إبان القرن السادس عشر ميلادي، ط1، مطبعة جامعة البحرين، 2003، ص 43.

² المليباري، مصدر سابق، ص 171.

³ زين العابدين، مرجع سابق، ص 48.

⁴ حنظل، مرجع سابق، ص 125.

⁵ بيهم، مرجع سابق، ص 129.

منازعاتهم مع التجار المسلمين في المحيط كل أنواع القسوة حتى قضاوا عليهم، وتتلخص سياسة البرتغاليين العنيفة في إحدى أراجيز ابن ماجد الآتية:

وجاء كاليكوت وأخذ الفائدة عام تسعمائة وست زائدة
وسار فيها ببعض الإسلام والناس في خوف واهتمام¹.

وانطلاقاً من هذا الاستعراض لحيثيات وممارسات السياسة البرتغالية في سواحل الهند الإسلامية وشرق إفريقيا نستخلص حجم التهديدات أو الخسائر التي لحقت بالتجارة العالمية التي كانت بيد المسلمين، فقبل سنة 1500م كانت الموانئ الإسلامية مزدهرة ومملوءة بكل أنواع البضائع والتوابل وبعدها لم يجد التجار الوافدون عليها من إيطاليا أي شيء إلا القليل، بينما كانت سفن البرتغاليين تحمل آلاف الأطنان متجهة نحو لشبونة²، وأمام هذا الوضع أصبحت الطرق التجارية الإسلامية العالمية في حالة ركود وهما محوران:

1- المحور الأول ويمثل الطريق البري بلاد الهند، الشرق الأدنى، بلاد العرب وبلاد الأناضول بحيث يتشكل من طريقين رئيسيين بريين: الطريق الأول الذي يبتدئ من بلاد الهند الداخلية ثم نهر جيحون وبخارى مروراً بالبحر الأسود حتى يصل إلى طرابزون ثم القسطنطينية عاصمة الخلافة العثمانية³، حيث كانت اسطنبول المحطة النهائية لعدة طرق تجارية من آسيا ومنها تنفرع باتجاه أوروبا وأدرنة⁴، كما كانت أرض روم العثمانية ملتقى القوافل والطرق التجارية آنذاك حيث كانت البضائع تصل إليها من بلاد الهند مروراً ببلاد فاس ثم تشحن في القوارب إلى بغداد مرة في مياه دجلة وصولاً إلى مدينة أرض روم العثمانية⁵.

¹ المليباري، مصدر سابق، ص 153.

² طه حسين عوض، "أهمية السواحل اليمنية للعثمانيين 1517-1645"، أعمال المؤتمر الدولي الأول "اليمن في العهد العثماني الأول (1517-1635)"، إعداد محمد شكر، مراد أوننتغ وآخرون، ط1، تركيا، 2016، ص 359.

³ سالم علي، مرجع سابق، ص 140.

⁴ بيتر شوجر، أوروبا العثمانية (1354-1804)، ترجمة عاصم المسوقي، ط1، دار الثقافة الجديدة، مصر، 1998، ص

95.

⁵ ماري ميلز باتريك، سلاطين بني عثمان، ط1، دار عز الدين للطباعة والنشر، لبنان، 1986، ص 21.

أما الطريق التجاري البري الثاني فكانت بلاد الشام محطته النهائية انطلاقاً من بلاد الهند ومروراً بخليج العرب، حيث كانت البضائع تشحن من بلد الشرق الأدنى ثم تصل إلى الخليج العربي عبر بلاد فارس، وتصل إلى البصرة وتنتقل براً إلى موانئ المتوسط الشرقية ببلاد الشام، ومنها تصدر إلى أوروبا¹.

2- وفيما يخص المحور الثاني وهو الطريق البحري فقد كان مساره ينطلق من بلاد الهند ومروراً بالمحيط الهندي والبحر الأحمر وصولاً إلى الإسكندرية ومنها إلى أوروبا².

ومع مجيء البرتغاليين تغيرت معالم الطرق التجارية العالمية حيث ظهر طريق تجاري دولي جديد أدى إلى تعويض تجارة مصر والخلافة العثمانية وتجارة المدن الإيطالية³، الذي ينطلق من بلاد الهند والشرق الأدنى مروراً بالمياه المحيطة بالهند ورأس الرجاء الصالح وصولاً إلى السواحل الغربية لشبونة المرسى النهائي. وفي ظل هذه الأوضاع تأثرت التجارة العربية والعثمانية بدرجة كبيرة خصوصاً بعد قيام البرتغاليين بالتحالف مع الدولة الصفوية ببلاد فارس حيث أصبح طريق بلاد الهند إلى بلاد الأناضول تحت تهديد مباشر، فالتجار الإيرانيين الذين كانوا يقصدون بورصة لبيع الحرير و سلع ثمينة أخرى مثل البورسلين الصيني والمسك والراوند(نبات ذو فوائد طبية) وشراء القماش الأوروبي والحرير والمنسوج والأصوان قبل عودتهم إلى إيران قد انكمش وتوقف⁴.

انطلاقاً من هذه الأوضاع بدأت الخلافة العثمانية في وضع استراتيجية شاملة للقضاء على المد البرتغالي في المحيط والخليج، وهي قائمة على سياسة التحالف أحياناً والامتداد أحياناً أخرى متى سمحت لها الفرصة، فبالنسبة للسياسة الأولى القائمة على التحالف، قامت في بدايات القرن 16 م بالتحالف مع ممالك مصر من خلال تشكيل قوة عسكرية بحرية لمجابهة البرتغاليين، حيث تم تأسيس أسطول مشترك قاعدته في البحر الأحمر بقيادة القائد العثماني سلمان الرئيس، يأتي ذلك بعد استغاثة سلطان مصر

¹ سالم علي، مرجع سابق ص 139.

² حنظل، مرجع سابق، ص 90.

³ نتاليا نيكولاي فناتو مانوفيتش، الدول الأوروبية في الخليج العربي من القرن 16 إلى القرن 19، ترجمة نجم الدين سطاس، تقديم ومراجعة قسم الدراسات والنشر والشؤون الثقافية، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، قطر، 2006، ص 64.

⁴ كات فاليت، التجارة بين أوروبا والبلدان الإسلامية في ظل الدولة العثمانية، تعريب أيمن الأرمنازي، ط1، مكتبة العبيكان، السعودية، 2004، ص 202.

الغوري، حيث أمده السلطان العثماني بـ 2000 مجاهد، وكانت أولى نشاطات ذلك الأسطول في صد الهجوم البرتغالي على بلد الحجاز (مياه جدة) بقيادة لويس سواريز سنة 923هـ/1517 الذي انتهى بالفشل أمام القوة المشتركة¹.

كما قامت الخلافة العثمانية بإقامة تحالفات عسكرية مع سلاطين الهند، وذلك بعد سفارة سلطان الهند علاء الدين إلى القسطنطينية سنة 1547 لطلب النجدة والدعم ضد البرتغاليين المتحالفين مع ميرزا أحد الأمراء المحليين ببلاد الهند أين قام على إثرها الخليفة العثماني بإنجاده، وتظهر مظاهر الإجلال من الفعل العثماني في رسالة سلطان الهند لسليمان القانوني سنة 1555: "أيها الملك المحبوب من الله الذي غمرك الباري تعالى بمواهبه، والذي سقيت من ندى الخالق المحيي سلطان البرين وخافان البحرين... أنت الذي جمعت في شخصك القوة والفخر والقدرة والخلافة والفتنة والعدل والشرف... السلطان سليمان خان"².

أما بالنسبة لسياسة التوسع والامتداد لحماية طرق التجارة العالمية وإعادة إحيائها وحماية الأقطار والمقدسات الإسلامية، وخاصة مع تولي الخليفة سليم الأول (1512-1520) قيادة الخلافة العثمانية الذي أدرك دلالات الثروة المحيطية، وخصوصا ما عرفه به من قوة الشخصية وحبه للتوسع، وفي عهد الخليفة سليمان القانوني وجد نفسه في صراع عالمي مع القوى الأيبيرية التي سيطرت على أواسط أوروبا وغربها وبدأت تنعم بمراد الطرق المحيطية الجديدة والمستعمرات، لذلك سعى العثمانيون لاسترجاع التجارة الدولية القديمة لمصر³، وعلى إثر ذلك قام العثمانيون بالتوسع جنوبا على مصر التي ضموها لمجالهم السياسي سنة 1517 في عهد السلطان سليم الأول، كما قاموا بالتوسع إلى ناحية الجنوب الشرقي ببلاد فارس مركز قوة الصفويين الشيعة المتحالفين مع البرتغاليين، حيث تم القضاء أو الحد من نفوذهم بعد حملة

¹ الرمال، مرجع سابق، ص 154.

² يوسف بك أصفاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، من أول حتى الآن، تقديم، محمد زينهم محمد غريب، ط1، مكتبة مدبولي، مصر، 1995، ص 25.

³ أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ط1، دار الشروق، 1993، القاهرة، ص 106.

جالديران سنة 1514¹، التي انتصر فيها العثمانيون وتمكنوا بعدها من حماية الطريق التجاري الدولي البري الذي يربط بلاد الأناضول ببلاد الهند.

وانطلاقاً من ذلك بدأت الخلافة العثمانية في استرجاع الطرق البحرية والبرية، وإعادة الروح إليها، حيث يقول المؤرخ خليل إنجاليك أنه بفضل ذلك التوسع استطاعت الدولة العلية إحياء وضمان استمرارية النشاط التجاري بشكل مباشر من الهند وإندونيسيا إلى الإمبراطورية العثمانية طيلة القرن 16، وعلى الرغم من النقص أحياناً، فقد كان يجري تبادل واسع للبضائع الهندية مع البضائع الأوروبية في أسواق حلب والقاهرة واسطنبول وبورصا، وفي سنة 1554 قام البنادقة وحدهم بشراء 6000 قنطار من التوابل في الإسكندرية². ففي ذلك الإطار قامت الدول العثمانية بمجهودات حربية مضاعفة لأجل إنهاء الهيمنة البرتغالية وإعادة الاعتبار للأراضي العثمانية في محور التجارة بين الشرق والغرب، فالتجارة العالمية أصبحت تمر بأراضيها، رغم محاولة الدول الأيبيرية خنق هذه التجارة، لكنها رغم ذلك حافظت على وجودها ولم تختنق بصورة نهائية فإن القسم الذي كان يتجاوز الموانع كفيل بإحياء المناطق التي يعبر منها لدرجة ما³.

ويحفظ لنا التاريخ بالكثير من المعارك والبطولات التي خاضها العثمانيون في المحيط الهندي والسواحل العربية، بعد ما أصبح البرتغاليون لا يتورعون من المجاهرة بأن تدمير المقدسات الإسلامية في الحجاز يأتي في مقدمة أهدافهم، حيث عملوا على إقامة حلف صليبي مع الأحباش المسيحيين لتحقيق ذلك، واستغلوا حالة الضعف التي كانت السائدة بعد عجز المماليك عن حماية العالم العربي من البرتغاليين والإسبان والصفويين الشيعة⁴، ففي الفترة من 1530 إلى 1548 خاضت الدولة العلية حروباً

¹ هي موقع صحراوي ببلاد فارس وقفت عليه المعركة الكبيرة بين القوات العثمانية والقوات الصفوية حيث تم على إثرها سقوط الصفويين، ودخول العثمانيين لتبرير في 06 سبتمبر 1514 للمزيد ينظر: نايف عيد السهيل، العلاقات السياسية بين العثمانيين والصفويين منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة جالديران (907-920هـ/1502م-1514)، حوليات مركز والدراسات التاريخية، مصر، 2009، ص30.

² خليل إنجاليك، تاريخ الخلافة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرنؤوط، ط01، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2002، ص 197.

³ خليل الساحلي أوغلو، من تاريخ الأقطار العربية بين العهد العثمانية، بحوث ووثائق وقوانين، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسكا) اسطنبول، 2000، ص280.

⁴ زياد أبو غنيمة، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك، د ط، دار الفرقان، لبنان، 1983، ص 120.

عديدة ضد البرتغال حيث استعد الأسطول العثماني نشاطه بصفة رسمية وقوية بداية من 1530 بعد النكسات التي واجهها أثناء العمل المشترك مع المماليك، ففي هذه الفترة تدخل العثمانيون وبشكل متقطع لدعم الصوماليين في شرق إفريقيا ضد الممالك المسيحية الإثيوبية المدعومة من البرتغاليين¹، كما قامت في هذه السنة (1530) بالاستيلاء على العراق، والوصول إلى الخليج العربي، وبها تم إنزال الأسطول العثماني، الذي قام بعدة حملات منها حملة يونيو 1538 بقيادة سليمان باشا، حيث كانت في إطار التعاون المشترك مع الهنود، أين تم على إثرها دعم حاكم كجرات ضد البرتغاليين والمغول المتحالفين معهم²، حيث خرج الأسطول العثماني من مصر، لكنه فقد اتصالاته مع السامري حاكم كجرات، بسبب انهزام هذا الأخير في معركة مباغثة أمام البرتغاليين في 20 شباط 1538 لتعود العملة أدرجها³.

لتشهد الفترة اللاحقة كذلك عدة معارك بحرية من أشهرها حملة قائد الأسطول العثماني في المحيط الهندي بييري ريس حيث تمكن سنة 1552 بإبعاد البرتغاليين من مسقط⁴، كما تعد حملات الريس سيدي علي (1553-1556) الذي خلف بييري ريس من أكبر المعارك التي كبّدت البرتغاليين الخسائر الجسيمة حيث قام سنة 1554 بمعركة مضيق هرمز التي استمرت ثمانية عشر ساعة⁵. ويجب التنويه هنا إلى أن الخلافة العثمانية استحدثت منصب قيادي عسكري خاص لمحاربة البرتغاليين، والذي يعرف بقابودان البحر الأحمر، حيث كان أول من أسند إليه هو محي الدين بييري ريس الذي قام سنة 1552 بإقامة حاجز بحري في الخليج، العربي حيث سيطر على السويس بعد حملة من 16 سفينة وألحق الهزائم بالبرتغاليين في مسقط وسيطر عليها لفترة وجيزة وحاصروهم لكنه فشل⁶. إن هذه المعارك كبّدت البرتغاليين خسائر اقتصادية كبيرة تتضح في رسالة الملك البرتغالي إلى الإمبراطور شارل الخامس يتحدث

¹ Edmund Burke, « La Guerre Mondiale du XVIe siècle et la naissance du monde moderne: Une approche à partir de la périphérie », Hespéris-Tamuda LV (1), 2020, p206. (pp195-210).

² مصطفى، مرجع سابق، ص 98.

³ المليباري، مصدر سابق، ص 176.

⁴ مصطفى، مرجع سابق، ص 99.

⁵ زين العابدين، مرجع سابق، ص 26.

⁶ نفسه، ص 91.

فيها عن المصاريف الباهظة التي تتحملها الخزينة للدفاع عن الهند ضد الأتراك ملوحاً بإمكانية التراجع إلى القادة الخلفية وهي المغرب الأقصى¹.

وأمام هذه الضربات الموجعة استعادت الطرق القديمة حيويتها، وكانت الحياة معها إلى موانئ بلاد الشام ومصر، ففي تقرير لجاسوس برتغالي بمصر، كتب إلى حكومته في 1564 يقول أنه قد وصل إلى الإسكندرية ثلاثون ألف قنطار من التوابل، أما دمشق فقد وصلت واردات الجمارك من التوابل فيها بواسطة قوافل الحجاج إلى 110 آلاف دوقية ذهبية، وكان التجار الأوروبيين يشترون هذه التوابل في دمشق ثم يصدرونها عبر بيروت، بينما كانت الكمية العظمى ترسل إلى بورصة واسطنبول، ومن هناك إلى البلقان². وبذلك يكون للعثمانيين الفضل في تشكيل تغطية استراتيجية للحفاظ على أمن العالم الإسلامي في مصر وعالم البحر الأبيض المتوسط من جهة وعالم البحر الأحمر من جهة أخرى طوال القرن السادس عشر، حتى أقل نجم البرتغاليين في البحار الشرقية في نهاية القرن المذكور وقد جاءت هذه التغطية في المنطقة في وقت كانت فيه تعيش حالة من الفراغ السياسي³.

وانطلاقاً من هذه المجريات والأحداث نستنتج أن السياسة أو الاستراتيجية العثمانية اتجهت إلى السياسة البرتغالية في الشرق، تحديداً المحيط الهندي بسواحلها، قد قامت على محورين كان كل محور له ظرفه الخاص، ففي الربع الأول من القرن 16م، انتهجت سياسة التحالفات أين نجدها تتحالف مع أمراء الهند المسلمين، وكذلك سلاطين مصر المماليك، ومع نهاية الربع الأول لجأت إلى سياسة التوسع كمنهج جديد، حيث تمكنت خلاله من القضاء على الصفويين المتحالفين مع البرتغاليين، وكذلك إسقاط المماليك الذين فشلوا أمام هؤلاء أيضاً، وفي مقابل ذلك، نتساءل عن السياسة العثمانية في الغرب وبالأخص اتجاه المغرب الأقصى في خضم هذا الصراع الحضاري العالمي، كما نتساءل عن أهمية المغرب الأقصى في محور الصراع العثماني البرتغالي باعتباره القاعدة الأساسية التي قامت عليها الحملات البرتغالية اتجاه بلاد الهند، وسواحل إفريقيا الشرقية، وسواحل اليمن وبلاد الإسلام عامة.

¹ كريم، مرجع سابق، ص 61.

² إينجاليك، مرجع سابق، ص 230.

³ أباضه، مرجع سابق، ص 94.

من خلال سير الأحداث في بلاد المغرب، والحوض الغربي للمتوسط نلاحظ أنها كانت امتداد لمجريات الصراع العالمي بين الشرق والغرب، أو كما سماه الباحث إدموند بورك Edmund Burke بالحرب العالمية في القرن 16م بين الامبراطورية العثمانية والإيبيرية، التي امتدت من المغرب في البحر المتوسط إلى الطرف الشمالي في سومطرة في الشرق ومن نهر الفولغا إلى ساحل شرق إفريقيا¹. وبالتالي السياسة العثمانية في الغرب وفي إطار صراعها مع البرتغال، قامت على التوسع غربا بهدف قطع التهديد من مصدره بحكم القرب الجغرافي لمملكة المغرب الأقصى من البرتغال، وكذلك دورها في وقف الضغط على سواحل الهند وإفريقيا.

فالمؤرخ المغربي نبيل ملين يقول بأن الوجود العثماني في المغرب الأقصى كان سيلحق أضرارا جسيمة بالتجارة البحرية التي كانت العمود الفقري للاقتصاد البرتغالي، حيث كانت تلك الحركة مضطربة في المحيط الهندي، والبحر الأحمر بسبب المنافسة العثمانية التي كانت تهدف إلى إحياء طرق التجارة القديمة²، لذلك نجد تكثف حملاتها العسكرية في غرب البحر الأبيض المتوسط ضد الإسبان والبرتغال، أين نلاحظ قيام ولاية الجزائر العثمانيين بأوامر همايونية من القيام بالعديد من المهمات العسكرية سواء في الفترة الأولى من 1520-1550، أو بعدها أي بعد سنة 1550، وقد حفظ لنا كتاب مذكرات خير الدين بربروسا الكثير من تلك البطولات تحت قيادة بحارة عثمانيين مشهورين³.

فالهدف الرئيسي للعثمانيين من التوسع على حساب الأراضي المغربية هو: محاولة تجفيف منابع تجارة الذهب التي كان البرتغاليون يتحكمون بها، وكذلك الوصول إلى الأطلسي لفك الحصار الذي فرضه البرتغاليون على الخلافة العثمانية جنوب القارة الإفريقية⁴، ولتنفيذ نشاطها أكثر في هذا المسعى قامت الخلافة العثمانية بالتحالف مع بعض القوة المحلية المغربية، حيث ربطت معها اتفاقيات عسكرية مشتركة

¹ Burke, op,cit, p206.

² ملين، مرجع سابق، ص54.

³ مذكرات خير الدين، مصدر سابق، ص75.

⁴ كاميلية دغموش، "قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الإسباني والسلطة العثمانية (1509 - 1792)"، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران، 2014/2013، ص 121.

بواسطة ولايتها في الجزائر، وبذلك كانت موانئ سلا وتطوان والعرائش قواعد أو منطلق للجهاد البحري في المتوسط الغربي والأطلسي¹.

ويظهر ذلك المسعى العثماني كذلك في عدة محطات: منها ذلك الإلحاح لوالي الجزائر صالح ريس لأبو حسون الوطني من أجل تسليمه حجر بادس بعد مساعدته إياه، ويظهر كذلك أيضا فيما بعد وبالتحديد أثناء عملية مساعدة عبد الملك السعدي ضد المتوكل المدعوم من البرتغاليين، حيث كانت سياسة الخلافة العثمانية تهدف إلى السيطرة على الموانئ البحرية المغربية الأطلسية، وكان لهم ذلك بعد منحهم السلطان عبد الملك ميناء القصر الصغير Marchuca لإرساء بوارجهم الحربية².

بناء على ذلك يظهر نجاح الاستراتيجية العالمية العثمانية الذي يتجلى في انتصار حملاتها في غرب المتوسط وشرق إفريقيا، التي أدت إلى تفويض السياسة التجارية البرتغالية³، وبذلك يكون الخلافة العثمانية قد نجح في استراتيجيته الشاملة في اغتيال المشروع الاقتصادي البرتغالي، وبصفة نهائية سنة 1578 من خلال المشاركة مع حلفاءه المغاربة في القضاء على هذه القوة، بغض النظر عن بعض المحاولات اليائسة التي قامت بها بعد ذلك التاريخ.

1-3 الأهمية الاستراتيجية للمغرب في استقطاب الاهتمام العثماني:

يعتبر الجانب الاقتصادي والعسكري إلى جانب الدين من أهم محاور السياسة العثمانية في توسعاتها الخارجية، إضافة إلى حماية الشعوب الإسلامية وحمل راية الدين، إلا أن الجانب الاقتصادي حاز على جزء مهم من اهتمام القادة العثمانيين، ومن ذلك التوسع العثماني في المغرب العربي، وما يوفره من مجال اقتصادي خصب لصالح التواجد العثماني، وكان المغرب الأقصى جزء هاما في هذا المجال نظرا للموقع الاستراتيجي الذي يحتله، مما جعل الخلافة العثمانية تصبوا للظفر به مهما كان الثمن، وخاصة في ظل صراعها الحضاري مع القوى الصليبية في المتوسط والأطلسي والهندي.

فالأهمية الاستراتيجية العسكرية للموقع الغربي تكمن في طبيعة تكوينية الجغرافية من حيث التضاريس والسواحل الثروة الغابية التي يوفرها، وهي كلها عوامل تساهم في إقامة وبناء منظومة دفاعية

¹ بوشرب، (دراسات ووثائق عن الغزو...)، مرجع سابق، ص 96.

² بويقران، مرجع سابق، ص 12.

³ بوشرب، (دكالة والإستعمار...)، مرجع سابق، ص 415.

عسكرية مميزة وقوية، ولذلك سنستعرض بعض من تلك المقومات المنتشرة عبر مدن المغرب المختلفة الساحلية والداخلية بناء على تقارير إسبانية صادرة من سنة 1563 إلى 1565¹، حيث تتحدث هذه التقارير الصادرة عن الدوائر الرسمية الإسبانية وبتحقيق من مهندسين وقادة عسكريين إسبان عن الأهمية العسكرية لهاته المواقع، فالتقرير الأول يشير إلى أهمية المدن الساحلية المغربية المحتلة وهي سبتة، مليلية، أكادير، وأسفي، والمدن الأخرى، حيث جاء وصف أهميتها كما يلي:

1- تقع مقابلة للسواحل الأندلسية الغنية بالثروات الفلاحية وما يروج بها من تجارة، حيث كانت تمثل الدرع الواقى للسواحل الإسبانية.

2- تساهم بصورة ملموسة في مراقبة المنطقة المجاورة للمضيق (مضيق جبل طارق)، ففي وسع سفن تلك الحصون صد المغاربة عن إبداء أي نشاط بحري حيث يقول أحد الساسة الإسبان سنة 1591: "إن الحصون رغم بعدها عن الساحل الأندلسي فإنها توفر لها وسائل الأمن والحماية"².

3- يزيد أهمية تلك الحصون كونها تتوزع توزيعاً منتظماً على طول الساحل المتوسطي، من المضيق إلى ملوية على مسافة متقاربة ومزية هذا التوزيع تسهيل مراقبة الساحل، وكذلك تبادل النجادات من جهة البحر كلما تعرضت الحصون لحصار.

4- تلك الحصون تساعد على صد الهجومات البرية فالحصون الصغرى محصنة بطبيعتها، وهذا ما يوفر للعدد القليل من الجنود مدافعة العدد الكثير من المهاجمين³.

وبناء على هذه التقارير يظهر مدى الحرص العثماني على السيطرة على هذه المراسي والحصون، ومنها قلعة بادس التي تعتبر موقع دفاعي عسكري مهم، لذلك نجد العثمانيين يسعون بكل ثمن إلى السيطرة عليها، حيث تشير معظم الكتابات التاريخية بأن النشاط العثماني في بادس لم يتوقف في أغلب الظروف.

¹ حسن الفكيكي، مسألة الثغور المغربية المحتلة في منتصف القرن الثامن عشر (1750-1787)، مجلة دار النيابة، العدد 11، 1986، ص 25.

² الفكيكي، مرجع سابق، ص 26.

³ نفسه، ص 27.

فالمؤرخ المغربي الأنصاري يطلعننا على بعض من تلك المميزات الاستراتيجية التي تتوفر عليها بادس وقيمتها في العمل العسكري، فهي حسبه مدينة ومرسى على الساحل (البحر الأبيض المتوسط) وعلى بعد مئة متر منها توجد جزيرة صغيرة معروفة باسمها تتصل بها، تم احتلالها من طرف الإسبان في 23 جويلية 1508، واسترجعها المغاربة سنة 1522، وأعاد الإسبان احتلالها سنة 1564¹، كما تتميز هذه المدينة بتحصيناتها البشرية المتمثلة في قبائل الريف الأوسط في الجنوب، وتقع على الجزء الشمالي من قبيلة بني يطوقت، وتحدها من جهة الشرق قبيلة بقوية ومن جهة الغرب قبيلة بني بوفراح².

ويجب التنويه هنا إلى أن القوة البشرية لها دور استراتيجي كبير في الدفاع عن المدن والأقاليم، ففي بادس وحسب ما يلاحظ من خلال النشاط العثماني ومكوته في فترات كثيرة من الزمن لم يتعرض لمضايقات من هاته القبائل أو من سكانها، عكس الوجود الإسباني الذي كانت حاميته تتعرض بشكل دائم للمقاومة والثورات، ومن ذلك يمكننا تحديد طبيعة هذه القبائل من حيث قبول الآخر. ويظهر ذلك القبول والتلاحم إن صح التعبير في الكثير من المظاهر حيث يذكر المؤرخ المجهول أن عمائر أو مراكب أهل الجزائر وسفنهم لم تكن تخلوا من مرسى بادس، ومسافري الجزائر لا يركبون إلا من بادس إلى المشرق والمغرب ولا ينقطع الترك حسب وصفه عنها في كل أوان³، وهذا النشاط العثماني كان له دورا أمني بالنسبة لسكان بادس، فالمدينة وفي أغلب الظروف الصعبة كانت تعيش حالة أمنية أحسن من المناطق الأخرى، ولعل السبب في ذلك الوجود العثماني وكذلك بعدها عن مسار الأحداث في الداخل من خلال الحروب الوطاسية السعدية أو التمردات القبلية.

ونظرا لما كانت توفره بادس من ثروة غابية مكنتها من أن تصبح مركز صناعي لصناعة السفن، ففي سنة 942هـ/1536م، صارت بادس المركز الأول لصناعة السفن بساحل البحر الأبيض المتوسط وكانت تزود العثمانيين بالسفن، ففي نفس سنة 1536 كانت أورايش بادس قد انتهت من صنع 25 سفينة

¹ محمد بن القاسم الأنصاري، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب منصور، ط2، الرباط، 1983، ص57.

² عمر اشهبان، "بادس حاضرة بلاد الريف في المغرب"، دورية كان التاريخية، العدد 28، 2015، ص44، (ص43-48).

³ مجهول، مصدر سابق، ص39.

خمس عشرة منها لصالح العثمانيين¹، وهذا ما يؤكد قيمة الموانئ والمراسي بالنسبة للعثمانيين فهؤلاء كانوا قد اطلعوا على المنطقة واكتشفوا قيمتها العسكرية والاقتصادية وهذا ما أوضحتها خرائط بييري ريس أثناء الحملة العثمانية في غرب المتوسط، وكذلك بالنسبة للبحارة العثمانيين الذين كانوا ضمن مراكب مجاهدي سلا وتطوان المغربيتين كل هذه العوامل أدت إلى تمسك الخلافة العثمانية بضرورة ضم المغرب أو على الأقل إقامة علاقات ثنائية مبنية على الولاء، تمكنها من إرساء حضورها في هاته المناطق.

وعن موقع بادس في التقارير الإسبانية السابقة الذكر نجدها تحتوي وصفا دقيقا كالاتي: " يحتوي على صخور طبيعية (الموقع) تتحمل الغارات، وكذلك احتوائها على أسوار ومباني تقوم بحماية الممرات، زيادة على موقعها على بعد من الساحل منفصلة عنه"، أما من جهة البحر فهي كالاتي: "التيارات المائية من شأنها أن تساعد على الاحتفاظ بالسفن في عرض المياه وعلى مرأى من الحصن"²، حيث أشار التقرير إلى أن الاستيلاء على بادس كلف الإسبان تعبئة كل العمائر الإسبانية، علاوة على هذا الاستفادة من مساعدة عدة أمراء أوروبيين، هذا ولم يكن من السهولة تحقيق الهدف لو لم يكن مصطفى قائد الحصن غائبا عنه في حملة جهادية³.

هذا عن الدور الاستراتيجي العسكري لمدينة بادس أما فيما يخص المناطق والمدن الأخرى فإنها لم تكن قليلة الأهمية بشهادة الإسبان أنفسهم، حيث كانت شواطئ المغرب بطبيعتها وعرة، وكانت الموانئ تحميها الصخور العالية مما منحهم حصون طبيعية قوية لممارسة حركة الجهاد⁴. ومن هذه المدن طنجة التي تمتد بشكل متدرج على جبل تعلوه قلعة قديمة حيث تقع طنجة مثل جبل طارق حسب وصف المؤرخ البلجيكي لوكليرك في عمق خليج صغير محمي من هيجان المحيط⁵، أما جبل طارق الذي قارن به الكاتب مدينة طنجة كان نقطة النقاء تجارة البحر المتوسط وتجارة بحر الشمال⁶.

¹ اشهبار، مرجع سابق، ص 46.

² الفكيكي، مرجع سابق، ص 27.

³ نفسه، ص 28.

⁴ الرمال، مرجع سابق، ص 27.

⁵ لوكليرك، مرجع سابق، ص 27.

⁶ جورج لوغرمان، تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، ترجمة هاشم الحسيني، د ط، دار مكتبة الحياة، لبنان، د ت، ص 45.

أما بالنسبة لموقع مليلة المحتل فالتقارير لم تستثنيها من حيث القيمة العسكرية حيث جاء وصفها كالتالي: "إن ساحل مليلة خطير جدا، إذا ما تمكن السكان من استغلال مراسيه، ولن يغيب عن البال الدور الهام الذي سنقوم به البحرية المجاورة للمدينة" كما يضيف التقرير أن لها دور أمني كبير من خلال حماية السفن في الرسو والدخول، وتحدث كذلك بصفة عامة عن الملاجئ أو الحصون التي اعتبرها ملجأ للسفن وتتجلى الحاجة إليها في حال ما إذا كان غرضه للمطاردة هذا إلى جانب أن الحصون قد تساهم في إلحاق الأضرار بسفن الأعداء على يد رجال السفن الحربية¹.

وانطلاقا من هذه الشهادة نستخلص القيمة العسكرية للمدن الساحلية المغربية ونستخلص حجم المسعى العثماني للظفر بها، فسلا والرباط وتطوان التي كانت وجهة مفضلة وآمنة لمجاهدي الجزائر "حيث كان مجاهدي الجزائر يفرون إلى تلك الجهات متى شعروا بالخطر، ولهذا السبب كانوا يريدون خضوع تلك البلاد لسلطتهم"²، ولتأكيد تلك الأهمية نستطلع الطبيعة الجغرافية لتلك المدينتين، فسلا والرباط الواقعتين على مصب نهر أبي رقراق بحيث تحتل الرباط الضفة اليسرى، وتحتل سلا الضفة اليمنى للنهر حيث يحمي مدخل مصب أبي رقراق جرف رملي يصعب على السفن اجتيازه بسهولة، وذلك بسبب التيارات العنيفة، ويحمي مدخل النهر كذلك أبراج محصنة ومزودة بمدافع حربية، ومن جانب البر المدينة محمية بصفين من الأسوار³. وبناء على هذا نستطيع تفسير قوة مجاهدي سلا رغم قلة إمكانياتهم العسكرية في الجهاد ضد الأرمادة الإسبانية والبرتغالية التي كلفتها خسائر كبرى.

أما فيما يخص مدينة سبتة أم المستعمرات البرتغالية، فإنها كانت تضاهي تلك المدن من حيث الأهمية العسكرية، فطبيعة سبتة مميزة يحدها من الشرق البحر، ويكتنفها خليجان أحدهما في الشمال والثاني في الجنوب، فإن المكان لا يتسنى الوصول إليه إلا من الغرب، وحتى ذلك لا يتسنى إلا عن طريق ربوة يشقها واد عميق ينحدر انحدارا كبيرا فوق صخور تتحدر إلى البحر في الشمال، ويخرج من

¹ الفكيكي، مرجع سابق، ص 27.

² الجمعي، مرجع سابق، ص 177.

³ لوكليرك، مرجع سابق، ص 119.

القمم الخارجية لريوة أجونا Ajona في الجنوب، وكان من جراء الداخل المقفر والبرزخ الضيق في الغرب معا أن اتخذت شبه الجزيرة¹.

حيث تحتوي سبتة على الكثير من المراسي والحصون، التي جعلتها مميزة حيث يقول الأنصاري: " طالع سبتة الذي بأعلى جبل ميناؤها المعروف عند الناس بالناظور، الذي بنوه المرابطون هناك للناظر الراتب به حصنا... وهذا الطالع من أعجب الطلائع لكونه يكشف البرين، ويشرف على العدوتين إلى بادس من بر الريف وإلى طرف القسيس شرقا من مالقة، وإلى ما وراء الطريق غربا إلى شمال شتيل من بر الأندلس، فلا يخفى عليه من الزقاق شيئا، ولكونه تحت أسوار وأبواب داخل المدينة في حكم أهلها إذ تقع فتنة أو يحصل حصار"²، هذا عن الأبراج أما الموانئ فكانت تحتوي على ستة وثلاثون مرسى موزعة على شواطئها، ومنها مرسى المدينة المعروفة بحفرة مختار من بحر الرماة، كما تحتوي على 192 مصيدا لصيد السمك، أما عدد الأنهار والعيون فتتجاوز ستة وثمانون أشهر نهر أمزار³.

كما تشتهر سبتة بتوفرها على ثروة غابية كثيفة، مكونة أساسا من أشجار الأرز والبلوط وما أشبهه من أنواع الخشب، حيث كانت له فائدة كبيرة في صناعة السفن وما يرجع إلى الأمور الجهادية⁴، لذلك نجد البرتغاليين يركزون اهتماماتهم على سبتة لضمها، وكذلك باقي المدن الأخرى، ففي المغرب كانت توفر الكثير من السلع المطلوبة في البرتغال.

وانطلاقا من هذا نستخلص أن الضرورة الاستراتيجية حتمت على العثمانيين عمل كل شيء لإيجاد موطأ قدم لهم في ظل هذا التنافس، بحيث عملت وفق سياستين الأولى تتمثل في إبرام التحالفات مع القوى المحلية المغربية المنتشرة على السواحل، والمشكلة أساسا من الأسر الجهادية كأسرة المنظري في تطوان، والتي يغلب عليها الطابع الأندلسي جراء الهجرات التي حدثت في السابق، وكان هدف تركيز تلك الجاليات هو تشكيل قواعد عسكرية لإعادة إطلاق الجهاد بدعم من العثمانيين، أما السياسة الثانية وهي سياسة الاختراق الصامت التي عملت من خلاله على اختراق المنظومة السياسية، والعسكرية الرسمية المغربية بهدف فرضه وجودها يرسم سياسة المغرب المستقبلية.

¹ أمين توفيق الطيبي، دراسات في تاريخ مدينة سبتة الإسلامية، ط1، دار القلم، تونس، 1989، ص 20.

² الأنصاري، مصدر سابق، ص33.

³ نفسه، ص 52، للمزيد ينظر: محمد بن تاويت، تاريخ سبتة، ط1، دار الثقافة، المغرب، 1982، (ص131-172).

⁴ الطيبي، مرجع سابق، ص55.

هذا من حيث الأهمية العسكرية، أما فيما يخص الجانب الاقتصادي فالخلافة العثمانية كان حريصا على الاستفادة من ثروات المغرب والتي كانت تذهب بدون مقابل لتدعيم الخزينة الاستعمارية، فالمغرب كان يعتبر مورد اقتصادي لها من خلال تصديره لكميات كبيرة من القمح والماشية التي اشتهر به الشمال المغربي وكذلك الأسماك والشمع والعسل، في جنوبه، حيث استفادت منه البرتغال في تعويض ما كانت تعاني منه في نقص إنتاجها إضافة إلى جاذبية تجارة السودان¹، حيث كانت طرق درعة في القرن السادس عشر تعج بالقوافل التجارية (1571) من سوس وتافيلت وشمال المغرب، وتحولت واحة محاميد الغزلان إلى مركز تتجمع فيه القوافل قبل انطلاقها إلى الصحراء، كما كانت واحة تاركالة تستقبل حمولات الذهب الواردة من السودان².

ولذلك نجد أن الحركة السعدية قد استفادت كثيرا من هذه الثروة الاقتصادية والتجارية، حيث كان الجنوب المغربي غير خاضع للسلطة الرسمية الوطاسية، وهو ما أوجد فضاء مميز نمت وتطورت فيه الحركة السعدية، بحيث أن هذا الامتياز قد حاز على اهتمام العثمانيين كذلك، ففيما يخص القيمة الاقتصادية لمدينة سبتة فقد سماها الإسبان مفتاح المغرب *la clé du Maroc* فالسيطرة على سبتة تعني التحكم في قفل الباب المؤدي إلى إسبانيا وهذا هو المفتاح لفهم صحيح لدور سبتة الاستراتيجي، حيث كانت ملتقى للسفن التجارية القادمة من جزيرة ايبيرية وقوافل الدواب والإبل من أجزاء كثيرة من المغرب، فميناء سبتة كان مصدرا اقتصاديا مهما للبرتغاليين³.

وكانت بادس وأكادير تضاهي سبتة نفس القيمة الاقتصادية فالأول كانت مركزا لصناعة السفن وتصدير الخشب إلى مدن البحر الأبيض المتوسط المغربية في مقدمتها تطاوين وسبتة وأيضا المدن الأوروبية مثل مالقة وجنوة والبندقية حيث كانت تحتوي على دار للصناعة خارج أسوار المدينة وهذا الدار كان يصنع فيها السفن الحربية وقوارب الصيد⁴.

أما المدينة الثانية أكادير فيقول الزياتي عن تأسيسها أنه يعود إلى تاريخ ما قبل الوجود الإسلامي على يد ملوك حاحة، واستولى عليها البرتغال عام 911هـ/1506م، وتم تحريرها سنة 947هـ/1542،

¹ نفسه، ص 128.

² البوزيدي، مرجع سابق، ص 83.

³ الطيبي، مرجع سابق، ص 24.

⁴ اشهباز، مرجع سابق، ص 43، للمزيد ينظر: الأنصاري، مصدر سابق، ص 57.

بحيث كان ميناؤها منفذ منتجات سوس ومحصولاتها ومقصد السفن التجارية من أوروبا وغيرها¹، حيث كانت مدينة أكادير مدينة محورية في التجارة البرتغالية لذلك اتخذوها قاعدة لهم، وأسسوا بها حصن سانتا كروز دي نيبا Santa Cruz de Naiba حيث كان ميناؤها قبلة للتجار الأوروبيين، كما كانت السفن المحملة بالبضائع الأوروبية ترسو بذات الميناء لإفراغ حمولاتها المطلوبة التي تسوق في إفريقيا، وكانت السلطات البرتغالية تتقاضى ضرائب على السفن الداخلة والخارجة من الميناء².

وانطلاقاً من ذلك نستشف أن الجانب الاقتصادي كان عامل جذب في السياسة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى، خصوصاً إذا علمنا أن تلك الموارد كانت تتمثل مورداً هاماً في الخزينة الإسبانية والبرتغالية، التي كانت تمول بها عملياتها الصليبية في الشرق الأدنى والأمريكيتين، فالخلافة العثمانية كانت مدركة وعلى إطلاع بهذه الأهمية الاقتصادية لهاته الموانئ وإلا كيف نفسر تمسك القوى الإيبيرية بهاته المدن ومحاربتها لأجلهم، وعموماً الموانئ المغربية كانت تمثل الحلقة المفقودة في السياسة العثمانية في جانبها الاقتصادي اتجاه المغرب الأقصى، فالتجارة المتوسطية تراجعت بعد المد الصليبي على السواحل المغربية خصوصاً إذا علمنا أن المغرب الأقصى من أهم محاور التجارة الإفريقية الأوروبية، فتجارة الذهب والعبيد كانت خاضعة لطريق المغرب التجاري إضافة إلى طريق تلمسان، لذلك كان من الضروري على الخلافة العثمانية إيجاد موطاً قدم له في المغرب.

2- سياسة الخلافة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى وموقف المغاربة منها (الاستنزاف أو الاختراق) (1576-1550):

2-1 سياسة التوسع العثماني في عهد السلطان سليمان القانوني، وموقف محمد الشيخ منها (1557/1550)

2-1-أ الصراع العثماني السعودي حول تلمسان:

تعتبر فترة حكم محمد الشيخ السعودي (1557/1549) وفترة حكم السلطان سليمان القانوني (1520م/1566م) من أهم الفترات التاريخية التي عرفت نشاطاً تاريخياً خاصة في العلاقات العثمانية

¹ العبيدي، مرجع سابق، ص 56.

² شوقي عطا الله الجمل، "صفحات من تاريخ الاستعمار في المغرب العربي على ضوء وثائق الأرشيف البرتغالي"، مجلة الدراسات الإفريقية، العدد 04، مصر، 1975، ص 29.

المغربية، فالشخصيتان يمثلان نموذجا للطموح والمغامرة، حيث سعى كل منها لسيط نفوذه على الآخر بالنسبة للعثماني، والتحدي ومحاولة الاستقلال بالنسبة للسلطان السعودي، وتجسد ذلك الاختلاف في بداية أولى الصدمات المباشرة بين الجانبين حيث كان السلطان السعودي أول المبادرين سنة 1550 من خلال تجهيز حملة عسكرية على تلمسان التي كانت تحت حكام ولاية الجزائر العثمانية، لذلك تعتبر هذه السنة محورية في العلاقات العثمانية المغربية في القرن 16م، ذلك أنها كشفت على أوراق الجانبين في التوسع والقيادة.

فحادثه احتلال محمد الشيخ السعودي لتلمسان سنة 1550م، كان لها صدى واسع في كتابات المؤرخين المغاربة أو الأجانب، وذلك من خلال التساؤل عن أسبابها وحيثياتها وبالأحرى لماذا كانت تلمسان بؤرة للصراع بين الجانبين؟، فالمؤرخ المغربي عبد الكريم كريمة الذي كان له كلام كبير في هذا الموضوع وذلك بناء على مصادر اسبانية صرح بأن أمير الزينيين اللاجئ بالمغرب أحمد بن عبد الله طلب النجدة من محمد الشيخ الذي لبي النداء، وقام بمفاوضات مع أهالي تلمسان فالسلطان السعودي حسب استقبل 15 وجيها من أشياخ قبائل مديونة، ووفدا يشمل أهالي تلمسان والجماعات الأندلسية المقيمة بها، وأكدوا له انضمامهم وطلبوا مساعدته لفتح تلمسان التي كانت بيد العثمانيين¹، ومن هذا المنطلق نتساءل عن الأسباب التي أدت بسكان تلمسان بذلك، بغض النظر عن بعض الممارسات المنفردة والجائرة للانكشاريين المتواجدين بها في حق السكان.

أما المؤرخ التركي خليل أوغلو الساحلي فله رواية أخرى وكذلك بناء على مصادر أجنبية مفادها أن استلاء الأشراف السعوديين على تلمسان كان مؤامرة منهم، فهم كانوا قد قاموا بمواصلات مع حكام ولاية الجزائر من أجل إبرام حلف يستطيعون من خلاله تحرير وهران وبعدها تحرير السواحل الأخرى لكن الأشراف خشوا اختلال موازين القوة بعد الانتصار، فاستعانوا بدورهم بالإسبان لاحتلال تلمسان وخلع السلطان الموالي للعثمانيين (أحمد الثالث) وإقامة أخيه محمد الذي كان فارا إلى المغرب الأقصى².

¹ كريمة، مرجع سابق، ص 76. للمزيد ينظر:

Haedo, Opcit, p76.

² الساحلي، مرجع سابق، ص 320. للمزيد ينظر: H. de Grammont, Op-cit, p76.

إن هذين الرأيين يمثلان موقفين متناقضين لكن ما يلاحظ هو أن مصادر كتاباتهما كانت المصادر الأوروبية، التي تناقلت حدث احتلال أو دخول السعديين إلى تلمسان بإسهاب، ومن هؤلاء المؤرخ إرنست مارسيه Ernest Mercier¹، الذي نقل لنا مجريات وحيثيات هذا الحدث الذي نود تدعيمه برأينا دون إعادة تكراره، وعليه نتساءل عن السبب الذي جعل تلمسان محور الصراع حيث نلاحظ أن كل السلاطين ومن كلا الجانبين ركزوا عليها، فالمؤرخ جورج ماسيه يقدم طرحه ويحلل السبب بالدور الاقتصادي فتلمسان كانت منتهى لطريق تجاري هام ربطها ببلاد السودان، ويقدم لنا نموذج عن ذلك النشاط من خلال تلك الشركة التجارية التي أسسها الإخوة مكاري التلمسانيين، حيث عملوا على تنظيم ذلك الطريق من خلال توزيعهم، فالاثنتان الأولان بقيا في تلمسان لتصريف المنتجات القادمة، أما الآخرا فقد أسسا في ولايته محطة تجارية تبعد عن تمبكتو بحوالي 400 كلم، أما الأخ الخامس فبقي في تافيلت يقوم بدور الوسيط، حيث مهدوا الطريق وحفروا الآبار ونظموا القوافل المشتركة بين الشركة الرئيسية وفروعها².

وبناء على هذا تتضح ملامح الصراع العثماني السعودي ومدى حرص هذا الأخير على ضرورة احتلال تلمسان، فتأفلت التي كانت محور هذا الطريق كانت تحت الحكم السعودي في الجنوب كما تعد من أهم بؤر العصبية العربية التي ساعدت قيام الدولة السعودية، كما أن تجار تلمسان كانوا غير غريباء على المنطقة وبالتالي هناك ملامح تواصل سعودي تلمساني.

أما العامل الآخر لهذا الاهتمام السعودي بتلمسان فيعود إلى العصبية القبلية ولتأكيد رأينا هذا عملنا على محاولة فهم الطبيعة الديمغرافية لتلمسان في العصور الحديثة، فما هو معروف أن الحركة السعودية قامت في الجنوب واستفادت من العصبية العربية الموجودة في درعة وتأفلت وهم عرب بني معقل الذين دخلوا المغرب مع الهلاليين، وانتشروا وتكاثروا، وهم ثلاثة بطون منهم ذوو عبيد الله ومواطنهم في تلمسان ووجدوا إلى مصب نهر ملوية في البحر ومنبعث وادي ما من القبلة إلى قصور توات وتمنيط³، أي أن لهم تفرع أو امتداد إلى الجنوب المغربي بدرعة وتأفلت، ومن هذا المنطلق نستنتج أن العصبية العربية التي كانت بجنوب المغرب، وهي عصبية بني معقل كانت منتشرة في تلمسان من جهة الغرب، وبالضبط

¹ Ernest Mercier, Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berberie) Tome03, Ernest Leroux Editeur, paris, 1868, p70-76.

² ماسيه، مرجع سابق، ص 329.

³ العبدى، مرجع سابق، ص 36.

وجدة التي تعتبر منطقة التماس، وبالتالي يمكن القول أن الدولة السعدية استغلت هذا الامتداد الديموغرافي للتوسع على حساب ولاية الجزائر. كما يجب التنويه هنا إلى أن العلاقة بين الدولة السعدية، وقبائل بني معقل لم تستمر على نفس الوتيرة كما كانت في بدايات التأسيس، فالمعاقل الذين كانوا في السابق متحالفين مع الدولة الزيانية على حساب المرينيين لحقب طويلة، قد رفضوا الحكم المخزني مجددا خاصة في هذه الفترة المدروسة، وهو ما سنتطرق إليه في مطلب التوسع المغربي، وعودة مسألة الحدود.

أما العامل الثالث نلاحظه في ذلك النشاط الصوفي في جنوب المغرب بدرعة وتافللت، الذي كانت تسيطر عليه الطريقة الجزولية¹ التي كانت لها أيضا امتدادات حتى تلمسان، لذلك نجد تلمسان تفتح أبوابها أثناء حملات المغاربة عليها، ويجب التنبيه هنا أيضا إلى أن النفوذ الصوفي المسيطر على تلمسان هو القادري الذي كانت تدعمه السلطة العثمانية والذي كان له امتداد حتى منطقة توات وأفريقيا جنوب الصحراء، وانطلاقا من هذه الفرضيات التاريخية يمكن القول أن السعديين أرادوا استغلال البنية القبلية والدينية وحتى التجارية للتوسع ومد نفوذهم.

هذا عن تلمسان وسبب تركيز المغاربة عليها في سياستهم التوسعية نحو الشرق، وأمام هذا الطموح المغربي المتنامي نتساءل عن رد الفعل العثماني في ذلك الخصوص، ونتساءل عن مدى جدية وفعالية سياسة الاختراق التي قامت بها في المرحلة الأولى هل استمرت أم توقفت؟ فمن خلال مجريات الأحداث وفي ظل الأحداث العالمية آنذاك نلاحظ أن الخلافة العثمانية زادت فعالية نشاطاتها الاختراقية، التي بدورها زادت من عملية الاستنزاف ضد المغرب الأقصى.

2-1-ب الاختراق السياسي والعسكري:

ففي المجال العسكري والسياسي عملت على دعم قواعدها العسكرية البحرية، وتوثيق صلاتها مع الزعماء المحليين في المغرب الأقصى، ففي سنة 1551م قام قائد سلا بزيارة اسطنبول بعد أداءه فريضة الحج ومنها عاد إلى المغرب عبر ولاية الجزائر، أين رافقه صديقه سعيد بن مرزوق إلى مدينة وهران بعد لقائه بصالح ريس، حيث كانت طبيعة الاجتماع الذي دار بينه وبين صالح ريس هو محاولة الاتصال بأبي حسون الوطاسي الفار من المغرب بغية قدومه إلى الجزائر لمساندته، كما يذكر المؤرخ المغربي

¹ التازي، مرجع سابق، ص 300.

التازي أنه في نفس السنة بتاريخ 17 أبريل 1552، دخلت المتوسط زوارق تركية تبلغ ثلاثة عشر تقريباً بقيادة الرايس درغوث جاءت لتعزيز مولاي عمر أمير دبدو أمام الشرفاء، ومن هنا اتجهت الزوارق نحو بادس، ثم مضيق جبل طارق، حيث يذكر كذلك أن درغوث صرح لقائد تازة بأنه لا ينوي خدمة الخلافة العثمانية بعد أن تحالفت مع الكفار¹.

وأمام هذا نجد أنفسنا أمام حادثة تاريخية، مجهولة المعالم، فإذا كان العثمانيون حقيقة دعموا أمير دبدو نتساءل عن حجم وحيثيات تلك المساعدة، ونتساءل عن موقف درغوث باشا في تصريحه هذا من الخلافة العثمانية؟. وللإجابة على ذلك نستطلع الكتابات التاريخية الأخرى حول هذا الموضوع، فالمؤرخ التركي يلماز أوزوتونا يقول أن الديوان الهمايوني أرسل إلى المغرب ستون سفينة حربية انطلاقاً من طرابلس إلى سواحل الريف بفاس، حيث أكد أن تلك الحملة لم يكن الغرض منها دعم حاكم أو أمير دبدو بل كانت نتيجة لخشية الخلافة العثمانية من تحضيرات إسبانية لعملية إنزال عسكرية بحرية على سواحل الريف². ويجب الإشارة هنا إلى أن منطقة الريف التي كانت بها سلطة أمير دبدو، كانت بها أهم قاعدة عسكرية عثمانية، وهي قلعة بادس التي كانت تمثل قاعدة استراتيجية لهم من الواجب حمايتها.

ولتأكيد هذا الطرح أكثر نسترجع أو نستقرأ نشاط أمير دبدو في الفترة ما بين 1542-1563 لمعرفة علاقاته بالخلافة العثمانية، وطبيعتها، ففي 12 جويلية 1550 زار السلطات الإسبانية بمدينة مليلية رفقة 300 شخص من حاشيته طالبا بتدخلها في الأحداث الجارية، وفي 23 فيفري 1553 قام بحصار على تازة بألفي فارس لكنه تراجع أمام السعديين، وعموما نلاحظ أن مولاي عمر أثناء فترة حكمه تميزت بتحالفه مع الوطاسيين في السابق وعدائه مع السعديين، كما فضل أن يتعامل مع الإسبان بدلا من العثمانيين³.

وبناء على هذا نستخلص أن حملة درغوث ريس لم يكن هدفها دعم أمير دبدو مولاي عمر بل كانت موجهة لحماية قاعدة باديس التي كانت تحت السيطرة العثمانية، وذلك بعد ورود تقارير استخبارية عن نشاط الإسبان لاحتلالها، وأما بخصوص تصريح درغوث باشا لحاكم تازة إن حصل، فإنه راجع ربما

¹ التازي، مرجع سابق، ص 301.

² أوزوتونا، مرجع سابق، ص 309.

³ إسماعيل مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وجدة وأنكاد بين دوحة الأمجاد، ج1، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1985، ص 80.

لكون القائد درغوث كان غاضبا من السلطان العثماني، الذي لم يمنحه حكم ولاية طرابلس الغرب التي سيولى عليها لاحقا¹، فالخلافة العثمانية بعملها هذا كانت تترك حجم الخطر الإسباني على قواعدها بين سواحل المغرب الأقصى، فما تحتويه إحدى الرسائل الإسبانية ما يؤكد ذلك، ففي رسالة من ملك إسبانيا إلى محمد الشيخ بتاريخ 12 أبريل 1556 يدعو فيها إلى التفاوض من خلال حاكم وهران ألكوديت وذلك بهدف التحالف لصد خطر العثمانيين على المنطقة ومساعدة محمد الشيخ على استرجاع الجزائر².

وبالعودة إلى حادثة اجتماع قائد سلا مع صالح رابيس سنة 1552 لبحث سبل المساعدة العثمانية لأبو حسون الوطاسي، واسترجاع حكمه هو عبارة عن موقف انتقامي من الخلافة العثمانية باتجاه السعديين، وهو ما أكده المؤرخ الجزائري عمار بن خروف³، فالنشاط العثماني بعد 1550 لم يتوقف في المغرب وخاصة على السواحل، وذلك دائما في إطار الصراع الدولي آنذاك بينها وبين الأوربيين، سواء من خلال علاقاتها السابقة مع أمراء الجهاد البحري سلا وتطوان وباديس أو في الداخل من المجندين في الجيش السعودي من ضباط ومهندسين ومقاتلين، حيث كانت على تواصل دائم بها، وهو ما تؤكدته الأحداث التاريخية اللاحقة.

فبعد اتفاق أبو حسون الوطاسي مع صالح رابيس والي ولاية الجزائر على استرجاع ملكه المسلوب من طرف محمد الشيخ السعودي⁴، من خلال توجيه قوة عسكرية على فاس مكونة من 22 سفينة حربية في سواحل البحر المتوسط، وكان الشيخ ينتظر رفقة 80.000 ألف جندي و20 مدفعا إضافة إلى كتيبة من الأتراك، كان قد استغنى عنها بعد تيقنه من عدم جدوى استخدامهم في الحرب ضد العثمانيين⁵، كما يقدم المؤرخ الجزائري بن خروف نقلا عن مذكرات الأسير الإسباني هايدو إضافة تاريخية بخصوص حجم القوات العثمانية، التي كانت حسبته تتكون من أربعة آلاف عسكري من حملة البنادق، وألف من

¹ خليفة، مصدر سابق، ص 134.

² هنري دو كاستري، المصادر الدفينة لتاريخ المغرب، ج2، الأرشيف الإسباني، ص 316، نقلا عن: خالد بويقران، محمد بويقران "علاقات المغرب بالأتراك العثمانيين من خلال الوثائق الإسبانية بمجموعة المصادر الدفينة لتاريخ المغرب"، مجلة قضايا تاريخية"، العدد 09، 2018، ص 135.

³ بن خروف، مرجع سابق، ص 165.

⁴ Haedo, Opcit, p 88-89

للمزيد ينظر: مارمول، مصدر سابق، ص 482.

⁵ إلتز، مرجع سابق، ص 305.

الصبايحية الفرسان وأربعة آلاف من الفرسان العرب، وثمانين من الجنود النصارى الذين وعدهم بالحرية وأسطول مؤلف من 22 سفينة محملة بالأتقال والرجال¹.

وبناء على هذه المعطيات يظهر أن حجم الحملة كان ضخماً، وما يؤكد ذلك حيثيات المعركة التي انتصر فيها العثمانيون بسهولة، كما نلاحظ عدد الأسطول، وحجمه غير العادي فاثنتان وعشرون سفينة تحتاج إلى مواقع ساحلية استراتيجية لإفراغ محتوياتها من العتاد والرجال، وهذا دليل كذلك على السيطرة العثمانية على القواعد الساحلية، أو معرفتها التامة على الأقل بجغرافية السواحل وأماكن الرسو لكن رغم أن حملة صالح رابح نجحت سنة 1553م خرجت القوات العثمانية من فاس بعد أقل من سنة، وهو ما يؤكد طرح جديد بخصوص سياسة الخلافة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى، رغم أنه كان باستطاعتها البقاء في المغرب وفرض سلطتها.

إن هذا التساؤل نحاول إيجاد تفسير له في كتابات المؤرخين، فالمؤرخ العراقي فاضل بيات يرجع سبب ذلك إلى أن العثمانيين لم يرغبوا بالاحتفاظ بها أو تحويلها إلى ولاية أو لواء عثماني لأن ذلك من شأنه تأليب الزعامات المحلية الأخرى ضدهم، لهذا نجدهم يسلمونها إلى حلفاءهم الوطاسيين حسب، غير أن هؤلاء لم يكونوا يملكون القوة لمواجهة السعديين²، فالعثمانيون كانت سياستهم قائمة على المهادنة مع التدخل المحدود، والدليل على ذلك حادثة عزل حسن باشا من حكم ولاية الجزائر من طرف السلطان العثماني، وإرسال هذا الأخير رسالة إلى السلطان محمد الشيخ بهدف محاولة استعطافه، وهو حسب رأينا إجراء دبلوماسي عثماني، حيث كان خطابه كالتالي: "ولما بلغ إلى سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقاً حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال إلى جانب العنف والاعتساف، ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الوطن لذلك بدلناه"³.

¹ بن خروف، مرجع سابق، ص 166، للمزيد ينظر:

De Grammant, Opcit, p 377.

² فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية على ضوء المصادر والوثائق العثمانية مطلع العهد العثماني أواسط القرن التاسع عشر، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2001، ص 613.

³ أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر المهمة، الديوان الهامبوني رقم 888، مصدر سابق، ص 09. (مركز التاريخ العربي للنشر - اسطنبول -).

ويجدر التنبيه إلى أن هذه الرسالة تمثل أول مراسلة بين السلطان العثماني والسلطان السعودي بتاريخ 959هـ/1552م، كما تبعها بإرسال رسالة أخرى بنفس التاريخ 959هـ/1552م، أين أرسل السلطان سليمان ثلاثة خلع سنوية إلى محمد الشيخ، وكما هو معلوم أن الخلع تمنح لولاة الأمصار كما جرت عليه العادة دائماً وهي محاولة من السلطان العثماني دون تصريح لإحكام سيطرته على فاس، حيث كان نص الخطاب كالتالي: "فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاثة خلع سنوية، لتكون صلة للمحبة منا وسببا لنسخ المودة بيننا، على أن مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالي الإسلام وحماة دين النبي عليه السلام في أيام دولتنا العادلة في أكمل راحة"¹.

فما يستخلص من هاتين الرسالتين، أن الخلافة العثمانية كانت تنتهج سياسة المهادنة مع التدخل المحدود في بعض الأحيان كما أشرنا، وهذا ما يلاحظ من خلال تحميل السلطان العثماني مسؤولية تدهور الأوضاع مع المغرب الأقصى إلى الوالي حسن بن خير الدين، مع العلم أن هذا الموقف كان دبلوماسياً فقط، والدليل على ذلك عودة حسن باشا إلى حكم الولاية لاحقاً سنة 1557م، كما يؤكد حادث فاس ذلك، فالقوات العثمانية عادت إلى الولاية بعد تعديلها لموازن القوى في المغرب، أما موقفنا من مسألة عدم بقاء تلك القوات في فاس، فهو ربما يعود إلى تيقنها (الدولة العثمانية) بصعوبة فرض سلطانها على تلك البلاد ذات الخصوصية المميزة (النسب الشريف)، وبالتالي التخوف من تكرار سيناريو اليمن، كم أنه الممكن أن الخلافة العثمانية تيقنت من فشل رهانه على أبو حسون كشخصية يمكنها من خلاله السيطرة على المغرب، فهذا الأخير يفتقد إلى الهيئة الشرعية أو السياسية خارج أسوار فاس لذلك لم تكن تريد المغامرة أكثر.

وبالحديث عن النتائج التي حققتها الخلافة العثمانية من هذه الحادثة فتتمثل في: فرض هيبتها وكبح جموح الدولة السعودية ونشاطاتها الحدودية والتحريرية، وكذلك ربما كانت مصيدة لاختراق قوات محمد الشيخ السعودي، فما هو معلوم أن محمد الشيخ لما فتح فاس ثانية سنة 1554 بعد انسحاب العثمانيين عنها هو انضمام الفرق العثمانية التي تركها صالح رابح إلى الجيش السعودي²، حيث يقول المؤرخ المجهول في ذلك: "... وما بقي معه من المحال إلا الإنكشارية وأكثرهم من الأتراك كانوا قعدوا عن الترك

¹ أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر المهمة، الديوان الهمايوني رقم 888، مصدر سابق، ص 09. (مركز التاريخ العربي للنشر-اسطنبول-).

² حجي، مرجع سابق، ص 10، للمزيد: ينظر: المريني، مرجع سابق، ص 59.

الذين رجعوا إلى الجزائر في حياة أبي حسون المريني، فلما مات ودخل مولاي محمد الشيخ فاس... خدموا عنده انكشارية وهم من أهل الركاب، فاستحسن خدمتهم وملؤوا عينه وقلبه لأنهم كانوا جافين، وكان السلطان يغني بحقوقهم ويخاف من عقوقهم¹، وقام الشيخ كذلك باستخدام مهاراتهم في صناعة السفن في مدينة بادس أقام مصنعا للسفن، توجت بصناعة أربعة غليونات كبرى استخدم فيها بحارة أوروبيين تحت قيادة المجندين العثمانيين². وإضافة إلى محاولة اختراق الجيش السعودي هناك نتيجة أخرى وهي تعزيز وبسط الهيمنة النهائية بصورة رسمية على موقع حجر بادس العسكري³، وحجم التواجد العثماني هذا يظهر في رسالة الكونت الكوديتي إلى الملك الإسباني يتحدث فيها عن حجم تلك القوات ونوايا الشريف في التوسع⁴.

2-1-ج- الاختراق الديني:

يعتبر الجانب الديني من أهم المجالات التي عملت الخلافة العثمانية على استغلالها بهدف اختراق الجانب المغربي، فما هو معروف أن البيئة الاجتماعية والدينية في المغرب العربي مشتركة ومتشابكة، والحديث هنا عن التصوف بالأخص، الذي كان شائعا بين أوساط المغاربة، لذلك سعت الخلافة العثمانية إلى خرق هذه المنظومة التي كانت تشكل عصب الحركة السعدية في المغرب الأقصى إلى جانب العصبية القبلية.

¹ مجهول، مصدر سابق، ص30.

² اشهبار، مرجع سابق، ص 46.

³ هي قلعة صخرية تسمى نسبة لمدينة بادس تقع غرب الحسيمة حاليا، كان الإسبان يسمونها بنون دولا فليز كانت لها أهمية كبيرة في عهد السعديين ينظر: إبراهيم حركات، المغاربة والبحر، د ط، مطبعة أوكداد، المغرب، 1998، ص 28، بخصوص سيطرة العثمانيين على القلعة، ينظر: طوريس، مصدر سابق، ص 108.

⁴ بويقران، المرجع السابق، ص134.

ففي ذلك الإطار قامت بعدة محاولات في سبيل ذلك، حيث كانت أولاها في سنة 1552م والمتمثلة في بعثة الشيخ محمد بن علي الخروبي الطرابلسي¹ إلى المغرب الأقصى، حيث كانت هذه البعثة ذات طابع سياسي تم خلالها مناقشة مسألة تحديد الحدود بين البلدين²، لكنها حسب رأينا كانت ذات خلفية أخرى وهي محاولة اختراق المنظومة الصوفية الاجتماعية للسعديين، فالخروبي أثناء هذه الزيارة زار فاس ومراكش وغيرها وأخذ عليه علماء المغرب أيضا وقد قيل أنه ترك خزانة كتب ضخمة في مراكش³.

فالكاتب المغربي لطفي بوشنتوف يذكر أن الخروبي هو عالم كبير تتلمذ على يديه الكثير من الشيوخ الصوفيين بالمغرب الأقصى، ومنهم الشيخ رضوان الجنوبي وغيره ففي سفارته للمغرب كان له نشاطات علمية كثيرة سجلتها العديد من الرسائل المتبادلة مع علمائها، وخاصة مع العالم رضوان⁴، وبالتالي تعيين العثمانيين للشيخ الطرابلسي على رأس السفارة لم يكن عبثا بل كان مدروسا، فرغم عدم وجود كتابات تاريخية تؤكد ذلك إلا أن الأحداث تبرز الأمر بشكل جلي، فالطرابلسي الذي كان يوالي العثمانيين يكون قد ذكر محاسنهم لأقطاب التصوف المغربي أثناء تنقلاته ولقاءاته، خاصة إذا علمنا أن الفكر الصوفي لا تحكمه حدود فالولاء للشيخ أمر مقدس، وبالتالي ترويج الطرابلسي لسياسة العثمانيين ودولتهم وحسن تعاملهم مع الصوفية أمر وارد.

ويجب الإشارة هنا إلى أن الاختراق العثماني للمنظومة الاجتماعية الصوفية المغربية كانت تداعياته في الشمال أكثر من الجنوب، وذلك يعود إلى ضعف نشاط الجزولية في الشمال حيث كانت قوتها في الجنوب، بينما احتفظ الشمال المغربي بالكثير من العلماء ورجال الصوفية المناوئين والناقمين على الحكم السعدي وخاصة الذين كانوا يوالون الوطاسيين في السابق لذلك كان النشاط العثماني مكثف، وزيارة الطرابلسي لفاس دليل على ذلك، فما هو معروف أن الطريقة القادرية في الجزائر، كانت مؤيدة للأتراك

¹ هو أحد أقطاب التصوف في المغرب العربي أخذ العلم من علماء المشرق حيث كان على الطريقة الشاذلية وقد خدم العثمانيين بصفة كبيرة توفي سنة 963هـ بالجزائر، ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج1، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1998، ص 498.

² الناصري، مصدر سابق، ص 22 للمزيد ينظر: الأفراني، مصدر سابق، ص 91.

³ سعد الله، مرجع سابق، ص 499.

⁴ لطفي بوشنتوف، "صورة عالم القرن 10هـ/16م، رضوان الجنوبي من خلال تحفة الإخوان ومواهب الامتتان في مناقب سيدي رضوان"، مجلة أمل، مج02، العدد04، 1993، ص 53، (ص.ص 23-52).

العثمانيين وأتباعها بالمغرب الأقصى كانوا مناصرين للوطاسيين لذلك تشكل نوع من الصراع الصوفي بين الطرق خاصة القادرية، والجزولية الشاذلية التي كان لها أتباع كثر في تلمسان¹، وما يؤكد صحة الاختراق العثماني هو ذلك النشاط الصوفي لمتصوفة المغرب ضد السعديين ففي سنة 963هـ/1555م رفض المرابطون القادريون التقارب السعدي الإسباني، الذي كان يستهدف تنصيب أحد أبناء الشريف على تلمسان²، أما الحدث الثاني الذي يمثل نشاط القادريين في المغرب هو قيامهم سنة 964هـ/1556م بتعطيل المفاوضات بين الكونت الكوديت والشريف محمد قبيل الهجوم العثماني الجزائري على وهران³.

كما كانت للطريقة اليوسفية الموالية للعثمانيين دور في تفعيل منظومة الاختراق العثمانية، فالشيخ أحمد بن يوسف الراشدي دفين مليانة كان من أكبر الداعمين للعثمانيين، بحيث كان أتباعه على خلاف مع شاذلية تلمسان والمغرب الأقصى⁴، وعن نشاط هذه الطريقة الصوفية في المغرب تؤكد المعلومات التاريخية أنها وصلت حتى الجنوب المغربي معقل الجزولية المغربية⁵، ولعل السبب في تركيز الخلافة العثمانية نشاطها الإخترافي بواسطة الطرق الصوفية حسب رأينا هو أن صوفية المغرب الأقصى كان لهم قدر كبير من الاحترام وكانوا يعينون في أعلى المناصب، وبالتالي عملية جذبهم واستقطابهم ستمكن من إحداث فراغ بين المجتمع والسلطة السياسية.

الطريقة الثانية التي انتهجتها الخلافة العثمانية في اختراق المنظومة الاجتماعية الصوفية المغربية هي السيطرة على طرق الحجيج، فما هو معلوم أن طرق الحج المغربية كانت تمر عبر ولاية الجزائر، سواء الطرق البرية أو البحرية، وكانت تعبر كذلك الأقاليم التابعة للباب العالي، وكان ركب الحجيج يضم شخصيات كبيرة ذات ثقل اجتماعي مهم في المغرب الأقصى، لذلك نجد أن الخلافة العثمانية تقوم بموقف دبلوماسي مهم، اتجاه المغاربة من خلال السماح لركب الحجيج المغربي بالمرور والذهاب إلى بلاد الحرمين، حيث كان لهذا الموقف هدفين أساسيين: الأول يتمثل في إبراز قوة العثمانيين، والثاني إبراز

¹ صباح بعارسية، "حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي"، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، الجزائر، 2005/2006، ص 186.

² نفسه، ص 187.

³ نفسه، ص 188.

⁴ أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي أعتني به، عبد الرحمن دويب، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 19.

⁵ سعد الله، مرجع سابق، ص 496.

دورهم الشرعي في حماية المسلمين¹، ولتأكيد الأمر أكثر كان التنظيم العام لطرق الحج في العالم العربي أو في المناطق الخاضعة للخلافة العثمانية، خاضع بصفة مباشرة لتنظيم العثمانيين عبر مختلف نقاط تنظيمه، فمصر كانت تمثل ملتقى لركب الحجيج القادم من المغرب العربي أين كانت الخلافة العثمانية تولي عليهم قائد مغربي، ففي ذلك الإطار تمكن الشيخ أبي زكريا بن يحيى النايلي الجزائري الملياني المشهور بالشاوي والمتوفى سنة 1096هـ/1685م من تولي إمارة الحج المغربي بمصر، بحيث حج بالركب المغربي (المغرب الأقصى) مرتين من القاهرة².

ويجدر التنويه أيضا إلى أن الطريق البري للحج المغربي كان يتم في إطار رسمي مغربي، فالركب المراكشي كان يمثل الركب الرسمي في العهد السعودي، كما يجب التذكير كذلك أن الطريق البحري للحج الذي كان يرتاده المغاربة وخاصة سكان الساحل وبعض الأثرياء كان منطلقهم من بادس وتطوان وتشهد الأحداث التاريخية على ذلك ففي 1096هـ/1685م سافر الفقيه الأديب محمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني عبر مرسى تطوان قاصدا الديار المقدسة³، وما هو معلوم أن النشاط البحري في تلك الفترة كان خاضع للإمارات البحرية المغربية الساحلية المدعومة مباشرة من طرف الخلافة العثمانية، وبالتالي مسألة الاختراق واردة جدا.

2-1-د- رد فعل السلطان محمد الشيخ السعودي على سياسة الاختراق العثماني:

أمام هذا الوضع الصعب، عمل السعوديون على مواجهة هذه السياسة العثمانية الهادئة والصامتة، وذلك داخليا أكثر منه خارجيا، حيث قام محمد الشيخ السعودي بقطع أي صلة للعثمانيين مع الطرق الصوفية، وعمل محمد الشيخ على مراجعة استراتيجيته اتجاه الطرق الصوفية التي كانت العامل الأول لنجاح الحركة السعودية في السابق، وذلك نتيجة لهذه الظروف⁴، حيث خاف على ملكه من نفوذهم

¹ محمد مزين، يونان لبيب رزق، تاريخ العلاقات المغربية المصرية من مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912، ط1، دار النشر المغربية، المغرب، 1982، ص 33.

² محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، د ط، مطبعة المغرب، المغرب، 1983، ص 38.

³ نفسه، ص 40.

⁴ فاهم نعمة الياسري، حسنين عبد الكاظم عجة، "الإسهامات السياسية لمتصوفة المغرب الأقصى في العصر الحديث"، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد 12، العراق، ص 165، (ص.ص 155-175).

وهيبتهم في أوساط المغاربة حيث كانت كلمتهم مسموعة، كما كانت لهم امتدادات كبيرة وصلات عديدة مع الأقطار المغاربية الأخرى.

فمحمد الشيخ عمل عكس سابقه بالتضييق عليها، من خلال حرمانها من مواردها التي كانت تستخلصها كالأوقاف الإسلامية، والحقوق الشرعية، والسبب في ذلك التعاطف الذي أبداه متصوفة المغرب اتجاه الخلافة العثمانية التي كانت تعادي محمد الشيخ، باعتباره حاكم دولة ثيوقراطية صوفية نظامها مستبد كما أنها كانت ذات دور بارز في الجهاد ضد الإيبيريين، وكانت لها المقومات اللازمة لزعامة العالم الإسلامي¹، ومن مظاهر سياسة محمد الشيخ في ذلك هو قيامه سنة 958هـ/1551م بامتحان أرباب الزوايا والمتصدين للمشيخة خوفا على ملكه منهم، حيث اتهمهم بامتلاك ودائع بني مرين²، فهو كان يرى في الزوايا العنصر المعرقل لتطبيق سياسته بسبب المواقف التي اتخذوها من الأشراف منذ وصولهم إلى السلطة، لذلك قام باستحداث ضريبة النابية وفرضها عليهم، وهو ما عارضه عليها العلماء ورجال الصوفية، وذلك بعدما تعود هؤلاء على الامتيازات صار من الصعب التخلي عليها، ومن أجل هذا ظهر التوتر بين الجانبين³.

بحيث كان لمتصوفة المغرب في الشمال النصيب الأكبر من سياسة القمع أو التضييق التي انتهجها محمد الشيخ، فالشماليون وخاصة منهم سكان المدن المهمة مثل فاس ومكناس رفضوا دولة الأشراف بقوة، لذلك دافعوا دفاعا مستميتا عن السلطة الوطاسية، فاكتمسبوا بذلك احترام الناس وتعاطفهم وهو ما شكل تحديا للأشراف⁴ خصوصا إذا علمنا أن صوفية الشمال كانوا ذوي توجه صوفي قادري، وهو أكبر ما كان يخشاه السعديون. ومن بين العلماء الذين لحقتههم سياسة محمد الشيخ السعدي، العالم الفقيه عبد الواحد الونشريسي، والشيخ الزقاق، وابن حرزوز⁵، كما صدرت مراسم بهدم المساجد والزوايا التي كانت تابعة للشيوخ المعارضين، وكذلك بسجنهم وقد كانت زاوية الشيخ أبي محمد الكوش ضحية ذلك

¹ الياسري، عجة، مرجع سابق، ص 167.

² الناصري، (الاستقصاء)، ج5، مصدر سابق، ص 25.

³ القدوري، مرجع سابق، ص403.

⁴ عثمان المنصوري، " الانتصار للتصوف والمتصوفة الشمال من خلال دوحة الناشر لابن عسكر فصل من كتاب:

"محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني"، تتسيق محمد العيادي، مطبعة فضالة المغرب، دت، ص 175.

⁵ نفسه، ص 178.

المرسوم حيث هدمت وأبعد الشيخ إلى فاس¹، كما تعرضت الطريقة الزروقية في الشمال لذلك المرسوم كذلك وكانت هي الأخرى معارضة لدولة السعديين وكان شيخها زروق يرفض المهدوية ويدين مدعيها الذين لم يكونوا حسب رأيه إلا منتطعين طامعين في الملك²، إضافة إلى ذلك قام المغاربة بحركة معاكسة اتجاه العثمانيين من خلال إتباع نفس أسلوبهم في الاختراق، حيث كانت الطريقة الخاذرية ومقرها المغرب متحالفة مع سلاطين فاس وكان لها أتباع ومريدين في الجزائر ومنهم سي لخضر بن خلوف الذي كان يعتبر الأتراك والنصارى في زمرة واحدة³.

2-1-هـ- موقف العثمانيين من التضييق السعدي على حلفائهم الصوفيين:

وأمام هذا التعتت والتحدي المغربي للتوسع العثماني، بدأت السلطة السياسية العثمانية تفكر في التخلص من محمد الشيخ السعدي عن طريق توظيف عناصرها المندسة في صفوف الجيش السعدي بل وكانت تشكل الحرس الخاص للسلطان السعدي⁴، حيث كان هذا التوجه الجديد بعد استفزازات محمد الشيخ والذي يظهر في عدة محطات منها محاولته الثانية لاحتلال تلمسان سنة 1557، بعد اتفاهه وتقاربه مع الاسبان⁵، وكذلك عدم احترامه واستفزازه للسلطان العثماني سليمان القانوني حينما وصفه بسلطان القوارب⁶، وكانت هذه هي النقطة التي أغضبت السلطان سليمان أكثر، إضافة لكون محمد الشيخ عمل على التضييق على مؤيدي العثمانيين، كلها عوامل أدت إلى قيام الخلافة العثمانية بتصفيته عن طريق حرسه الخاص في 1557⁷.

¹ محمد بن عثمان، "المنصور الذهبي"، مجلة المغرب، العدد 38، 1936، ص 09.

² ملين، مرجع سابق، ص 29.

³ عبد الكريم بو الصفا، "التصوف مفاهيمه وأبعاده، الملتقى الدولي الحادي عشر: "التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة"، نوفمبر 2008، الجزائر، ص 17.

⁴ إلتز، مرجع سابق، ص 307.

⁵ عز الدين بن سيفي، "ملاحم من العلاقات السياسية الجزائرية المغربية على عهد الأتراك العثمانيين والأشراف السعديين السعديين في المغرب الأقصى"، مجلة القرطاس، العدد 11، 2019، الجزائر ص 04، (ص.ص 35-45).

⁶ الزباني، (الروضة السليمانية...)، مصدر سابق، ص 32.

⁷ قصة مقتل محمد الشيخ السعدي تذكرنا بحادثة مقتل إدريس الأكبر مؤسس الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى على يد يد هارون الرشيد تتلاقى أحداث القضيتين في كل شيء إلا الأشخاص والزمن، للمزيد ينظر: محمد بن محمد بن عمر العدواني، تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، ط01، دار الغرب الإسلامي، 1996، ص 143.

2-2 السلطان عبد الله الغالب في مواجهة سياسة الخلافة العثمانية، وموقف هذه الأخيرة منه
(1557 - 1574):

2-2 أ السياسة الداخلية:

بعد وفاة محمد الشيخ السعدي سنة 1557، تمكن ابنه عبد الله الغالب من تولي مقاليد الحكم، وفي فترة حكمه تلك عرفت الدولة السعدية (المغرب الأقصى) عدة تحولات داخلية وخارجية من حيث البيئة السياسية وحتى الاجتماعية، بحيث انتهج الغالب في هذه الفترة سياسة متعصبة ومنتشدة داخليا، أما خارجيا فقد عمل على الحفاظ على استقلالية دولته من الخطر العثماني الذي يدهمه وخاصة بعد مقتل أبيه على يديهم، إذن ومن هذا المنطلق نتساءل عن موقف السلطان الغالب من العثمانيين؟، وكذلك نستفسر عن السياسة التي انتهجها لمجاراتهم، ومحاولة قطع الطريق أمام سياسة التوسع، وكذلك أمام الاختراق الصامت الذي انكشفت ملامحه بعد وفاة الشيخ؟.

من خلال اتباع مجريات الأحداث في هذه الفترة نلاحظ أن سياسة الغالب (1557-1574)¹ اتجه العثمانيين كانت ذات نهجين: الأول المهادنة والمسايرة، والثاني العداء وذلك ابتداءً من سنة 1560، ففي الفترة من 1557م-1560م قام الغالب بمهادنة العثمانيين لأنه كان يدرك مدى قوتهم وإمكانيتهم في السيطرة على المغرب، مقابل ذلك عمل على انتهاج سياسة تطهير صامته لمؤيدي العثمانيين داخليا سواء المجندين أو أصحاب الطرق الصوفية، ففي ذلك الإطار قام الغالب بالاستغناء عن خدمات الجنود العثمانيين الذين كانوا يشكلون فرق عسكرية قوية في جيش أبيه، مقابل ذلك استعان بخدمات الفرنسيين لتعويضهم حيث عقد اتفاقية مع ملك نافارا تقضي بتزويد السلطان الشريف بحرس شخصي وذخائر ومعدات حربية، مقابل التنازل عن ميناء القصر الصغير الاستراتيجي، كما قام باستقطاب العنصر الأندلسي²، ويجب الإشارة هنا أن ميناء القصر الصغير كان يمثل قاعدة هامة للسفن العثمانية في جهادها في غرب المتوسط، لذلك نجدها تستحوذ عليه باتفاق رسمي في فترة السلطان عبد الملك السعدي، وعليه فإن قيام الغالب بهذه الخطوة هو ضرب الاستراتيجية العثمانية الجهادية والتوسعية، كما يجدر

¹ H.de casterie, tom 01, Espagnol, opcit. P432.

² ملين، مرجع سابق، ص 48.

التذكير أن اتفاقية الغالب مع الفرنسيين لم نجد لها صدى على أرض الواقع وحتى المصادر التاريخية لم تتطرق إليها كحدث بارز، وتكون تلك ربما مناورة من الغالب ضد العثمانيين.

أما بالنسبة للنشاط الصوفي فقد قام الغالب باضطهاد أقطاب التصوف المعارضين له، وعلى رأسهم أتباع الطريقة اليوسفية، الذين اتهمهم بالانحراف عن الدين¹، ويكون الغالب بموقفه هذا قد عمل على المس من نقاط الارتكاز في سياسة الخلافة العثمانية اتجاه المغرب القائمة على الاختراق العسكري والاجتماعي، كما قام أيضا (عبد الله الغالب) بتحسين مكانته السياسية في الحكم من خلال القيام بسجن وطرده إخوته الأمراء، وذلك خوفا من ملكه، حيث لجأ أخواه عبد الملك وعبد المؤمن رفقة حاشيتهما إلى ولاية الجزائر، أين تم إغاثتهما، ليتوجه الأخ الأصغر عبد الملك بعدها إلى عاصمة الخلافة العثمانية رفة أمه اللا سحابة، قاصدا اللجوء وطلب المساعدة ضد الغالب².

وما يلاحظ في سياسة الغالب الداخلية هذه أيضا أنه كان يقوم بنوع من التحصين للجبهة الداخلية والتعبئة كذلك لمواجهة مباشرة مع العثمانيين، حيث قام بزيادة عدد قواته بتجهز فرق عسكرية قوية مكونة من 116000 عسكري على أهبة الحرب، تضم ستة آلاف فارس عربي، وخمسة آلاف رام من برابرة إيلان وحراطين درعة معقل دولته، مع 600 من الرماة الأوروبيين والأعلاج، وكان حرسه الخاص وحده يبلغ ثلاثة آلاف ومائة جندي³، أما فيما يخص الجنود القادمين من البقاع أو الأراضي العثمانية، فقد انحصر دورهم بعد ما استبعدوا من دور الحراسة السلطانية التي كانوا يتولونها في السابق، لكن رغم ذلك اتخذ منهم الغالب فرق عسكرية⁴ بعد تفريقهم أو بالأحرى دمجهم في الفرق الأخرى، نظرا لقيمتهم القتالية كان من الصعب على الغالب التخلي عنهم نهائيا، كما قام الغالب بتدعيم وزيادة حجم قواته البحرية، فقد أصبح الأسطول المغربي في عهده يتكون من 30 سفينة⁵، وكان الغالب يهدف إلى قطع الطريق أمام

¹ سعد الله، مرجع سابق، ص 497.

² - بن سيفي، مرجع سابق، ص 39.

³ بن عبد الله، (القوام العسكري في الحضارة المغربية)، مرجع سابق، ص 167.

⁴ نفسه، ص 168.

⁵ بوشرب (وثائق ودراسات...)، مرجع سابق، ص 100، للمزيد ينظر: بوشرب، (قرصنة المحيط...)، مرجع سابق، ص 10.

النشاط العثمانية على السواحل المتوسط والأطلسية للمغرب الأقصى، فالغالب كان ممتعض من النشاط العثماني إلى درجة استعداده للتنازل فيها للإسبان.

لكن رغم سياسة الغالب البحرية هذه إلا أن نشاط الخلافة العثمانية على السواحل المذكورة كانت مستمرة، ولم تنقطع سواء في عهد أبيه محمد الشيخ أو في عهده، والسبب في ذلك ربما يعود لقوة الاتصال العثماني مع الأمراء المحليين لتلك الجهات أو المدن البحرية الجهادية، والدليل على ذلك أن الخلافة العثمانية قامت سنة 1568م، وعلى إثر ثورة الأندلسيين بإرسال قوة مكونة من أربعين سفينة حربية محملة بالأسلحة بقيادة الرئيس علق علي(1568-1571)، حيث اجتازت هذه القوة المياه المواجهة لوهران ودخل علق علي مع 14 ألف جندي عثماني، و60 ألف جندي عربي من قبائل زاوية والمهاجرين الأندلسيين و14 ألف جمل محمل بالبارود إلى المغرب الأقصى حيث يشير صاحب المعلومة أنه جاء أمام أسوار فاس¹.

وعليه يتوجب الوقوف عند هذا الحادث، حيث يجب التنبيه أن المؤلف التركي يلماز أوزوتونا ربما كان يقصد سواحل فاس، وهي التسمية التي كان يشتهر بها المغرب الأقصى لدى العثمانيين أي ولاية فاس، لأن فاس بعيدة عن الساحل المتوسطي، ولا يمكن أن نضعه في خانة التعاون العسكري بين الغالب والعثمانيين لامتعاض السلطان المغربي منهم.

وما يؤكد تفسيرنا هذا أكثر هو أن أغلب الكتابات التاريخية التركية تسمى المغرب الأقصى بذلك الاسم "فاس"، فالمؤرخ خليل الساحلي يتحدث عن حملة عسكرية عثمانية بقيادة طرغوث ريس بناء على طلب أمير أمراء الجزائر حسن باشا، بعد ورود معلومات استخباراتية عن تحرك الإسبان، حيث يقول الساحلي أن حملة طرغوث هذه عادت أدرأها بسبب فشلها في إقامة قاعدة عسكرية على ساحل فاس²، ويجب التنبيه أن هذه الحملة كانت بعد وقعة بادس سنة 1564، ويجب الإشارة كذلك إلى حجم النشاط العثماني وحرته على السواحل المغربية، سواء في إطار التعاون الرسمي أو بدونه، وعموما سواحل المغرب الأقصى كانت مباحة للسفن العثمانية.

2-2- ب السياسة الخارجية:

¹ أوزوتونا، مرجع سابق، ص 378.

² الساحلي، مرجع سابق، ص 341.

أما بالنسبة لعبد الله الغالب وإلى جانب سياسته الداخلية قام ظاهريا، بعقد مهادنة مع الخلافة العثمانية بعد بعثة السلطان العثماني مراد الثالث (1574-1595)، حيث استقبل الغالب السفير أو المبعوث العثماني، وأكرمه ودفع له علامات وسيوف مفضضة ومذهبة وإعطاءه ذخائر كثيرة وأرسل معه كاتبه الأديب الفصيح أبا محمد السرخيني، وأنعم بذلك كل سنة، وأرسل مع كاتبه خمسة آلاف إلى إخوانه، ثم إن الكاتب المذكور أوصل الهدية إلى السلطان العثماني وجلس بين يديه، وأخذ معه في الكلام والاتفاق وقبل الكاتب ما اشترط عليه السلطان العثماني، من دفع المال كل سنة وأخذ في الرجوع إلى المغرب¹. مبادرة الغالب هذه جاءت بعد إحساسه بالخطر الشديد من العثمانيين الذين وجدوا سببا وجيها للتدخل في بلاده، وذلك من خلال الدفاع عن إخوته من طرفهم، ومحاولة إرجاع لهم حقوقهم في ملك المغرب، لذلك قام بتلك الاتفاقية مكرها ومجبرا.

لكنه أيقن خطورة الموقف وعدم جدوى الاتفاقية التي تجعله منه تابعا للدولة العثمانية بطريقة مباشرة، لذلك قام بتغيير موقفه أو سياسته المهادنة، وقام بالتحالف مع الإسبان أعداء العثمانيين ومنحهم ميناء قلعة بادس سنة 1564²، وبذلك يكون نقض العهد التي أبرمه مع العثمانيين قبل ذلك بقليل (نفس السنة)، وتم على إثر ذلك عودة أخواه إلى الجزائر ثانية، ففي رسالتين أرشيفيتين من السلطان العثماني بنفس التاريخ 07 رمضان 972هـ / 08 أبريل 1565 الأولى كانت موجهة لحسن باشا أمير أمراء جزائر الغرب جاء فحواها كالتالي: "ورد إلى كتبنا العلية خطابك الذي تعلم فيه بأن عبد الله حاكم مراکش قد نقض العهد والصلح الذي قام بعقده سابقا بعض الصلحاء بينه وبين إخوته عبد المؤمن وعبد الملك وعلمنا أن المذكورين عادا إلى الجزائر ثانية"³.

أما عن الرسالة الثانية فهي موجهة إلى الأخوين الفارين عبد الملك وعبد المؤمن الذين أرسلنا رسالة في نفس السنة أي بعد نقض الغالب للصلح يدعوان السلطان العثماني لإعادة إصلاح ذات البين حيث كانت ديباجة الرسالة كالتالي: "وصلت رسالتكم إلى قهر السعادة بغية إصلاح ذات البين بين صاحب الإمارة وحاكم المغرب وأخيك عبد الله، وقد أعلمتمونا أنكم تطلبون عند وصولكم إلى حرس حدود الولاية

¹ مجهول، مصدر سابق، ص 40.

² ملين، مرجع سابق، ص 48.

³ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة، رقم 06، حكم رقم 972، رسالة من الخليفة العثماني مراد الثالث إلى حسن باشا أمير أمراء جزائر الغرب، بتاريخ، 07/09/972هـ.

أن يتم مراجعة الجزائر والتعاون مع أسطولي من أجل حل النزاع، وقد عرض علينا تفاصيل الخصائص المندرجة بمضمون رسالتكم وأحطنا علما به¹، ليكون جواب أو أمر السلطان العثماني على مطلبهما كالآتي: "...وقد أمرت بما يلي: سيصل حكي الشريف الواجب إطاعته وذلك لأن لجوؤكم إلى دولتنا يعتبر مكسبا كبيرا لنا، وعند الفراغ من هذه الغزوة²، وحسب ما يراه خادمي عدي باشا بايلرياي الجزائر دام إقباله سيتم حل الخلاف مع أخيكم بعد الفراغ من هذه الغزوة إن شاء الله، وإذا لم يوافق أخوكما على الصلح والصلاح وأظهر الخلافة سيتم تدارك ما هو مطلوب³. وبناء على هذه الرسالة نلاحظ أن الأخوين الفارين لم يكونا يريدان مواجهة عسكرية مباشرة مع أخوهما الغالب بل بالصلح، وذلك حفاظا منهما ربما على هدوء أوضاع المغرب وتماسكه، مرتكزين على الطرق الدبلوماسية أكثر، وبالفعل كلف السلطان العثماني سليم الثاني حاجي مراد بإجراء مباحثات مع عبد الله الغالب لكنها فشلت⁴.

وللإشارة هنا أن فشل حملة مالطا كانت إحدى أسباب صرف الخلافة العثمانية النظر عن سياسة الغالب تلك، وللتضييق على النشاط العثماني في غرب المتوسط بدرجة أكبر قام الإسبان بعد احتلالهم لباس سنة 1564 بمحاصرة القواعد الأخرى في الساحل المتوسطي، وذلك بإيعاز من الغالب، حيث قام الإسبان بحصار تطوان التي كانت رفقة بادس ملجأ للمجاهدين حيث كانت تحتمي به سفن المجاهدين البحريين من الغارات الإسبانية نظرا لطبيعته الجغرافية، الاستراتيجية لذلك قام الإسبان بإغلاقه من خلال إغراق سفن محملة بالحجارة فيه⁵.

¹ يوسف صارياني وآخرون، الجزائر في الوثائق العثمانية، ترجمة فاضل بيات، يشار محمد صالح الشريف، دار الوراق للدراسات والنشر، الجزائر 2018، ص 06.

² الغزوة التي تحدث عنها السلطان العثماني هي غزوة مالطا سنة 1565 والتي يأتي ذكرها في الكتابات التركية أنها كانت إحدى أوجه الاستراتيجية عثمانية الشاملة لاستئصال الوجود الإسباني في المتوسط، ففي تلك السنة انعقد مجلس الشورى العثماني بدعوة من السلطان سليمان لبحث تطورات الوضع في غرب الحوض المتوسط بعد سيطرة الإسبان على قاعدة بادس ونقطة الغالب لاتفاقيته مع العثمانيين، حيث جمع الاجتماع قادة الأساطيل العثمانية وحكام الايالات وكان رأي طرغود ريس وعلج علي هو البدء بفتح تونس وحجر بادس penon de valez ثم الهجوم على مالطة التي كانت تعرقل حركة الأسطول العثماني لكن رأي السلطان ومستشاريه كان البدء بفتح مالطة قبل تونس وبإداس وكان ذلك سنة 1565 لكن الحملة لم تنجح. ينظر: الساحلي، مرجع سابق، ص 142.

³ الساحلي، (من تاريخ الأقطار العربية...)، مرجع سابق، ص 06.

⁴ Gumes Esiksel, « haci murad(aji morato): an elusive dignitary active in the second half of the sixteenth century », the journal of ottoman studies, LVII, 2016, p257.(pp249-263).

⁵ كريم، مرجع سابق، ص 93.

وبالحديث عن سياسة الغالب هذه بعد سنة 1564 يجب التذكير كذلك بما فعله قبل هذا التاريخ أي في الفترة من 1557-1564م من محاولات عسكرية لرد الاعتبار أو إثبات الوجود لتكريس حكمه لكن تلك المحاولات كانت يائسة فالأولى كانت بعد وفاة أبيه كردة فعل منه على مقتل أبيه على يد العثمانيين وذلك سنة 965هـ/1557¹، بحيث لم تمضي سنة على تنصيبه خلفا لوالده، حيث تسمى هذه الحادثة بموقعة وادي اللين التي جاءت بعد محاولة الغالب الزحف على تلمسان²، لتنتهي محاولته بانهزام العثمانيين بسبب تلقي قائد الحملة حسن باشا أخبارا تفيد بتحريك الإسبان في وهران لمحاصرته ليتراجع بأقل الأضرار³، وبعد هذه المحاولة الفاشلة للغالب أيقن قوة العثمانيين لذلك عمل على مهادنتهم ومحاولة تقوية جبهته الداخلية والخارجية من خلال السياسات التي قام بها في ذلك الإطار.

وعموما نستطيع القول أن سياسة الغالب كانت في بداية 1557-1564، بغض النظر عن رد فعله أثناء معركة وادي اللين كانت مهادنة ومسالمة بصفة حذرة، وتتوافق مع رأي الباحث العراقي فاضل بيات الذي يقول أن علاقة الخلافة العثمانية مع الغالب في بداية توليه السلطة كانت جيدة بل بالإمكان القول أنه كان منضويا تحت حماية الدولة العثمانية⁴، وفيما يخص الفترة بعد 981هـ/1572م تاريخ وفاة الغالب⁵، وتولية محمد المتوكل (ت1578م) الذي خلف أبيه لم تكن إلا امتداد لهذه المرحلة ونفس السياسة، وهي المعادات للخلافة العثمانية، والخلاف مع عمه السلطان عبد الملك الوريث الشرعي لحكم المغرب، كما تشهد تلك الفترة امتداد لسياسة العثمانيين العامة ومشروعهم في حكم المغرب، الذي انطلق منذ حكم الغالب، وبالأخص سنة 1568.

2-2-ج- موقف العثمانيين من سياسة الغالب اتجاههم (مشروع الإلحاق والتبعية):

رغم المساومة والمراوغة التي قام بها السلطان المغربي عبد الله الغالب بهدف الحفاظ على ملكه أمام العثمانيين إلا أننا نجد أن هؤلاء كانوا بعيدين عن منطق القوة حتى تاريخ متقدم من ذلك، وبالضبط سنة 1568 إلا في بعض الحالات والتي كانت دفاعية ضد قوات الغالب، ولعل السبب كما ذكرناه سابقا

¹ حركات، ج02، مرجع سابق، ص 253.

² D. Haedo, opcit, p- p116-117.

³ أوزوتونا، مرجع سابق، ص 384.

⁴ بيات، (الدولة العثمانية في المجال...)، مرجع سابق، ص602.

⁵ كنون، (رسائل سعدية)، مرجع سابق، ص 11.

هو النسب الشريف حسب وجهة نظرنا والذي كان له دور كبير في ذلك، إضافة إلى أسباب أخرى، قد قمنا بعملية جرد لظروف تلك المرحلة من خلال الكتب والوثائق الأرشيفية المتوفرة لدينا في محاولة تحديدها وتقييم دورها في توجيه السياسة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى.

فالمؤرخ العراقي فاضل بيات يرجع الأمر إلى انشغال الأسطول العثماني بفتح مالطة سنة 1565، ورغبة الخلافة العثمانية في رص صفوف المسلمين لذلك لجأت إلى سياسة المهادنة¹، فسياستها تلك كانت ذات بعد دولي حسب ما أشرنا سابقاً، أما السبب الآخر لذلك حسب وجهة نظرنا دائماً يكون ربما لعدم اتضاح الرؤية للباب العالي، وعدم فهم القادة العثمانيين حيثيات الصراع الداخلي بينه وبين إخوته لذلك عملت على سياسة التهدئة، ففي رسالة أرشيفية موجهة إليه بتاريخ 14 جمادى الأولى 976هـ/ 25 أكتوبر 1568م جاء فحواها كالتالي: " فالمأمول منكم، أن تكون المودة بيننا مرصوص البنيان وبنيان المحبة متين الأركان، يرفع مباني العدل والإنصاف ويقلع أساس الجور والاعتساف ويبذل جهودكم في إعلاء الشرع القويم ورفع ألوية الدين المستقيم..."²، كما يجب الإشارة إلى أن فحوى الرسالة يحمل إشارة واضحة للغالب على ضرورة إعمال العدل والإنصاف ويقصد هنا اتجاه إخوته بعدما همشهم وطردهم، وكذلك عدم الالتجاء إلى الكفار ومنحهم التنازلات بل المودة الأولى للمسلم على المسلم، وبذلك تكتمل أركان المحبة.

ولتأكيد هذا الكلام أو الرأي نستدل بمضمون الرسالة الأرشيفية من السلطان سليم الثاني (1566-1574م) إلى الغالب في نفس السنة 1568م يذكره وجوب التبعية والعودة إلى العمل بالاتفاقية السابقة حيث جاءت كالتالي: " لا يخفى كذلك على علمكم أنكم من قديم الأيام وسوابق الأعوام، ممن أظهر الإخلاص والمودة نحو عتبتنا العلية الخاقانية، ومطيعاً منقاداً لسدتنا السنية السلطانية بقلبك ويقالبك وخلص طويتك.... إلى جنابنا العالي السلطاني"³، كما يحثه على العدل مع إخوته من خلال منحهم

¹ بيات، (الدولة العثمانية في المجال المغربي)، مرجع سابق، ص 603.

² أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر المهمة، الديوان الهمايوني رقم 22، حكم رقم 656، رسالة من الخليفة العثماني سليم الثاني إلى الشريف عبد الله حاكم فاس، بتاريخ 14 جمادى الأولى 976/ 28 أكتوبر 1568، ص 332. (مركز التاريخ العربي للنشر-اسطنبول-).

³ أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر المهمة، الديوان الهمايوني رقم 712، حكم رقم 2484، رسالة من الخليفة العثماني سليم الثاني إلى الشريف عبد الله حاكم فاس، بتاريخ 14 جمادى الأولى 976هـ/ 28 أكتوبر 1568، ص 907-908.

شيء من حكم المغرب الأقصى: " فلأجل إخلاصك ينبغي تعيين لأخوك المشار إليه شيئاً من الممالك التي انتقلت إليكم من آبائكم الكرام... وترى حق الإخوة فيه"¹.

وعلى ضوء هذا نستخلص أن هذه المطالب التي وردت في الرسالة، كانت نتيجة لمطالب المولى عبد الملك في رسالته إلى السلطان العثماني سنة 1565م بعد نقض أخوه الغالب المعاهدة، حيث كان هدفها الحصول على دعم الخلافة العثمانية بالطرق الدبلوماسية، وبذلك يكون الأمير عبد الملك إحدى أسباب عدم توجيه سلاطين الخلافة العثمانية حملة إلى المغرب مترئين، ومنتظرين ملائمة الظروف، ففي رسالة مؤرخة في 12/05/976هـ - 23/10/1568 من السلطان العثماني سليم الثاني إلى والي الجزائر عالج علي (أوت 1568-نوفمبر 1571) توضح ذلك، وتؤكد عليه حيث جاء في متنها ما يلي: "لقد حضر إلى سدة سعادتنا خلف الأمراء الكرام، السيد عبد الملك، دام علوه شقيق السيد عبد الله حاكم مرانقوش (مراكش) معلنا ولائه (عبوديته)... واستدعى إصدارنا خطاباً همايونياً لمنحه مكاناً قريباً من الجزائر لأجل معيشة، وكذلك بذل مساعينا لفصل الخلاف القائم بينهما بطريق الصلح والصلاح ودون حرب ودون قتال كي لا يلحق بالرعية أي أذى"².

وبناء على هذا نستنتج أن مطالب الأمير عبد الملك السعدي إضافة إلى عدم وضوح رؤية المشاهد السياسي المغربي من حيث الشرعية جعل الجانب العثماني متردداً في شأن الإجماع الاجتماعي المغربي حول الأمير عبد الملك لذلك كان يترتب، ولتنفيذ مطالب الأمير عبد الملك أمر السلطان العثماني بما يلي: " وأمرت: أن تتصل بالمذكور عبد الله حال وصول هذا الحكم وفي حالة موافقته على الصلح والصلاح، فلتشكل وفقاً على الوجه الذي ورد في خطابي ولتبعث به بالأسلوب والطريقة المناسبة، ولتؤكد عليهم بالمطالبة بمدينة فاس أولاً، وإذا لم يوافق عليها فليطالبوه بمدينة تارنت (تازة) وتقلرة القريبتين من الجزائر، مع توابعها، ودعهم أيضاً يتجسسون ويتبعون آراء الناس خفية كي تظهر نواياهم وإرادتهم، فيمن يرغبونه حاكماً عليهم"³، ومن هذا المنطلق يتجلى موقف الخلافة العثمانية بكل وضوح، مع وجوب الإشارة إلى بداية التفكير والتخطيط العثماني لتغيير سياسة المهادنة بعد هذه البعثة إلى سياسة التدخل المباشر

¹ نفسه، رقم 712، حكم 2484. (مركز التاريخ العربي للنشر-اسطنبول-).

² الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 07، حكم رقم 2439، حكم إلى أمير أمراء الجزائر الغرب عالج علي بتاريخ 12/05/976هـ-03/10/1568.

³ نفسه رقم 07، حكم رقم 2439.

من خلال التحضير لمشروع السيطرة على المغرب الأقصى من خلال تولية عبد الملك السعدي على رأس الحكم.

أمام هذه التطورات يبدو أن الغالب لم يتجاوب مع بعثة السلطان العثماني، ولم يميل إلى طرق السلمية، وأمام انسداد كل القنوات الدبلوماسية والسلمية تغير موقف الخلافة العثمانية بصفة مباشرة، وبعد تيقنه من الرفض الشعبي المغربي للغالب، واتضح الرؤية أمامه قامت الدولة العلية، بإعلان القوة ضد الغالب والبدء في ترتيبات المشروع العثماني للسيطرة على المغرب الأقصى، من خلال تولية عبد الملك بدل الغالب.

حيث كانت أولى ملامح ذلك المشروع في رسالة السلطان العثماني سليم الثاني إلى الأمير عبد الملك (1576-1578) في نفس سنة رفض الغالب لبعثة العثمانيين في 22/05/976هـ- 23/10/1568 جاء فيها ما يلي: " وأمرت: ترتدي تلك الخلعة الهمايونية المقرونة بعزتي حال وصولها وأن تبذل قدراتك اتجاه الأمور المتعلقة بدولتي الأبدية الكونية وأن تضل على اتصال مع أمير الأمراء المشار إليه دام إقباله، وأن تطالبا أنت وشقيقك الموصى إليه بالذي كان يعطى لكما قديما¹، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخلعة السلطانية ترسل إلى حكام الأقاليم والألوية التابعة للحكم العثماني لذلك يمكننا القول أن التبعية المغربية للباب العالي ولو نظريا بدأت من هذا التاريخ من خلال تنصيب عبد الملك ولو نظريا كذلك على حكم المغرب الأقصى، وبالتالي السماح باستعمال القوة ضد الغالب ثم ابنه المتوكل الذي خلفه، ومن ذلك نستنتج أيضا وخلافا لآراء المؤرخين والباحثين الذين يرون أن الضعف العسكري الذي عرفته الخلافة العثمانية بعد وفاة السلطان سليمان القانوني يمثل إحدى الأسباب المباشرة لعدم انضمام المغرب للخلافة العثمانية، وأمام هذا الوضع نخالفهم الرأي ودليلنا في ذلك هو نجاح المشروع العثماني بتولية عبد الملك سنة 1576م على حكم المغرب عسكريا رغم استعانة السلاطين المخلوعين بالقوى الايبيرية، ونشاط تلك القوة الكثيف في تلك الفترة، وبالتالي مسألة القوة لا يمكن أن ترجع لها الأسباب الكفيلة بعدم انضمام المغرب إلى الخلافة العثمانية.

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 07، حكم رقم 2481، حكم إلى الأمير عبد الملك، بتاريخ: 22/05/976هـ - 23/10/1568.

ويبدو أن الخلافة العثمانية وجدت في شخصية المولى عبد الملك الرهان الذي يجب التركيز عليه في سياسته للسيطرة على المغرب نظرا لعدة أسباب ونقاط، وبذلك تكون الخلافة العثمانية قد وجد كذلك الحجة الشرعية التي تتيح له التدخل في المغرب، وهي التي كان تبحث منذ سقوط دولة الوطاسيين عن حليف قوي لها، يمكنها المراهنة عليه، حيث كانت شخصية أبو حسون الوطاسي مرشحة لذلك، لكن ضعف شخصيته وعدم الإجماع عليه من المجتمع المغربي آنذاك، لم ينل دعم العثمانيين الذين تخلوا عنه وكذلك عدم إخلاصه التام للسلطان العثماني على خلاف عبد الملك السعدي.

فالمشروع العثماني وإن كان ظهوره إلى العلن بتاريخ 23 أكتوبر 1568 كان مخطط له في السابق وينتظر التجسيد فقط، وذلك من خلال إيواء الأمراء الفارين من الغالب في الجزائر وكذلك منحهم كل التسهيلات لنشاطهم وإقامتهم وهذا ما تبينه الرسالة المؤرخة في 18/05/976هـ - 19/10/1568 من السلطان العثماني سليم الثاني إلى الأمير عبد الملك جاءت كالتالي: " لقد أرسلت إلى سدة سعادتنا عرض حال تعلم فيه عن أحوالك والآن قد تم تسطير، وإرسال حكمي الهمايوني المفصل إلى أمير أمراء الجزائر لأجل إعطائك، ما كنت تأخذه نقدا من خزينة الجزائر وكذلك المحصول السنوي المعين من ناتج (قلعة) وقرية مصانة (كذا) وغيرهما وأمرت: أن تتصل بالمشار إليه حال وصولك للجزائر المحروسة وأن تطالبه بما كان يعرض لك من نقدية ومن محصول سنوي وأن تتصرف بذلك الشكل المناسب"¹. وتتأكد تلك الرعاية المميزة في رسالة السلطان العثماني إلى والي الجزائر بتاريخ: 20/05/976هـ الموافق ل 21/10/1568هـ جاء فيها ما يلي: " حضر إلى سدة سعادتنا عبد الملك دام علوه شقيق السيد عبد الله حاكم مراكش...وأمرت حال وصوله (الحكم) أن تستمر بإعطاء المذكورين ما كان يحصلان عليه سابقا سواء كان من خزينة الجزائر أو من المحاصيل الأخرى"².

ومن هذا يتضح أن الخلافة العثمانية قد أجمعت بواسطة مجلسها على اختيار عبد الملك السعدي كرهان للسيطرة على المغرب وجعلها ولاية تابعة له، ويعود السبب في ذلك إلى الكثير من النقاط التي نستقيها من الرسائل الهمايونية، حيث كان الولاء والإخلاص أهم سبب في ذلك، ويظهر ذلك في قول

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 05، حكم رقم 2462، حكم من السلطان العثماني سليم الثاني إلى الأمير عبد الملك، بتاريخ: 18/05/976هـ.

² الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 07، حكم رقم 2461، حكم من السلطان العثماني سليم الثاني إلى عادل ريس، بتاريخ: 20/05/976هـ.

السلطان العثماني: " لقد حضر إلى سدة سعادتنا خلف الأمراء الكرام، السيد عبد الملك، دام علوه، شقيق السيد عبد الله حاكم مرانقوس (مراكش) معلنا ولائه (عبوديته)¹، وكذلك في رسالة السلطان سليم الثاني بتاريخ 1571/04/30 والتي كان فحواها كالتالي: "...ويكون مع المشار إليه في لسانكم واحد أو جهته واحدة، كما هو مذكور في جهتك الحسنة، وطريقتك المستحسنة، من النديرة اللطيفة، وتمام الجد والاجتهاد، وكمال الإطاعة والانقياد وحسن المتابعة، والاتحاد، بحيث يذكر من سعيكم المشكور، جدكم المشهور واطمئنان البلاد والعباد، وأن يكون الرعايا والبرايا في أيام دولتنا العادلة آمنين مستريحين بحيث لا خوف ولا هم يحزنون والله تعالى هو الموفق المعين"².

وعلى ضوء هذه الرسالة نلاحظ مدى الخضوع المغربي للباب العالي، وبالتالي التبعية والولاء المطلق، فالسلطان العثماني يخاطب عبد الملك السعودي كأنه حاكم تابع إليه ويظهر ذلك جليا في هذه الرسالة التي تظهر أن الخليفة العثماني يسأل حاكمه عن أحوال رعيته، ويتأكد ذلك في رسالة أخرى في نفس السنة بتاريخ 1571/04/30هـ-979/10/25هـ، والتي هي عبارة عن توقيع رسمي بين الخلافة العثمانية وعبد الملك السعودي لاتفاقية الولاء والتبعية، بتولية عبد الملك كحاكم عليها: "وبناء على استدعائه لعاطفتي السلوكية، بوضع ولاية فاس (فس) ومرانقوس (مراكش) وسوسة (سوس) تحت تصرفه إذا ما قد تيسر اقتران تلك الولايات به كما كانت عليه أيام والده - المتوفى - فقد أعطينا هذا النيشان (الحكم) الهمايوني إحاطة منا له بغايتنا العلية الكروانية وأمرت: فيما إذا تيسر أمر الولايات المذكورة إلى المشار إليه، أن يتصرف بحكمها، كما كانت عليه أيام والده، وشقيقه المتوفيان، وبنفس الأسلوب، مادام على كمال صداقته وإخلاصه اتجاه استانة دولتنا"³.

وانطلاقا من هذه الرسائل الهمايونية نلاحظ أن المشروع العثماني لحكم المغرب الأقصى، قد تأكد ولم يبق له سوى التجسيد، وبأن الرهان على عبد الملك السعودي هو الرأي الصواب بالنسبة الدولة العلية، لكون عبد الملك وشقيقه عبد المومن لما فرا من بطش أخيهما الغالب لم يفعلوا مثل أبو حسون

¹ دفتر مهم رقم 07، حكم: 2439، مصدر سابق.

² الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 12، حكم رقم 325، رسالة من الخليفة العثماني سليم الثاني إلى حاكم فاس السلطان عبد الملك، بتاريخ 1571/04/30م.

³ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 12، حكم رقم 1036، رسالة من الخليفة العثماني سليم الثاني والي الجزائر علج علي، بتاريخ: 979/10/25هـ، أعطي إلى القابودان في 27 شوال.

الوطاسي(ت1554م) في السابق الذي التجأ إلى الإسبان الكفار بل التجأ مباشرة إلى الدولة العثمانية، ولم يساوماها في الولاء كما فعل الوطاسي، ويظهر ذلك في رسالة أرشيفية أيضا بتاريخ 979/10/25هـ- 1571/04/30 جاءت بما يلي: "... وكذلك شقيقه المتوفى عبد المومن معروفان بوفور إخلاصهما ومودتهما اتجاه حظيرة سعادتنا من قديم الزمان، ونظرا لبذلها قدراتهما في سبيل كافة المصالح والمهمات المتعلقة بالدين المبين والدولة الأبدية في تلك الديار بكمال الاستقامة، فقد كانا دائما أهلا لعنايتي وعواظفي الزاخرة السلوكية"¹، ويضيف: "كما أن المذكور(عبد الملك) كان مواظبا على أداء خدماتي الهمايونية ليلا نهارا بصداقة وإخلاص بناء على استدعائه لعاطفتي الملوكية"².

ولتجسيد هذا المشروع أكثر وعلى أرض الواقع تم التسريح لولاية الجزائر بدعم عبد الملك في بسط حكمه على ولاية المغرب الأقصى، وهو ما تؤكد الرسالة المؤرخة 979/01/26هـ-1571/05/31: "وبناء على وفور محبتكم، وإخلاصكم وفرط مودتكم واختصاصكم اتجاه استانة سعادتنا، فالمطلوب منكم هو الاتصال بالمشار إليه حال وصول هذا الخطاب الهمايوني، وتزقب الفرصة المواتية للهجوم على تلك الولاية مع العساكر المنصورة بمشيئة الله باذلين كل أنواع سعيكم وإقدامكم في سبيل استخلاص البلاد بعناية الله تعالى"³، كما أن الخلافة العثمانية تيقنت من إجماع أهل المغرب على عبد الملك من أعيان وعلماء "وأشار أيضا إلى رضاء وشكران أهالي فاس من عبد الملك"⁴، وبذلك يكون السلطان الغالب قد استنفذ كل أوراقه أو أسبابه لدى الخلافة العثمانية، والتي تتعدد في جملة من الأسباب سنوردها بعد الحديث عن حجم المشروع العثماني من حيث التكاليف أو بالأحرى ما الذي قامت به أو بذلته الخلافة العثمانية لتجسيده.

الخلافة العثمانية في سبيل مشروعها قامت بدعم إخوة الغالب وهم عبد المومن وعبد الملك رفاة حاشيتهما من علماء وقادة ورجال دين، أي أن المشروع العثماني كان متكاملا وتحملت تكاليف ذلك

¹ أ. و. ج، دفتر مهمة رقم: 12، حكم: 1036، مصدر سابق.

² نفسه، رقم 12.

³ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 14، حكم رقم: 1571، رسالة من الخليفة العثماني سليم الثاني إلى عبد الملك حاكم فاس، بتاريخ 26-01-979هـ.

⁴ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 18، حكم رقم 25، مصدر سابق. للمزيد ينظر: دفتر مهم رقم 14، حكم رقم 1571، مصدر سابق.

بحيث نجد السلطان العثماني حريص على إنجاز مشروعه للسيطرة على المغرب ففي رسالة بتاريخ 23/10/979هـ - 28/04/1571، يؤكد السلطان سليم الثاني حرصه الشديد على تنفيذ مطالب عبد الملك الذي كان مقيما في الأستانة، حيث ما يلاحظ في رسائل عبد السعدي إلى المقام السلطاني أنها لم تكن ترفض أبدا حيث كان مضمون الرسالة كالاتي: "قدم إلى أستانة دولتنا من الولاية المذكورة المدعو عبد الملك وعرض طلبه لإصدار حكمي المطاع بشأن السماح لأولاد وأتباع أخيه المتوفى عبد المومن بالتصرف بما كان في أيدي المرحوم... فقد أمرت: بالنظر في الموضوع وعدم السماح لأحد ما بموجب أمري الجليل القدر بالتعرض لهم حيال تصرفهم بما كان تحت أيدي المذكور"¹.

ففي رسالة أخرى إلى والي الجزائر علج علي بتاريخ 1571/979هـ يأمر بعدم وقف الدعم بأي شكل من الأشكال حيث جاء خطابه كالتالي: "...ولهذا فقد أمرت: ليصرف له ولرجاله ولأولاد عبد المومن، كما كان يصرف لهم في السابق عندما كان عبد المومن حيا، ولا يكون الصرف في حال من الأحوال مخالفا ومغايرا للفرمان الشاهاني الذي صدر بهذا الخصوص، ولتكن القاعدة القديمة مراعاة في عملية الصرف"².

ولزيادة التضييق على عبد الله الغالب، قامت الخلافة العثمانية بمنح الإخوة السعديين وعلى رأسهم عبد الملك أراضي قرب تلمسان، ولعل السبب في ذلك حسب تصريح والي الجزائر علج علي إلى السلطان سليم الثاني هو التضييق وإلحاق الضرر بالغالب، "وتم تنصيب عبد المومن وعبد الملك على تلمسان لأن في ذلك مضرة لحاكم فاس، ونفع للجزائر وتم كذلك توطين عبد الملك في الجزائر وأن الأخير قد مضى في تقديم خدماته في البر والبحر"³، وكأكد لمكانة الأمير عبد الملك لدى الخلافة العثمانية نستعرض إحدى الرسائل التي يطلب فيها دعم مادي لرجاله، ورد السلطان العثماني الإيجابي من ذلك: "تقدم عبد الملك حاكم فاس بعرض حال رجي فيه منح تيمار لكل من رجاله المدعويين أحمد بن يوسف

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم: 12 حكم رقم: 1025، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب علج علي، في: 23/10/979هـ.

² الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 12، حكم رقم: 537، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب علج علي بتاريخ 1571م/979هـ.

³ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم: 18، حكم رقم: 25، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب علج علي، بتاريخ: 27رمضان/979هـ/1571م.

ومحد وبيرام وقاسم ومحمد وبناء عليه، فقد أمر لكل واحد منهم بتيماز قدرها ثلاثة آلاف أقة¹، وعموما مجموع المحصول السنوي كان يكلف خزينة الخلافة العثمانية 40 سلطانية شهرية من خزنة الجزائر وكذلك مبلغ إجمالي قدره 66000 زياتي يضاف إليها ما يتم جمعه من المناطق الأخرى التي كانت تابعة (عبد الملك) في تازة هذا فضلا عن الطعام والشراب².

وأمام هذا المشروع المتكامل لم تكن أيام السلطان عبد الله الغالب طويلة بعد ذلك، حيث أن الخلافة العثمانية اتخذت كل الأسباب لإعلان حربها على الغالب وبسط سياستها التوسعية وسيطرتها على المغرب الأقصى وقبل الحديث عن أمر إعلان الحرب وتنصيب عبد الملك الذي سيكون منزعج حاسم في علاقات الخلافة العثمانية مع المغرب الأقصى في الفترة الحديثة، وانطلاقا من هذه المعلومات الأرشيفية نحاول تلخيص أسباب استعمال الخلافة العثمانية القوة ضد الغالب وخليفته المتوكل، فالسبب الأول في استعمال الخلافة العثمانية القوة ضد الغالب كان بعد نقضه، وعدم امتثاله للصلح الذي كان عقد سابقا والذي يعتبر بمثابة تبعية من الغالب إلى السلطان العثماني³ وقد علمنا بعدم رضاه المشار إليه بالصلح وعدم امتثاله لما جاء في خطابنا الهاميون³، وكذلك سوء نية الغالب اتجاه العثمانيين رغم منحهم إياه مهلة لإعادة النظر في قضية نقضه للمعاهدة، ولجوؤه إلى سياسة التنازلات لصالح الإسبان، والتي تضر بالدولة العلية ومصالحها، وكذلك مواصلته في استعمال العنف ضد إخوته وأفراد الأسرة السعدية، "وصل إلى سدة سعادتنا، وعتبتنا العليا، خطابكم الشريف الذي ينبئ باستمرار الظلم والتعدي الذي يمارسه شقيقكم عبد الله منذ أربعة عشر عاما وأنكم منذ ذلك الحين ستنتظرون تحسن الأوضاع..."⁴.

إضافة إلى ذلك امتعاض سكان المغرب ولاسيما رجال الصوفية وخاصة الموالين للعثمانيين الذين اضطهدهم الغالب، ففي رسالة من خليفة العثماني سليم الثاني إلى أهالي فاس ومراكش وسوس ما يؤكد ذلك: "... فلا جزم قبل تاريخ هذا المنشور العالي والذي المغفور له سلطان الغزاة والمجاهدين سلطان سليمان خان أسكنه الله في غرف الجنان نصب المشار إليه لتلك الولاية، وأنعم مرسوما شريفا فأرسل

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم: 25، حكم رقم: 3118، من السلطان العثماني سليم الثاني إلى رمضان باشا والي الجزائر، بتاريخ: 982/08/27هـ.

² أ. و. ج، دفتر مهمة رقم 07، حكم رقم: 2461، مصدر سابق.

³ أ. و. ج، دفتر مهمة رقم، 14، حكم رقم: 1571، مصدر سابق.

⁴ نفسه، حكم رقم: 1571.

المشار إليه ذلك المنشور إلى سدتنا العلية يطلب تجديده، فأعطيناه من سدتنا السنية منشورنا السني الخاقاني، فمرسومنا الشريف المطاع وأمرنا المنيف واجب الاتباع أن تكونوا مع أفخر الأمراء المشار إليه على أحسن حال وأكمل اتحاد لرأيه السيد مطيعين....¹، لتؤكد رسالة أخرى ما جاء في هذه الرسالة بما يلي: "وأعلمنا بأن سكان الولاية يطالبون بـتنصيبك (عبد المالك) عليها... وبناء عليه فقد أرسل حكم همايوني إلى علي دام إقباله، أمير أمراء جزائر الغرب وأمرناه بإعداد العدة للهجوم على المذكور متى سنحت الظروف والأوقات وذلك بمشيئة الله"²،

وفي رسالة أخرى بتاريخ 1565/04/08 تتضح تلك الأسباب وتتأكد أكثر، وهي نقض الغالب للصلح الذي كان بمثابة اعتراف رسمي من الغالب للخلافة العثمانية للتدخل في المغرب والنشاط على السواحل وكذلك يعود السبب الآخر أيضا إلى العناد والعداء للعثمانيين "فإذا أصر حاكم فاس الموصى عليه على العداء والخلاف ولم يمل إلى طريق الصلح والصلاح، فإن رده عن تصرفاته سيكون من واجب السلطنة ويجب الإعماد له حين أوان الوقت والفرصة المناسبة"³، أما السبب الآخر والمهم كذلك هو التمادي الواضح والتحدي للباب العالي، وهو تأكيد على العناد والعداء حيث قام الغالب بقتل شقيقه عبد المؤمن فكان رد فعل العثمانيين: "وأمرنا حال وصوله (أمر همايوني) يجب تعيين الابن الأكبر للمتوفى عبد المؤمن مع رجاله الأكفاء على الثغور"⁴، وانطلاقا من هذا كان واجب على الخلافة العثمانية، إعلان الحرب والبدء في تكريس سياسته التوسعية من خلال مشروعها القائم على إشراك عبد الملك في الحكم خصوصا وأن الأخ الأكبر قد قتل وبالتالي الخوف من ازدياد تمادي الغالب في قتل إخوته وعداءه للباب العالي.

وعليه قام السلطان العثماني بأمر شن الهجوم على المذكور في رسالته المؤرخة في 19/01/26هـ/ 1571: "وقد أمرت حالة وصوله (الحكم) عليه بالتقيد بهذا الخصوص وإذا

¹ أ ر و، الديوان الهمايوني، دفتر مهم رقم 07، حكم رقم 37، رسالة من الخليفة العثماني سليم الثاني لأهالي فاس ومراكش وسوس، ص 187.

² أ. و. ج، دفتر مهمة رقم، 14، حكم رقم: 1571، مصدر سابق. للمزيد حول أوامر السلطان العثماني سليم الثاني لعلي باشا باستخلاص مملكة فاس من الغالب ينظر: أ ر و، الديوان الهمايوني، دفتر مهم رقم 12، حكم رقم 164، مرسوم من السلطان العثماني سليم الثاني إلى عبد الملك، ص 665.

³ أ. و. ج، دفتر مهمة رقم 06، حكم رقم: 972، مصدر سابق.

⁴ أ. و. ج، دفتر مهمة رقم 18، حكم رقم: 25، مصدر سابق.

كانت الظروف مواتية لإنشاء الله الأغر، فعليك بالهجوم مع العساكر المنصورة، على تلك الولاية والبلاد لأجل استخلاصها بعناية الله تعالى باذلا في سبيل ذلك جل أنواع مساعيك الجميلة، وقد أرسل حكومي الهمايوني بهذا الشأن إلى المشار إليه عبد الملك فيجب الاتصال به على الوجه المناسب وإذا سنحت لك الفرصة، فينبغي العمل حسبما تقتضيه الظروف متوخيا الحذر¹، وانطلاقا من ذلك كان إعلان الحرب ساري المفعول بانتظار الظروف المباشرة التي كانت بعد وفاة الغالب سنة 981هـ/1573م وتولية ابنه محمد المتوكل الذي سار على نهجه في أخذ الحق الشرعي في حكم الدولة السعدية المغربية من عمه عبد الملك لذلك أمر السلطان العثماني والي الجزائر رمضان باشا بالحرب على المتوكل ودعم عبد الملك، فبعث معه أربعة آلاف جندي، واتفق معهم على أن يعطيهم عشرة آلاف لكل مرحلة حيث بلغت تكلفة الجيش خمسمائة ألف يعني متقالا وأن وزن المتقال يجيء أربعة أوراق ونصفا من الذهب².

كما يجب الإشارة إلى أن والدة عبد الملك أثناء مكوثها في الأستانة كان لها دور كبير في قرار السلطان العثماني هذا فالسيدة سحابة الرحمانية عادت إلى الجزائر ومعها فرمان السلطان إلى والي الجزائر، يأمر بتجهيز فرقة من الجيش العثماني لمساعدة عبد الملك على استرجاع ملك أبيه³.

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفتري رقم 14، حكم رقم: 1572، حكم إلى أمير أمراء الجزائر علي باشا بتاريخ 979/01/26هـ.

² كنون، (عبد الملك بطل معركة وادي المخازن)، مرجع سابق، ص 15. (ص - ص 55-744).

³ نفسه، ص 12.

الفصل الثالث

التقارب والتفاعل العثماني المغربي (1574-1581)

1- طبيعة التقارب العثماني المغربي وعوامل تشكيل التفاعل

1-1 طبيعة العلاقات العثمانية المغربية

1-2 عوامل الاحتكاك والتأثير العثماني على الأوضاع العامة في المغرب الأقصى (العوامل

التي ساهمت في عثمنة المغرب الأقصى)

2- مظاهر التأثيرات العثمانية في المغرب الأقصى 1574- 1581

1-2 التأثير العثماني على التنظيم السياسي والإداري

2-2 مظاهر التأثير العثماني على النظم العسكرية

2-3 مظاهر التأثير العثماني على الحياة الفنية، الثقافية والاقتصادية

ثالثاً: التقارب والتفاعل العثماني المغربي (1574-1581)

1- طبيعة التقارب العثماني المغربي وعوامل تشكيل التفاعل.

1-1- طبيعة العلاقات العثمانية المغربية.

تُعتبر إشكالية الولاء المغربي للدولة العثمانية من أهم القضايا التاريخية التي أخذت نصيباً من الجدل التاريخي من خلال تضارب الآراء التاريخية حولها، مما أفرز مُسألة تؤكد على أن المغرب الأقصى وطيلة فتراته التاريخية وخاصة في العصر السعودي لم ينظم أو يوالي الخلافة العثمانية، بل ويؤكد آخرون أنه لم تكن هناك أية رابطة للتفاعل والاحتكاك بين الجانبين في أية فترة من الفترات، والفترة التي نحن بصدد دراستها الممتدة من سنة 1574 تاريخ بداية حملة السلطان عبد الملك السعودي بدعم عسكري من الدولة العثمانية لاسترجاع مُلكه المغتصب من طرف ابن أخيه المتوكل تمكن بعد عدة مقابلات عسكرية بدءاً من معركة وادي سبو¹، مروراً بمعركة الركن سنة 983/1575هـ²، وصولاً إلى معركة وادي الرّيحان سنة 1576م/984هـ³، من السيطرة والدخول إلى العاصمة مراكش⁴.

وبعد هذا التّاريخ عرف المغرب الأقصى عدّة تغيّرات جذرية سواء على مستوى النّظام السّياسي والإداري، وحتّى الاجتماعي تمثّلت في مظاهر التّأثير العثماني. استمرّت هذه المرحلة حتّى سنة 1581 تاريخ بداية اختلال مرحلة الولاء التي نحن بصدد دراستها، وبذلك نحن أمام مرحلة قصيرة بنظمين أو حاكمين مختلفين الأولى تمثّل مرحلة حكم المولى عبد الملك⁵، والثانية تمثّل بدايات حكم المولى أحمد المنصور الدّهبي، فهذه المرحلة وخاصة الأولى تميّزت تاريخياً بسكوت الأقاليم التاريخية عن ذكرها بشيء

¹ حنيفي هلايلي، "محاولات الجزائر العثمانية توحيد المغرب العربي: بين الطموحات الاستراتيجية والإخفاق السياسي"، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 05. (ص55-ص81).

² مكان بين أحواز واد شيش شمال مدينة فاس انتصر فيها عبد الملك على المتوكل بمساعدة العثمانيين، للمزيد ينظر: الزباني، (البستان الظريف)، مصدر سابق، ص73.

³ تعرف بموقعة خندق الرّيحان على مقربة من وادي الشراط بأحواز سلا انهزم فيه محمد المتوكل أمام المعتصم وحلفاؤه، للمزيد ينظر: الزباني، (البستان الظريف)، نفسه، ص73.

⁴ بن سفي، مرجع سابق، ص04.

⁵ هو رابع أولاد السلطان محمد الشيخ المهدي، ويكنى بأبي مروان، ويلقب بالغازي كما يلقب بالمعتصم بالله وهو من ألقاب الخلفاء، لجأ إلى الجزائر خوفاً من أخيه السلطان عبد الله الغالب وشارك مع الجيش العثماني في فتح جربة، ولجأ إلى إسطنبول، وتعلم التركية، توفي في معركة وادي المخازن 1578، للمزيد ينظر: كون، ج3، مرجع سابق، ص1525.

من التفصيل، حيث اقتصرت تلك الكتابات على نقل الأحداث السياسيّة والعسكريّة، وإغفال الجوانب الأخرى، فالكتابات الحديثة حاولت التطرّق إلى موضوع التّواصل والتّفاعل العثماني المغربي آنذاك من وجهة نظر سياسية بحثة على نهج الكتابات التي سبقتها، وخاصّة في المرحلة الثّانية من هذه الفترة لذلك سنعمل على محاولة تحليل طبيعة التّقارب العثماني المغربي في هذه المرحلة بناءً على تجارب آنية آنذاك بهدف تحديد طبيعة الولاء، وظروف التّفاعل، فالبعض يرى أن المغرب الأقصى في هذه الفترة كان يمثّل جزءاً من أملاك الدّولة العثمانية، مستدلّين بالعديد من الشّواهد بينما يرى البعض الآخر أنّ المغرب لم يخضع يوماً لسلطة الخلافة العثمانية، وبين هاتين الجدليتين التاريخيتين، نحاول التدخل بتأييد الموقف الأول لكن بنوع من التحفظ.

فما هو مُسلّم به تاريخياً أن الدولة العثمانية، كانت ذات نظام حكم مركزي في سلطتها اتجاه الأقاليم الخاضعة لها، وفي حيثيات البحث في تفاصيل الإدارة العثمانية في العصر الحديث، يظهر أنها مارست أنواع من الحكم اختلفت حسب اختلاف الأقاليم الخاضعة لها، وهنا بالتحديد الأقاليم البعيدة عن مركز الدولة والأقاليم ذات الخصوصيات الدينية والاجتماعية، ومن خلال ذلك نستطيع تحديد ملامح وطبيعة التقارب العثماني المغربي، فما هو معروف أن النظام العالمي العثماني *paxottomon* لم يستهدف يوماً إنكار أي كيان أو قومية، مهما صغرت حسب تصريح المؤرخ يلماز أوزتونا، ولم يعمل أو يفكر في محوها، بل بالعكس من ذلك كان نظاماً حريصاً على أن يجعل من تلك القوميات قوى فاعلة تحت مظلته مشاركة في صنع السياسة والمدنية العثمانية¹.

فالعثمانيين حسب روبير مانيتران R. Mantran حيثما وجدوا تقاليد إدارة حكومية سابقة وجماعات اجتماعية سياسية جد متماسكة، سوف يحاولون غالباً التوافق مع هذه التقاليد وهذه الجماعات بدلاً من فرض نظامها الإداري بصورة كلية²، وبذلك يمكن القول أنّ النظام الإداري العثماني مبني على أساس العقيدة كرابطة دون رابطة الدم التي كانت في السابق، فإن غير الأتراك كانوا يعتبرون أنفسهم أفضل تفرقة من الأتراك أنفسهم، وسموا أنفسهم بالعثمانيين احتراماً لسلالة آل عثمان³.

¹ أوزتونا، مرجع سابق، ص 13.

² مانيتران، مرجع سابق، ص 142.

³ فائقة محمد حمزة عبد الصمد بحري، "أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا"، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أم القرى السعودية، 1989، ص 69.

فالدولة العثمانية أثناء إحقاقها للأقاليم المفتوحة كانت لا تمارس الإقصاء السياسي أو الاجتماعي. فالبلاد المفتوحة كانت تترك ولفترات طويلة تُمارس نُظمها القديمة، وكان التغيير يتم بعد عدة مراحل، حتى يستأنس الناس بالحكم الجديد¹، وتلك سياسة فاعلة انتهجها العثمانيون مكنتهم من الحفاظ على تماسك دولتهم لقرون عديدة. ومن هذا المنطلق نحاول استخلاص طبيعة التقارب العثماني المغربي في هذه الفترة 1574-1581، ولتحديد تلك الأوجه بصورة أدق نستطلع بعض من علاقات الخلافة العثمانية مع بعض الأقاليم ذات الخصوصيات الدينية والاجتماعية كالنسب الشريف، والنظام القبلي، وكذلك الديانة السائدة، تتوافق مع حالة المغرب الأقصى المميزة في عدة نواحي.

ومن خلال عملية البحث في النظام الإداري العثماني؛ يمكن تحديد ثلاثة أنواع من أنماط الحكم: الأول يتمثل في نمط الإيالات المستنثاة *Mustasna Eyaletler*²، وكذلك نمط ولايات الساليانة أو الحكم الذاتي³، ونظام الإيالات الممتازة⁴، ولعل أهم نظام حكم هو نظام الشرافة أو ثنائية الحكم وهذا النوع كان في الأقاليم التي كانت ذات خصوصيات دينية واجتماعية، بحيث كانت ولاية اليمن وولاية الحجاز نموذجاً لذلك، فسلطة الحكم كانت مقسمة بين والي العثماني وممثل الأشراف⁵، ويعتبر هذا النمط الأقرب والأمثل في دراسة نمط التقارب العثماني المغربي، والذي سنتطرق إليه بنوع من التفصيل بعد الإشارة إلى

¹ الساحلي، (من تاريخ الأقطار العربية بين العهد العثمانية...)، مرجع سابق، ص 128.

² هو تعبير استخدم لولايات الدولة العثمانية التي بقيت خارج النظم الإدارية العامة أو التكاليف الضريبية، وهي تشمل مصر، الحبشة، البصرة، الأحساء، بغداد طرابلس الغرب، تونس، جزائر الغرب،، بحيث كانت تحافظ على وضعها الأول بعد الفتح العثماني من حيث الضرائب، وكان السبب في ذلك هو تمتعها ببعض الخصائص منها أهالي تلك البلاد كانوا من البدو الرحل، أو أصحاب مذاهب مختلفة، وكذلك بعدها عن مقر الخلافة في إسطنبول وكونها تقع في مناطق استراتيجية كذلك. للمزيد ينظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة عبد الرزاق محمد حسن بركات، ط3، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، 2000، ص45.

³ مصطلح يطلق على الولايات ذات الحكم الذاتي ولها مميزات عن تلك الخاضعة للحكم العثماني المباشر، وتشمل الإمارات المسيحية، والإمارات المسلمة كخانية القرم وشرافة مكة وإمارة كيلان، وهي من حيث الخصائص مثل الولايات المستنثاة، للمزيد ينظر: إينجاليك، مرجع سابق، ص169.

⁴ الإيالات الممتازة *Eyelat Mumtaze* وهي الإيالات التابعة للدولة العثمانية ولها خصائص معينة من خلال معاهدة امتياز خاصة عقدت بينها وبين الدولة العثمانية، بحيث كانت تدفع ضريبة مقطوعة للدولة وتوفر لها العساكر أثناء وقوع الحروب أما في أمورها الداخلية فقد كانت حرة. راجع: صابان، مرجع سابق، ص45.

⁵ وصفي، مرجع سابق، ص24.

الأنماط الأخرى، بحيث نحاول التركيز على تلك المناطق التي لها نوع من الخصوصيات ومنها إقليم الأكراد الذي كان حسب النظام العثماني الإداري، مقسم إلى سناجق فبعض السناجق أعطيت بشكل دائم إلى بعض السادة أو الأمراء نظير خدماتهم الكبيرة ونتيجة طاعتهم، وقد سميت هذه السناجق بسناجق الأكراد، بحيث كانت مختلفة عن السناجق العثمانية الكلاسيكية لأنها تدار من قبل زعمائها المحليين السابقين والسادة والأشراف ورؤساء العشائر التي تحكم هذه المنطقة منذ القديم وكان حكم هذه السناجق متوارثا بين حكامها أو رؤسائها¹.

بحيث كانت علاقة الدولة العثمانية مع هؤلاء الأمراء والزعماء المحليين خاضعة لعقد رسمي تحدده موائيق وقوانين "عهد نامة" المعطاة لهم، وكانوا لا يعزلون ولا ينصبون من قبل المركز ولا تتبع أراضيهم نظام التيمار، وحكام هذه السناجق كانوا مستقلين تماما في الشؤون الداخلية، أما في الشؤون الخارجية كالسياسة الخارجية والدفاعية كانوا يتبعون أمير أمراء المنطقة العثماني²، ومن خلال عملية الإسقاط التاريخي على حالة المغرب نجد أن هذا النظام الإداري كان في نفس الفترة الحديثة، ونفس الأسلوب فيما يخص طبيعة الحكام باعتبار حكام المغرب شرفاء، لكن يختلف من حيث التنظيم الخارجي فالمغرب الأقصى كان محرراً سياسياً من خلال عقده لعدة معاهدات مع دولة أجنبية في عهد عبد الملك السعدي وأحمد المنصور.

لذلك متابعة لحيثيات الإدارة العثمانية، وعلاقات هذه الأخيرة مع مختلف الأقاليم، ففي أوروبا الشرقية كانت بعض الأقاليم تابعة اسمياً فقط للباب العالي باعتبارها ممتلكات هامشية، بحيث كانت علاقاتها مع الدولة العلية قائمة على تقديم الولاء وإظهاره، وكانت مهمة الدولة العثمانية تقتصر على تعيين القضاة وإدخال الحماية العثمانية إلى الحصون والتحكم فيها، بحيث كانت هذه السناجق مستقلة في تسيير شؤونها، وذلك لوضعها الخاص من حيث صغر المساحة أو باعتبارها منطقة توتر دائم وشملت كل من ترانسلفانيا³ Transylvania، راجوزا، كريت، قبرص و مولدافيا¹، أما في شرق إفريقيا فالأمور

¹ أحمد آق كوندوز، سعيد أوزتوك، الدولة العثمانية المجهولة 303 سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية، مجمع وقف البحوث العثمانية، إسطنبول، 2008، ص 226.

² نفسه، ص 226.

³ هي مقاطعة فتحها الخلافة العثمانية بشرق أوروبا (تقع في رومانيا تحديداً)، كانت من الأقاليم الموالية للحكم العثماني، ومن أهم حكامها الأمير باثوري Bathory كانت قاعدة خلفية للدولة العثمانية في حروبها ضد النمسا. للمزيد ينظر: سمية بنت محمد

تختلف عن شرق أوروبا وذلك طبقاً حسب طبيعة كل منطقة أو كل إقليم، حيث كان أمير سواكن السودانية يعين من طرف الخلافة العثمانية مثل ولاية الحجاز، وكانت الدولة العلية تستعين بالأمراء المحليين لتسيير شؤون الإدارة التي أصبحت بعد ذلك مقراً لولاية الحبشة، ولعل ما يميز إمارة سواكن هو استراتيجيتها الجغرافية بحيث كانت تمثل القاعدة الأولى في مواجهة القوات البرتغالية في المحيط الهندي والبحر الأحمر²، على ذلك الأساس أسس العثمانيين نظامهم الإداري وفق نمط خاص.

أما فيما يخص الأقاليم البعيدة في جنوب شرق آسيا وبلاد الهند التي كانت تابعة اسمياً فقط فقد كانت سياسة وعلاقات الدولة العثمانية معها وفق نمط خاص أيضاً، حيث قامت ببناء علاقات مميزة قائمة على التحالف وساعدتها في حروبها ضد المحتلين البرتغاليين مقابل إظهار الولاء والإخلاص ويظهر ذلك في المراسلات الشخصية بين الطرفين ففي إحدى رسائل سلطان الهند علاء الدين إلى الخليفة سليمان القانوني سنة 1556 جاءت كالتالي: « أيها الملك المحبوب من الله الذي عمرك البارئ تعالى بمواهبه والذي سقيت من ندى الخالق المحيي سلطان البرين وخاقان البحرين... أنت الذي جمعت في شخصك القوة والمجد والفخر والقدرة والخلافة والفتنة والعدل والشرف...السلطان سليمان خان»³، ومن هنا يتضح الاعتراف الضمني من سلطان الهند بالخليفة العثماني سليمان القانوني.

وعلى ضوء هذه الأنماط والعلاقات السياسية نحاول إبراز طبيعة التقارب، أو طبيعة الولاء المغربي للدولة العثمانية في هذه الفترة، مستظهريين في نفس الوقت آراء المؤرخين والباحثين المغاربة وبعض المستشرقين المهتمين بعلاقات الخلافة العثمانية بالمغرب الأقصى، وذلك بهدف الحفاظ على التوازن الموضوعي بعيداً عن التوظيف الذاتي.

قد أشرنا سابقاً إلى نظام الشرافة الذي اتخذته الدولة العثمانية كنمط إداري، وسياسي في حكم وممارسة سلطتها في المناطق ذات الخصوصيات الاجتماعية، وخصوصاً تلك التي كانت تحتوي على

حمودة="حركة الفتح العثماني في القرن 11هـ/17م دراسة تاريخية حضارية"، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة أم القرى، السعودية، 2006، ص40.

¹ شوجر، مرجع سابق، ص61.

² أنعم محمد عثمان الكباشي، تأسيس لواء سواكن في العهد العثماني، مجلة الدارة، العدد 04، 1433هـ/2011م، (ص193، ص211).

³ آصاف، مرجع سابق، ص65.

عدد كبير من سلالة الأشراف، بحيث أولت لهم عناية خاصة في كل الأقاليم، وعملت على إشراكهم في الحكم كما هو الحال بالنسبة لليمن وأشرف الشام، وكذلك أشرف الحجاز الذين كانوا يشرفون على منطقة الحجاز وبالأخص تسيير بلاد الحرمين الشريفين، بحيث قامت باستحداث ما يسمى بمنصب "تقيب الأشراف" في إطار رسمي في كل الولايات التي بها أسر شريفة، ويعين من قبل السلطان في اسطنبول¹، وكانت ولاية الحجاز نتيجة لهذا الوضع الخاص تحظى بمكانة مميزة، بحيث كان السكان معفيين من أداء الضرائب، مقابل تخصيص مخصصات مالية من طرف الدولة لتسيير شؤون الحكم، وكذلك إعفاء السكان من التجنيد والإبقاء على الحكم الذاتي، إضافة إلى إشراك الزعماء المحليين في الحكم، بحيث كان أمير مكة المكرمة يتمتع في التشريفات الرسمية بأسمى مقام في صف الصدارة العظمى (الصدر الأعظم) وترتب له العطايا من طرف السلطان².

وانطلاقاً من هذا وفي إطار عملية الإسقاط دائماً، نلاحظ أن أشرف المغرب الأقصى كانت لهم مكانة خاصة في إطار نظام الشرافة في الدولة العلية وسلطينها كانوا يحترمون الأشراف كثيراً، ويظهر ذلك بالنسبة للمغرب الأقصى في المراسلات الرسمية التي كانت تحمل دائماً إشارة إلى النسب الشريف وعظمت الروحية والاجتماعية، ولذلك نتساءل هل كانت طبيعة الولاء المغربي للدولة العثمانية خاضعة لنظام الشرافة مع اختلاف في نمط التعامل؟ خصوصاً إذا علمنا أن عبد الملك السعدي والمنصور الذي أظهر الولاء في الكثير من المرات، ذلك الولاء الذي فسره بعض المؤرخين والباحثين المغاربة وفق رؤية خاصة بهم، كان نتيجة حتمية للظروف حسب رأيهم.

ومن هؤلاء المؤرخين المؤرخ المغربي عبد الكريم كريم الذي ينفي أي صلة ولاء للمغرب الأقصى اتجاه الدولة العثمانية في هذه الفترة، بل ويصف علاقات السلطان السعدي عبد الملك بالعثمانيين بالمتوترة، وأن ما قام به عبد الملك اتجاه هؤلاء كانت بدافع ضغوط مورست عليه من خلال بقاء زوجته وابنه إسماعيل كرهائن بالجزائر، إضافة إلى انقلاب الانكشارية الذين بقوا معه بعد عودة الحامية العثمانية وانضمامهم لخصمه المتوكل، كلها عوامل حسبه أدت إلى تدهور العلاقات الثنائية، مضيفاً ومسائراً في

¹الصفصافي أحمد المرسي، "الدولة العثمانية والولايات العربية"، مجلة الدارة، ع04، 1433هـ/2011م، ص73 (ص08-ص99).

² المرسي، مرجع سابق، ص73 (ص68-ص99).

نفس الوقت المصادر المغربية التي تتحدث عن تسميم العثمانيين للسلطان عبد الملك أثناء معركة وادي المخازن¹، مع العلم أن شهادة الطبيب اليهودي الشخصي لعبد الملك تفند ذلك.

ويساير هذا الرأي الباحث المغربي الآخر محمد نبيل ملين الذي رغم تحفظه على طبيعة العلاقات في مرحلتها الأولى على الأقل، بحيث يقر في معرض حديثه بالولاء المغربي اتجاه الخلافة العثمانية من خلال قيام المعتصم السعدي (عبد الملك) بضرب السكة باسم السلطان العثماني مراد الثالث، والدعاء له على المنابر وإرسال هدية ولاء له، لكنه يشير إلى تدهور العلاقات بعد ذلك بين الجانبين مفسراً ذلك إلى قيام عبد الملك بإبرام معاهدات ثنائية مع القوى الأوروبية وهو ما اغتازت منه الخلافة العثمانية²، لكن بالنظر إلى المصادر الإسبانية التي استقى منها معظم الباحثين المغاربة يظهر أن الإسبان حقيقة سعوا بقوة لكسب ود عبد الملك مقابل عدائه للأتراك، ففي رسالة من الملك الإسباني فيليب الثاني إلى عبد الملك رداً على رسائل هذا الأخير يوافق فيها على عقد السلم المقترح من عبد الملك لكن بشرط أن يتمتع بنفس التحالف الذي عقده عبد الملك مع العثمانيين³، لكن عبد الملك في نفس الوقت كان يساير الإسبان ولم يكن مستعداً للتخلي عن ولائه للباب العالي الذي كان سنداً قوياً له في فرض وجوده، كما أن العلاقات التي ربطها مع الإنجليز كانت تسير في نفس فلك السياسة العثمانية اتجاه الإنجليز، وبالتالي مسألة تدهور العلاقات والتخلي عن الولاء غير صحيحة ولها ما يبررها في المراسلات الرسمية طيلة هذه الفترة.

أما المؤرخ المغربي محمد حجي الذي كان له كلام كثير حول طبيعة العلاقات العثمانية المغربية، حيث وصف المرحلة من 1574 إلى 1578، بمرحلة الود التام⁴، لكنه تخلى عن الإقرار بحقيقة الولاء المغربي للعثمانيين وتبعيتهم في هذه المرحلة رغم ما عرفته من مظاهر التقليد أو التأثر بالأنماط العثمانية بصفة مباشرة.

أما بخصوص موقف المؤرخين المستشرقين أمثال روبير مانتييران وجورج مارسيه فينفون أي علاقة ولاء للمغرب الأقصى اتجاه الخلافة العثمانية، وهو نفس الخطاب الاستعماري الأوروبي الذي فرض نفسه مقدماً في هذه المسألة التاريخية على أن المغرب خارج النطاق الامبراطوري العثماني بشكل تام، وهو

¹ كريم، مرجع سابق، ص 34.

² ملين، مرجع سابق، ص 53.

³ De caseterie, tome III, Espagne, Ibid, p296.

⁴ محمد حجي، "العلاقات المغربية التركية في القرن 16م"، مجلة المناهل، العدد 25، سنة 1982، ص 15.

خلاف ما عرفته الجزائر، تونس وطرابلس الغرب الذي عرف تكامل تام مع النظام الامبراطوري¹، فمانتيران يحدد الحدود الغربية للدولة العثمانية ببلاد المغرب الأقصى، في فترة القوة أو ما يسمى بعصر السعادة العثمانية كما يحدد الحدود الجنوبية ببلاد الحبشة، نافياً انضمام هاته الأقطار إلى الخلافة العثمانية²، متناسياً الأحداث المستجدة اللاحقة التي أدت إلى انضمام ولاية الحبشة للممتلكات العثمانية، في نفس الفترة التي أعلن فيها المغرب الأقصى الولاء للدولة العلية، ومتجاهلاً كذلك طبيعة العلاقات التي كانت تربط الخلافة مع بعض الأقاليم والولايات ذات الخصوصيات، ويسير المؤرخ جورج ماسيه في نفس الفلك من خلال تأكيده على مسلمة عدم ولاء المغرب للباب العالي وإنكاره أي صلة ولاء مغربية للباب العالي، حيث يرى أن الدولة العثمانية وفي أزهى مراحلها فشلت أمام الحدود المغربية ويفسر ذلك بمجموعة من العوامل الاجتماعية والجغرافية والسياسية إذ يرى أن طبيعة السكان والوضع الجغرافي إضافة إلى طبيعة المجتمع الصوفي كلها عوامل أدت إلى فقدان المغرب أي صلة بالخلافة العثمانية³.

لكن هذه الآراء التاريخية تقابلها آراء وتفسيرات أخرى مبنية على حقائق تاريخية أيضاً وخصوصاً تلك القائمة أو المستندة على محتويات الأرشيف العثماني كالمؤرخ فاضل بيات الذي يقر ويؤكد على أن المغرب كان يوالي الدولة العثمانية، فهو يرى أن هذه الأخيرة على الرغم من لجوء السلاطين السعديين إليها لتصديق سلطنتهم لم تكن تعتبر فاس جزءاً منها ولم يرد في المصادر التي تسنّى له الاطلاع عليها أنها رغبت في ذلك بل اكتفت بالولاء الذي يقدمه لها حكامها للسلطان العثماني⁴.

وعلى ضوء هذا نحن أمام موقف جديد يؤكد حقيقة الولاء لكنه ينفي التبعية كما أنه طرح إشكالية أخرى لم يجب عنها وهي طبيعة ذلك الولاء، هل كان بنفس أنماط الولاء التي كانت تربط بعض الأقاليم في آسيا وإفريقيا وشرق أوروبا كما ذكرنا سابقاً؟، أما هو مختلف عنها؟، لذلك كان لا بد من الرجوع إلى المراجع والمصادر التاريخية الأخرى لاكتشاف ذلك.

فهذه المرحلة 1574-1581 عرفت حكم السلطان عبد الملك السعدي وبداية حكم السلطان أحمد المنصور (1578-1603)، ونحن بدورنا ندعم نظرية الولاء المغربي للدولة العثمانية، محاولين تحديد

¹ Nora Lafi, « L'Empire ottoman en Afrique : perspectives d'histoire critique », Cahiers d'histoire. Revue d'histoire critique, n 128, 2015, p 09. (p, p 59-70).

² مانتييران، مرجع سابق، ص 558.

³ ماسيه، مرجع سابق، ص 248.

⁴ بيات، (الدولة العثمانية في المجال العربي)، مرجع سابق، ص 614.

طبيعته التي تشبه حسب وجهة نظرنا ذلك الولاء الذي كانت بعض الأقاليم تعطيه للسلطان العثماني، وهي تختلف من منطقة إلى أخرى، وذلك حسب طبيعة كل إقليم اجتماعياً ودينياً وجغرافياً، وبالتالي المغرب في هذه الفترة كان يوالي العثمانيين، والدلائل التي نستند عليها في هذا البحث مبنية على حقائق تاريخية جمعتها المصادر المكتوبة والوثائق الرسمية، فالمؤرخ المجهول يؤكد أن عبد الملك السعدي بعد دخوله لفاص خطب على المنابر بالسلطان العثماني مراد الثالث¹، ويدورها تشير الاسطوغرافيا التركية أنه بعدما انتصر عبد الملك بدعم من الجيش العثماني تم تنصيبه حاكم على المغرب بصفة رسمية عام 984هـ/1576م، وبعد هذا التاريخ بدأ الحكم العثماني²، ويجب التنويه هنا إلى أن المصادر التركية بالغت في وصف حقيقة الولاء المغربي للدولة العثمانية وأكدت على التبعية المباشرة.

ويؤكد المؤرخ يلماز أوزوتونا ذلك بقوله: « دخل العثمانيين مدينة العرش فاص، وأعلن رمضان باشا مولاي عبد الملك سلطان في 1576/03/09 باسم خليفة الكرة الأرضية مراد خان الثالث»³، مضيفاً أن السلطان عبد الملك أرسل إلى اسطنبول 200 ألف ليرة ذهباً ضريبة عن السنة الأولى، وأفاد أنه خادم السلطان مراد خان وبدأ بإصلاح الجيش والنظام الفاسي متخذاً تشكيلات النظام العثماني نموذجاً له، وقد جلب لهذا الغرض من الجزائر ضباطاً أتراكاً، وكان لباسه كلباس البادشاه العثماني وقلنسوته مماثلة له، وكان يخرج لصلاة الاستقبال يوم الجمعة باحتفال عسكري مثله، وحتى تشكيلات الحراسة في قصره جعلها على غرار تشكيلات سراي طوب قابي، وتقلد السيف الذي أرسله له مراد الثالث وارتدى الخلعة⁴.

ويجب الإشارة هنا إلى أن ما ذكر أوزوتونا في الجزء الثاني من قوله حقيقة تاريخية سنتطرق إليها بنوع من التفصيل في العناوين اللاحقة من خلال دراسة مظاهر التأثير التي تشير بوضوح إلى الولاء

¹ مجهول، مصدر سابق، ص51.

² كوندوز، مرجع سابق، ص263.

³ أوزوتونا، مرجع سابق، ص386. للمزيد ينظر: صالح كولن، سلاطين الدولة العثمانية، ترجمة منى جمال الدين، دار النيل للطباعة والنشر، ط1، مصر، 2014.

⁴ نفسه، ص387. تشير وثيقة اسبانية مؤرخة في 12 نوفمبر 1576 من francisco di ibara الى cabrette إلى أن معلومات تجسسية أفادت بأن 04 غليوبات من الجزائر موجودة في ميناء تطوان ينتظرون نقل هدايا وأموال يرسلها عبد الملك إلى مقر الخلافة العثمانية باسطنبول للمزيد ينظر:

Henry de Castries, Les Sources Inédites de l'histoire du Maroc, dynastie Saàdieîmne, Archives et Bibliothèques D'angleterre, T1, éditions ernest lerotjx, paris, 1918, p184.

المغربي للدولة العلية، والتي شملت هذه المرحلة جزأيا سواء في سنة 1574-1578 أو 1578-1581، والتي تمثل بداية حكم أحمد المنصور الذي وإن كان متوجسا من قوة العثمانيين وطموحاتهم في المغرب وسعى في ذلك الإطار إلى محاولة التخلص من ذلك الخضوع، إلا أنه كان في بداية حكمه يوالي العثمانيين بصفة رسمية تظهر في المراسلات الرسمية بين الجانبين.

فبعد تولي المنصور عرش المغرب الأقصى سنة 1578 على إثر واقعة وادي المخازن، قام بإرسال بعثة دبلوماسية رسمية إلى اسطنبول برئاسة أحمد بن يحيى الهوزالي، ليخبر السلطان العثماني بالانتصار، وقد حملت نفس السفارة رسالة خاصة إلى والي الجزائر حسن باشا البندقي، وهدية للمولى إسماعيل بن المعتصم الموجود بالجزائر¹، فالمنصور أراد بهذا الفعل كسب ود الخلافة العثمانية من خلال تجديد البيعة والولاء للسلطان العثماني لأنه كان علم، وبكل وضوح أن جلوسه على عرش المغرب مقرون بالتقرب إلى الخلافة العثمانية الذي كان له دور منذ سنة 1552 في تغيير سلطة الحكم في المغرب الأقصى، سواء من خلال التحية الجبرية عن طريق التصفية أو دعم الخصوم السياسيين للملوك السعديين، لذلك كان لزاماً على السلطان أحمد المنصور تجديد الولاء وهو ما أدركه ونجح فيه.

وبدوره السلطان العثماني مراد الثالث لم يتوانى في إظهار هيبته الدولة العلية من خلال إرساله رسالة إلى أحمد المنصور احتوت ما يلي: "هذا كتابنا الشريف ينطق بالحق... إلى جناب الأمير الأكملي الأمجدي... المحفوف بنوف عواطف ملك الله مولاي أحمد الحاكم يومئذ بولاية فاس... ينهي إليه أن مكاتبته الواردة بالبشرى التي جلت فأحلت في القلوب سرا وبشرى وردت على أبوابنا العالية... فشمنا بروق النصر من عنوانها..."²، ليذكره في آخر الرسالة بما فعلته الخلافة العثمانية في هذه المعركة بعد سرده ما وقع من فساد من طرف ابن أخيه المتوكل... وأن الجناب الشريف لما وقف على أسوار الفساد قبل دخولهم في حدود تلك البلاد قد بذل الجهد في أمر الجهاد وجمع الأجناد وبالغ في الحشد..."³، والملاحظ في هذه الرسالة هو وصف السلطان العثماني لأحمد المنصور بحاكم ولاية فاس، كما يجدر

¹ كريم، مرجع سابق، ص 107.

² أرشيف رئاسة الوزراء، الديوان الهمايوني، دفتر مهم رقم 36، حكم رقم 59، رسالة من الخليفة العثماني إلى السلطان أحمد المنصور، ص 316.

³ نفسه، ص 316.

التنبية أيضا إلى أن الرسالة تشير إلى بعثة المولى عبد الملك السعدي إلى القسطنطينية بقيادة موسى بن عبد النبي لطلب المساعدة¹.

كما قام السلطان العثماني كذلك بإرسال وفد رسمي عثماني مكون من كبار القادة والمشايخ بقيادة مفتي الجزائر الطيب البسكري، وقد حمل الوفد هدايا ثمينة من الملابس الفاخرة، وسيف محلى بديع الصنعة فاخر الحلي والزينة²، وتلك الهدايا تمثل التفويض الرسمي العثماني للأمرء والحكام التابعين لها، وما يؤكد ذلك هو محتوى الرسالة التي بعث بها البادشاه العثماني مراد الثالث في 13/08/1582 إلى السلطان أحمد المنصور جاء فيها ما يلي: « تنتقل ولاية فاس عن طريق الولاية نسلاً بعد نسل إلى انقراض الزمان، وتعتبر كبقية ملحقات إمبراطورتينا³، وفي رسالة أخرى إلى علج علي بتاريخ 08/03/1581 جاء فيها ما يلي: « يبقى السلطان أحمد في مقامه ما دام يتلوا الخطبة الشريفة في منابر مساجد بلاد فاس، وبطبع السكة اللطيفة باسمي، ولا يصدر منه ما يشعر بالخيانة⁴ ».

وللمصادر الإسبانية أهمية كبيرة في تبيان طبيعة العلاقة العثمانية المغربية في هذه الفترة، ففي رسالة من فراي لويس دي ساندوفال Fray louis de sandoval إلى السلطان عبد الملك سنة 1577 تتحدث عن قيام هذا الأخير بإرسال الأسرى المسيحيين كهدايا للسلطان العثماني كل سنة لتجديد البيعة له، داعياً في نفس الوقت بالتوقف عن ذلك وعدم إرسال الأسرى إلى القسطنطينية بل حث على الاحتفاظ بهم في المغرب⁵.

ولفهم وتحديد طبيعة الولاء المغربي للعثمانيين أكثر، يجب التعرف على تفاصيل العلاقات السياسية للمغرب الأقصى في تلك الفترة، هل كانت متحررة أم تسير وفق استراتيجية الخلافة العثمانية، ففي عهد المولى عبد الملك ربط المغرب علاقات مميزة مع إنجلترا، وصلت إلى درجة التحالف حيث نشطت التجارة

¹ De La Veronne Chantal, « Relations entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié du XVIe siècle et le début du XVIIe siècle (1554-1616) », Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°15-16, 1973, p394, (pp.391-401).

² كريم، مرجع سابق، ص110، ينظر كذلك: الفشتالي، مصدر سابق، ص50.

³ أوزتونا، مرجع سابق، ص389.

⁴ نفسه، ص389.

⁵ بويقران، مرجع سابق، ص130، للمزيد ينظر: De Casterie, tome III, Espagne, Op-cit, pp286-291.

بينهما ووعده عبد الملك الإنجليزي باستعداده للتوسط لهم عند السلطان العثماني بشأن تقديم تسهيلات لهم¹، ولعل السبب في قوة التقارب الإنجليزي المغربي آنذاك هو استغلال هذا الأخير للخلاف المذهبي بين الإنجليز والإسبان والبرتغاليين أعداء المغرب، ونتج عن ذلك عقد معاهدات ثنائية تجارية بين الطرفين سنة 1576 و1577 تقضي بتزويد المغرب بقنابل المدافع مقابل تسليمهم كمية من نترات البوتاسيوم²، هذا من جهة، أما من جهة أخرى فالمغرب السعدي استفاد من التقارب العثماني الإنجليزي في تلك الفترة حيث عرفت العلاقات الأنجلو عثمانية تطوراً ملحوظاً تمثل في عقد بعض المعاهدات التجارية ففي سنة 1578 قامت إنجلترا بإرسال بعثة رسمية للباب العالي استطاعت تأسيس علاقة تجارية دائمة ومتينة، لتتوج تلك المساعي في 15 مارس 1579 بإرسال السلطان مراد الثالث (1574-1595م) رسالة إلى إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا جاء فيها ما يلي: «إن البلاد العثمانية ستبقى دائماً مفتوحة للتجار الإنجليزي ونحن سوف لن نتقاعس عن تقديم المساعدة والمعونة لأي فرد منهم»³.

ويجب الإشارة هنا إلى أن إنجلترا سعت من خلال علاقتها مع المغرب إلى كسب ود الدولة العثمانية، فهي كانت على علم بالمكانة التي كانت للمولى عبد الملك وللمغرب الأقصى لدى الخلافة العثمانية، والذي يظهر في عرض المساعدة الذي قدمه عبد الملك للإنجليز بمساعدتهم في التوسط لهم لدى الخلافة العثمانية كما أشرنا سابقاً، كما يجب التنويه إلى أن عبد الملك وخلفه المولى أحمد المنصور كانا متحرران في إبرام المعاهدات الخارجية، لكنها لم تكن تخرج عن إطار الاستراتيجية العامة للدولة العثمانية في غرب المتوسط القائمة على العداء للقوى الإسبانية والبرتغالية فأبي محاولة من سلاطين المغرب خلافاً لذلك كانت تعكس صفو العلاقات مع العثمانيين وهو ما حدث بعد سنة 1581.

أما بخصوص علاقات المغرب مع الإسبان والبرتغاليين فقد كانت متوترة رغم دعوات المولى عبد الملك إلى عقد السلم بين الجانبين (الإسبان)، خاصة في ظل تنامي قوة العثمانيين في غرب المتوسط

¹ عمار بن خروف، (ملاحم من الحياة الاقتصادية في المغرب...)، مرجع سابق، ص 80.

² إياد تركان إبراهيم، " إنجلترا والدولة السعدية في المغرب الأقصى، جوانب من تاريخ العلاقات بين الطرفين (1554-1659)", المجلة العالمية لنشر الأبحاث، العدد 12، 2019، ص 06.

³ أباضة، مرجع سابق، ص ص 89-90.

أين كان المغرب قاعدة انطلاق للعمليات العسكرية العثمانية، فتحسن العلاقات الأيبيرية المغربية كان مرهونا بجلاء القوات العثمانية من الموانئ المغربية وهو ما كان غير مطروح في سياسة عبد الملك¹.

وللمزيد من الحقائق التاريخية بخصوص هذه القضية "الولاء" قمنا باستطلاع بعض وثائق الأرشيف العثماني التي أتاحت لنا، فأول ما يلاحظه الباحث هو وصف أو خطاب السلطان العثماني للمولى عبد الملك الذي كان حسب هذه المراسلات حاكماً تابعاً للباب العالي «هذا كتابنا الشريف العالي السلطاني... إلى الجناب الأمير الكبير... عبد الملك الوالي يومئذ بولاية فاس أدام الله تعالى سعده وأنجح قصده»²، ليرد في نفس المراسلة ولاء المغرب الأقصى للدولة العلية بقوله: «ينهي إلى جنابكم الشريف أنهم قد امتازوا بين الأقران والأشراف وسائر أمراء الأطراف والأكنان بالانتساب إلى جنابنا الشريف العالي السلطاني، والاستناد إلى بابنا المنيف السامي الخاقاني، وقد تيسر لكم الارتقاء إلى المراتب والاتصال إلى جميع المقاصد والمآرب... وانقيادكم... فالواجب عليكم أن تكونوا في جادة الصداقة وطريق الاستقامة ثابتين ودائمين وتعينوا الغزاة المؤمنين»³.

وفي رسالة أخرى وفي نفس السنة 985هـ/1577م من السلطان العثماني مراد الثالث إلى المولى عبد الملك يفتتحها بالتذكير بهيبة الدولة العلية وقوتها بقوله: «وصرفنا عنان العناية إلى تمهيد قواعد السلطة بعدما تخلخل، وبتشييد مباني الدولة أثر ما تزلزل... وفتحنا أبواب اللطف والأنعام وكشفنا قناع القهر والانتقام... فمن التجأ إليه بخلوص الولاء قد فاز بكل ما ارتجى وصعد، وارتقى إلى أعلى الدرجات ومن تجنب عنها وهرب هبط في أسفل الدرجات»⁴ وهي إشارة قوية للمولى عبد الملك بضرورة الحفاظ

¹ بويقران، مرجع سابق، ص12. تتحدث وثيقة أرشيفية مؤرخة في 11 أبريل 1576 مرسله من الدون دورات Don Duarte إلى الملك البرتغالي عن حجم التضايق الكبير الذي يعاني منه الاسبان والبرتغاليين جراء النشاط العثماني في موانئ المغرب الذي يهدد الخطوط البحرية الاسبانية داعيا في نفس الرسالة إلى احتلال ميناء العرائش الاستراتيجي كحل لوقف الخطر العثماني للمزيد ينظر:

De Casterie, Premier Série, Tome I, England, Ibid. pp164-166.

² أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر مهمة رقم 30، حكم 941، بتاريخ: 28 ربيع الأول 985هـ/05 ماي 1577، من السلطان العثماني مراد الثالث إلى الشريف عبد الملك حاكم فاس، ص210. (مركز التاريخ العربي للنشر-اسطنبول).

³ أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر مهمة رقم 30، حكم 941، مصدر سابق، ص210.

⁴ أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر مهمة رقم 30، حكم رقم 942، بتاريخ 28 ربيع الأول 985هـ/1577م، رسالة من الخليفة العثماني مراد الثالث لعبد الملك، ص211. (مركز التاريخ العربي للنشر-اسطنبول).

على الولاء والطاعة للباب العالي، وربما يأتي ذلك بعد المحادثات التي أطلقها عبد الملك مع الإسبان بهدف التقارب لكن رغم ذلك وخلافاً لآراء الباحثين السابقة أمثال محمد نبيل ملين، العلاقات بين الجانبين بقيت قائمة وفق قاعدة الولاء لم تتدهور، ففي متن الرسالة ما يؤكد ذلك من خلال التأكيد على مبدأ الولاء: « فإن كنتم على قدم الصداقة قائماً في الانتماء والانتساب إلى أبوابنا العلية والأعتاب لحصل لكم الارتقاء على الشأن، ويكون أركان المودة بيننا مرصوص البنين، وبنيان المحبة سديد الأركان ... وجب عليكم وعلى كل من لديكم أن يجتهد في تشييد مباني الإخلاص»¹.

كما يؤكد السلطان العثماني في رسالته الأولى على ضرورة الاتحاد بين المغرب و ولاية الجزائر، وما هو ملاحظ أيضاً أن نبرة الخطاب حملت في طياتها صيغة الأمر والترغيب والترهيب، وهي دلالة على موقع الطرفين في ميزان العلاقات الثنائية، حيث جاء الخطاب كالتالي: «...وتتفقوا أحسن الاتفاق والاتحاد مع أمير الكرام حسن باشا دام إقباله الوالي يومئذ بولاية جزائر الغرب وتدفعوا مضرة الأعداء وكيد الكفرة وسائر الأشقياء حتى تكونوا مستهلين الألفاف العلية ومستوجبين لأصناف الأعطاف الجزيلة، فإن الله لا يضيع أجر المجاهدين»²، وعلى ضوء هذا نستخلص أن المغرب الأقصى كان يحتل مكانة هامة في سياسة الدولة العثمانية في منطقة غرب المتوسط خاصة في صراعها مع الإسبان والبرتغال وبالتالي لم تكن مستعدة لفقدان المغرب الأقصى كولاية موالية وتابعة لها اسمياً، ففي رسالة بتاريخ 1577/هـ/985م من البادشاه العثماني لعبد الملك والتي حملت دائماً صيغة الأمر جاء فيها ما يلي: « لقد تم بسط نفوذكم على الولاية والبلاد بفضل همتنا العلية الملوكية ونظراً لوجوب رعاية الأعيان والأهالي حسب ما رأيتمهم، فينبغي حال وصول خطابنا الهمايوني الاستمرار برعاية أعيان وأهالي وعساكر تلك الديار سواء كانوا أولاد الترك أو العرب كل حسب استحقاقه وكما جرت عليه العادة زمن آبائكم»³.

¹ أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر مهمة رقم 30، حكم رقم 942، مصدر سابق، ص211.

² أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر مهم رقم 30، حكم رقم 941، مصدر سابق، ص210.

³ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 30، حكم رقم 466، بتاريخ 985/03/05 الموافق لـ 1577/05/23، خطاب همايوني الى حاكم فاس ومرانقوش عبد الملك السعدي، صحيفة 197. في رسالة أرشيفية مؤرخة في 26 مارس 1576 من Giovanni Battista الى فيليب الثاني تؤكد على دور العثمانيين في تنصيب المولى عبد الملك حاكماً على المغرب الأقصى وكذلك تؤكد نيتهم في الاستلاء المباشر على المنطقة حسب ما أشارت به المراسلة للمزيد ينظر:

De Casterie, Premiere Serie, tome I, England, Ibid, PP160-162.

ومن هذا المنطلق نستنتج أن غاية السلطان العثماني من هذه المراسلة، هو إبراز العناية العثمانية بالمغرب الأقصى كولاية تابعة له، وأن سكان الولاية هم رعايا السلطان العثماني، وهي هيمنة وإشارة مباشرة لولاء المغرب للباب العالي والذي يظهر في رسالة أخرى غير منشورة بتاريخ 1577/05/23م من السلطان العثماني إلى أهالي وأعيان المغرب الأقصى رداً على مراسلتهم إياه، حيث كانت هذه المراسلة موجهة إلى أعيان فاس، ومراكش وسوس حسب الرسالة، فهؤلاء كانوا قد بعثوا وفادة إلى الخلافة العثمانية بقيادة الحاج السيد موسى، ومما جاء في هذه الرسالة أو المحضر ما يلي: « وصل إلى حضرتنا العلية محضركم الذي يؤكد على انشراحكم منذ تنصيب جناب الأمير عبد الملك دامت معاليه حاكماً على الولاية المزبورة وتذكرون لي أنه أقام العدل بين الرعايا والبرابا، وأن فقراء تلك الديار أصبحوا في رغد من العيش وأنهم أصبحوا منصرفين لخير الدعاء بدوام دولتنا وإقبالنا»¹، وباعتبار أن هؤلاء الأعيان ممثلي لرعايا الدولة العثمانية بالمغرب الأقصى رد السلطان العثماني بما يلي: « وأمرنا أن توحدوا قلوبكم ووجهتكم مع المشار إليه - دامت معاليه - بامنتالكم لأوامره، وإصغائكم لأقواله، وعليكم ألا تصغوا دقيقة، وألاً نتوانوا عن تعظيمه وإكرامه وتوقيره، كي نظلوا على حسن معايشة معه»².

ومن هذا المنطلق تتأكد قضية التبعية أو الولاء المغربي للخلافة العثمانية في هذه الفترة (1574-1581)، فمن غير الممكن أن يقوم أعيان المغرب بالتواصل مباشرة مع السلطان العثماني الذي رد عليهم برسالة مباشرة، فلو كان المغرب آنذاك كيان سياسي مستقل تماماً لكان خرقاً من العثمانيين للأعراف الدبلوماسية وخرقاً لسيادة المغرب الأقصى لكن بما أن هذا الأخير يوالي الخلافة العثمانية فلا حرج سياسي أو دبلوماسي في ذلك.

وللتعمق أكثر في القضية نقوم باستطلاع معالم العلاقات السياسية والاجتماعية بين المغرب الأقصى في تلك الفترة بالإيالات العثمانية التابعة بصفة مباشرة وعلى رأسها الولاية الجزائر، ومصر وولاية الحجاز، فبالنسبة لولاية الجزائر فهناك العديد من المراسلات من مركز الخلافة لحكام الولاية تحثهم على ضرورة احترام جيرانهم المغاربة ودعمهم عند الحاجة، ومتى طلبوا ذلك بتاريخ 1577/05/23م من

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 429، في 05/03/985هـ - 23/05/1577م، حكم إلى

أعيان فاس ومرانقوش، سوس، صحيفة رقم 183.

² نفسه، صحيفة رقم 183.

السلطان مراد الثالث إلى والي ولاية الجزائر رمضان باشا، تتحدث عن شكوى رسمية تقدم بها عبد الملك ضد قادة الولاية وعلى رأسهم الوالي السابق رمضان باشا الذي بعث بعساكره إلى (مدك) التابعة لولاية فاس، وأنهم أخذوا أربعة آلاف فلوري من هناك وبناء عليه قام السلطان العثماني بأمر مطالبة المشار إليه بالمبلغ المذكور، فور وصول حكمه¹.

ففي الرسالة يذكر في ديباجتها نص شكوى المولى عبد الملك: « بعث جناب الأمير عبد الملك حاكم فاس ومرانقوش الحالي برسول أعرب عن طلب المذكور بإصدار همايوني بعدم تسلل أحد من جنابكم لولايتيه وبلاده بقصد التعرض لرعاياه»²، وانطلاقاً من ذلك كانت استجابة الخلافة العثمانية فورية نظراً لمكانة المولى عبد الملك والمغرب عامة في سياسة الخلافة العثمانية: « فقد أمرنا: حال وصوله ينبغي عليك التنبيه والتأكيد المحكمين على أعيان وأهالي جزائر الغرب وكذلك العساكر المنصورة في تلك الديار بعدم التسلل من الحدود إلى داخل ولايتي فاس ومرانقوش ... ويجب معاقبة كل من لم يذعن للأمر الشريف»³.

كما أمرهم في نفس الرسالة بضرورة معاونة عبد الملك في حال طلب ذلك في أي وقت، منوها ومذكراً بمكانة عبد الملك لدى الدولة العلية: « وباختصار فإن شكر وشكايه المشار إليه، ثمرة فيجب التصرف وفقاً لذلك»⁴، ويجب الإشارة إلى أن شكاوي المولى عبد الملك إلى الخلافة العثمانية والموجهة ضد ولاية الجزائر وقادتها كانت تشمل حتى بعض الأعمال البحرية المتعلقة بالجهاد البحري، ففي إحدى الرسائل يدعوا المولى عبد الملك السلطان مراد إلى إصدار أمر همايوني لبحارة الولاية الجزائر بعدم التعرض لسفن الكفار التجارية التي حازت على الأمان من جانبه (عبد الملك)⁵، ومرة أخرى وبطريقة سريعة واستثنائية يقوم السلطان بإصدار فرمان يأمر فيه والي الجزائر بالتنبيه والتأكيد على الرؤساء بعدم

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 419، في 05/03/985هـ-23/05/1577م، حكم إلى حسن باشا أمير أمراء جزائر الغرب، صحيفة رقم 179.

² الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 462، في 05/03/985هـ-23/05/1577م، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب رمضان باشا، صحيفة رقم 197.

³ نفسه، صحيفة رقم 197.

⁴ نفسه، صحيفة رقم 197.

⁵ الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 427، بتاريخ 05/03/985هـ-23/05/1577م، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب رمضان باشا، صحيفة رقم 182.

التعرض للسفن الحائزة على الترخيص من المولى عبد الملك، وفيما إذا لم يذعن رؤساء البحر للأمر الشريف واستمروا بمصادرة سفن هؤلاء التجار وإحضارهم إلى الجزائر فيجب إطلاق سراحهم وإعادتهم مع سفنهم حتى يمارسوا نشاطهم التجاري، ويجب حبس الرؤساء المخالفين وعرضهم على السلطان بنفسه¹.

كما أمر في نفس الرسالة بعدم السماح لأي أحد من الولاية بإلحاق الأذى والضرر بالتجار القادمين من ولايتي فاس ومراكش مع الحيلولة دون التعرض والتدخل في الأملاك الشرعية، وكذلك الأموال والأسباب العائدة للمولى عبد الملك الموجودة في الجزائر²، وهنا يجب التذكير أن حاشية عبد الملك بقي منها بعض الأفراد وعلى رأسهم زوجته وابنه إسماعيل وهؤلاء كانوا يعيشون على نفقة خزينة الدولة بولاية الجزائر بأمر الخلافة العثمانية، رغم محاولات ولاية الجزائر قطع تلك المساعدات التي استمرت إلى فترة متأخرة من حكم المولى عبد الملك، فهناك إشارة لذلك في رسالة أرشيفية مؤرخة في 982/08/27هـ - 1974/12/12م، من السلطان العثماني إلى والي الجزائر رمضان باشا جاءت كالتالي: «تقدم عبد الملك حاكم فاس بعرض حال رجي فيه منح، تيمار لكل من رجاله المدعويين أحمد بن يوسف ومحمد وبيرام وقاسم محمد وبناءً عليه فقد أمر لكل واحد منهم بتيمار قدرها ثلاثة آلاف أفجة»³.

وعلى ضوء هذا نستخلص أن عناية الخلافة العثمانية بالمغرب الأقصى كان من موقع تبعيتها للباب العالي ولو بطريقة غير مباشرة لكنها تخدم مصالحها (الخلافة العثمانية) في المنطقة وهناك ما يؤكد ذلك في قول السلطان العثماني مراد الثالث: «ونحيطكم علماً بأن جناب الأمير عبد الملك حاكم فاس هو محط عواطفنا العلية الكروانية، مع ميع الوجوه ومودة واختصاص اتجاه دار سعادتنا العلية»⁴، وما هو ملاحظ حول هذه المراسلات أنها حملت تواريخ مشتركة وكان تاريخ 985هـ/1577، يحتوي على مراسلات عديدة وهي دلالة على الدينامكية في العلاقات الثنائية خاصة في ظل المتغيرات الدولية في المنطقة آنذاك.

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 427، مصدر سابق، صحيفة 182.

² نفسه، صحيفة 182.

³ الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 25، حكم رقم 3113، في 982/08/27هـ - 1974/12/12م، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب رمضان باشا، صحيفة رقم 342.

⁴ الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 421، في 985/03/05هـ - 1577/05/23م، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب رمضان باشا، صحيفة رقم 180.

هذا بخصوص علاقة المغرب بولاية الجزائر، أما بخصوص علاقته مع ولاية مصر العثمانية، فهناك بعض الرسائل غير المنشورة التي تمدنا بمعلومات حول طبيعة تلك العلاقة ومدى حرص الخلافة العثمانية لتعزيز مكانة المغرب كولاية تابعة اسمياً له، ففي رسالة مؤرخة سنة 985هـ/1577م موجهة إلى أمير أمراء وإلى قاضي مصر جاءت كالتالي: «...نأمر بإرسال الحجاج الوافدين إلى أمير مصر من فاس ومرانقوش مع سائر الحجاج القاصدين الكعبة الشريفة، وأمرنا بالعمل حال وصول الحكم للحيلولة دون إيذاء الحجاج الوافدين إلى مصر من الولاية المذكورة... فلا يمانعهم، ولا يزاحمهم أحد... كما يجب تثبيت هذا الحكم الهمايوني في السجل المحفوظ كي يتم العمل بموجب مضمونه الهمايوني فيما بعد»¹، ومن هذا المنطلق تبدأ ملامح قضية الولاء المغربي للباب العالي تتضح أكثر فأكثر، فإلى جانب العناية السياسية كانت العناية الاجتماعية حاضرة، فالحث المستمر للسلطان العثماني على ضرورة وجوب احترام والعناية بالمغرب الأقصى وسلطة ومجتمعاً لدلالة على تبعية المغرب، وكذلك قيمتها في سياسة الخلافة العثمانية العامة.

وهذه العناية نلاحظها كذلك في رسائل السلطان العثماني مراد الثالث إلى شريف مكة، ففي رسالة غير منشورة مؤرخة في 985هـ/1577م جاءت كالتالي: «تقدم جناب الأمير عبد الملك -دام سعه- بطلب لإرسال خطاب همايوني بشأن السماح لرجاله، بتقسيم الصدقات التي يرسلها إلى الكعبة المعظمة أو إلى المدينة المنورة وكذلك بهدف الحيلولة دون تدخل أو تعرض أحدهم في هذا السبيل، وحال وصول هذا الخطاب الهمايوني ينبغي بذل مساعيكم الجميلة لتأمين حرية تقسيم الصدقات المرسله من جانب المستشار إليه»²، وتظهر مكانة المولى عبد الملك كذلك ونفوذه لدى الخلافة العثمانية في سرعة الاستجابة لشكاويه لأي قطر من الأقطار العثمانية، ففي رسالة أرشيفية غير منشورة حسب معلوماتنا مؤرخة في 985هـ/1577م قدم عبد الملك شكوى من خلال مرسوله أو خادمه كما جاء في الرسالة المدعو حاجي أحمد التي جاءت كالتالي: «قدم إلى سدة سعادتنا المدعو حاجي أحمد غلام جناب الأمير عبد الملك، حاكم فاس ومرانقوش دام سعه عرض فيه حاله الذي جاء فيه أن قاضي المدينة المنورة سابقاً وشيخ الحرم المحترم حالياً، أفضى قضاة المسلمين مولانا القاضي حسين كان قد أخذ منه بيتاً وعبد»

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 428، في 985/03/05هـ الموافق ل 1577/05/23م، حكم إلى أمير أمراء وإلى قاضي مصر، صحيفة رقم 182.

² الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم: 426، بتاريخ 985/03/05هـ-1577/05/23م، خطاب همايوني إلى شريف مكة، صحيفة رقم 426.

الحبشي الكائنين في مكة المكرمة جبراً وبناءً على طلبه بإعادتهما له ... فيجب بذل مساعيكم الجميلة لإعادتها إليه حال وصول الخطاب الهمايوني»¹.

وبذلك نستطيع القول بأن مسألة الولاء في هذه المرحلة 1574-1578، تعتبر حقيقة تاريخية ولها ما يبررها، أما بخصوص المرحلة الثانية 1578-1581، فقد كانت هي الأخرى تدور في فلك الولاء للعثمانيين، حيث حفظت لنا مضامين المراسلات الرسمية بين الجانبين بعض المعلومات وإن كانت قليلة حول طبيعة تلك العلاقة وارتباطها بتقديم الولاء، ففي هذا الإطار هناك ثلاثة وثائق أرشيفية مؤرخة بين سنتي 989هـ/1581م، و990هـ/1582م، تتضمن معلومات حول ذلك، فالرسالة الأولى تتحدث عن إرسال المنصور بعثة دبلوماسية خاصة إلى السلطان العثماني مراد الثالث لتقديم الولاء والبيعة « لقد أرسل حاكم فاس ومراكش حالياً سفيره الخاص إلى الأستانة للمثول في حضرتي الشاهانية، وتقديم طاعة سيده، وهدايا المرسله إلينا، فهو بعد أداء مهمته كسفير وبقائه في الأستانة مدة من الزمن سوف يغادر الأستانة بموافقتي الشاهانية متوجهاً نحو فاس»².

وما يلاحظ في ديباجة هذه الرسالة أن السلطان العثماني سمي المولى أحمد المنصور بالحاكم دون الألقاب التي كان المنصور يسمي بها نفسه بعد ذلك، وهناك إشارة أخرى في هذه الرسالة الثانية إلى طبيعة الولاء المغربي للباب العالي: «أما في الوقت الحاضر فإن السفير الذي كان قد بعثه إلينا حاكم فاس محملاً بهدايا جسمية ومكلفاً بتقديم تحياته المقرونة بالصدق والإخلاص الدالين على صداقته لنا وانقياده لأوامرنا»³، حيث نستنتج على ضوء هذا أن المولى أحمد المنصور في مراحل حكمه الأولى كان يوالي العثمانيين على نهج سلفه المولى عبد الملك، بحيث كان يبعث بصفة دورية المراسلات لتأكيد ذلك وكان الرد العثماني سريعاً كما كان سابقاً بسبب مكانة المغرب في السياسة العامة العثمانية، حيث جاء في فحوى إحداها ما يلي: «وجهت إلى حاكم فاس مولاي أحمد رداً على رسالته الموجهة إلى المقام

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم: 504، بتاريخ 13/03/985هـ-31/05/1577م، خطاب إلى شريف مكة، صحيفة رقم 219.

² الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 42، عدد رقم: 84، بتاريخ 989هـ/1581م، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب جعفر باشا.

³ الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 42، عدد رقم 82، بتاريخ 989هـ/1581م، حكم إلى حيدر باشا أمير أمراء جزائر الغرب جعفر باشا.

الشاهاني الكريم والتي يؤكد فيها إخلاصه وصداقته وتعلقه بالمقام الشاهاني ... كما يؤكد فيها استعداداه التام لمناصرته ومؤازرته في كل حين وفي كل لحظة وبكل ما يملكه من إمكانيات عسكرية، ويؤكد أيضاً امتنانه بهذه الصداقة القائمة بينه وبين الباب العالي ويرجوا استمراريتها إلى الأبد»¹.

ولكن هذه الصداقة والعلاقة الودية القائمة على الطاعة والانقياد كانت غير صادقة، وهو ما تفسره الأحداث اللاحقة، فالخلافة العثمانية بدورها كان متوجساً من تصرفات المنصور ومن سياسته، وكان متيقناً من عدم صدق المنصور ويظهر ذلك في نفس المراسلات.

فالسultan العثماني الذي كان قد أمر والي الجزائر جعفر باشا بحسن استقبال السفير في الجزائر، ومعاملته بما يليق بمقامه ومرافقته والسهر على أمنه، وأمر بمراقبة السفير وتصرفاته بسبب التوجس منه: « ولكن رغم التظاهر أمامه بهذا الشكل راقبوا أحواله جيداً وترصدوا تصرفاته وأيضاً كونوا دائماً متيقظين ومتنبهين إزاء الأمور والحوادث التي تجري في فاس ومراكش حتى تتحققوا من نية حاكم فاس، وموقفه الحقيقي منا ومن دولتنا وتبينوا غرضه الحقيقي من إرسال الرسل إلينا وتقديم الهدايا الحية لنا»²، ليضيف أنه من الواجب معرفة نوايا الرجل فيما يخص صدقه في ارتباطاته وعلاقاته مع الخلافة العثمانية أم أن رسائله وهداياه مجرد تظاهر فقط بالإخلاص والانقياد وهو يخفي خلاف ما يظهر، لأنه الرجل ممكن جدا حسب السلطان العثماني أن يتظاهر بهذا المظهر المزيف ويتعامل خفية مع الكفار لضرب الدولة العلية من الخلف³.

ويجب التنويه هنا إلى أن في هذه الفترة المنصور كان يواجه بعض المشاكل والأحداث التي ينسبها أغلب المؤرخين المغاربة إلى الأيدي العثمانية في المغرب، كما أن المنصور كان في موقف معارض للولاء العثماني باطنياً لكن الظروف حتمت عليه إظهار الود والإخلاص، كما أن الخلافة العثمانية، ومن خلال جواسيسه كان يدرك ذلك: « ثم بعد كل التحريات والتوصيات اكتبوا إلي تقريراً

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترتي رقم 48، عدد رقم 31، حكم في: 990هـ/1582م، رسالة شاهانية إلى والي الجزائر الغرب جعفر باشا.

² الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 42، عدد 84، مصدر سابق.

³ نفسه، عدد 84.

مفصلاً عن أحوال هذا الرجل وأطواره سواء كان ذلك في داخل بلاده أم مع العدو وحتى نكون على بينة من أمره»¹.

فالدولة العثمانية رغم مظاهر الإخلاص التي كان يظهرها المولى أحمد المنصور كانت على إطلاع بنواياه، وكانت تدرك أنه يريد ربح المزيد من الوقت فقط، ففي خطاب موجه إلى والي الجزائر رمضان باشا، والقبطان علق علي ما يدل ذلك حيث جاء نص الخطاب كما يلي: « ونعتقد أنه يخفي لنا خلاف ما يظهر وما أقدم على ما أقدم إلا من قبيل ربح الوقت حتى يتمكن من تحقيق غرضه وأهدافه مع التعاون والتفاهم مع الكفار»²، وبطبيعة الحال الخلافة كان موقفها واضحاً من ذلك وهو التدخل عسكرياً في المغرب الأقصى إذا اقتضت الحاجة إلى ذلك، بحيث كانت تغور المغرب الساحلية مهمة جداً في سياسة الخلافة العثمانية في غرب المتوسط والأطلسي، وهو ما نلاحظه على تواصل المراسلات الداعية إلى اليقظة وأخذ الحيطة من أي حملة ازدواجية مفاجئة من تدبير المنصور والكفار معاً معطياً أوامره بضرورة مواجهة ذلك بالقوة العسكرية: « حتى لو اقتضى الأمر ذلك التوجه إلى هذه المناطق بالأسطول الشاهاني الكريم لتثديد الحماية والحراسة اللازمتين من أجل الدين والدولة»³، وبالتالي نستنتج أن موقف الخلافة العثمانية كان يتسم بالمسايرة والتريث، خاصة بما أن المنصور كان يوالي العثمانيين، ويدعوا لهم ظاهرياً على الأقل.

وانطلاقاً من مضامين المصادر التاريخية من كتابات المؤرخين والمراسلات الرسمية نستخلص أن المغرب كان يوالي العثمانيين وكان تابعاً اسمياً لهم، فالمغرب حسب رأينا كان كغيره من الأقاليم خاضع لنظام الدول التابعة الذي كانت الدولة العثمانية تنتهجه اتجاه الأقاليم البعيدة وذات الخصوصيات، بحيث كانت تسيّر شؤونها بصفة شبه مستقلة مع ضرب السكة وقراءة اسم البادشاه العثماني في الخطب⁴، فتبعية المغرب الأقصى للخلافة العثمانية لم تكن بصفة عادية أو مباشرة بل كانت ذات طابع خاص كتبعية ملكية بولونيا، في شرق أوروبا والقائمة على ضرب السكة وإقرار الخطة مع الالتزام بإرسال الضريبة إلى مقر الخلافة العثمانية سنوياً، وبالتالي كانت تابعة اسمياً خارج نطاق الدولة التي تسلم

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 42، عدد 84، مصدر سابق.

² نفسه، ع 84.

³ نفسه، عدد 82.

⁴ أوزوتونا، مرجع سابق، ص 391.

الأوامر المباشرة من الديوان الهمايوني¹. فالخلافة العثمانية كان يدرك خصوصية المغرب الأقصى، وأنها لا تشبه الولاية الجزائر باعتبارها أنها تملك سلالة عريقة جداً حاکمة ومندرجة من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك لم يوافق على مشروع علق علي في غزو المغرب².

1-2 عوامل الاحتكاك والتأثير العثماني على الأوضاع العامة في المغرب الأقصى (العوامل التي

ساهمت في عثمنة المغرب الأقصى).

تحدثنا في المطلب السابق عن طبيعة الولاء المغربي للخلافة العثمانية واستنتاجنا من خلاله أن المغرب كان مواليا وتابعا إسميا للباب العالي بناء على معطيات تاريخية، وبطبيعة الحال يستوجب تعزيز هذه النظرية بإبراز مظاهر تلك التبعية أو الولاء سواء في الجانب السياسي العسكري أو الاجتماعي والاقتصادي كذلك، وقبل المرور والتطرق لذلك ينبغي التعرّيج على أهم العوامل المساعدة على ذلك التأثير الذي تظهر ملامحه في محطات عدة في مختلف الجوانب العامة بالمغرب الأقصى، بحيث تعتبر هذه المظاهر مرتبطة بطبيعة العلاقات العثمانية المغربية، فمعظم المؤرخين والباحثين وخاصة المغاربة أجمعوا على نفي أي ارتباط بين المغرب و الخلافة العثمانية وبطبيعة الحال نفي أي تأثير بغض النظر عن بعض الكتابات القليلة التي تحدثت عن ذلك التأثير، وانطلاقا من ذلك يعتبر هذا الموضوع من المسائل الجديدة التي لا نجد لها صدى كبير في كتابات المؤرخين سوى بعض الإشارات من هنا وهناك، وخصوصا في هذه الفترة (1574-1581) التي عرفت حركة عثمنة كبيرة على عدة مستويات في المغرب الأقصى وبدرجات متفاوتة، وقبل الحديث عن تلك المظاهر نود الإشارة إلى جملة العوامل التي ساعدت على ذلك.

1-2-أ. سياسيا وعسكريا:

ما هو معروف أن الأوضاع العامة في أي منطقة تتأثر بدرجة كبيرة بالوضع السياسي السائد، وخصوصا تلك التي تعرف نظاما سياسيا خاصا قائما على المبايعة كأنظمة الحكم الملكي، وبالتالي هي تتقبل كل ما يصدره الملك من قرارات وتجارب في معظم ما يصدره من سياسات، والمجتمع المغربي كغيره من هذه المجتمعات، استقبل العديد من التأثيرات أيام حكم المولى عبد الملك السعدي أين عرف المغرب استحداث عدة تغييرات على جميع الأصعدة كان قد أقرها المولى عبد الملك فجل المدونات التاريخية

¹ أوزوتونا، مرجع سابق، ص 392.

² نفسه، ص 389.

المتعلقة بالدولة السعدية تحتوي مفردات شعبية وتعبير تقنية عثمانية وفرنجية استوجب استعمالها في فترات مختلفة على الجيوش المغربية ومعداتها الحربية نتجت عما كان بين المغرب والدول الأخرى من علاقات ودية واصطدامات عدائية¹، كما كانت هذه التأثيرات منبثقة أو ناتجة عن الاحتكاك الواقع في معازل الأسرى ومجالات فيالق المرتزقة حسب وصف بروفنسال Lévi-Provençal من الأجانب الذين حكمت عليهم الظروف باللجوء إلى هذه البلاد².

ولعل أهم عامل ساهم في انتقال تلك التأثيرات بصفة مباشرة هو النظام السياسي بقيادة المولى عبد الملك الذي كانت له رغبة كبيرة في عثمنة المغرب الأقصى بحكم موقعه الموالي للباب العالي "فحسب مذكرة Fednand hitgan الإنجليزي إلى اليزابيث والمؤرخة في مارس 1577، تعلم بأن المولى عبد الملك كان يريد أن يجعل من المغرب سوقا رائجة للثياب الإنجليزية لأنه يرغب في أن يكون لباس رعاياه حسب الزي التركي"³، فمحاولة عبد الملك عثمنة مملكته شملت جميع المستويات بحيث أصبح الجيش والمجتمع مدفوعين للاهتمام بالطابع العثماني، وكان النصيب الأكبر للجانب العسكري من خلال التنظيم واستعمال الألقاب والدرجات والمصطلحات العثمانية نفسها، أما في الجانب الاجتماعي حسب المؤرخ عبد العزيز بن عبد الله فقد كان صعبا بسبب اعتزاز الشعب المغربي بعاداته وأعرافه⁴، ويجب التنويه هنا إلى أن المجتمع المغربي رغم اعتزازه بمواقفه وتاريخه الاجتماعي إلا أنه تأثر بدرجة كبيرة وخاصة في المناطق الساحلية التي كانت بها درجة التأثير أعلى.

ويبدو أن المولى عبد الملك قد استفاد كثيرا مما رآه في بلاد العثمانيين أثناء فترة لجوئه سواء في الولاية الجزائر التي عاش فيها فترة من الزمن أو الولاية تونس التي شارك في فتحها أو في مقر الخلافة العثمانية في إسطنبول حيث كان يقيم عند السلطان العثماني رفقة أخوه ووالدته بصفة رسمية، وكان قريبا من صانعي السياسة العثمانية ومن المقار والهيئات الرسمية، وقد تأثر بذلك كثيرا واقتبس الكثير أيضا، وقد لاحظ المؤرخون أنه كان يتزين بزى الأتراك ويجري مجراهم في غير ما شأن من شؤونه⁵، حيث

¹ ليفني بروفنسال، مؤرخو الشرفاء، ترجمة عبد القادر الخلافي، ط 1، دار المغرب، 1577، ص 77.

² نفسه، ص 78.

³ كريم، مرجع سابق، ص 140. للمزيد ينظر:

De Casterie, Premier Serie, tome I, England, Ibid, P 204.

⁴ بن عبد الله، (القوام العسكري في الحضارة المغربية)، مرجع سابق، ص 167.

⁵ كنون، (عبد الملك بطل حركة وادي المخازن)، مرجع سابق، ص 15.

يصف المؤرخ عبد الرحمن السعدي ذلك بقوله أن المولى عبد الملك بقي على رأس السلطة ومكث فيها عاما وتسعة أشهر وبدل أحوال أسلافه بأحوال العثمانيين حتى في زي الملابس وفي المطعم وتسميته وتسمية أرباب الرتب من الخدام فصار جميع أحواله في سلطته أحوال العثمانيين واستعمل الأسلحة والمدافع العثمانية على أنواعها وفي الملابس القفاطين والفرجيات وشبرخوخ وغيرها وفي تسمية الخدام¹. وعلى ضوء هذا نستنتج أن الطابع أو العامل الرسمي ساهم في بروز مظاهر التأثير العثماني، فالأمم على دين ملوكهم.

ولا يفوتنا التنويه هنا إلى أن مظاهر التأثير العثماني على أطراف العامة بالمغرب الأقصى لم يكن وليد هذه الفترة فقط (1574-1581)، بل شهدت الفترات السابقة واللاحقة هذه الموجة من التأثيرات وذات طابع رسمي في أحيان عدة، فمحمد الشيخ السعدي والذي كان على عداوة مع العثمانيين ويقاسمهم الطموح إلا أنه اقتبس بعض الأمور منهم، فعلى سبيل المثال نجد أنه كان يعتمد على المجندين الأتراك أو المرتزقة الأتراك حسب وصف المصادر المغربية في حمايته الشخصية² وبذلك يكون قد تأثر بسمعة وقوة هؤلاء على الأقل في الجانب العسكري، وانطلاقا من ذلك نتساءل عن أثر ذلك التفاعل اجتماعيا واقتصاديا فهؤلاء المجندين كانوا قد استقروا في المغرب مدة من الزمن، وبالتالي من دون شك تفاعلوا مع المغاربة سواء في الأطر الرسمية أو غير الرسمية.

كما أن هناك الكثير من الحالات المشابهة التي كان لها الإسهام الكبير في التأثير العثماني على المغرب الأقصى وخاصة في الجانب العسكري والتي نلخصها في مسألة أو عامل واحد وهو الجهاد البحري، فما هو معروف أن المدن الساحلية المغربية عرفت نشاطا جهاديا كبيرا ضد القوى الإيبيرية، حيث تلاقى نشاطهم ذلك بنشاط البحارة العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط وهناك الكثير من المحطات التاريخية في القرن 16 تشهد على ذلك التمازج في إطار العمليات الجهاد البحرية وإنقاذ أهالي الأندلس³، فمدينة سلا والعرائش الساحليتان كانتا تمثلان مركزا نشطا لتلك العمليات الجهادية وأصبحتا محج السفن والمراكب العثمانية بحيث كانت تمثل القواعد الخلفية لهم⁴، وفي ذلك الإطار انتقلت العديد من التأثيرات العثمانية إلى الأوساط الرسمية والعامة المغربية وخاصة في التسميات والتنظيمات العسكرية

¹ عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، المدرسة الباريسية لتدريس الألسنة الشرقية، فرنسا، 1981، ص 208.

² أوزوتونا، مرجع سابق، ص 307.

³ بوشرب، (قراصنة المحيط...)، مرجع سابق، ص 04.

⁴ النشوي، مرجع سابق، ص 10.

وهناك عدة مظاهر تؤكد ذلك، كما كان لمراكز صناعة الأسلحة بهذه المدن دورا في نقل التأثيرات العثمانية باعتبار أن معظم العاملين من الخبراء والتقنيين كانوا من الأعلام والعثمانيين¹، وبالتالي لا شك في انتقال الكثير من المصطلحات التقنية كما أشار ليفي بروفنسال سابقا، ويجب الإشارة هنا إلى أن هذه الحركة لم تقتصر على فترة محدودة، فالتعاون البحري بين المغاربة والعثمانيين كان قبل تاريخ هذه الفترة بحيث كان ذو طابع غير رسمي في الكثير من الأحيان لكن مما يميز هذه المرحلة قيد الدراسة هو أن المولى عبد الملك أعطاها طابعا رسميا فيه إطار عثماني المغرب الأقصى.

فتطوان كانت على فترات تاريخية متعددة مقصدا للجزائريين والمجاهدين البحريين الذين كانوا يلجؤون إلى ميناء تطوان للتزود بالماء والطعام، وكانوا ينفذون فيه أحيانا عدة عمليات مشتركة (الجهاد البري) مع السكان المحليين²، وبالتالي مسألة التفاعل وانتقال التأثيرات العثمانية إلى تلك المدن مسألة لا جدال فيها، ففي عهد عبد الملك السعودي كان الجيش المغربي قبلة للكثير من العناصر الأجنبية من ذوي النسب العثماني القادمين من مختلف بقاع البلاد العثمانية وخاصة أوروبا، وكذلك بعض المجندين العرب القادمين من الولاية الجزائرية، ولا شك أن هؤلاء حملوا معهم بعض العادات والتقاليد، التي كان لها الأثر الواضح في مختلف النواحي في المغرب، ففي رسالة السلطان العثماني إلى عبد الملك يظهر حقيقة وحجم ذلك التواجد العسكري من خلال دعوة هذا الأخير إلى ضرورة العناية بهؤلاء المجندين سواء كانوا أولاد الترك أو أولاد العرب³، فما هو متعارف عليها تاريخيا أن قائد الحملة التي ساعدت المولى عبد الملك على الارتقاء على عرشه المغتصب القائد رمضان باشا كان قد ترك الكثير من الجنود لدى عبد الملك بصفة رسمية، حيث ترك نحو ألف من جنود الصبايحية، و300 من الانكشارية إضافة إلى بقاء بعض القادة العسكريين⁴، فهؤلاء ساهموا في ذلك التفاعل بدرجة كبيرة.

وانطلاقا من ذلك نستخلص أن عوامل التأثير السياسية والعسكرية لم تكن وليدة هذه الفترة المدروسة فقط بل فترات سابقة إلا أن حجم وقوة ذلك التأثير كان بدرجة أكبر في هذه المرحلة (1574-1581) لأنها اتخذت الطابع الرسمي؛ أي أن التأثير كان يعتبر سياسة قائمة بحد ذاتها استهدفت عثمنا

¹ محمد بنعتو، " الموروث الإنساني - الهندسي أو التراث المتعدد القيمة الرمزية والدلالة - (حالة مدينة العرائش المغرب)، مجلة إنسانيات، العدد 42، 2008، ص 15 (ص13-ص29).

² محمد داوود، تاريخ تطوان، مج01، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1959 ص125.

³ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 30، حكم 466، مصدر سابق.

⁴ Haedo, Ibid, p162.

المنطقة كما نستخلص أن هذا التأثير لم يحظى بعناية الباحثين والمؤرخين الشيء الذي أدى إلى غياب الدراسات واندثار هذه الحقائق في ضوء قلة المصادر التاريخية حول هذا الموضوع. كما يجب الإشارة أيضا إلى عنصر مهم في نقل التفاعل والتأثير وهو التطور العثماني آنذاك وفي مختلف المجالات (عصر السعادة)، وهو ما جعلهم يتبوؤون مكانة عالية في سلم الحضارة مما جعلهم محط أنظار الكثير من الأمم؛ الأمر الذي ساهم في تجسيد ذلك الإعجاب في نقل الكثير من مظاهر الحضارة العثمانية إلى بلدانهم والمغرب بدوره سعى إلى تقليد المنظومة الاجتماعية والإدارية والسياسية العثمانية وبالتالي تتأكد من مقولة "المغلوب مولوع بالغالب".

1-2- ب. اجتماعيا:

كان للجانب الاجتماعي دور في نقل التأثيرات الاجتماعية للمغرب الأقصى في هذه الفترة، فالمغرب الأقصى في القرن 16م كان قبلة وملاذا للكثير من الأجناس الأخرى سواء العربية أو غيرها بحيث أصبح ملاذا للمضطهدين بحيث دخل المغرب في هاته الفترة أقواما كثيرين أفرادا وجماعات¹، ويجب التذكير هنا إلى أن الظروف الخارجية التي كانت تحيط بالمغرب ومنها هجرة أو قدوم الكثير من الأفراد والجماعات للعمل في الجيش المغربي وخاصة من البقاع العثمانية، إضافة إلى هجرة العلماء أو ما يعرف بالرحلات البلدانية، فالكثير من علماء الولاية الجزائر وتونس وطرابلس العرب هاجروا إلى المغرب في سبيل العلم وخصوصا بعد منتصف القرن 16م، وبدورهم نقلوا معهم البعض مما تلقوه من تأثيرات عثمانية خصوصا إذا علمنا أن هؤلاء الكثير منهم كان يحظى بمكانة مرموقة لدى السلطات العثمانية. إضافة إلى الرحلات البلدانية ساهمت الرحلات الحجازية في نقل التأثيران العثمانية، ففي العهد السعودي 1517-1660 نشطت الرحلات بصورة كبيرة حيث كانت تمزج بين الطابع الديني والطابع التجاري، فالرحلات التي كانت تقصد بلاد الحرمين سنويا قصد أداء مناسك الحج كانت تحمل الكثير من المنتوجات لبعض التجار كانت تصرف فيه أقطار المغرب العربي عند استراحتها (القوافل)². بحيث كان هناك نوع من التعامل التجاري بين الحجاج والسكان المحليين، فقوافل الحجيج سواء على البر أو البحر كانت محملة بالكثير من البضائع كالقرنفل، الكحل، السواك والزعفران كانت تفرغ حمولاتها على طول الطريق إلى بلاد الحرمين من النقاط التجارية في بلاد المغرب، وخاصة مصر وفي طريق العودة كانت

¹ زروق، مرجع سابق، ص 75.

² موحن، مرجع سابق، ص 160.

أيضا تحمل معها المنتوجات العثمانية إلى أسواق المغرب، وكانت مدينة تطوان مثلا نقطة تجارية هامة في ذلك نظرا لموقعها الجغرافي¹.

ونظرا لطبيعة العلاقات الودية التي كانت سائدة في هذه الفترة بين الدولة العثمانية والمغرب ولو مرحليا زادت حركة هذه الرحلات نظرا للتسهيلات المقدمة لهم (الحجاج)، وخاصة الطريق البحري الذي عرف أوج نشاطه بفضل توفر الأمن جراء النشاط العثماني الدائم على سواحل الحوض الغربي للمتوسط، ويلاحظ أن الطريق البحري وحتى البري كان يحتوي على محطات للتزود بالموون وتصريف بعض المنتوجات وهو ما شكل فرصة للاحتكاك والتفاعل الاجتماعي وبالتالي نقل التأثيرات وخاصة في المجال الاجتماعي².

فحسن العلاقات بين الجانبين في هذه الفترة ساعد في تعزيز التبادل الثقافي من خلال تسهيلات السلطات العثمانية للمغاربة من حيث الإقامة والتجارة، فقد شهدت هذه الفترة إقامة بعض المغاربة بصفة دائمة ببلاد الحرمين حيث كانت الغاية من ذلك هي الإشراف على شؤون الحجاج والوافدين ببلاد الحرمين³، وبدورهم كانوا على احتكاك دائم بالتأثيرات العثمانية في مجال الإدارة والتنظيم العام، وحتى في العادات والتقاليد كما يجب الإشارة إلى أن الحج كان فرصة للالتقاء بين المسلمين من مختلف الأصقاع وتبادل الثقافات، خصوصا إذا علمنا أن البلاد العثمانية في تلك الفترة كانت تشهد تطورا حضاريا حيث كانت بمثابة الحلم للمجتمعات الأخرى، ونظرا لتوفر أجواء الأمن والنظام ازدادت نشاطات الرحلات التي كانت من ضمنها فقهاء ومشايخ علم، كان مقصدهم بلاد الحرمين مرورا بالحواضر العلمية ببلاد المغرب ومصر بصفة خاصة⁴، وبالتالي انتقال التأثيرات كان حتمية تاريخية.

وساعد في نقل التأثيرات بصورة أكبر في إطار الرحلات وتطورها نشاط النقل البحري فما هو معروف أن هذا النشاط سيطر عليه العثمانيين، وخاصة في البحر الأبيض المتوسط حيث كانت كل السفن التجارية وسفن النقل بيد قباطنة ورياس عثمانيين باستثناء سفن بعض الخواص من العرب واليهود، والمؤرخ التمقروتي يعطينا لمحة عن ذلك، ففي رحلته إلى بلاد الاستانة أقر بأن النقل البحري كان يسيطر

¹ نفسه، ص160.

² الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 30، حكم 426، مصدر سابق.

³ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 30، حكم 505، مصدر سابق، صحيفة 119.

⁴ المنوني، مرجع سابق، ص38.

عليه العثمانيين¹، وبما أن القائمين على ذلك كانوا عثمانيين انتقلت بعض المصطلحات والتأثيرات العثمانية منهم وإلى المسافرين الذين حافظوا على الكثير منها وخاصة في ميدان المعاملات والنقل البحري وهناك الكثير من مظاهر ذلك نبرزها في المبحث القادم فالمسافرين المغاربة إلى بلاد المشرق كانوا لا يسافرون إلا عبر السفن العثمانية.

وكما أشرنا سابقا كانت المدن الساحلية أكثر استقبالا للمؤثرات العثمانية فمدينة بادس المعروفة بنشاطها التجاري كانت المزود الرئيسي للموانئ المتوسطية بالخشب، وكان العثمانيين على رأس قائمة الزبائن²، كما تجدر الإشارة إلى أنها كانت محطة للإسبان من جهة والعثمانيين من جهة أخرى "حيث كانت عمارة أهل الجزائر وسفنهم لا تخلوا من مرسى بادس إلى المشرق والمغرب ولا ينقطع الترك عنها في أي آن³، ويجب التنكير هنا إلى أن القرب الجغرافي للمدينة من ولاية الجزائر، وبالتحديد مدينة هنين الساحلية الواقعة بتلمسان ساهم في التفاعل الاجتماعي بين الجانبين، وبالتالي المساهمة في نقل التأثيرات العثمانية.

1-2- ج. تجاريا:

تعتبر التجارة من أهم العوامل المساعدة في التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب فلتجارة دور كبير في نشر الإسلام في الأقاليم البعيدة في أفريقيا وبلاد الهند والصين، وكان التجار خير سفراء لأديانهم ومجتمعاتهم في تلك البلاد، وبدورها كانت التجارة في العصر الحديث محورا أساسيا في عملية التفاعل الحضاري بين شعوب البحر الأبيض المتوسط، فالحركة التجارية لها دور كبير في انتشار وتبادل الثقافات بين أقطار المغرب العربي في العهد العثماني، وتلك الحركة كانت خاضعة لتقلبات الأوضاع السياسية والأمنية، ففي الفترة التي سبقت الوجود العثماني كانت مزدهرة فمدينة الجزائر كانت عامرة بتجاريتها وأسواقها وكذلك مدن المغرب الأقصى كفاس ومراكش اللتين كانتا مقصدا لبضائع مختلفة، فالطرق التجارية كانت همزة وصل بين المشرق والمغرب⁴.

¹ علي بن محمد التمرقوتي النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي المطبعة الملكية، الرباط 2007، ص 27.

² اشهبان، مرجع سابق، ص 507.

³ مجهول، مصدر سابق، ص 39.

⁴ خيرة بلعربي، "المسالك والدروب وأثرها في تفعيل الحركة التجارية والثقافية في المغرب الإسلامي 15م/ 16"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، جامعة تلمسان، 2003، ص 122.

وبدورها كانت عاملا في نقل المؤثرات الحضارية وخاصة في الفترة الحديثة، وذلك لحرص الدولة العثمانية على الحفاظ على هذا التواصل من خلال ما وفرته من عوامل أمنية للتجار المغاربة، ففي رسالة أرشيفية تشير إلى حرص السلطان العثماني على ضرورة الحفاظ على الحركة التجارية المتبادلة مع المغرب وعدم تعرض بأي شكل من الأشكال للتجار القادمين من فاس "ومن ناحية أخرى يجب عدم السماح لأحد ما بإلحاق الضرر والخسارة بالتجار القادمين من ولايتي فاس ومرانقوس"¹.

وانطلاقا من هذا كانت المنتوجات الجزائرية والتونسية التي كانت قد تأثرت بالموروث الحضاري العثماني بصفة مباشرة تجد طريقها إلى المغرب الأقصى، حيث كانت الأقمشة الهندية والقسنطينية إضافة إلى البرانس ولوازم السفر والدروع والمواد الغذائية مقصد التجار المغاربة وهو ما أدى إلى دخول عديد التأثيرات إلى المغرب في إطار عملية التقليد². ونفس الشيء بالنسبة لولاية تونس حيث كانت كل سنة وانطلاقا من مدينة سلا المغربية تتجه قافلة تجارية محملة بمختلف البضائع إلى تونس ونفس الشيء بالنسبة للواردات³، كما كان بتطوان العديد من الأهالي الذين يمارسون التجارة مع أوروبا مع إيلات الدولة العثمانية على مر التاريخ ومنهم عبد الكريم بن الطالب⁴، وهناك العديد من المظاهر الاجتماعية والاقتصادية في المغرب الأقصى تجسد صحة هذا التفاعل وخاصة في ميدان الصناعات.

2- مظاهر التأثيرات العثمانية في المغرب الأقصى 1574-1581.

2-1 التأثير العثماني على التنظيم السياسي والإداري:

يعتبر موضوع تأثير الحضارة العثمانية على المغرب الأقصى من القضايا التاريخية المؤجلة رغم الإقرار بحقيقة ذلك التأثير من طرف باحثين مؤرخين ومسؤولين رسميين مغاربة أنفسهم وإن كان بصفة غير مباشرة حسبهم، حيث يبقى هذا التساؤل قابلا ومنتظرا للنقاش حسب ما صرح به الدكتور خالد أرني على هامش أشغال المؤتمر الدولي الموسوم بعنوان "المغرب والبحر الأبيض المتوسط في العصر العثماني" المنعقد بالمغرب الأقصى سنة 2009، الذي اعتبره فرصة للباحثين والمتخصصين من خلال دراسة العناصر الجديدة التي توصلت إليها الأبحاث، حيث كان الهدف من المؤتمر الإجابة على جملة

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 30، حكم رقم 427، مصدر سابق.

² بن خروف، (ملاحم من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين)، مرجع سابق، ص 84.

³ نفسه، ص 84.

⁴ محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين 1792-1822، ترجمة محمد حبيدة، ط1 المركز

الثقافي العربي، المغرب، 2006، ص 36.

من التغيرات وعلى رأسها وأهمها قضية التبعية المغربية للدولة العثمانية، وكذلك مسألة تأثير الحضارة العثمانية على المغاربة¹. ومن هذا المنطلق نود أن نشارك أكاديميا في الإجابة على هذا التفسير، ومحاولة استكشاف المستجدات الدخيلة عليها ولا سيما في الجانب الإداري ومقارنتها بالنظام العثماني السائد آنذاك وكذلك اكتشاف النقط المشتركة بينهما.

2-1-أ تنظيم السلطة:

ما يعرف عن المغرب الأقصى أن له باع طويل في السياسة والإدارة من خلال ما عرفه من تجارب تاريخية لدول وجماعات من عمق المنطقة، وبالتالي هو يمتاز بغنى الإرث السياسي والإداري جراء عملية التراكم الحضاري ولكن كغيره من الأقطار نلاحظ أنه في هذه الفترة تأثر بالنظم العثمانية، حيث تقول بعض الكتابات التاريخية إن المولى عبد الملك اقتبس تلك التنظيمات من قانون نامة آل عثمان، وطبقه في مملكته².

ولتوضيح ذلك سنقوم بسرد التنظيم الإداري الرسمي المغربي في هذه الفترة مع تقديم إشارة عند تلاقي أي منصب أو مفهوم مع مفاهيم التنظيم العثماني، فمن حيث تنظيم السلطة المغربي كان على رأس الهرم الخليفة أو الإمام أو السلطان³، وفي هذه الفترة كان المولى عبد الملك يمثل هذا المنصب في المغرب الأقصى ولكن دون هذه التسميات حسب النظرة العثمانية، فهذه الأخيرة كما أشرنا سابقا كانت تطلق عليه عدة ألقاب منها حاكم فاس، الأمير المخلص، لكن الكتابات التاريخية المغربية تتحدث عن النظام السياسي والإداري في هذه المرحلة وفق منظور التقاليد المغربية في الحكم متجاوزة معظم الأحيان فترة حكم المولى عبد الملك، مركزة على فترة حكم أحمد المنصور الذهبي الذي كان لقب بعدة الألقاب خاصة بعد 1581 وتتامي طموحه نحو الخلافة، لكن قبل هذا التاريخ كانت الخلافة العثمانية يطلق عليه نفس الألقاب السابقة.

فالمولى عبد الملك الذي كان على رأس جهاز السلطة كان قد تلقب بالغازي، وهو من الألقاب العثمانية كما يلقب بالمعتمد وبه اشتهر، ويعرف عند العامة بسيدي ملوك ويعود للاغتراب الذي كان فيه

¹ مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، بحوث الندوة الدولية حول "المغرب والبحر الأبيض المتوسط الغربي في العصر العثماني" الرباط 12-14 نوفمبر 2009، إشراف خالد أرن، إعداد جنكيز طومار، زينب دوروقال، فيصل بنعيسى، اسطنبول، 2013، ص 07.

² الساحلي، قانون نامة آل عثمان، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، المجلد 13، العدد 04، الأردن، 1986، ص 275.

³ أكنوش، مرجع سابق، ص 44.

في القسطنطينية وبلاد الجزائر فرصة لتكوينه من خلال تعلم اللغة التركية¹، وبالتالي الاطلاع على أهم تقاليد السلطنة، فالسلطان العثماني سليمان القانوني كان قد تلقب بهذا اللقب "الغازي"، وكان قبله السلطان أورخان بن عثمان ففي نقوش جامع بروسة الذي بناه سنة 1334م ما يشير إلى لقب السلطان "الغازي بن الغازي"²، ومما لا شك فيه أنه المولى عبد الملك كان مولعا بذلك.

إضافة إلى السلطان يأتي الحاجب³، وهو من الوظائف التي كانت سائدة في المغرب الأقصى ولها جذور طويلة في تاريخ المغرب وتاريخ الخلافة العربية الإسلامية بصفة شاملة، حيث كان لعبد الملك عدة حجاب باختلاف الزمن ومنهم رضوان العليج⁴، كما يشير المؤرخ محمد الصغير الأفراني أنه إضافة للسلطان والحاجب هناك الكتاب ومنهم في عهد المولى عبد الملك محمد بن عيسى⁵، إضافة إلى القضاة أما بخصوص الوزراء الذين كانوا يقبون في المغرب بأصحاب الشكارة⁶، فكان على رأسهم الوزير الأعظم والصدر الأعظم وكان يدعى بكاتب السر عند السعديين⁷، ويجب التنبيه أن منصب الصدر الأعظم كان قد اشتهر في النظام السياسي العثماني وهو يمثل رئيس الوزراء بالمفهوم الحالي⁸.

¹ كنون، (عبد المالك بطل معركة وادي المخازن..)، مرجع سابق، ص 08.

² بركات، مرجع سابق، ص 45.

³ أطلق هذا اللفظ في الأصل على من يبلغ أخبار الرعية إلى الحاكم أو إلى السلطان ويأخذ لهم الإذن منه، وأطلق في عهد الخلافة الأموية بالأندلس على من كان يقوم مقام الخلافة في الأمر. للمزيد ينظر: حسان حلاق، عباس صباغ المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، ط01، دار العلم للملايين، لبنان، 1999، ص72.

⁴ الناصري، مصدر سابق، ص 87.

⁵ الأفراني، مصدر سابق، ص 100.

⁶ أكنوش، مرجع سابق، ص121.

⁷ نفسه، ص 122.

⁸ كان وكيل مطلق للسلطان، وتلقب بالصدر العالي وصاحب الدولة وغيرها، وكان له صلاحيات كثيرة منهم ختم السلطان السلطان ورئيس الديوان الهمايون، وهو أيضا أمير الجيوش يتصرف في الأموال كيفما يشاء. للمزيد ينظر: صابان، مرجع سابق، ص 144. بركات، مرجع سابق، ص 72.

وكان تحت إمارة الصدر الأعظم¹ الوزراء الآخرين، وعلى رأسهم وزير البحر، وزير الشكايات وهو صاحب المظالم عند السعديين إضافة إلى وزراء آخرين في عدة وظائف²، وكان السلطان أو الحاكم يجتمع بوزرائه في العصر السعدي في هذه الفترة في مجلس الديوان³، فأول من أسس الديوان في المغرب المغرب حسب المؤرخ إبراهيم حركات هو المولى أحمد المنصور حيث يقول أنه استمد فكرة الديوان والتسمية نفسها من تقاليد العثمانيين، أين كان يجتمع فيه السلطان بالوزراء ثلاثة مرات في الأسبوع ويتولى خلاله السلطان النظر في المظالم والشؤون الإدارية والعسكرية والسياسة الخارجية، أما المنصور فكان يجتمع فيه مع وزرائه مرتان في الأسبوع⁴، ولكن من خلال البحث نستكشف أن أول من أقر الديوان الديوان هو المولى عبد الملك وليس المولى أحمد المنصور، حيث جاء ذكر الديوان في كلام المؤرخ عبد العزيز الفشتالي حول عطايا المولى عبد الملك للجند حين تنصيبه في الذكرى السنوية "...التبرع لعساكر النار حين مصير الخلافة إليه بالزيادة...وفي الديوان..."⁵.

إضافة إلى ما سبق تم استحداث منصب المفتي أو شيخ الإسلام⁶، في العصر السعدي لكن يجب التذكير هنا أيضا إلى أن المولى عبد الملك في هذه الفترة كان قد وجد منصب المفتي قائما، وبالتالي المواصلة على نفس النهج، فمنصب الإفتاء كوظيفة رسمية ظهرت في المغرب في عهد محمد الشيخ السعدي اقتباسا من العثمانيين في إطار التنظيمات الهامة التي قام بها في السلك القضائي⁷، وهذا المنصب اقتصر على المدن الكبرى كتارودانت فاس ومراكش، بحيث يعين السلطان ثلاثة مفتيين، وكان للمفتي مكانة هامة في دائرة السلطة السعدية فهو أول قاضي بعد السلطان وإليه ترفع طلبات الاستئناف

¹ اختلف في أصلها منهم من يقول فارسية والآخر عربية مشتقة من الوزر بفتح الواو وهو الملجأ وهو الظهر لأنه يقوي الحاكم كما يقوي الظهر البدن، للمزيد ينظر: بركات، مرجع سابق، ص 70.

² أكنوش، مرجع سابق، ص 141.

³ هو مركز اتخاذ القرارات كان قبل هذا التاريخ يسمى المشور عند المرينيين والوطاسيين وهو المجلس السلطاني، للمزيد ينظر: ملين، مرجع سابق، ص 262.

⁴ حركات، (المغرب عبر التاريخ، ج 02)، مرجع سابق، ص 333.

⁵ الفشتالي، مصدر سابق، ص 45.

⁶ لقب أطلق على مفتي اسطنبول، حيث كان أول ظهور له في عهد السلطان مراد الثاني، للمزيد ينظر: بركات، مرجع سابق، ص 103.

⁷ حسن اليوبي، الفتاوى الفقهية في أهم القضايا في عهد السعديين إلى ما قبل الحماية، د ط، مطبعة فضالة المغرب، 1998، ص 95.

وتحال على مجلس المفتيين، وهو مجلس يجتمع للنظر في القضايا المستأنفة¹، أما بخصوص ترتيبه ومكانته في هرم السلطة فقد كانت له الأولوية قبل سائر رجال الدولة ووجوه الناس ومن أحد هؤلاء في هذه الفترة المدروسة القاضي أبو عبد الله محمد بن قاسم القيشي المعروف بالقصار، وأبو زكرياء بن محمد السراج².

هذا بالنسبة لفترة حكم المولى عبد الملك، أما فترة المنصور التي تميزت بالتوفيق بين التأثيرات العثمانية والتقاليد المغربية³، ففي التنظيم العام للسلطة واصل على نفس النهج وأصبح الديوان في عهده يضم أعضاء جدد كصاحب خزائن الدار، ويقابله بالعثمانية الخزندار، إضافة إلى أصحاب المشورة من قادة الجيش والفقهاء والأعيان وهو تقريبا مشابها لما كان عليه ديوان العثمانيين⁴، ففي قانون نامه آل عثمان نستكشف أن السلطة العثمانية كان على رأسها السلطان ثم يخلفه الصدر الأعظم والوكيل المطلق له، ثم الدفتر دار وهو وكيل الأموال وناظرها ثم شيخ الاسلام الذي كانت له مكانة عالية باعتباره رئيس العلماء والمعلم السلطاني، بحيث يعتبر شيخ الاسلام والخواجة أعلى درجة من الوزراء بعد الصدر الأعظم، أما تنظيم مجلس السلطان فقد كان يخضع للترتيب التالي: السلطان ثم الصدر الأعظم، وعندما يغيب السلطان ينوب عنه الصدر الأعظم فقط يرأس الوزراء وقضاة العسكر والدفتر دار وقادة الجيش من آغا الانكشارية وآغا الركاب⁵.

وانطلاقا من ذلك نستخلص مدى التشابه الكبير في التنظيم العام للسلطة وتتأكد فرضية الاقتباس المغربي من قانون نامه آل عثمان، وذلك بغض النظر عن بعض التعديلات التي قام بها المولى أحمد المنصور، كما نود الإشارة إلى عادة دخيلة على النظام السياسي المغربي قام المولى عبد الملك بإدخالها وهي ما تعرف بالبخشيش⁶، أو عطايا الجلوس وهي عادة عثمانية دأب عليها سلاطين آل عثمان أثناء

¹ نفسه، ص 127.

² اليوبي، مرجع سابق، ص 130.

³ عقيل نمير، "السياسة الداخلية للمغرب الأقصى في عهد السلطان أحمد المنصور السعدي 1580-1603"، مجلة دراسات تاريخية، العدد 135، 2017، ص 402. (ص 395-ص 419).

⁴ نفسه، ص 403.

⁵ نفسه، ص 122. للمزيد ينظر: نجم الدين بيرقدار، العثمانيون حضارة وقانون، ط1، الدار العربية للموسوعات، لبنان،

2014، ص 149.

⁶ هو مصطلح يطلق على العطاء أو الهبة في العهد العثماني، يقابله في العربية لفظ الاكرامية، للمزيد ينظر: حلاق، صباغ، مرجع سابق، ص 37.

جلوسهم على العرش سنة 1389¹، واستمر بعدها هذا التقليد حتى مجيء المنصور الذي قطع منحة الجلوس كعادة سنوية بسبب التكاليف العالية.

2-1-ب التنظيم الإداري:

ما هو معروف عن التنظيم الإداري العثماني أنه نظام مركزي بحيث كانت المقاطعات أو السناجق تخضع إداريا للسلطة المركزية في عاصمة الولاية التي تختلف من مقاطعة إلى أخرى، ففي الولاية الجزائرية مثلا كانت مقسمة إلى ثلاثة مقاطعات إدارية (بيالك)، وكانت مدينة الجزائر التي تسمى بدار الإمارة عاصمة هاته البياليك وعلى هذا الأساس عمل المغاربة في هذه الفترة على الاقتداء بالتنظيم الإداري العثماني سواء في مقر الخلافة أو حتى ولاية الجزائر التي تم الأخذ عنها في ميادين عدة، فالحكم السعدي كان مركزيا، أي أن كل الأقاليم تخضع مباشرة للسلطان وتسمى بقبائل المخزن وكانت 12 إقليم أو ولاية²، وكانت الولايات البعيدة من العاصمة تخضع لنظام عسكري على شكل باشويات كل منها خاضعة لسلطة ممثل يدعى الباشا³، وهو إحدى الألقاب العثمانية، أما الأقاليم الأخرى فقد كانت تخضع لنظام مدني يحكمها أبناء السلطان أو رجال يثق بهم يعينون بظهير سلطاني⁴.

وللتدقيق أكثر كان التقسيم الإداري في عهد عبد المالك السعدي وفق النموذج العثماني بحيث قسم مملكته إلى مناطق إدارية ذات جغرافية كبيرة كمقاطعة فاس التي كانت تشمل شمال المغرب من مدينة

¹ فريدون أمجان، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين حقائق في ضوء المصادر، ترجمة جمال فاروق، ط02، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، 2015، ص29.

² وتسمى بالإيالة كذلك وهو من المصطلحات التركية التي انتقلت في العصر السعدي إلى الإدارة العثمانية المغربية، وكان المغرب الأقصى في عهد المنصور يسمى بالإيالة العلية للمزيد ينظر: عبد الرحمن ابن زيدان العز والصولة في نظام الدولة، المطبعة الملكية، المغرب 1961، الفشتالي، مرجع سابق، ص226، ملين، مرجع سابق، ص25.

³ لقب يطلق على حكام الولايات، وكذلك أطلق على رتبة عسكرية ومدنية وهي كلمة تركية قيل أنها من مصدر باشا آغا أي رئيس الأغوات، وقيل من كلمة بادشاه الفارسية، وقيل من باشا أي الرئيس وهو لقب يطلق على رجال الجيش إذا صاروا كبار تجار ومحافظي الأقاليم وملاك الأراضي للمزيد ينظر: صابان، مراجع سابق، ص53. ابن زيدان، مرجع سابق، ص400.

⁴ أكنوش، مرجع سابق، ص123.

العرائش وما والاها، وكان حاكمها هو أخوه المولى أحمد المنصور، وكانت داخليا مقسمة إداريا إلى عمالات تابعة لسلطة الحاكم المنصور¹.

أما في عهد المولى أحمد المنصور فقد كان التنظيم الإداري المغربي يتشكل من العاصمة التي تعتبر مقر الحكم المركزي، وإيالات تابعة لها البعض خاضع للحكم العسكري والآخر للحكم المدني، وعلى رأس كل ولاية حاكم يدعى بالباشا، بحيث كانت له صلاحيات إدارية وقضائية ومالية ويعني الحاكم العام على المقاطعة، وتحت إمرته القوات في الأقاليم والمقاطعات ويليهم شيوخ القبائل²، فالباشوات حسب نبيل ملين كانوا الذين ينتمون في الأغلب إلى العائلة السلطانية وإلى طبقة العلوج³، ويساعدهم في ذلك صاحب الشرطة، وكذلك القاضي إضافة إلى شيوخ القبائل وهم الأعيان⁴، ويجب التنبيه هنا إلى أن هذه الوظائف الإدارية سنتطرق إليها بالتفصيل في الصفحات القادمة من البحث.

ولتأكيد التأثير المغربي الإداري في هذه الفترة بالنمط العثماني نستطلع تنظيمات العثمانيين الإدارية التي اختلفت من الولاية إلى أخرى، وبما أن المولى عبد الملك والمولى أحمد المنصور عاشا مدة في الولاية الجزائر وفي اسطنبول عاصمة الخلافة نرى أنهما الأقرب إلى الاستنباط المغربي، فالتقسيم الإداري العثماني كان يتمثل في الولاية⁵ كأكبر مقاطعة، وتحتوي كل ولاية على سناجق أو مقاطعات⁶، وكل سناجق إلى نواحي، وكل ناحية إلى أحياء وعلى رأس الولاية موظف يلقب بالباشا يساعده الحكم دار تابعا للباشا، ويساعده ضابط الأمن المسمى صوباشي إضافة إلى حاكم الناحية ويلقب بالأغا، وكان على رأس كل حي المختار أو الأعيان⁷.

¹ حركات، (المغرب عبر التاريخ)، ج02، مرجع سابق، ص350.

² نفسه، ص349.

³ ملين، مرجع سابق، ص 261.

⁴ نمير، مرجع سابق، ص 40.

⁵ تسمى بالتركية Eyalet وهي أكبر التقسيمات الإدارية فقد كانت الدولة مقسمة إلى إيالات والإيالة مقسمة إلى سناجق والسناجق إلى أفضية والأفضية إلى نواحي، للمزيد ينظر: صابان، مرجع سابق، ص 45.

⁶ كان التقسيم الإداري الداخلي حسب طبيعة كل ولاية، فولاية الجزائر مثلا كانت مقسمة إلى بياليك على رأس كل منها شخص يدعى الباي، على خلاف التقسيمات في الإيالات المشرقية.

⁷ بير قدار، مرجع سابق، ص 152.

2-1-ج تنظيم الوظائف:

2-1-ج-أ/ تنظيم القصر:

يعتبر تنظيم القصر السعودي في هذه الفترة امتدادا لتنظيم القصر العثماني من حيث التنظيم والموظفين، ومن حيث البناء الهندسي الذي سنتطرق إليه لاحقا، فالمولى عبد الملك كان قد نظم القصر الذي بناه في فاس على غرار قصر طوب قابي في اسطنبول¹، وكذلك فعل أحمد المنصور في تنظيم قصر البديع في مراكش، وللتفصيل أكثر في الموضوع نستكشف ذلك التنظيم، فقائد القصر المغربي في هذه الفترة كان الخص عنبر، وكان تحت إمرته مجموعة من الموظفين لكل منهم عمله ورتبته، ومن هؤلاء الشنشيرية، وتطلق على الخادم الذي يتذوق الطعام المقدم للسلطان للتأكد من خلوه من السم²، وهذه الوظيفة في قصر طوب قابي تسمى بجاشنكر Casniger، ولعل كلمة الشنشيرية مقتبسة منها مع حدوث تعديل عليها حسب اللهجة المغربية وأصل الكلمة من جشني بمعنى الذوق³، إضافة لذلك هناك وظيفة القهرمان أو عريفة أو خادمة حريم السلطان⁴، ففي اللغة التركية كلمة قهرمان تعني الزمان⁵، وهذه الوظيفة اشتهرت في عهد الخلافة العربية الإسلامية فقد كانت في العصر العباسي تمثل قائدة الجواري داخل القصر والقائمة على أعمالهن⁶.

أما حرس القصر السعودي فكانوا يسمون بالقابجية⁷، ويقومون بحراسة أبواب القصر السلطاني الداخلية والخارجية⁸، أما الرواء الذي يطلق على القائم على مراكب السلطان والإسطبلات السلطانية

¹ بيات، (الدولة العثمانية في المجال العربي)، مرجع سابق، ص 207.

² ملين، مرجع سابق، ص 278.

³ صابان، مرجع سابق، ص 78.

⁴ ملين، مرجع سابق، ص 239.

⁵ الساحلي، (قانون نامه آل عثمان)، ص 170.

⁶ سولاف فيض الله حسن، دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية 132هـ-656هـ/749-1258، ط01، دار ومكتبة عدنان، العراق، 2013، ص 16-17.

⁷ قاب جي kapici هو مصطلح يطلق على بواب القصر السلطاني العثماني وهو الاسم العام لكافة بوابي القصر السلطاني الذين يقومون بإرشاد المراجعين للقصر مع عدم دخول أي أحد منهم بسلاحه إلى القصر. للمزيد أكثر ينظر:

صابان، مرجع سابق، ص 271.

⁸ ملين، مرجع سابق، ص 178.

وحقائق القصر¹، يقابله في القصر العثماني وظيفة ميرآخور هو القائم على الإسطبل الخاص بالقصر السلطاني أي هو رئيس العمال فيه².

إضافة إلى ذلك هناك العديد من الوظائف التي تناست كتب التاريخ ذكرها واقتصر ذكرها في محطات متناثرة ومن بين وظائف القصر تلك وظيفة بركاص السلاتي وهو المسؤول عن المصانع السلطانية التي تصنع الأمور الخاصة بالقصر³، واقتداء بالعثمانيين اتخذ المنصور طريقة خاصة في مراسلاته المشفرة حيث كون لذلك مؤسسات تعليمية لتعليم الخط المشرقي الذي يستعمل في هذه المراسلات ولا يفهمه إلا اصحاب الشأن من المتمدرسين⁴، ففي تلك الفترة كانت مدرسة القصر العثماني الأندرون تفرض على طلابها أو المنتسبين لها إجبارية تعلم الخطوط السرية في كتابة المراسلات الرسمية لا يمكن فكها إلا من طرف المختصين مثل "خطي الثالث"⁵.

2-1-ج-ب/ الوظائف العامة (الرسمية):

لقد انتشرت في المغرب السعودي في هذه الفترة العديد من التسميات الوظيفية التي تحاذي نظيراتها العثمانية سواء في التسمية، أوفي تطابق العمل الوظيفي مع تغيرات طفيفة وأخرى جذرية في أحيان أخرى في جانب التسمية مع الاحتفاظ بطبيعة العمل ومن بين تلك الوظائف وظيفة المفتي التي أشرنا إليها سابقا إضافة إلى الأمناء والمقدمون الذين يوجدون على رأس أحياء المدن⁶، فبخصوص الوظائف الرسمية السامية الخاصة بالسلطة وبالقصر فقد ذكرنا البعض منها في الأوراق السابقة لذلك ننتقل إلى الوظائف الرسمية العامة في المغرب الأقصى والتي نعددها كما يلي:

1_ الشاوش (الشواش): هم الفرسان الذين يحملون الرسائل والأخبار في عربة مجرورة مصنوعة للعرض⁷، وقد أقتبس المغاربة هذه الوظيفة اسما ومضمونا من النمط العثماني فهي من أصل جاويش

¹ ملين، مرجع سابق، ص 239.

² صابان، مرجع سابق، ص 30.

³ ملين، مرجع سابق، ص 238.

⁴ حركات، (ج 2)، مرجع سابق، ص 340.

⁵ لظفي باشا، مصدر سابق، ص 17.

⁶ أكنوش، مرجع سابق، ص 123.

⁷ ملين، مرجع سابق، ص 255.

باش وهم من يتولون فقط النظام إضافة إلى عملهم كسفراء وموفدين، بحيث كانوا يحملون الأوامر إلى الولايات ويطبقون الأحكام وعزل الولاية¹.

2_ **الخرندار:** هي إحدى الوظائف العثمانية التي وجدت صداها في المغرب السعدي فالكتابات التاريخية تحفظ لنا أن الباشا محمود في عهد المنصور كانت بيده مفاتيح بيوت الأموال².

3_ **الجابي:** هي إحدى الوظائف التي كانت سائدة في العهد السعدي ومهمة الجابي حسب التنظيم العثماني هي تحصيل واردات الجزية والخراج وإجراءات الأوقاف³.

4_ **عريف الأشغال:** وهو القائد على إدارة المباني السلطانية في المغرب السعدي⁴، والعريف هو إحدى الوظائف العثمانية وكان أحيانا يطلق على صاحبها كتحدا، ففي المغرب كان المسؤول الأول عن سير مشروع معين وكانت هذه الوظيفة سائدة في ولاية الجزائر العثمانية أيضا⁵، و كان يختص بها من يملك مستوى ثقافي وعلمي في الشغلة أو المشروع ويعتبر مدير الأشغال، فمسجد الجامع الكبير الذي شيد في القرن 17م كان مدير أشغاله أو المشرف عليه هو الحاج الحبيب⁶.

5_ **الأمين:** وهو المؤتمن على العمل أو من تودع عنده الأمانات وكذلك ما يسمى برئيس الحرفة كان يسمى في بداية العصر السعدي بالمشرف ثم تطور الاسم في هذه الفترة وفي العهد العلوي انتشر بكثرة⁷، ففي النظام العثماني هو لقب إداري ظهر في عدة إيالات عثمانية يطلق على الناظر أو الوكيل وكان يعرف باسم أمانت ومعناها في العرف العثماني بالعامل الذي يتقاضى مرتبا⁸، وقد تعددت وظائف الأمين الأمين Emin من شغلة إلى أخرى فهناك أمين الموقوفات Mevkufat emini، وكذلك أمين الترسانة Tersane emini إضافة إلى مناصب أخرى⁹.

¹ إينجاليك، مرجع سابق، ص 130.

² الجمل شوقي، تاريخ المغرب الحديث، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1977، ص190.

³ صابان، مرجع سابق، ص 77.

⁴ ملين، مرجع سابق، ص237.

⁵ بركات، مرجع سابق، ص 453.

⁶ أشرف صالح محمد السيد، "المراكز الثقافية في دار السلطان الجزائر أواخر العصر التركي"، المجلة الأكاديمية الأمريكية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيات، المجلد 4، العدد الأول، سنة 2018، ص 66، (ص63-ص74).

⁷ ابن زيدان، مرجع سابق، ص 396.

⁸ بركات، مرجع سابق، ص 103.

⁹ صابان، مرجع سابق، ص 38.

6_ شيخ البلد: وهو من الأعوان الأساسيين للدولة في الأقاليم السعدية¹، اشتهر هذا المنصب في ولاية الجزائر العثمانية بحيث كانت المقاطعة الإدارية تخضع للباي ويساعده مجموعة من الموظفين ومنهم شيخ البلد أو حاكم المدينة وهو بمثابة رئيس البلدية حالياً².

إضافة لهذه الوظائف السياسية والإدارية، هناك عديد التنظيمات والوظائف العسكرية والاقتصادية التي سنشير إليها لاحقاً، وعن التنظيم أو الأجهزة السياسية المركزية بصفة عامة، يقول إبراهيم حركات أن المخزن السعدي بدأ فقيراً وظل فقيراً، ويشير إلى أن التجديد كان في هذه الفترة وخاصة فترة المولى أحمد المنصور حسبه من خلال إقرار ولاية العهد وإحداث الديوان الذي كان في عهد المولى عبد الملك كمجلس استشاري³، لكنه في نفس الوقت أهمل مظاهر التجديد الأخرى الخاصة في عهد عبد الملك السعدي، وذلك ربما يعود لقصر فترة حكم هذا الأخير.

2-2 مظاهر التأثير العثماني على النظم العسكرية:

بعد التطرق إلى التأثير السياسي والإداري لإبراز حقيقة التبعية المغربية للباب العالي في هذه الفترة، نستطلع في هذا المطلب الجانب العسكري، وما يحمله من مظاهر التأثير العثماني سواء ما تعلق بالجوانب التنظيمية أو التكوينية، وحتى القتالية في شقيه البري والبحري مع تقديم دراسة خاصة لمعركة وادي المخازن كنموذج لنجاح عملية التأثير العثماني وتطورها.

2-2-أ مظاهر التأثير العثماني في الجيش المغربي:

2-2-أ-أ / الجيش البري:

يعتبر الجيش عصب الدولة فهو النظام الرسمي في حد ذاته يمثل الجانب العسكري المسلح، ومظاهر التأثير أياً كان نوعها تتجلى ملامحها فيه، لذلك حمل الجيش المغربي في هذه الفترة الكثير من مظاهر التأثير العثماني سواء في عهد عبد الملك أو في السنوات الأولى من حكم السلطان أحمد المنصور، وبداية التأثير تكمن في تنظيم الجيش المغربي إلى فرق فالسلطان عبد الملك قام بتأسيس قوة عسكرية نظامية قائمة بحد ذاتها، واتبع النظام العثماني في أساليبها وسلاحها ومرتباتها في القيادة، وحقق

¹ ملين، مرجع سابق، ص 270.

² حبيبة عليش، "الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في بابلك التيطري أثناء الوجود العثماني 1519 - 1830"، مجلة تاريخ المغرب العربي، مج03، العدد06، ص 105، (ص180-ص208).

³ إبراهيم حركات، "الأجهزة السياسية المركزية لدى المخزن السعدي"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 11، سنة1985، ص20. (ص07-ص30).

ذلك في مدة قصيرة جدا¹، ومن مظاهر ذلك تقسيمه للجيش لعدة فرق حسب طبيعة جنس وعرق المجندين، حيث نجد الفرقة البربرية المكونة من أبناء القبائل المغربية والفرقة العربية المكونة من عرب الشراقة²، وكذلك عسكر الأندلس المتشكل من 14 ألف بفاس ومراكش، إضافة إلى عسكر الغرب وهي فرقة مكونة من خمسة آلاف مقاتل من قبائل الغرب كالخط، وعسكر الحوز بخمسة مئة مقاتل، وتتشكل هذه الفرقة من أبناء القبائل كأولاد جرار، يضافوا إلى هذه الفرق الخمسة فرقة الأتراك والعلوج حسب تصريح المؤرخ حركات، بحيث كانت تشكل من الجنود المتخلفين عن الحملة العثمانية التي ساعدت عبد الملك، ومنهم اتخذ موظفي القصر الخاصين من خدام وحجب وطباخين وغيرهم، وكان العلوج ينتمون إلى بلاد مختلفة كإسبانيا والبرتغال³.

وعلى ضوء تصريح المؤرخ حركات نتأكد أن هذا التقسيم مقتبس من التشكيلات العثمانية من حيث التنظيم الشكلي القائم على العصبية، حيث يبدو أن المغاربة تأثروا بتنظيم الجيش في ولاية الجزائر العثمانية، فهذا الأخير كان يضم تشكيلات لها نوع من العصبية، وفرقة الصبايحية مثلا كانت تتشكل من الفرسان العرب أي من أبناء القبائل المحلية، يضاف إليها عدد قليل من العثمانيين⁴، إضافة إلى فرقة الانكشارية القوة الرئيسية في الجيش.

وعلى نفس نهج عبد الملك سار المنصور في تقسيم الجيش حسب العصبية، حيث شكل في ذلك الإطار عدة فرق ومنها فرقة زواوة والصبايحية وهي كتيبة نظامية قوية في جيش المنصور⁵، وأصل التسمية وكذلك عصبية منتسبها مثل التي كانت في ولاية الجزائر، فالمنصور قسم جيشه إلى أفواج وبدورها تنقسم إلى كتائب شبه عرقية حسب النمط العثماني، لكن الاختلاف يوجد في قائد الانكشارية أو آغا الانكشارية، فهذا الأخير غير موجود في جيش المنصور عكس الانكشارية العثمانية، حيث كانت هذه

¹ محمد الفاسي، "موقعه وادي المخازن الحاسمة"، مجلة البحث العلمي، العدد 09، سنة 1966، ص 222.

² سميوا بالشراقة لأنهم قدموا من أعراب البادية الواقعة شرق المغرب قرب حدود تلمسان من قبائل بني عامر وهم من القبائل العربية تتشكل هذه الفرقة من خمسة آلاف مقاتل للمزيد ينظر: حركات، ج02، مرجع سابق، ص 353.

³ حركات، ج02، مرجع سابق، ص 354. فيما يخص هذه الفرقة العثمانية التي تم ذكرها في جيش المعنصم تشير المصادر المغربية التي أخذ عنها المؤرخ حركات أنها تشكلت من الجنود الذين بقوا معه أثناء رجوع رمضان باشا إلى الجزائر، حيث جمعهم في فرقة واحدة واستأجرهم حسب الفشتالي، وكانوا تحت قيادة قاري حماد (التركي) للمزيد ينظر: الفشتالي، مصدر سابق، ص 34.

⁴ علي خلاصي، الجيش الجزائري في العصر الحديث، ط1، دار الحضارة، الجزائر، 2007، ص 141.

⁵ ملين، مرجع سابق، ص 300.

التشكيلات ترتبط مباشرة بالمنصور، وكان على رأس كل كتيبة باشا وهم تحت إمرة السلطان، وتتقسم كل كتيبة إلى وحدات صغيرة تخضع إلى قائد عسكري يسمى البولكباشي، وتحت إمرته مجموعة من الأوداباشيات والعشرات من اليولداش¹.

ويجب تنبيه القارئ إلى أن دراسة الجيش في عهد عبد الملك كانت قليلة مقارنة بالمنصور، وذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى افتقار المعتمض آنذاك لمؤرخي دولة رسميين أمثال الفشتالي في عهد المنصور، وكذلك عدم وجود دراسات حديثة كافية، كما ننوه أن هذه التقسيمات والتسميات ورثها المنصور من سلفه عبد الملك، ولم تكن جديدة في عهده مع بعض التغييرات البسيطة في تسميات الفرق والقادة باعتبار المنصور فيما بعد قام بإدخال العناصر والتسميات المغربية على جيشه.

ومن أهم الفرق في الجيش المغربي إلى جانب فرقة صبايحية وفرقة زاوية، فرقة البونجية²، وفرقة الطبجية³، كتيبة الحرس السلطاني الخاص وهي القوة الضاربة في الجيش المغربي في هذه الفترة، وهي مستوحاة من حرس بني عثمان وهم الداخلة حسب المفهوم السعودي تتكون من 300 رجل وهم يرتدون الزي العثماني وتكون من ثلاث فرق وهي:

1- فرقة البايك: وهم يرتدون قلنسوة صفراء مزينة بالذهب وراسية من ريش النعام من ألوان مختلفة.

2- فرقة الصولاق: يرتدون قبعات طويلة بيضاء تتدلى على أكتافهم وكانت تسريحات شعورهم موصولة في أعلى الجبهة بقصبات صفر مذهبة، يضاف إليها بعض من ريش النعام⁴، وقد أخذت هذه الفرق نفس تسمية الفرقة الخاصة بحرس آل عثمان، فهم حرس السلطان العثماني الشخصيين يرافقونه في كل مكان حين يركب حصانه وحراسة الخيمة التي بها السلطان، وكذلك القصر يرأس الفرقة صولاق باشي، بحيث كانوا يمتازون بمهارة عالية في الرمي⁵.

¹ ملين، مرجع سابق، ص 301.

² كانت هذه الفرقة مختصة في صنع القنابل والكور أي قذائف المدافع للمزيد ينظر: عبد العزيز السدود، تطوان في القرن 18 م السلطة، المجتمع والدين، ط1، مطبعة الخليج العربي، 2007، ص 226.

³ هي فرقة عسكرية من الرماة العسكريين للمدفعية، للمزيد ينظر: السدود، مرجع سابق، ص 226.

⁴ ملين، مرجع سابق، ص 308.

⁵ إيرينا بتروسيا، الانكشاريون في الامبراطورية العثمانية، تقديم ومراجعة قسم الدراسات والنشر بمركز جمعة الماجد، ط1، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الامارات، 2006، ص 44.

3- البردوش: مقاتلين مسلحين بحراب ذات مقابض قصيرة، وسميكة مزركشة، بلوحات من حديد مثبتة بمسامير فضية¹، ويقابلها في الحرس السلطاني العثماني فرقة السكبان مع الاختلاف في التسمية فقط التي غيرها المغاربة، وهي فرقة من الإنكشارية يرافقون السلطان في رحلة الصيد، فيقودون الكلاب السلوقية، ويحملون في أيديهم قضيبا رقيقا من خيزران ذو رأس فضي².

إضافة إلى هذه الفرق هناك فرقة خاصة مرتبطة بالسلطان مباشرة، وهي فرقة التجسس، حيث كان للمنصور السعدي في كل خلوة عيون ينقلون له ما يحدث من أخبار وأحداث وما يدور على ألسنة الناس، فلا يخلو له يوم من ورود وارد بخبر على بر أو بحر³، إضافة إلى تقسيم الجيش إلى فرق على النمط العثماني تظهر ملامح التأثير العثماني، كذلك في طريقة استعراض الجيش في الاحتفالات التي استمدها عن طريق تجربة أخيه عبد الملك الذي استلهمها بدوره من العثمانيين⁴، وعموما كان الجيش ينقسم في عهد المنصور إلى خمسة فرق وهي: الصبايحية، العلوج، الأندلسيين، زاوية وفرقة الأتراك التي تكونت في عهده من 3500 جندي⁵، إضافة إلى فرقة الحرس السلطاني وفرقة التجسس.

وعلى ضوء هذا نلاحظ أن مظاهر التأثير العثماني متجلية بشكل أوضح وفي إطار رسمي تدعم بكل قوة نظرية التبعية الإسمية المغربية للدولة العثمانية، فمعظم هذه المظاهر ظهرت في هذه الفترة (1574-1578) وواصل المنصور على نفس النهج إلى غاية 1581 بداية إدخال التسميات والتنظيمات المحلية ومزجها مع نظيراتها العثمانية، وفيما يلي أهم التسميات العثمانية أو الرتب العثمانية التي كان الجيش المغربي يعتمد عليها في تنظيم أفرادها في هذه الفترة وهي كالاتي:

1- الباشا: كلمة عثمانية دخلت إلى الإدارة العسكرية في العهد السعدي وبالذات في هذه الفترة المدروسة، وكان يتلقب بها قواد الجيش وقواد الحاميات العسكرية⁶، ويسمون عند المغاربة بالباشوظات.

¹ مليون، مرجع سابق، ص 308.

² بتروسيا، مرجع سابق، ص 45 .

³ الجمل، مرجع سابق، ص 189.

⁴ مليون، مرجع سابق، ص 189.

⁵ نمير، مرجع سابق، ص 189.

⁶ ابن زيدان، مرجع سابق، ص 400.

2-**الطبجية**: كلمة تركية مفردتها طبجي وهم الجنود المدفعيون¹، حيث تتكون من طوب أي المدفع وجي وهي أداة النسب في اللغة التركية، وتتمثل مهمة الطوبجي في إنتاج المدفعية، وصيانتها واستخدامها أثناء الحروب، وكذلك العمل في مستودعات الذخيرة².

3-**البولكباشي**: هو قائد الكتيبة في الجيش المغربي³.

4-**الأوداباشي**: وهو الملازم⁴، وهو لقب عثماني، تم استخدامه في هذه الفترة وهو أدنى مرتبة من البولكباشي⁵، كانت وظيفته عند العثمانيين تقتصر على رئاسة الثكنة وهو ملحق أول يحفظ النظام أثناء العرض العسكري ويشرف على تنظيم النظم⁶.

5-**الكاهية**: وهي تسمية تطلق على نائب القائد ولا تزال عائلة في المغرب تدعى بالكاهية⁷ وهو المزوار.

7-**الباي**: تسمية عثمانية استخدمها المغاربة وتعني قائد القواد⁸، وقائد الجند⁹.

8-**الولدش**: أو الولدشاش حسب التسمية المغربية وهم عامة الجند، أي أدنى رتبة يرأسهم الأوداباشي¹⁰ وتسمى عند العثمانيين باليولدش.

9-**الصوباشي**: رئيس فرقة من السبايحية وهي فرقة من الفرسان عند العثمانيين¹¹ تسمى في ولاية الجزائر بالصبايحية، وكذلك نفس التسمية في المغرب¹.

¹ ابن زيدان، مرجع سابق، ص 108.

² بركات، مرجع سابق، ص 196.

³ ملين، مرجع سابق، ص 300، للمزيد ينظر: كنون، مرجع سابق، ص 115.

⁴ محمد بن علي الدكالي، الاتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين، تحقيق مصطفى بوشعراء، ط02، دار المعارف الجديدة، المغرب، 1996، ص 357.

⁵ ملين، مرجع سابق، ص 300.

⁶ بركات، مرجع سابق، ص 176.

⁷ الدكالي، مصدر سابق، ص 357.

⁸ نفسه، ص 357.

⁹ المريني، مرجع سابق، ص 85.

¹⁰ كنون، مرجع سابق، ص 115.

¹¹ صابان، مرجع سابق، ص 145.

10-الانكشارية: هو لفظ مغربي مقتبس من تسمية الانكشارية العثمانية²، أطلقه المغاربة على جيش الانكشارية الخاص بهم ولقب بجيش النار³.

11-سباهي⁴: وجمعها السباهية وهي فرقة الفرسان تمثل قوة ضاربة في الجيش العثماني وكانوا من المجتمع البدوي⁵.

12-سلاك⁶: هي رتبة عسكرية مغربية وهي تحريف لكلمة سولاق باشي العثمانية، وهي رتبة عسكرية تحت البولكباشي (بلوك باشي)⁷.

13-بلبروش⁸: تطلق هذه التسمية على كل من ينسب إلى فرقة البردوش الخاص بحراسة السلطان وهي تسمية عثمانية.

14-آغا: لفظ عثماني دخل الى الإدارة العسكرية المغربية واشتهر في العصر العلوي⁹، والآغا في الجيش العثماني هو رئيس الفيلق الانكشاري¹⁰.

إضافة إلى هذه التسميات والرتب العسكرية التي تدل على حدوث عملية عثمنة كبيرة في هذه الفترة، هناك أيضا الراية المغربية في هذه الفترة التي تم اقتباسها في الأصل من راية العثمانيين حسب تصريح المؤرخ المغربي المريني حيث كانت راية بيضاء وعليها آيات قرآنية مطرزة بالذهب¹¹. إضافة إلى مظهر آخر وهو عادة البقشيش التي تحدثت عنها المصادر المغربية واصفين إياها بالعادة الدخيلة والسيئة

¹ كنون، مرجع سابق، ص 115.

² كنون، مرجع سابق، ص 176.

³ الفشتالي، مصدر سابق، ص 201.

⁴ المريني، مرجع سابق، ص 86.

⁵ بتروسيان، مرجع سابق، ص 20.

⁶ المريني، مرجع سابق، ص 86.

⁷ صابان، مرجع سابق، ص 54.

⁸ المريني، مرجع سابق، ص 86.

⁹ ابن زيدان، مرجع سابق، ص 399.

¹⁰ بتروسيان، مرجع سابق، ص 45، للمزيد ينظر: بركات، مرجع سابق، ص 173.

¹¹ المريني، مرجع سابق، ص 82.

"وكان من القوانين التي أخذ فيها المعتصم سيرة العجم في دولته: التبرع لعساكر النار حين مصير الخلافة إليه بالزيادة إلى سائرهم في أعطياتهم المفروضة في الديوان"¹.

2-2-أ-ب/ الجيش البحري:

المغرب في القرن 16 كان يفتقر إلى جيش بحري رسمي رغم كل المحاولات التي قام بها السلاطين السعديين، وقد اقتصر عمليات الجهاد البحري على الأسر المحلية ذات الأصول الأندلسية والمغربية كذلك في الثغور المغربية التي قامت بتأسيس شبكة من القواعد البحرية للقيام بالجهاد البحري، وقد كان للعثمانيين دور كبير في إنجاح ونشاط هذه العمليات من خلال الحضور الدائم والمشاركة الفعلية في ذلك. من هذا المنطلق حاول السلطان عبد الملك السعدي إعادة أمجاد البحرية المغربية من خلال الاستعانة بالعثمانيين الذين كان يواليهم، حيث يصرح الباحث في التاريخ الأستاذ محمد مهناوي أن التأسيس الفعلي للبحرية المخزنية المغربية بدأ مع السلطان عبد الملك، وما عرفه المغرب من نشاط بحري قبل ذلك يمثل نشاط قرصي جهادي غير تابع مباشرة للدولة بل تحت إشراف الإمارات البحرية، مثل ما أشرنا إليه سابقا التي كانت شبه مستقلة²، ويعود سبب قيام عبد الملك بتأسيس الجيش البحري حسب تقرير برتغالي إلى انبهاره بحضارة العثمانيين البحرية "وقال بعضهم لبعض: إن هذا السلطان رأى مملكة الترك، ورأى منافع البحر فأول ما أمر بإنشاء السفن، وإذا كملت له العمارة يقطع الى بلادنا مع أهل الأندلس وهم أقرب إليه من غيرهم في الرأي والتدبير"³، بحيث يذكر المؤرخ المجهول أن عبد الملك قام في هذه الفترة بإنشاء السفن في العرائش وسلا، وصارت أهل الأندلس تسافر في البحر مع أهل المغرب، وضيّقوا بالنصارى أشد تضيق وكثرت الغنائم⁴.

¹ الفتشالي، مصدر سابق، ص 45. هذه العادة حسب المؤرخ المصري عبد الفتاح مقلد الغينمي اتخذت وضخمت في غير محلها باعتبارها عادة سيئة من جهة ومن جهة أخرى صورت العثمانيين على أنهم مجرد مرتزقة يسعون لكسب المال والهدايا، وذلك بهدف التقليل من الدور الجهادي للدولة العثمانية في المنطقة وغرب المتوسط عامة، ينظر: الغينمي، مرجع سابق، ص 161.

² محمد مهناوي، "المغاربة والبحر خلال القرن السادس عشر"، مقال في كتاب "البحر في تاريخ المغرب"، تنسيق وتقديم رقية بلمقدم، إعداد عثمان المنصوري، (مرجع سابق)، ص 29. (ص 19-ص 35).

³ مجهول، مصدر سابق، ص 58.

⁴ نفسه، ص 53.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الثغور المغربية كسلا والعرائش لم تكن تخلوا من السفن العثمانية وهو ما يلاحظ في التأثير العمراني والثقافي الذي حدث بالمدينة (العرائش) والذي سنتطرق إليه في الورقات القادمة، فالعرائش كانت مدينة استراتيجية في عمليات الجهاد البحري، فهذه المدينة حسب المؤرخ الناصري كانت بالنسبة للبرتغال تعادل كل سواحل المغرب الأقصى، وهو ما جعلها تشهد أحداثا تاريخية كبيرة وكثيرة¹، وهو ما يفسر كذلك النقل العثماني في المدينة البحرية.

وتعود بداية تاريخ تأسيس الأسطول بعد انتصار عبد الملك على المتوكل، حيث حدثت في ذلك الشأن مظاهر بحرية احتفالية، قامت بها السفن العثمانية التي كانت ترابط في شمال تطوان، ومكونة من 50 سفينة، و 23 سفينة موجودة في ميناء العرائش وسلا، منها 08 سفن قدمت من الجزائر وثلاثة سفن تركية ملك محمد عبد الملك ابن مراد ريس إضافة إلى 06 سفن مغربية، وبذلك تشكل أسطول مغربي عثماني مكون من 88 سفينة²، أما المؤرخ المغربي عبد الحق المريني فيقدر عدد السفن التي كونت الأسطول هو 70 سفينة، مع إقراره بأن عبد الملك هو أول من أمر بإنشاء السفن البحرية في العرائش وسلا³، ولأجل ذلك قام بإنشاء وصناعة السفن، حيث جعل من العرائش وسلا قاعدة بحرية صناعية، ووصل عدد الأسطول في عهده حسب المؤرخ الجزائري عمار بن خروف 40 سفينة سنة 1577، وهو عدد يقارب أو يماثل السفن التي كانت بالجزائر في تلك الفترة حسب قوله⁴.

وأمام هذه الأرقام المتناقضة نود الإشارة إلى أن هذه السفن لم تكن كلها في ملكية السلطة الرسمية، فالأسطول تشكل من مساهمات عثمانية، ومغربية غير رسمية ممثلة في الإمارات البحرية، إضافة إلى المساهمة الرسمية للدولة المغربية آنذاك، كما أن هذه الأرقام التي قدمها هؤلاء لم تكن منطلقا من تقارير خاصة (أرشيفية)، بل انطلاقا من تقديرات.

وإذا كانت فكرة إنشاء الجيش البحري مستوحاة من حضارة العثمانيين البحرية التي انبهر بها السلطان عبد الملك، فإن مظاهر التأثير في هذا الإطار تظهر بصورة واضحة، فعبد الملك قام بتشكيل هيئة رياس البحر اقتداء بالعثمانيين وبنظرائه في ولاية الجزائر، فهذه الهيئة تشكلت في تطوان في عهده،

¹ الناصري، مصدر سابق، ص 82.

² الغنيمي، مرجع سابق، ص 169.

³ المريني، مرجع سابق، ص 63.

⁴ عمار بن خروف، "ملاحم من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين"، مجلة الدراسات التاريخية، م 02، ع 01،

الجزائر، 1987، ص 75، (ص 67-ص 91).

وكانت تحوز تقدير المخزن والأهالي، لأن أفرادها حسب الباحث في التاريخ المغربي عبد العزيز السدود يعدون مجاهدين، وكانوا في غالبيتهم من أصول علجية أو تركية أو جزائرية حسب قوله ولهم خبرة ودراية بشؤون البحر ونذكر من بينهم الرايس محمد التاج¹.

أما فيما يخص السفن التي بنى عليها المغاربة قوتهم البحرية فقد تنوعت بين سفن عثمانية الصنع وعربية الصنع مثل chebec²، وتسمى بالعربية الشباك جات وهي سفينة عربية الأصل معدة للأسفار القصيرة³، إضافة إلى سفن اغتموها من البرتغاليين والإسبان مثل سفينة caraque⁴، وتسمى بالعربية قراق وهي سفينة برتغالية كبيرة وعالية⁵، وكذلك سفينة galiote⁶، أو ما تسمى بالعربية بالجاليات أو الغليوطة، وهي سفينة مجذافية خفيفة جدا⁷، وكذلك سفينة caravelle⁸، أو القرابيلا أو الكارفيلا أيضا وهي سفينة عربية سريعة صغيرة الحجم وخفيفة الحمولة بها شرعان مربعان⁹، إضافة إلى flute¹⁰ أو الفلوكة بالعربية وهي زورق صغير يستعمل في المسافات القريبة¹¹ وكانت تصنع محليا إضافة إلى سفن أخرى مثل:

1-Fregate:¹² وهي سفينة كبيرة وضخمة فيها ثلاثة صواري، وتسير أيضا بالمجاديف وهي معدة للأسفار الطويلة وللحروب الشديدة¹³.

2-الطرطان¹ tartane.

¹ السدود، مرجع سابق، ص 226.

² بوشرب (قراصنة المحيط)، مرجع سابق ص 17.

³ عبد الحميد بن ابي زيان بن شنهو ، دخول الاتراك العثمانيين إلى الجزائر ، ط1، الجزائر ، 1972، ص105.

⁴ بوشرب، (قراصنة المحيط)، مرجع سابق، ص 17.

⁵ بن اشنهو، مرجع سابق، ص 105.

⁶ بوشرب، (قراصنة المحيط)، مرجع سابق، ص 17.

⁷ بن شنهو، مرجع سابق، ص 105.

⁸ بوشرب، (قراصنة المحيط)، مرجع سابق، ص 17.

⁹ بن شنهو، مرجع سابق ص 104.

¹⁰ بوشرب، (قراصنة المحيط)، مرجع سابق، ص 17.

¹¹ بن شنهو، ص 105.

¹² بوشرب، (قراصنة المحيط)، مرجع سابق، ص 17.

¹³ بن شنهو، مرجع سابق، ص 106.

ويجب التنويه هنا إلى أن التسميات بالأجنبية تمثل السفن التي كان يعتمد عليها المجاهدون المغاربة في العمليات البحرية بسلا حسب تأكيد المؤرخ المغربي أحمد بوشرب، أما التسميات العربية ومارافقها من شروحات تمثل أنواع السفن التي كان يستقلها البحارة الجزائريين والعثمانيين حسب المؤرخ ابن شنهو في نفس الفترة، وانطلاقاً من ذلك نستخلص أن نوعية السفن كانت مثل التي في ولاية الجزائر تماماً وبالتالي الأسطول البحري كان مشترك مع نظيره الجزائري أو العثماني بصفة عامة.

وفيما يخص تنظيم العمل على متن السفينة كان يتوافق مع التنظيمات العثمانية حيث كان قائد السفينة يسمى بالقبطان وهو لفظ عثماني معناه ريس البحر²، وريس معناها بالعثمانية أمير البحر، استعمل هذا الإسم حتى القرن 17م في الإدارة البحرية العثمانية³. إضافة إلى الرتب الأخرى كالكركجي، وهو نقيب طائفة الحمالة وهو المكلف بمساومة التجار لحمل بضائعهم إلى السفن أو منها إلى البر، ويؤدي في أجر العمالة حسب الاتفاق⁴، هذا حسب العرف البحري المغربي، أما حسب التنظيمات البحرية العثمانية فالكركجي هو المجذاف الذي يقوم بالتجديف على ظهر السفينة⁵، إضافة إلى وظائف أخرى لم تحفظها لنا المصادر التاريخية لكنها وبكل تأكيد نفس الترتيبات العسكرية ونفس التنظيمات.

2-2-أ-ج/ الحضور العثماني في معركة وادي المخازن (1578):

تعتبر معركة وادي المخازن أبرز نموذج للتكاتف العثماني المغربي في إطار الجهاد الإسلامي فهي أبرزت الكثير من مظاهر التأثير العثماني، وأكدت حقيقة وطبيعة العلاقات العثمانية المغربية القائمة على الولاء، ونظراً لكثرة الكتابات التاريخية حول هذه المعركة التاريخية، نحاول تجنب ذكر التفاصيل، مركزيين على مظاهر التأثير العثماني، والحضور العثماني بصفة أدق فقط.

فمشاركة العثمانيين في هذه المعركة أخذت حيزاً هاماً من كتابات المؤرخين فمنهم من أنكر المشاركة العثمانية أصلاً، ومنهم من قلل من شأنها، ومنهم كذلك من قام بتضخيمها مقابل تقزيم دور المغاربة، ومن هذا المنطلق ارتأينا تتبع حيثيات ذلك في مختلف المصادر التاريخية، والبداية كانت

¹ = بن شنهو، مرجع سابق، ص 105.

² المريني، مرجع سابق، ص 63.

³ صابان، مرجع سابق، ص 121.

⁴ عبد الإله الفاسي، "تطور علاقة العدوتين سلا والرباط بالبحر من القرن 17 إلى القرن 19"، فصل من كتاب البحر في تاريخ المغرب، تنسيق رقية بلمقدم، إعداد عثمان المنصوري، ص 241.

⁵ بن شنهو، مرجع سابق، ص 100.

بالأرشيف ففي رسالة مؤرخة سنة 985هـ/1577م من السلطان العثماني إلى أمير أمراء جزائر الغرب جاء فيها ما يلي: "وفيما إذا اعتدى أي باغ على بلاده(عبد الملك)، وطلب المعونة منكم، فلا تتوانوا عن إرسال، القدر الكافي من العساكر لمعاونته ومظاهرتة، ودفع مخاطر الأعداء عن بلاده"¹.

أما الرسالة الثانية والمؤرخة في نفس السنة 985 هـ/1577م من السلطان العثماني إلى عبد الملك السعدي فهي أكثر وضوح بخصوص هذه المسألة، فبعد ديباجة الرسالة التي تُذكره بقوة الدولة العثمانية جاء مضمونها كما يلي: "وإذا أحضرنا من سدتنا السنية لدفع ضرر الأعداء عن تلك الديار، أو للجهاد ضد الكفار سفنا مملوءة بأبطال الرجال، وفلكا مشحونا بأدوات الضرب والنزال، فعليكم أن تعاونوا إياهم بالعساكر وآلات الحرب والذخائر وغيرها مما يتفرع عليه التصرف والتأييد والاعتقاد حتى تكون المملكتين كبيرة وصغيرة في جسد وساعد..."².

وعلى ضوء هذا التصريح تتأكد من المشاركة العثمانية، خصوصا إذا علمنا أن المعركة مثلت صراع حضاري إسلامي، مسيحي، فالبرتغاليين في هذه المعركة لم يكن هدفهم تنصيب المتوكل وخلع عبد المالك فقط، بل كان الهدف الحقيقي هو القيام بغزو استباقي للمغرب بعد فشل كل الطرق لإقناع المولى عبد الملك بالتحالف والتخلي عن العثمانيين، فالغزو هو الطريقة الوحيدة لكبح التقدم العثماني واستعادة المراسي المغربية³، كما تحدث رسالة أخرى مؤرخة في 05 ماي 1577، موجهة من السلطان العثماني مراد الثالث إلى المولى عبد المالك عن هذه المشاركة حيث جاء في فحواها: "الواجب عليكم وعلى من لديكم بمقابلة هذا ولمن وأعلى عليكم أن تكونوا في جادة الصداقة... وطريق الاستقامة ثابتين ودائمين وتعينوا الغزاة المؤمنين.... وتستحضروا السفاين العديدة المسلحة، وتعينوا السفاين التي تمر من جانب أعتابنا العلية وتتفقوا أحسن الاتفاق مع أمير الكرام حسن باشا دام إقباله"⁴.

ومن خلال هذه الوثائق مسألة إنكار المشاركة العثمانية هي باطلة، وتؤكد المصادر التاريخية كذلك؛ ففي جواب الإمام زين العابدين أبا عبد الله البكري للسلطان المنصور بعد مراسلة هذا الأخير إياه، متحدثا عن فضلهم (الأشراف) دون غيرهم من الخلافة في محاولة إحياء حلم الخلافة في المغرب، كان رد الشيخ يحمل بعض الإشارات حول مشاركة العثمانيين وقوتهم العسكرية بقوله: "ومصادره بإعراب كما

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، رقم 30، حكم 421، مصدر سابق.

² أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر مهم رقم 30، حكم رقم 945، مصدر سابق.

³ Henry de Casterie, Espagne, t III, P22.

⁴ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 30 حكم: 941، مصدر سابق.

دربوا مر أخلاف الحرب... يناصرهم من فتاك الأتراك كل قسور وقاسر جارين بذلك الجيش بحارا وسيولا¹. ويجب التوضيح هنا إلى أن الحديث كان عن معركة وادي المخازن التي تحدث عنها المنصور في رسالته، متغنيا ببطولات جيشه، متغافلا فضل العثمانيين.

ولتجنب الذاتية في هذه المسألة نود الإشارة إلى أن الإسطوغرافيا التركية الحديثة بالغت في تضخيم المشاركة العثمانية غافلة عن دور المغاربة أصحاب الأرض، حيث ترى بأن معركة واد السبيل كما تسميها كانت بقيادة عثمانية من جانب المسلمين، فالمولى عبد المالك حسبهم استند بالسلطان العثماني الذي أمر والي الجزائر بدعمه فورا²، وانطلاقا من هذا نؤكد أن عملية الدعم الطبيعية نظرا لطبيعة علاقة الدولة العثمانية بالمغرب الأقصى في هذه الفترة.

وفي نفس الإطار نتساءل عن حجم المشاركة العثمانية في المعركة، فحسب الاشارات السابقة كانت المشاركة برية وبحريا، فهناك اشارات تاريخية من مصادر إسبانية حول حجم القوات العثمانية، ففي رسالة من لويز إبيريرا إلى فيليب الثاني في 19 أوت 1578م جاءت كالتالي: "وكما جاء أن رئيس الفيلق التركي، قد نادى على الأتراك من الجزائر للمجيء والتدخل هناك في المغرب لأنها فرصة لإلحاق المغرب"³، وتشير المصادر التاريخية العربية أن رئيس الفيلق هو القائد محمد بن زرقون⁴.

بحيث كانت لرسالته (القائد بن زرقون) دور أو دافع للباب العالي لإرسال قواته التي تجسدت برية في فيلق خاص بالمدفعية أثناء المعركة بقيادة القائد العثماني رضوان⁵، وعن عدد عناصر الفيلق لم تحدد المصادر ذلك لكنها تشير إلى وجود ألف من العثمانيين المختصين في الرماية بالبنادق⁶، بحيث لم تشير إلى المدفعية، أما المصادر المغربية فنقول أن هناك فرق عسكرية عثمانية مشاركة بقيادة رمضان

¹ كنون، مرجع سابق ص 44.

² الميرالاي إسماعيل سرهنلك، حقائق الأخبار عن دول البحار، ج1، ط1، المطبعة الأميرية، مصر، 1312هـ/1894، ص 564.

³ بويقران، مرجع سابق، ص140.

⁴ قائد أندلسي بعد فشل ثورة المورسيكيين سنة 1569 فر إلى المغرب ثم عمل في جيش الغالب ثم توجه الى العثمانيين بالجزائر فأقام عندهم وعند بداية حملة المعتصم لاسترجاع ملكه، رافق عبد الملك في القسطنطينية قبل ذلك، ولما دخل هذا الأخير الى المغرب ولاه على تدبير وقيادة العساكر ينظر: الفشتالي، مصدر سابق، ص45.

⁵ أبو خليل، مرجع سابق، ص140.

⁶ جلول ابن قومار، " معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول أوروبا (البرتغال، اسبانيا، فرنسا 1578-1603)", رسالة ماجستير، جامعة غرداية، 2011، ص 74.

علج¹، وهو والي الجزائر رمضان باشا أما المصادر التركية تقول أن عدد الجيش بلغ ستين ألف جندي مناصفة بين العثمانيين والعرب بقيادة رمضان².

انطلاقاً من هذه الإحصائيات نستخلص أن المشاركة العثمانية برية كانت ممثلة في ثلاثة فرق:

1- الفرقة الأولى: وهي التي كانت أساساً في المغرب قبل بداية المعركة، والتي تشكلت من الذين أرادوا البقاء في المغرب بتقويض من الخلافة العثمانية سنة 1574، وكان قائدهم محمد بن زرقون الذي كان يوالي العثمانيين وهذه الفرقة كانت مجهزة ومدربة، لكن تعدادها بصفة رسمية لم يذكر في المصادر التاريخية.

2- الفرقة الثانية: وهي التي كانت تحت قيادة القائد رضوان وتتمثل في ألف من رماة البندقية.

3- الفرقة الثالثة: تمثل في فيلق المدفعية، والتي لم تقدم المصادر إحصائيات حولها.

وعموماً هناك تضارب في الأرقام حول حجم المشاركة والرقم الأقرب بعيداً عن التضخيم، هو ما قدمه الدكتور الغنيمي وهو خمسة آلاف جندي قدمت من الجزائر³، وهو رقم معقول حسب وجهة نظرنا إذا احتسبنا الفرق الثلاثة. أما بخصوص القوة البحرية الموافقة للقوة البرية، فقد ذكرت الكثير من الكتابات أن العثمانيون شاركوا بحرباً وأوقعوا خسائر كبيرة بالسفن البرتغالية⁴، حيث يقول المؤرخ الجنابي أن أترك الجزائر حسب وصفه قاموا بمهاجمة بعض القطع من أسطول سباستيان Sebastião، حيث كانت هناك وحدات عسكرية يقودها أمير البحر الرايس سنان تتربق في معسكرها بجبل القنديل وهو جبل بالقرب من طنجة، بحيث كانت تتربق القطع البحرية التي تركها سباستيان، لتهاجم هذه السفن موقعة خسارة تقدر بـ 35 سفينة من نوع كورفات courvet تم إغراقها وأسر سفينتين حربيين وعمارة صغيرة على متنها 425 بحار⁵. وبشهادة الجنابي الذي عاصر الأحداث تتأكد المشاركة البحرية العثمانية، أما بخصوص بخصوص مظاهر التأثير الأخرى على الأرض فقد تجسدت في عدة مظاهر وأهمها خطة المعركة المستوحاة من طريقة الهلال العثمانية، فهذه الخطة الحربية استخدمها هؤلاء في الكثير من الحروب

¹ الناصري، مصدر سابق، ص 86.

² أوزوتونا، مرجع سابق، ص 387.

³ الغنيمي، مرجع سابق، ص 172.

⁴ بيات، مرجع سابق، ص 608.

⁵ بن قומר، مرجع سابق، ص 30.

وكانت ميزة عسكرية خاصة بهم، حيث تم استخدامها في معركة كوسوفو سنة 1389م في عهد مراد الأول، وكذلك محاصرة فيينا في عهد سليمان القانوني¹.

وهذه الخطة أيضا كانت مستعملة لدى الجيش الجزائري في العهد العثماني وتشكل عموما ترتيب الفرق شكل قوسين أو هلال يسمح هذا التنظيم بفتح مساحة التي يشكلها القلب لمرور الفرسان قبل أن يطبق عليهم من الجناحين²، فالنقل العثماني العسكري من خلال هذه الخطة كان كالتالي: فرقة المدفعية في الصف الأول، وكذلك فرقة مصلحي الأسلحة عند الهجوم، ليشكل باشا الروميلي وباشا الأناضول جناحي الجيش، ويأتي بعدهم فرسان السباهية، بينما يقف الانكشارية في القلب ويتخذ السلطان مكانه خلفهم، لتتخذ قوافل التموين والعتاد المؤخرة مركزا لها³، وعند التطرق لخطة وادي المخازن نجدها مطابقة تماما مع الاختلاف في التسميات والتشكيلات، حيث كان في المقدمة فرقة الطوبجية، وعلى جناحي المدفعية فريق الرماة والفرسان، وبعد فرقة الطوبجية تأتي فرقة المشاة المكونة من ثلاثة صفوف، ليأتي بعدهم المولى عبد الملك محاطا بالرماة المشاة والفرسان وخلفهم كوكبة احتياط الفرسان عند الدعم والإسناد⁴، فهذا التقليد العسكري لم يكن معروفا من قبل الجيوش المغربية⁵.

أما فيما يخص المظهر الآخر فهو اللباس العسكري العثماني، والذي مثل هذا المظهر بصفة رسمية هو المولى عبد الملك الذي تزين باللباس العسكري الذي كان يرتديه سلاطين آل عثمان، فحسب رسالة أو شهادة طبيبه الخاص عند المعركة يقول: "قطب عبد الملك لباسه الحربي المزركش، ووضع على هامته عمامة صغيرة فوقها وسام به ثلاثة أحجار كريمة، وبخنجر من النوع نفسه، كان كذلك مرصعا باليواقيت والأحجار الكريمة على نمط ملوك الترك آنذاك"⁶، وتسمى حسب المؤرخ الجزائري أحمد

¹ بتروسيان، مرجع سابق، ص 46.

² خلاصي، مرجع سابق، ص 15.

³ يوسف عبد الكريم طه، المؤسسة العسكرية العثمانية دراسة تاريخية، ط 1، دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن، 2014، ص 120.

⁴ أبو خليل، مرجع سابق، ص 96.

⁵ المريني، مرجع سابق، ص 60.

⁶ أبو خليل، مرجع سابق، ص 96.

بن محمد بن سحنون الراشدي بجلتك عند العثمانيين¹. إضافة إلى هذه المظاهر هناك مسألة تاريخية يجب الإشارة إليها وهي حادثة وفاة المولى عبد المالك حيث ترجع بعض المصادر التاريخية إلى أن العثمانيين هم من قاموا بتسميته، لكن البعض يفند ذلك وعلى رأسهم المؤرخ الناصري الذي ذكر أن محمد المسلوخ هو الذي دس السم لعبد الملك²، وذلك نقلا عن المصادر البرتغالية.

لكن حقيقة ذلك جاءت في شهادة طبيب المولى عبد المالك اليهودي الذي رافقه أثناء المعركة، حيث جاءت رسالته إلى أخيه باللغة الإسبانية كالتالي: "فقد حدث في اليوم الثالث من وصولنا أن طعم الملك شيئا من السمك، وشرب الماء كثيرا، كما تناول قليلا من البطيخ فأتخمه ذلك وغلبه القيء الذي اعتبته حمى ومغص معوي، وكان هذا الوعك يعاوده من حين لآخر"³، مؤكدا أن هذه الوعكة هي التي كانت سببا في وفاته مع بقاء احتمالية تسممه قائمة، لكن دون اتهام العثمانيين، فكيف يقتلون من فتح لهم أبواب المغرب بذراعيه، وقام بعثمة بلاده حسب تقاليدهم وحضارتهم؟.

2-3- مظاهر التأثير العثماني على الحياة الفنية، الثقافية والاقتصادية.

2-3-أ- مظاهر تأثير فن العمارة العثماني على النمط المغربي:

2-3-أ-أ/ بناء العقود والقباب المثمنة الشكل:

الفن المعماري العثماني يمتاز بتأثيره الجمالي الذي تشكل أو تجسد أساسا في الأشكال الهندسية وأشكال تزيين المساجد والقصور البديعة، فالقبة المثمنة من مميزات الفن العثماني، فحسب الباحثين أخذها العثمانيون من فن العمارة الفارسي الساساني، وقاموا بإدخال تعديلات عليها مثل الشكل الهندسي المثمن⁴، حيث عمل المهندسين والمعماريين العثمانيين على إضافة المؤثرات الجمالية والدينية على هذه القباب، فالمعماري سنان باشا كان يرى أن القبة الكبيرة في المسجد تمثل رمزا للرسول صلى الله عليه

¹ تسمى عند العثمانيين "جلتك"، وهي عبارة عن حلية من ذهب على صفة يد بأصابعها مرصعة بالأحجار الثمينة تسمى عند الجزائريين بالريشة يضعونها على العمامة ولا تعطى إلا للأمرء الفاتحين لبلد من بلدان الكفار، وكذلك دلالة على مكانة ذلك الرجل لدى السلطان العثماني، وذلك اعلاء لقدره وإظهارا لعلاه. للمزيد انظر: أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تقديم وتحقيق المهدي البوعبدلي، اعتنى به عبد الرحمان دويب، ط1، دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 86، ص 493.

² الناصري، مصدر سابق، ص 83.

³ أبو خليل، مرجع سابق، ص 95.

⁴ بيرقدار، مرجع سابق، ص 169.

وسلم، فالقبة عنده بقيامها بانعكاس القرآن الكريم والأدعية التي تقال في الجامع على المؤمنين إنما هي مثل النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ الأوامر، والتناغم الموجود بين القباب الصغيرة والكبيرة في هذا المعنى يراعي الأرواح¹، حيث يقول الشاعر في وصف القباب:

القباب التي تحيط ببعضها كالعائلة الصغار فيها أبناء الكبار
كأسرة محاطة بأفرادها أمرائها أعشاش سعيدة للطيور والحمام².

وعلى ضوء هذا الوصف نستخلص أن الجانب الديني الإسلامي كان له دور في تخطيط الأبنية باختلاف أشكالها، وذلك تعبير عن تقاليد وأعراف الأسرة العثمانية المسلمة التي كانت تراعي الأحكام الإسلامية خاصة في أمور التزيين والزخرفة، فالشكل الهندسي الذي ميز القباب المثلثة يظهر في كثير من النماذج الهندسية، فمسجد السليمية في اسطنبول بنيت قبة على قاعدة مثلثة الأضلاع ومحمولة على ثماني دعائم، ليتطور بعدها هذا الأسلوب ويصبح هو التخطيط المتبع في تشييد المساجد والقصور لسنوات عديدة، واستمرت المدرسة المعمارية العثمانية من القرن الـ16 إلى القرن الـ18م في العمل بهذه التقنية³، فالقباب كانت جزء رئيسي وميزة البناء العثماني حيث كان لكل مسجد قبة رئيسية مرتفعة في وسط قاعة الصلاة، ومن ميزاتنا دائما هو الشكل المثلث الذي اتخذته أي مثلثة الزوايا، إضافة إلى تميزها بالاتساع والعلو وكانت تشكل من قبة رئيسية وقبب فرعية تابعة لها⁴.

وهذا الفن الهندسي العثماني انتقل من عاصمة الإمبراطورية إلى الأقاليم التابعة لها سواء في الشام أو الحجاز أو في المغرب العربي، فالجزائر كولاية عثمانية تأثرت بذلك حيث يقول المؤرخ المغربي أبو القاسم الزباني في وصفه لقباب مسجد كنتاوة: "دار بهذه القبة قبب على شكل منمق، كأنهن جدول موفق من ثنائي ورباعي وخماسي وسداسي وسباعي وقريص ومشجر، وقاطع ومقطوع ومسطر...وفوق من الأصباغ كل لون غريب وكتبوا أسماء الله وآياته وأنبياء الله وخلفاءه تعظيما بالذهب الإبريز الصيان

¹ عثمان طوباش نورية، العثمانيون رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة، ترجمة محمد حرب، د ط، دار الأرقم اسطنبول، 2016، ص447.

² نفسه، ص448.

³ نسيبة عبد العزيز الحاج علاوي، "المعماري العثماني سنان باشا 1485-1588"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد 17، العدد 02، العراق، 2010، ص29. (ص233-ص257).

⁴ محمد سيد، مرجع سابق، ص67.

وليس الخبر كالعيان¹، فمجاهدي مدينة الجزائر البحريين عملوا على تشييد منازلهم الضخمة وفق النمط الهندسي العمراني بآسيا الصغرى المتمثل في القباب الكبرى المثلثة الأضلاع التي تغطي المصليات وتحيط بها على الجهات الأربعة أروقة سقوف على شكل قباب صغيرة².

وهذا النمط وجد طريقه الى المغرب الأقصى الحديث من خلال بعض النماذج العمرانية، فالباحث المغربي ياسين حريش يصرح بتأثر الشكل الخارجي للعمران السعدي بنظيره العثماني³، أما المؤرخ المغربي إبراهيم حركات الذي خالف آراء المؤرخين الآخرين يقر بهذا التأثير ويقدم لنا بعض الإشارات ولو بصفة محتشمة، حيث يقول أن ضريح أول مقبرة للسعديين بمراكش تأثرت بذلك النمط من خلال ما تحمله من تعدد في العقود المرتبطة بالقببة⁴.

ومن خلال عملية البحث وجدنا أن أول مقبرة خاصة بالسلطين السعديين كانت تسمى بقبور قبة الأشراف، وقد تم إنشائها من طرف الأميرة عائشة بنت السلطان أحمد الأعرج، وهي (القببة) أهم ما يميز الضريح، فهي ذات تقسيم متعدد الزوايا ذو أضلاع ثمانية كما أنها مجردة على المستوى الخارجي من أي زخرف⁵، بحيث احتوت القببة على ضريح القائم بأمر الله والسلطان أحمد الاعرج، أما القببة التي تضم قبر السلطان أحمد المنصور والتي سمي عليها الضريح فقد جاءت هندستها مربعة الشكل قائمة على اثني عشر عمودا، وتتجلى ملامح التأثير العثماني عليها كما أشار إبراهيم حركات في تعدد العقود المترابطة من كل الجوانب الأربعة المحيطة بالقببة وهي عقود منكسرة حدوية، إضافة الى وجود نوافذ زجاجية ملونة

¹ ملكية برواق، الحسين زاوي، "البعد الجمالي للعمارة العثمانية بمدينة الجزائر، دراسة معمارية، أثرية وجمالية لجامع كتشاة"، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، المجلد 02، العدد 02، الجزائر، 2017، ص 235. (ص 227- ص 242).

² خير الدين شترة، "النشاط البحري للأسطول الجزائري خلال العهد العثماني"، ملتقى دولي: "الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحربا"، انعقد يومي 07-08 ديسمبر 2009، جامعة الجزائر 02، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط الى نهاية العهد العثماني، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية.

³ ياسين حريش، "الدولة السعدية: تجليات السلطة والدين والمجتمع"، مجلة ليكسوس العدد 25، يونيو 2018، ص 48. (ص 38-ص 54).

⁴ حركات، المغرب عبر التاريخ، ج 2، مرجع سابق، ص 385.

⁵ سمير آيت أمغار، "تاريخ مقبرة الأشراف السعديين بمدينة مراكش من العهد الموحي الى سنة 1557"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد 100، 2017، ص 103. (ص 86 - ص 115). للمزيد أنظر:

Almela legorbure, « استصلاح مدينة مراكش: مجمعان دينيان في العهد السعدي », en anquel de estudios arabs, n31, 2020, p31. (pp27-53).

على الجدارين تسمح بمرور الضوء والمقبرة هي جزء من قصبة مراكش التي جدها السلطان أحمد المنصور وملاصقة لقبلة مسجد جامع المنصور¹.

الشكل 01: صورة لقبلة ضريح مراكش المسماة قاعة الاثني عشر عمودا تظهر تعدد العقود

المرتبطة بالقبلة.



الصورة 2: قاعة الاثنا عشر عمودا بمقبرة السعديين (تصوير سمير آيت أمغار)

المصدر: سمير آيت أمغار، "جوانب من تاريخ مقبرة الاشراف السعديين بمراكش في النصوص

والوثائق التاريخية"، مجلة هيسبريس تامودا، العدد الثاني، 2017، ص 249.

وفي إطار الحديث عن العقود المرتبطة بالقبلة، والتي تتسم بالانكسار نلاحظ أن مدينة الجزائر العثمانية في تلك الفترة زخرت بالكثير من تلك الأشكال في قصورها ومساجدها، فهي تعتبر بوظيفتها وسمتها الجمالية من أهم العناصر التي كان لها الفضل الكبير على العمائر العسكرية والدينية والمدنية على السواء لكونها عنصرا معماريا يوفر للمبنى القوة والارتكاز من خلال توزيع ثقل السقف على

¹ سمير آيت أمغار، "جوانب من تاريخ مقبرة الأشراف السعديين بمراكش في النصوص والوثائق التاريخية"، مجلة

هيسبريس تمودا، العدد 02، 2017، ص 259. (ص 85- ص 231).

الدعامات والجدران إضافة لكونها عنصرا جماليا لتزيين واجهات المباني¹، ومن أهم العقود الشائعة آنذاك العقد المنكسر الحدوي الذي تتم طريقة بنائه من خلال وضع قطع البناء أفقيا بدون ميل حتى منتصف العقد تقريبا، وفوق آخر قطعة توضع عارضة خشبية تصل الطرفين وتتطلق من طرفيها عارضتين أخيرتين تلتقيان عند مفتاح العقد مكونة بذلك مثلثا²، فالمعماري العثماني سنان باشا أظهر ذكائه في إقامة القبة الضخمة على ثمانية أكتاف وفي الإكثار من فتحات النوافذ من أجل تخفيف ضغط البناء، فالمساجد العثمانية تميزت بتعدد القباب التي تعتمد على قبة رئيسية تغطي الجزء الأكبر من البناء تحيط بها مجموعة من الجوانب مجموعة قباب أو عقود معمارية³، وهو ما يلاحظ في ضريح السعديين بمراكش.

ومن هذا المنطلق نستنتج أنه إضافة الى العناصر الهندسية المحلية لضريح الأشراف السعديين وكذلك العناصر الأندلسية والأوروبية تتجلى العناصر العثمانية في شكل القبة المثلثة بالنسبة لضريح سيدي سليمان الجزولي والقائم بأمر الله، وكذلك تقعد العقود وترابطها بالقبة بالنسبة لضريح السلطان أحمد المنصور، وهي عناصر كانت شائعة في الأقطار العثمانية آنذاك وميزة خاصة بهم.

2-3-أ-ب/ الصوامع المثلثة والأقواس والنوافير والقلاع:

إضافة إلى القباب تعتبر الحدائق والنوافير من الأساسيات الجمالية لفن المعمار العثماني، فالجوامع والمساجد والقصور كانت تحاط بحدائق ونوافير⁴، وهذه التصاميم كانت جزء من عملية التفاعل العثماني المغربي، الذي كان بدوره يتميز بالتنوع والثراء جراء الامتزاج بالتشكيلات الهندسية الخارجية بين ما هو أصلي وما هو آت من الشرق كالطرز المعماري الفرعوني من خلال النقوش والرسوم على تماثيل الحيوانات، وكذلك التأثير الروماني المتمثل في الأقواس والبيزنطي المتمثل في الفسيفساء، والإسلامي الذي يظهر في نقوش الخشب على الأبواب والزليج⁵، وانطلاقا من ذلك نقدم نموذج يشير إلى ذلك

¹ رافع محمد، "العقود في عمائر مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية تقنيات الرسم والبناء"، مجلة العلوم الاسلامية والحضارة، المجلد 01، العدد 04، 2016، ص 244. (ص 243-ص 264).

² نفسه، ص 259.

³ أحمد عبد الوهاب الشرقاوي، الفنون والآداب، د ط، دار أمواج للنشر والتوزيع، الأردن، 2015، ص 102.

⁴ نفسه، ص 10.

⁵ محمد القاضي، "القلاع والقصبات في المغرب"، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 40، البحرين، 2020، ص 15، تم الاطلاع على المقال يوم: 15-12-2020، على الساعة: 13:20، على الرابط التالي:

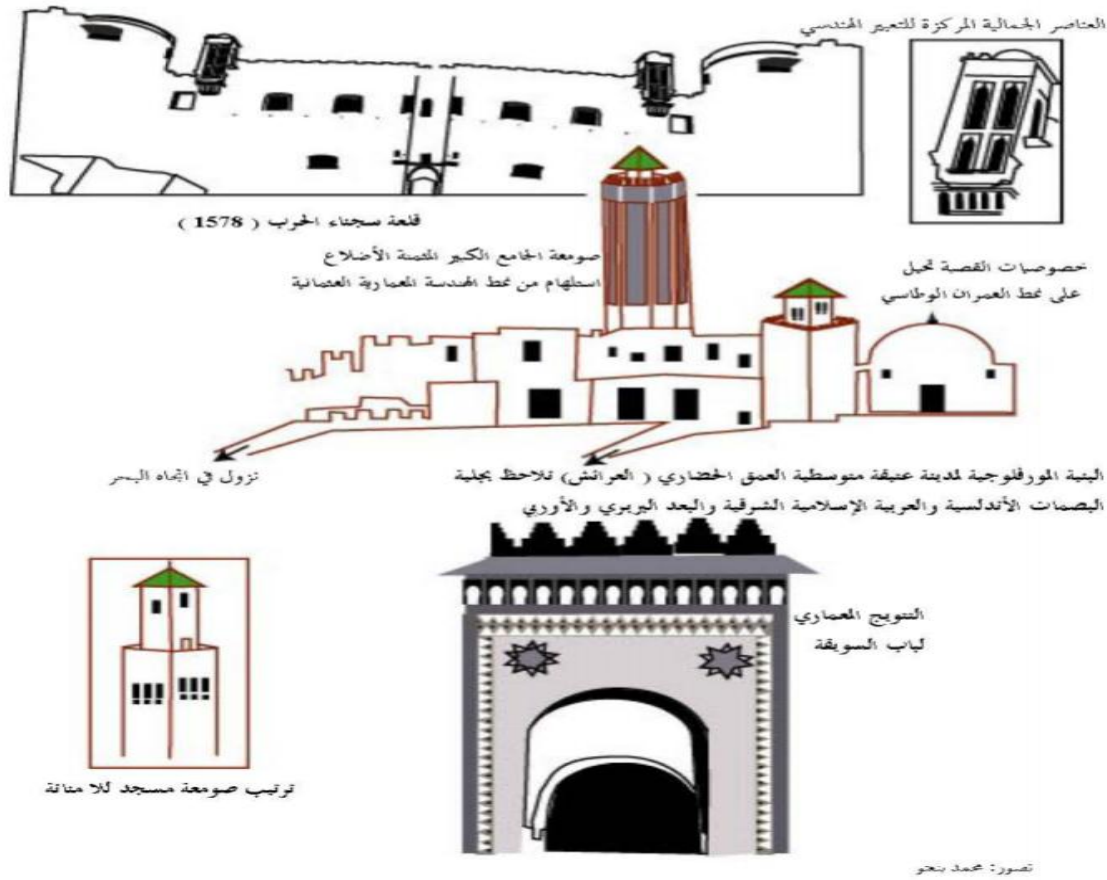
التفاعل، فهندسة صومعة الجامع الكبير بالعرائش مستلهمة من نمط الهندسة العثمانية، وكذلك التتويج المعماري للأبواب، أي وضع أشكال على شكل تيجان على أبواب الجوامع والقلاع، فصومعة الجامع الكبير جاءت ماثمة الأضلاع وشاهقة، كما تظهر هندسة قسبة مدينة العرائش إلى تأثرها بالنمط العثماني وخاصة في الأقواس والارتفاعات¹، وكذلك صومعة المسجد الأعظم بشفشاون الذي بني سنة 1568/968 من طرف محمد بن علي بن راشد، وقد عرف عدة عمليات توسيع وإصلاح في العهد السعودي والعلوي ففي القرن التاسع عشر ميلادي تم بناء الصومعة الحالية الماثمة الشكل ما بين (1840-1842)².

ويجب التذكير هنا إلى أن مدينتي العرائش وشفشاون كانتا إحدى محطات انتقال الفنون العثمانية إلى المجتمع المغربي جراء الاحتكاك المباشر بين العثمانيين الوافدين إلى المدينة سواء في إطار التجارة أو الجهاد البحري.

¹ بنعتو، مرجع سابق، ص 20، 19.

² فاطمة بوشمال، " شفشاون: حاضرة شريفة بلامح أندلسية وقسمات جبلية"، مجلة المناهل، العدد 98، 2020، ص 137. (ص 121- ص 148).

الشكل 01: مسجد الجامع الكبير بالعرائش. المغرب.



المصدر: محمد بنعتو، "الموروث الإنساني الهندسي أو التراث المتعدد القيمة الرمزية والدلالة-حالة مدينة العرائش المغرب"، مجلة انسانيات، العدد 2003، 04، ص 19.

فالصومعة المثلثة الزوايا حسب الباحث جون لوي مبيج التي انتقلت من ولاية الجزائر العثمانية إلى المغرب عوضت الصومعة التقليدية في شمال إفريقيا عامة والمغرب الأقصى خاصة، والمعروفة بشكلها المربع¹، إضافة إلى هذه الأنماط هناك نمط هندسي آخر عثماني وجد أثره في المغرب وهو هندسة القلاع حيث تعتبر قلعة سجناء الحرب التي بناها السعديين في مدينة العرائش أهم معالم ذلك الاحتكاك، من خلال مظاهر تنويج الأبواب وشرفات القلعة، وكذلك الهندسة في حد ذاتها حيث كانت واجهة القلعة

¹ جون لوي مبيج وآخرون، تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية، ترجمة مصطفى غطيس، ط1، دار أطوبريس، المغرب،

البحرية شمالا مطلة على البحر وهي من ميزات الفن العثماني¹، فما هو معروف أن العثمانيين المتواجدين في ثغور المغرب الساحلية آنذاك في إطار عمليات الجهاد كانوا يشرفون على الموانئ والمراكز العسكرية فدار الصناعة في سلا كانت تحت قيادة الأتراك العثمانيين الذين كانوا يشرفون على موانئها وسفنها ويعلمون المغاربة الطبقية أي الرمي بالمدافع، وبالتالي القيام بالتحصينات العسكرية أمر ضروري بالنسبة لهم².

2-3-أ-ج/ مقارنة فنية هندسية معمارية بين قصر طوب قابي وقصر البديع:

لتجسيد وإبراز ملامح التأثير الفني أكثر سنقوم بمقارنة فنية بين هندسة قصر طوب قابي سراي بإسطنبول وقصر البديع بمراكش، حيث يعتبر القصر الأول من أكبر قصور مدينة إسطنبول، ومركز إقامة سلاطين الدولة العثمانية لأربعة قرون (1465-1856م) ويتألف من أربعة مباني أو أفنية رئيسية وعدد من المساكن مثل المطابخ السلطانية، مسجد ومستشفى وغيرها، ويقع القصر في منطقة سراي بورنو على بحر مرمرية ويطل على نهر البوسفور، بحيث كان يمثل مقر سلاطين الدولة العثمانية³. ففي الجانب الجمالي يتميز القصر بحديقته الخشبية الجميلة كما يحتوي على مكتبة كبيرة ومعرض للأزياء الملكية أما في عمق هذا الحرم فهناك مقمورة العبادة الكريمة التي تحفظ الآثار المقدسة الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم، ويحتوي القصر على مقر الديوان الذي كان يقام تحت صالة الاجتماع وهي عبارة عن قبة كبيرة، إضافة إلى قسم الحرملك وغرفة العرض المخصصة للاستقبال⁴.

وعن الانبهار المغربي بهذا التصميم الهندسي والبعد الجمالي لقصر طوب قابي ينقل لنا المؤرخ التمقروتي جزء من ذلك أثناء زيارته لإسطنبول في بعثة دبلوماسية مغربية رسمية بقوله: "ومنزل السلطان محلته قباب وأروقة وسرادقات بديعة المنظر، عجيبة الشكل، قد قامت أفنية كأنها التيجان المنصبة وله قصر مسمر بمسامير... وفي داخله قباب ملونة كأنها أزاهير الأرض"⁵. وأمام هذا الإعجاب والجمال نتساءل كيف تعامل المغاربة مع الأمر هل اقتبسوا مما رأوه وقلدوه على قصورهم؟ هذا الجواب يظهر في

¹ بن عتو، مرجع سابق، ص 16.

² الدكالي، مصدر سابق، ص 78.

³ المحرر الثقافي، "قصر طوب قابي، التنوع الثقافي في الدولة العثمانية"، مجلة فكر الثقافية، العدد 16، 2016، ص 18، (ص 110-115).

⁴ نفسه، ص 20.

⁵ التمقروتي، مصدر سابق، ص 25.

وصف هندسة قصر البديع في مراكش الذي يعتبر حسب المغاربة من عجائب الدنيا لذلك ما هي مظاهر ذلك الاقتباس الفني والجمالي؟.

تعتبر قصبة مراكش التي جدها السلطان المغربي المنصور الذي عاش فترة في اسطنبول مدينة في حد ذاتها "مدينة سلطانية" وهي تقع في جنوبي مراكش ومن أهم مميزاتها:

- تظم مقر المنصور وحاشيته المتمثل في قصر البديع.
- توفر الحدائق التي تحيط بالقصر بجانبه الشرقي والغربي.
- تحتوي على مسجد كبير ودار الديوان مقر اجتماع السلطان بالأعيان.
- يحتوي على عدة أبواب أهمها باب اكناو¹.

فقباب قصر البديع قد أخذت عن التصميم العثماني حسب تصريح المؤرخين المغاربة خصوصا وأن هذا القصر لم يتم بناؤه إلا بعد زيارة المنصور قبل أن يتولى العرش لإسطنبول ومكوته هناك فترة من الزمن رفقة أخيه المتوفي المولى عبد الملك طالبين من السلطان العثماني مساعدتهم في استرجاع حكم المغرب الذي سلبه منهم ابن أخيه السلطان عبد الله الغالب دون وجه حق². وبالفعل قام الخليفة العثماني سليم الثاني باستقبالهم، وخصص لهم جناح في قصر طوب قابي لإيوائهم طيلة مدة مكوثهم هناك، ليقرر بعدها مساعدتهم، وبذلك عادوا إلى المغرب الأقصى رفقة الجيش العثماني ومنذ ذلك الحين بدأت عملية التفاعل بين الجانبين بصفة رسمية، وخاصة في عهد المولى عبد الملك أما المولى أحمد المنصور واصل على نفس النهج لكن بحذر فقد عمل على مزج التصميمات العثمانية بالمحلية.

لكن رغم هذه الحقيقة التاريخية التي ذكرها المؤرخين وعلى رأسهم المغاربة المعاصرين للأحداث أمثال عبد العزيز الفشتالي الذي يقر بحقيقة قيام المولى عبد الملك بالاقتباس من العثمانيين لكنه في المقابل يهبط الطرف عن اقتباسات المنصور، ففي وصفه لقصر البديع لم يقدم ولا إشارة عن التأثير العثماني رغم ذكره للتأثيرات الأوروبية والأندلسية وغيرها، أما المعاصرين أمثال عبد الهادي التازي وغيرهم فقد ساروا على نفس النهج، وعلى ضوء هذه الآراء نحاول أن نستخلص مظاهر وملامح هذا التأثير بناء على معطيات تلك الفترة وبعض الإشارات التاريخية، وعلى هذا الأساس لاحظنا أن ملامح التأثير تتجلى دائما في بناء القباب المتعددة في القصر التي كانت موضحة عثمانية معمارية في تلك الفترة، فتصميم القصر أشرف عليه السلطان أحمد المنصور بنفسه.

¹ القاضي، مرجع سابق، ص 15.

² حركات، ج 02، مرجع سابق، ص 385.

فالمميزات الأولى التي تلاحظ لهذا القصر هي كثرة القباب التي تحمل أسماء جميلة وأوصافا دالة فمنها قبة النصر، قبة التيجان، قبة الذهب، القبة الزجاجية والقبة العظمى التي أمر السلطان المغربي بتخطيطها لاستقبال الوفود الأجنبية، حيث تجاوزت العشرون قبة كل قبة متحف قائم بحد ذاته¹، ومن أبرز هذه القباب قبة الخمسينية التي ذكرها المؤرخ الفشتالي، بحيث تبرز هذه القبة بسقفها البالغ أقصى مبالغ الجفوة والضخامة حسبه يملك الدهش الناظر إليها نظرا لعلوها وكبر حجمها²، وكذلك القبة الزجاجية التي تقابل الخمسينية في الجهة الغربية للقصر، وهي على مساحة 240 متر مربع، وقد علا سقفها قطع من الزجاج (الكريستال) الملون، فإذا أشرقت الشمس عليها انعكست تلك الألوان داخل القصر³، وكما هو معلوم أن بناء القباب الكثيرة في المعمار المغربي لم تكن بهذا الشكل من قبل في العهد الموحي والمرابطي وحتى في المعمار المغربي الأندلسي، صحيح كانت القباب موجودة ولكن بدرجة قليلة جدا في المبنى ولم تكن بذلك الارتفاع والاتساع؛ إذا فمن أين جاءت تلك الأنماط إن لم تكن تفاعلا عثمانيا؟.

فمن خلال هذا الوصف لقصر البديع نستنتج أن ملامح التأثير العثماني وبصفة أدق تكمن في تعدد القباب وارتفاعها وكبر حجمها كما كان شائعا في عاصمة العثمانيين، وهو ما تبرزه قبة الخمسينية، كما يظهر التأثير كذلك في القبة الزجاجية، حيث لم يكن شائعا لدى المغاربة استعمال القباب الزجاجية قبل هذه الفترة بل كان هذا النمط شائعا لدى العثمانيين، فالمعماري سنان باشا كان قد عمل على التغلب على مشكلة الضوء داخل العمارة من خلال تحويل الجدران والقباب لسلسلة من النوافذ العالية، ثم يحيلها إلى سلسلة من الزجاج الملون بأشكال فنية باهرة فيتحول المسجد من الداخل إلى سيمفونية لونية رائعة⁴. أما بالنسبة إلى تعدد القباب وارتفاعها فقد كانت الغاية من ذلك هي التغلب على مشكلة الضوء فسنان باشا كان يستكثر منها خصوصا في المساجد والأبنية ذات المساحات الكبيرة فأحيانا تغطي القبة

¹ عبد الهادي التازي، قصر البديع بمراكش من عجائب الدنيا، د ط، مطبعة فضالة، المغرب، 1977، ص 05.

² الفشتالي، مصدر سابق، ص 256. للمزيد من المعلومات والصور حول قصر البديع ينظر:

Antonio Almagro, "Análisis arqueológico del pabellón occidental del palacio al-Badi' de Marrakech", Arqueología de la Arquitectura, 2013.

تم الاطلاع عليه يوم 2020-12-15، على الساعة: 01:30، على الرابط التالي:

<http://dx.doi.org/10.3989/arq.arqt.2013.002>

³ التازي، (قصر البديع بمراكش...)، مرجع سابق، ص 11.

⁴ عبد السلام البسيوني، مدهشات من الدولة العلية العثمانية ومساجدها، موقع رابطة العلماء السوريين، تم الاطلاع عليه يوم: 2020/10/14، 17:15، ص 51، على الرابط التالي:

https://islamsyria.com/site/show_library/927

المسجد كله وأحيانا يتحول السقف إلى قباب ففي العمارة العثمانية للمسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف عدد من القباب الصغيرة بامتداد القبة قبلها وبعدها لأنها كانت تمثل منفذا لرد الصوت الذي يصوت به الإمام أو الخطيب أو المؤذن قبل ظهور مكبرات الصوت¹، وبذلك تكون قد تخطت النمط الهندسي القديم في التغلب على مشكلة الضوء والصوت فالطرز القديم كان يقوم على ترك مساحات وسط المسجد غير مسقوفة، وتحيط به الأقواس تسمح بمرور الضوء داخل المسجد أو البناء وهذا النمط كان شائعا في مصر وبلاد المغرب العربي وعلى وجه الخصوص المغرب الأقصى.

إضافة لذلك قصر البديع يتلاقى مع قصر طوب قابي في صفات هندسية أخرى فمن حيث التخطيط الفكرة اقتبسها المغاربة من النمط العثماني فتخطيط القسبة الجديد وما احتوته من دار الاستقبال ومقر الاجتماع، وكذلك الأبواب والقباب تشبه إلى حد بعيد تخطيط قصر طوب قابي، ولإبراز الأمر أكثر نجد أن المنصور قام بتشديد وادي اصطناعي يربط البركة الاصطناعية الموجودة داخل القصر نظرا لبعده مراكش عن البحر وذلك لمحاكاة قصر طوب قابي المطل على بحر مرمرة ومضيق البوسفور حيث كان يسبح في هذه البركة صيفا ويركب فيها فلكا في الشتاء حسب وصف الكتابات المغربية²، إضافة إلى ذلك نود التأكيد على أن التأثيرات الفنية العثمانية في مجال العمران ظهرت مع العصر السعودي في القرن 16م وخاصة في فترة السلطان عبد الملك الذي عمل على عثمة المغرب الأقصى في شتى المجالات ومنها الفنون التي وجدت طريقها إلى المجتمع المغربي، وعليه قصر البديع كنموذج معماري مغربي يمثل مركز التقاء وتجانس للعناصر المحلية الموروثة عن المرابطين والموحدين مع العناصر القادمة من الأندلس والمشرق مشكلا نموذجا فريدا ومميزا للعمارة المتوسطية المتأثرة بمجالها الجغرافي.

وعموما فن الهندسة المعمارية الإسلامية باختلاف مشاربه وتنوعاته سواء المغربي أو العثماني أو الأندلسي يلتقيان في نمط هندسي واحد رغم اختلاف التصاميم والأشكال والسبب في ذلك يعود إلى وحدانية العقيدة ووحداية الثقافة التي تجعل منهم نمطا واحدا في التعبير الفني عن جوهر الحضارة الإسلامية ورسالتها الخالدة المتمثلة في التوحيد³.

¹ البسيوني، مرجع سابق، ص 53.

² ملين، مرجع سابق، ص 160.

³ إدهام محمد حنش، نظرية الفن الإسلامي المفهوم الحالي والبنية المعرفية، ط1، المعهد العالي للفكر الإسلامي، الو. م.

2-3-ب- تأثيرات الفنون العثمانية على نمط الفنون الحرفية والفنون الاحتفالية في المغرب الأقصى: 2-3-ب-أ/ فن الطرز:

يعرف فن الطرز العثماني بجماليته وإبداعه الذي ذاع صيته في كل أنحاء العالم، فهذا الفن ازدهر في جميع أقاليم الدولة العثمانية، حيث كانت تتعلمه الفتيات لتطريز ما يحتجن إليه من أقمشة جهازهن سواء الأسر الغنية أو الفقيرة، لذلك شاع التطريز واعتبر فن وزخرفة النسيج بعد أن يتم نسجه بواسطة إبرة الخياطة NEEDLE بخطوط ملونة من مادة أعلى من مادة القماش¹، فالمرأة في العهد العثماني كان لها اهتمام كبير بهذا الفن حيث تفوقت على كثير من الصناع لا سيما ما يتصل بمطرزات ملابس الرأس والمحارم اليدوية وكذلك تطريز السترات والقفاطين الخاصة بالرجال والنساء، إضافة إلى الأبسط والأفرشة والوسائد².

حيث كانت المواد الأساسية المستخدمة في فن الطرز تتكون من ثلاثة عناصر أساسية وهي: الكتان Flax، الحرير Silk، والقطن Cotton، وكذلك استخدام الخيوط الحريرية والذهبية في التطريز³. وتتجلى مظاهر فن الطرز العثماني في زخرفة المناديل Kerchiefs التي تعتبر من علامات الأناقة في المجتمع العثماني إذ حرص السلاطين على الإمساك بها في المراسيم والاحتفالات الرسمية كما اعتبرت من شارات الحب والعشق، إضافة إلى استخدامات أخرى، وكانت تصنع من القطن، الكتان أو الحرير وكان التطريز في شكل إطارات ضيقة تشغلها زخارف نباتية والتي عرف بها الفن العثماني، إضافة إلى المناشف Long Serviette والتي أبدع العثمانيون في زخرفتها بتصاميم مستوحاة من المحيط النباتي من خلال رسم الأزهار باختلاف أشكالها على المنسوجات (زهرة الياسمين، سنابل)⁴.

¹ هند علي محمد سعيد، " الزخارف النباتية المطرزة على المناديل والمناشف العثمانية المحفوظة بمتحف فيكتوريا والبرت بلندن خلال القرنين 12-13هـ/18-19م دراسة فنية أثرية"، مجلة دراسات وابحاث، العدد23، مصر، 2016، ص04، (ص104-ص126).

² شريفة طبان، " فن التطريز الحريري بمدينة الجزائر في العهد العثماني"، مجلة آثار، العدد06، الجزائر، 2007، ص181. (ص119-ص126).

³ هند سعيد، مرجع سابق، ص05.

⁴ نفسه، ص07.

ونظرا لسمعة هذا الفن فقد أقتبسه المغاربة وجعلوه مقام فنونهم، حيث أصبح فن الطرز المغربي يحاكي نظيره العثماني في كل التفاصيل، فكان التطريز يتم على الحرير أو على الأطلس، ويتميز بالرسوم الزهرية التي يمكن أن نجدها على الحرير أو التخشيب بحيث وصل هذا الفن عبر ولاية الجزائر، وامتد الاقتباس كذلك على فن الصياغة حيث اقتبس الصياغ في سلا وفاس والرباط أشكال التتميق على المجوهرات وفن الأعمال المنزلية¹. وتظهر ملامح ذلك التأثير جليا في قصور السلاطين المغاربة، ففي عهد السلطان أحمد المنصور كان الطعام في المناسبات يقدم في الأواني العثمانية المعجبة، وكانت المناشف المبرزة والمناديل المطرزة ضمن طاولات الطعام².

كما تجلت مظاهر ذلك التأثير كذلك في الأزياء العثمانية الفاخرة التي تعتبر من أهم مميزات الأشراف في المجتمع المغربي فالزي العثماني كان حاضرا في المناسبات الرسمية التي كانت أيام حكم المنصور فأثناء حلول سفارة ملك إسبانيا إلى المنصور الذهبي سنة 1579 ارتدى القائد رضوان الذي استقبلهم وبمعيته عشرون من قواد المملكة الرئيسية وهم جميعا بالزي التركي حسب وصف المؤرخ حركات³، ومن نماذج تلك الأزياء يوجد القفطان ويسمى باللغة العربية الخلعة و Hilat بالتركية، وكان يرتديه السلاطين والقادة والولاة في العهد العثماني⁴، وهو من أصل فارسي ويسمى بالخفتان وتصميمه كان يعلو القباء ويصل إلى منتصف الساقين وله كمان قصيران ومققول على الصدر بأزرار وقياطين، استعمله ملوك الفرس واقتبسه العثمانيين وطوروه ليصبح من فنونهم البديعة⁵، وهذا اللباس شاع واشتهر في العهد السعودي حسب تصريح المؤرخ إدريس بوهليلة⁶.

¹ مبيج وآخرون، مرجع سابق، ص 49.

² التتمقوتي، مصدر سابق، ص 143.

³ حركات، ج 02، مرجع سابق، ص 332.

⁴ صابان، مرجع سابق، ص 152.

⁵ رعد مطر الطائي، "أثر الفنون الأوروبية على التصوير الإسلامي دراسة وتحليلية تاريخية"، د ط، دار النشر للجامعات، د ت، ص 227. للمزيد أنظر: هالة ياقوت: "الزي المصري عبر العصور"، المجلة العربية، العدد 524، 2020، مصر، ص 06

⁶ إدريس بوهليلة، الجزائريون في تطوان خلال القرن 13هـ/19م، ط 01، مطبعة الهداية، تطوان، 2012، ص 127.

إضافة إلى القفطان العثماني يوجد كذلك الجبدور أو الجباضولي نسبة إلى بلاد الأناضول وهو كسوة ولباس عثماني دخلت صناعتها إلى المغرب في القرن 16م¹، وقد اعتنى المغاربة بالملابس ذات الأصل العثماني نظرا لتوافد العثمانيين على المغرب وقد نالت هذه الملابس إعجاب المولى عبد الملك الذي اتخذها زيا خاصا به، وفي عهد المنصور لبس الجند والبحارة والخدم كسوة المحصور التركية حسب تصريح الباحث المنتفع المزخرفة ذات السروال الفضفاض والصدريّة المزركشة التي تسمى الجبدور رغم أنه اتخذ زي القفطان زيا خاصا به ليقتبس منه فيما بعد لباس المنصورية الذي يحاكي القفطان العثماني²، والجبدور لباس "منعرج الوسط إلى منتهاه ضيق الكمين، ثم يلبسون فوقه نوعا منه بدون كمام يسمى الجوخة"³.

كما شاع في المغرب لباس العمامة العثماني، وكان أول من لبسه المولى عبد الملك السعدي "...وسمعنا أنه تزين بزّي الأورم في اللباس والعمامة ولبس الطرطور الأحمر وهو غير ما يعهده أهل تلك البلاد"⁴، فأثناء معركة وادي المخازن لبس عبد الملك عمامة فوقها أحجار كريمة تسمى عند العثمانيين "جلنك" وهي عبارة عن حلية من ذهب على صفة يد بأصابعها مرصعة بالأحجار الثمينة تسمى عند الجزائريين بالريشة يضعونها على العمامة وهي لا تعطى إلا للأمراء الفاتحين لبلد من بلدان الكفار⁵.

ويبدو أن عبد الملك كان يحاكي لباس السلاطين العثمانيين في الحروب فالسلطان العثماني مراد الثالث كان يرتدي خلال الأحداث العسكرية عمامة مزينة بالجواهر وكذلك السيف المرصع باليطغان yatghan⁶، فالتمقروتي ينقل لنا وصفا لعمامة السلطان العثماني أثناء زيارته بقوله أن اللباس الذي يرتديه السلطان العثماني وحاشيته أثناء انعقاد الديوان فوق رؤوسهم عمامة تختلف في حجمها من

¹ عبد العزيز بن عبدالله، تطوان عاصمة الشمال ومنبع إشعاعه، د ط، منشورات جمعية تطاون أسمير، المغرب، 2005، ص118.

² محمد المنتفع، "الألبسة المغربية وموضة العصر الحديث"، مجلة مدارات تاريخية، المجلد 01، عدد خاص، 2019.

³ أبو العباس أحمد الرهوني، عمدة الراويين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، ج02، ط02، مطبعة أطوبريس، المغرب، 2020، ص183.

⁴ بن قومار، مرجع سابق، ص68.

⁵ الراشدي، مصدر سابق، ص86.

⁶ إدوارد شيفورد كريسي، تاريخ الأتراك العثمانيين، ترجمة أحمد سالم سالم، ط01، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، قطر، 2019، ص223.

صاحب الرتبة الأعلى إلى صاحب الرتبة الأسفل¹، وهو الحال في المغرب حيث كان الخاصة لباسهم الحريري كما كانوا يغطون رؤوسهم بطواقي (الطرطور) أو قلاسن وكانت نعالهم عالية²، إضافة إلى اللباس انتشرت صناعة الزرابي العثمانية الفاخرة والمطرزة في نواحي المغرب على يد الطبقة الشعبية ومن النساء خاصة³، وكذلك اشتهر فن النحت العثماني الذي تجلى في صناعة الأواني الفضية والنحاسية.

2-3-ب-ب/ فن الطبخ:

نظرا للتفوق العثماني الحضاري رافقه ازدهار مختلف الفنون ومن بينها فن الطبخ سواء الأكلات أو المشروبات، وعلى إثر ذلك اشتهرت الكثير من الأطباق والأكلات التي وجدت طريقها الى المجتمع المغربي ومن ذلك أكلة البسطرمة التي تتكون من اللحم المقدد⁴ مع التوابل من لحم العجل، وكذلك البوراك أو البورك وهو على شكل عجينة محشوة باللحم المقدد، حيث اشتهرت في ولاية الجزائر رفقة الكفتة والبسطرمة وكذلك الدولمة، الشورية، الشاريات وهي أكلات عثمانية، انتقلت إلى المغرب⁵، إضافة لذلك هناك أكلة البشماط التي كانت ولا زالت سائدة بين أعراف المغاربة الغذائية وهي نوع من الأغذية التي تنقل كزاد أثناء السفر لأنها تحافظ على مذاقها لمدة شهر⁶، وهو نوع من الخبز الذي يتزود به المسافر في العهد العثماني ويسمى في الأصل بالبسماط⁷.

إضافة إلى الأكلات وجدت القهوة العثمانية أيضا طريقها الى المجتمع المغربي وأصبحت من عاداتهم اليومية، انتقلت إليهم عن طريق السفراء العثمانيين، حيث كان يستعملها الناس بكثرة في حوالي القرن 18م⁸، وكانت القهوة من المشروبات التي انتشرت بفضل العثمانيين في جميع أنحاء الإمبراطورية من دمشق حلب والجزائر عام 1532م، حيث وصف الرحالة الإيطالي بييترو ديلاقال Pietro Dellavalle عادة شرب القهوة في العهد العثماني بقوله: "إن الأتراك يشربون مشروبا أسود اللون منعشا في الصيف ويدفئ الجسم في الشتاء ويقويه، يحتسى ساخنا، ويشربونه على شكل جرعات طويلة، بعد الانتهاء من

¹ التمقروتي، مصدر سابق، ص 100.

² المنتقع، مرجع سابق، ص 210.

³ حركات، ج 02، مرجع سابق، ص 312.

⁴ بلفيس شرارة، الطباخ ودوره في حضارة الانسان، ط1، دار الهدى للثقافة والنشر، العراق، 2012، ص 337.

⁵ Mohamed Ben Chenab, les mots Turks conserviez dans la parles Algérie, 1922, p15.

⁶ التازي، مرجع سابق، ص 316.

⁷ حلاق، صباغ، مرجع سابق، ص 42.

⁸ بن عبدالله، (تطوان عاصمة الشمال ومنبع...)، مرجع سابق، ص 130.

الطعام، كما يحتسون القهوة بشوق ولذة عندما يتحدثون مع أصدقائهم وليس هناك أي اجتماع يحدث دون تقديم القهوة، تقدم في أفداح على شكل كاسات صغيرة من الخزف من قبل رجال مختصين بعملها¹.

2-3-ب-ج/ الفنون الاحتفالية "موكب الشموع":

تعد الاحتفالات من الفنون والإبداعات الجمالية فلكل أمة طريقتها الخاصة في إبراز موروثاتها، حيث تزدهر تلك المورثات الثقافية أينما وجدت البيئة الخصبة والمزدهرة، وهو ما كان عليه الحال في المجتمع العثماني الذي أبدع في الاحتفال في المناسبات الدينية ومنها المولد النبوي الشريف الذي كانت له احتفالية خاصة يميزها ما يعرف بموكب الشموع الذي انتشر في كل أنحاء العالم الإسلامي، ويعد هذا الموكب من العادات الدخيلة في المجتمع المغربي، حيث في دخل في العهد السعودي لأول مرة ذلك أن السلطان أحمد منصور قد حضر احتفالات العثمانيين بذكرى المولد النبوي، وأعجب باستعراض الشموع الذي كان فقرة من فقرات الاحتفال، وبعد توليه العرش أعطى أوامره لإقامة موكب الشموع بنفس الطريقة التي شاهدها في إسطنبول²، وتم محاكاة الموكب في الأشكال الهندسية من خلال تطريز وزخرفة الشموع من حجم كبير وأشكال هندسية مثيرة وكان يطوف بهذا الموكب في مدينة مراكش وصولاً إلى القصر الملكي أين يرافقه أهل الحضرة³ في قرطيس منقوشة بطرق هندسة بديعة، بحيث تضع لتلك الشموع محامل خاصة⁴، وبذلك يكون المغرب الأقصى قد أخذ نصيبه من الاقتباسات للفنون العثمانية والتي مازال مازال معظمها سائداً إلى اليوم.

2-3-ب-د/ التأثير الديموغرافي:

نظرا لحالة الوضع السياسي في الحوض الغربي للمتوسط في هذه الفترة استقبلت بلاد المغرب الأقصى العديد من التشكيلات البشرية القادمة من الأندلس وأوروبا ومن الشرق لعدة أغراض منها التهجير القسري والهروب من سياسة محاكم التفتيش الإسبانية بالنسبة للأندلسيين أو الجهاد البحري بالنسبة للقادمين من المشرق وبعض المهتدين الأوروبيين، إضافة إلى المجندين القادمين للعمل في الجيوش

¹ شرارة، مرجع سابق، ص325.

² علال ركوك، "المولد النبوي بالمغرب طقوس واحتفال"، مجلة الثقافة الشعبية، العدد20، البحرين، 2020، ص01. تم الاطلاع على المقال يوم: 15-12-2020، على الساعة: 13:20، على الرابط التالي:

<https://www.folkculturebh.org/ar/index>

³ نفسه، ص08.

⁴ التازي، مرجع سابق، ص140.

المخزنية بمقابل مادي كل هؤلاء شكلوا نسبة لا بأس بها في التنظيم الديموغرافي للمجتمع السعودي وخاصة في المناطق الساحلية الشرقية والشمالية، حيث ساعدهم في ذلك ظهور المدن المستقلة سياسيا التي أسسها الأندلسيين كجمهورية أبي رقراق بسلا، وكذلك تسلسل الحروب الداخلية في المغرب جراء التمردات وحتى الخارجية ضد الاحتلال الإسباني والبرتغالي، وقد شكل العنصر العثماني جزء من هاته التركيبة من خلال وفادة بعض المهاجرين المحسوبين على الدولة العثمانية باعتبارهم قادمين من البلاد الواقعة في المجال العثماني حيث عملوا في المغرب كمجاهدين بحريين، وكذلك مجندين مأجورين في أحيان أخرى، مع العلم أن هذا التأثير لم تشهده بلاد المغرب الأقصى فقط بل هو تأثير شامل فمدينة الجزائر وبحكم العلاقات التجارية وعمليات الجهاد البحري عرفت وفادة الكثير من العناصر الأجنبية وعلى رأسها المغربية التي استقرت بها سواء كتجار أو مجاهدين حيث حملت شوارعها الكثير من التسميات التي تشهد على ذلك التفاعل الديموغرافي مثل حومة سيدي علي الفاسي وحارة السلاوي إلى غير ذلك¹.

وكغيرهم من التشكيلات الأخرى شكل العنصر العثماني طبقة اجتماعية خاصة به كان لها تأثير في المجتمع المغربي من خلال التأثيرات السابقة الذكر، حيث تأتي قيمة وحجم هذه الطبقة في مجتمع مدينة سلا المغربية بالنسبة للطبقات الوافدة في المرتبة الثانية حسب صاحب كتاب تاريخ العدوتين مع احتساب كل من كان في الإطار العثماني سواء أتراك أو عرب قادمين من بلاد اليمن وبغداد ومكة والمدينة²، وقد قدم لنا بعض النماذج لذلك التأثير فلقب الصابونجي اشتهر بمدينة سلا وهو لقب لبعض العلماء والمجاهدين بمدينة سلا ومنهم علي الصابونجي أحد رؤساء البحر في القرن 17م، وللعلم صناعة الصابون كانت مشهورة في سلا وعمل فيها الكثير ومنهم الحاج محمد الصابونجي³، وهناك حي معروف إلى اليوم بمدينة سلا يعرف بسانية الصابونجي وكذلك ضاحية سيدي التركي⁴، وللتبنيه هنا "جي" هي ياء النسبة في المصطلح اللغوي التركي وهي تعبر عن مهنة الشخص وعمله وكنيته.

¹ فيصل قاسم، "الحركة التجارية بين موانئ بلاد المغرب العربي خلال العهد العثماني"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الأمير عبد القادر لعلوم الإسلامية، الجزائر، 2014، ص88.

² الدكالي، مصدر سابق، ص169.

³ نفسه، ص242.

⁴ محمد زنيبر، شذرات تاريخية عن مدينة سلا، فصل من كتاب "في النهضة والتراكم"، دار توبقال للنشر، ط01، المغرب، 1986، ص254.

ففي مدينة مراكش مازالت حتى اليوم بعض الشوارع تحمل أسماء عثمانية مثل حي الدباشي نسبة لقائد تركي¹، وكذلك مدينة سلا السابقة الذكر فهناك أسماء لعائلات تحمل اسم الطرابلسي ومنهم الطرابلسي يوسف الذي انتقل من طرابلس إلى سلا للعمل كقائد في سلاح الطبجية، كما نجد كذلك لقب القفصي نسبة لمدينة قفصة التونسية².

وعن تأثير هذا الأسماء في مدينة تطوان يحدثنا المؤرخ عبد العزيز بن عبد الله عن الكثير من الأسماء العثمانية التي وجدت مكانتها في اللفظ المغربي العام منها اسم مامي وهو اسم تركي تسمى به الكثير من العلوج الذين أسلموا وتلقب به المغاربة كذلك، ومنهم مامي العليج ومحمد بن محمد ابن عبد الرحمان³، كما يوجد اسم برتقيش نسبة لقائد عثماني يسمى مراد برتقيش من سكان تطوان كان يمارس الجهاد البحري بتطوان حيث كان يقوم بذلك لمدة خمسة حملات في الشهر وكان يغير على سبته وجبل طارق⁴.

على ضوء هذه المعطيات والإشارات التاريخية نستخلص أن الحضور العثماني البشري كان محدود في مناطق معينة وأغلبها الساحلية كسلا وتطوان نظرا للحالة السياسية والاجتماعية لهاته المدن كما لمسنا الحضور العثماني في المناطق الداخلية كفاس ومراكش وهما المدينتان اللتان كانتا تمثل مركز السلطة في تلك الفترة، كما نستنتج أن طبيعة العناصر البشرية التي مثلت الحضور العثماني إلى جانب العنصر التركي القادم من آسيا الصغرى هناك العنصر العربي المشرقي والمغربي والمصري التي شكلت تمثيلا عاما للمجال العثماني فكل من قدم من البلاد الخاضعة للنفوذ العثماني هو عثماني باختلاف لونه أو منطقة قدومه.

2-3-ب-هـ/ التأثير الاقتصادي:

إلى جانب التأثير العمراني والثقافي والديموغرافي عرف الجانب الاقتصادي المغربي تأثرا بالأنماط العثمانية خصوصا تلك التي كانت معتمدة ومعمول بها في الايالات التابعة له ومنها ولاية الجزائر فالسعديين اقتبسوا البعض في هذا الجانب ويظهر ذلك في بعض الأمور. فمن خلال البحث برز نموذجان اقتصاديان كانا لهما تشابه إلى حد بعيد في النظام الاقتصادي للبلدين فالأول يتمثل في تنظيم

¹ حريش، مرجع سابق، ص 48.

² الدكالي، مرجع سابق، ص 228.

³ عبد العزيز بن عبد الله، (تطوان عاصمة الشمال ومنبع إشعاعه)، مرجع سابق، ص 69.

⁴ نفسه، ص 85.

مؤسسة بيت المال، ففي العهد السعودي بيت المال كان يوجد في المدن الرئيسية للبلاد وكان يدار من طرف أمين أو مجموعة من الأمناء، أي مستخدمين مكلفين بالخزينة بمساعدة العشرات من الكتاب المكلفين بتدوين العائدات والنفقات الخاصة بالمخزن في السجلات¹، والثاني يتمثل في النظام الجبائي فالمغرب عرف الجباية حسب المؤرخ إبراهيم حركات قبل ظهور دولة المرابطين تحديدا في عهد دولة زناتة أين تم إحداث ضرائب ومكوس خارجة عن الزكاة والأعشار الشرعية، ولما قامت الدولة المرابطية أسقطت كل الضرائب غير الشرعية وأقرت الزكاة والأعشار وخمس الغنائم والخراج وأسندوا مهمة الجباية إلى عناصر مسيحية وكانت موارد الجباية ضخمة²، أما في العهد السعودي فكانت الجباية يشرف عليها عمال أو جباة يعينهم السلطان ويكونون من الموالي للسلطان بحيث يضع تحت تصرفهم كتبية من الجند النظامي تتراوح بين 500 إلى 1000 جندي وكانت المحلات على مرتين في أبريل وسبتمبر من كل سنة³.

ولإبراز ملامح التشابه والتداخل نستكشف طرق التنظيم المالي في النظام الاقتصادي العثماني، وفي ولاية الجزائر على وجه التحديد، ففي قانون نامه آل عثمان السلطان سليمان تسيير بيت المال يكون من طرف بيت المالجي أي أمين المال⁴، بحيث يعينه السلطان على مستوى الأستانة أما في الإيالات فالحاكم مسؤول عن تعيين بيت المالجي ومهمته هي شغل الموارث المخزنية وبيع ما هو على ملك بيت المال من الدور والأجنحة على مستوى مدينة الجزائر وخارجها، ويساعد أمين المال مجموعة من الموظفين وهم: القاضي، موثقان، كاتب ضبط ومسجلون⁵، وهذه المؤسسة كانت ذات طابع سياسي وخيري، والمالجي يتمتع بصلاحيات عديدة واستقلال ذاتي في التسيير⁶.

¹ ملين، مرجع سابق، ص 273.

² إبراهيم حركات، "تطور الأوضاع الاقتصادية على عهد السعديين"، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، العدد 12، 1986، ص 15. (ص 15- ص 46).

³ ملين، مرجع سابق، ص 274.

⁴ السالحي، (قانون آل نامه...)، مرجع سابق، ص 144.

⁵ عائشة غطاس، "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقارنة اجتماعية، اقتصادية"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 200-2001، ص 124.

⁶ عبد الرحمان بوسعيد، "الأوقاف والتنمية الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران، 2011/2012، ص 04.

أما فيما يخص تنظيم الجباية ففي ولاية الجزائر كانت تتم على طريقتان: الأولى تتمثل في التحصيل المباشر للضريبة من السكان الخاضعين لسلطة موظف الدولة وذلك عن طريق الأعيان وشيوخ القبائل وبتدخل من قادة العشائر وموظفي الدولة الآخرون كما هو الحال في الملكيات الخاصة والأراضي التابعة للدولة، والطريقة الثانية تتمثل في التحصيل باستخدام الأراضي الزراعية الواقعة بالدواخل حيث كانت تستخدم ما يعرف بنظام المحلة¹ أو المحال لإرغام السكان على دفع الضرائب سواء كانت عينية أو مالية حيث كانت الأمحال تقصد الأراضي الزراعية الداخلية في أوقات الحصاد أي أنها كانت فصلية². وهذا ما يسمى بالدنوش وهي نوعان الدنوش الصغرى التي كان يحملها خلفاء البايات إلى مدينة الجزائر في فصلي الخريف والربيع، أما الدنوش الكبرى فهي التي يقدمها البايات بأنفسهم مرة كل ثلاثة سنوات³. وعلى ضوء هذا نستخلص أن أوجه التشابه بين النظامين السعدي والجزائري العثماني يكمن في كيفية تنظيم بيت المال من حيث الوظيفة والموظفين إضافة إلى كيفية استخلاص الجباية وزمنها الذي كان ينطلق تقريبا في فترة واحدة في الربيع والخريف كما يجب التنويه كذلك إلى أن المغرب عامة لم يعرف الجباية وبيت المال من خلال تأثره بالمجال العثماني بل كانت له تقاليده الخاصة في ذلك عرفها منذ مراحل تاريخية سابقة فالتأثير يظهر في بعض المستجدات المتعلقة بالتنظيم العام فقط.

¹ المحلة هي مؤسسة لجمع الجباية بالقوة بين القبائل وردع التمرد وإخضاع الأرياف لجمع الضرائب وهي مؤسسة عسكرية مالية عرفت منذ العهد الموحد ببلاد المغرب للمزيد أنظر: عبد الحميد الأرقش وآخرون، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي ميديا كوم، تونس، 2003، ص129. لمعرفة المزيد حول المحلة وتنظيمها في الجزائر أنظر:

Mahfoud kaddache, l'Algérie durant la période ottoman, office des publications universitaires, Alger, 1992, p133.

² ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والثقافية والاجتماعية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب) من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الحادية والثلاثون، 2010/1431، الكويت، ص22.

³ ج.هابنسترايت، رحلة العالم الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وطرابلس 1145هـ/1732م، ترجمة وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، 2008، ص84.

الفصل الرابع

التبعية المفروضة وبيادر التحدي المغربي للطموح العثماني (1581-1603)

1- السلطان أحمد المنصور وطموحه للخلافة

1-1 طبيعة العلاقات العثمانية المغربية ما بين 1581-1603

1-2 سياسة التوسع المغربية (مسألة الحدود)

2- سياسة الدولة العثمانية في التعامل مع الطموح المغربي

1-2 السياسة العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط 1581-1603

2-2 علاقة الدولة العثمانية ببلاد السودان وموقفها من حملة المنصور الذهبي سنة 1591

رابعاً: التبعية المفروضة وبيادر التحدي المغربي للطموح العثماني (1581-1603)

1- السلطان أحمد المنصور وطموحه للخلافة.

1-1- طبيعة العلاقات العثمانية المغربية فيما بين 1581-1603:

يُعتبر موضوع تحديد طبيعة العلاقات السياسية بين الخلافة العثمانية والمغرب السعدي، من الإشكاليات التاريخية في فهم ودراسة تاريخ البلدين من 1550-1603، ففي المطلب الأول من الفصل الثالث كنا قد تناولنا مسألة العلاقات بين الجانبين من 1574-1581، وهي فترة المولى عبد الملك وبداية المولى أحمد المنصور الذهبي، وكنا قد أوضحنا أن المغرب السعدي كان موالياً اسمياً للباب العالي في هذه الفترة، ولو بصفة ظاهرية بفعل عوامل الضغط المختلفة في بداية فترة المنصور الذي كان لزاماً عليه إظهار الطاعة، التي كان الباب العالي مُتوجِّساً منها بحجة أن المنصور يريد ربح الوقت فقط لتنظيم شؤونه الداخلية فقط وبعدها يستطيع التخلُّص من الهيمنة العثمانية، ولذلك نتساءل هل كان الباب العالي مُحِقّاً في طرحه ونظرته لمستقبل العلاقات الثنائية؟ وهل عمل المنصور على إيجاد الآليات الكفيلة لتحقيق استقلاليته الكاملة؟ وماهي مظاهر تلك الآليات التي اتبعتها في تحقيق ذلك؟.

للإجابة على هذه التساؤلات ينبغي معرفة فصول العلاقات الثنائية بعد 1581 ومُجرباتها، فما هو معروف تاريخياً أن المنصور حسب صاحب كتاب الاستقصا كان موادعاً لآل عثمان وكان يرسل إليهم بالهدايا كل سنة وكانوا يرسلون إليه بالمكاتيب والخلع السنوية¹، فالهدايا التي كان يرسلها السلطان المنصور كان يعتبرها الخليفة العثماني ضريبة مُستحقَّة في إطار التبعية وكانت سنوياً كما ذكر الناصري سابقاً تقدم مع السفراء، لكن خلال سنتي 1581 و1589 لم تُرسل الهدايا ولا السفراء وذلك بنية مقصودة من المنصور بأنه يرسل هاته الهدايا بناء على رغبة منه دون رغبة الخليفة العثماني²، فهذه الخرجات التي قام بها المنصور هي عبارة عن جسّ نبض الباب العالي، خصوصاً بعد الأخبار التي كانت تأتي من البلاد العثمانية حول حدوث التمردات الداخلية والصراع مع الصفويين وبداية ضعف القوة البحرية بعد هزيمة لبانتو 1571؛ فهل كانت توقعات المنصور صحيحة سنة 1581؟

فالإجابة حسب وجهة نظرنا هي خاطئة والدليل على ذلك رد الفعل العثماني السريع على المنصور الذي كان محطّ شكوك أصلاً، فلامح الغضب العثماني ظهرت سريعاً خصوصاً بعد رسالة الخليفة العثماني إلى المنصور في رجب 988هـ/ سبتمبر 1580م التي جاءت كالتالي: « ولما وصل إلى

¹ الناصري، مصدر سابق، ص 97.

² إلتز، مرجع سابق، ص 302.

مسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخاقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة، وأنه احتوى على بلاد سلطنة البرتغال أو عاد وأنه جعل أهلها الأغلال والأصفاد، وأنه لكم جار وعدو مضرار حركتنا الحمية الإسلامية لإظهار الألفة الأزلية أن نتخذ عهدا ونؤمن أن المملكتين محروستا الجوانب، ونعلق العهد بالكعبة المنورة... فإذا تم هذا الشأن نوجه إليكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيشا عزة ونصرة وكماة عثمانية نستفتح بها إن شاء الله بلاد الأندلس»¹

فهذه الرسالة تُعتبر الفيصل في تحديد علاقة المنصور بالعثمانيين سواء من حيث السلب أو الإيجاب، فالمنصور رفض الرد على هذه الرسالة ومضمونها الواضح، ويعود سبب ذلك حسب المؤرخ عبد الكريم كريمة إلى شكوك المنصور حول عدم صدق نوايا الخليفة العثماني، خصوصا وأن الخلافة العثمانية قامت بإبرام معاهدة الصلح مع الإسبان سنة 1581²، لذلك كان الشعور بالشك متبادلاً وكانت شكوك كلا الطرفين صحيحة فلا المنصور يريد الانضمام تحت اللواء العثماني ولا العثمانيين الطموحين لانضمام المغرب، أو على الأقل على الحفاظ على طبيعة العلاقات الودية السابقة من خلال التبعية الاسمية، لنجد المنصور يؤكد على هذه النوايا بإبرام معاهدة صلح هو الآخر مع إسبانيا سنة 1581، وذلك بهدف الضغط على العثمانيين وفرض التوازن بين القوى حيث كانت بنود الاتفاقية تنص على ما يلي:

- عقد تحالف ضد العثمانيين لمواجهة أي تدخل في أعقاب ثورة الأندلس والأتراك.
- التنازل عن ميناء العرائش لصالح الإسبان.
- إطلاق جميع أسرى وادي المخازن.

¹ محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي نشأته وأثاره، اشراف نيقولا زياده، ج1، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، د ت، ص95، للمزيد ينظر: شرف موسى، " علاقة المغرب الأقصى بالخلافة العثمانية وإيالاتها العربية في المشرق والمغرب (1171-1265/1757-1848)"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 02، 2015/2016، ص41.

² محمد السيد محمد أبو رحاب، العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عهد الأشراف السعديين، دراسة أثرية معمارية، ط1، دار القاهرة، مصر، 2008، ص91.

- ربط التجارة الإسبانية والتجارة المغربية على نحو يمنع التجار الإنجليز من الوصول الى موانئ المغرب¹.

لكن يبدو أن المنصور في اتفاهه مع الإسبان لم يكن جديا رغم التصريح ببندو المعاهدة فلا يوجد لاحقا ما يؤكد أن المنصور التزم بهذه البنود، بل كانت مجرد ورقة ضغط على العثمانيين، وفي ظل التعتت السعدي واستمرار السخط العثماني قام السلطان مراد الثالث بعدة إجراءات لإعادة ضبط الأمور حيث قام بإرسال فرمانين لكل من والي طرابلس الغرب ووالي الجزائر في 989هـ-1581هـ حيث كانا متشابهان في المضمون وهو الحث على ضرورة مراقبة حاكم فاس المنصور واليقظة الدائمة ومتابعة الأحداث التي تجري في فاس ومراكش للتحقق من نوايا المنصور مع كفار إسبانيا، فرنسا وإنجلترا، مع وجوب مراقبة وترصد تحرك أسطول العدو في الحوض الغربي للمتوسط وتصرفاته بصفة سرية، وذلك حتى ينكشف وجه المنصور بشكل واضح، وفي الأخير يحث السلطان الواليين بضرورة إبلاغه بتقرير مفصل ودقيق عن المنصور وبلاده وعلاقاته الخارجية².

ليقوم بعدها (ال خليفة العثماني) وبإلحاح من علج علي بتوجيه حملة بحرية على السعدين لتأديب المنصور لأنه ذو وجهين حسب³، لكن هذه المصادر التاريخية تُطعننا أن هذه الحملة لم يُكتب لها النجاح بسبب ذكاء ودهاء المنصور وتيقنه من الخطأ الذي وقع فيه بمحاولته تحدي الباب العالي، فأرسل بعثة دبلوماسية عاجلة للسلطان العثماني محملة بالهدايا، تهدف إلى تقليل غضب السلطان وإيقاف الحملة العسكرية هذه، خصوصا وأن القائد علج علي كان يُكنى عداوة للمنصور الذي عمل على فك أي ارتباط

¹ الغربي، مرجع سابق، ص 99. في تقرير إسباني يشير إلى تخوف المنصور الشديد من الأتراك، وأنه طلب بقاء القوات الإسبانية في العرائش لمساعدته في حال مهاجمة الخلافة العثمانية له، وذلك مقابل منحهم بعض القلاع والحصون، للمزيد ينظر:

Earnest w. Porta, «Morocco in the early atlantic world, 1415-1603», in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in History, submitted to the Faculty of the Graduate School of Arts and Sciences of Georgetown University, 2018, p302.

² للمزيد حول الرسائل ينظر: أرشيف و ط ج، دفتر مهم رقم 42، عدد 84، حكم إلى أمير أمراء خبراء الغرب جعفر باشا، في 989هـ/1581، مصدر سابق. أرشيف و ط ج، دفتر مهم رقم 42، عدد 82، حكم إلى حيدر باشا أمير أمراء طرابلس الغرب في 989هـ/1581، مصدر سابق. ينظر كذلك: الجمهورية التركية رئاسة الوزراء، رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، طرابلس الغرب في الوثائق العثمانية، الكتاب رقم 125، رئيس المشروع أوغور أونال، إعداد كمال أورليغان وآخرون، مطبعة سجيل أوغست، اسطنبول، 2013، (رسالة إلى بكليركي طرابلس الغرب)، ص 69.

³ إلتز، مرجع سابق، ص 260.

ودّي مع العثمانيين، وتراجعته عن سياسة سلفه عبد الملك المتمثلة في الدعاء للسلطان العثماني في خطب الجمعة، حيث أصبحت تلقن باسم المنصور الذي تلقب بالخليفة والإمام وأمير المؤمنين، وعقد المجالس على هيئة الخفاء مما أغضب العثمانيين عليه¹.

فالوفد الذي أرسله السلطان المغربي أحمد المنصور (1578-1603م) إلى اسطنبول سنة 1581م، لاستدراك الأمر أخبروا الخليفة العثماني أن الاتفاق الذي أبرمه المنصور مع الملك الإسباني كان شبه اتفاق فقط، يهدف إلى مؤازرته فقط ضد العثمانيين بغية تنازله عن مدينة العرائش، وبعض الامتيازات الأخرى، وبذلك اقتنع السلطان مراد وأصدر أوامر برجوع حملة علج علي²، وأرسل رسالة إلى المنصور بداية سنة 990هـ/1582م كانت كالتالي: «حكم الى حاكم فاس، مولاي أحمد: الرسالة التي أرسلتها مع شخص من طرفكم أثبت فيها الإخلاص والمودة لسدتنا العلية، لذلك قررنا منحك حق الحكم ولمن يأتي من نسلك جيلا بعد جيل بدون انقراض وبأنك أصبحت من جملة الممالك المضافة إلى ممالكنا المحروسة، وأن تعليماتنا بهذا الخصوص شاملة وما دامت تبعيتكم لمعالينا تعتمد على الصداقة والإخلاص ولقاء هذا الإخلاص ستحكم نسلا بعد نسل إلى يوم القيامة»³، وبهذه الرسالة يكون المنصور السعودي قد خسر رهان التخلص من النفوذ العثماني في بلاده في هذه المحاولة.

لُيعاود المحاولة الثانية سنة 1589 لكن بين مدة هاتين المحاولتين المنصور واصل وأخلص في تبعيته للباب العالي وبإمكاننا أن نسميها "التبعية المفروضة"، تجلّت مظاهرها في عدة أمور وتتجلى بوضوح في توالي السفارات والبعثات الدبلوماسية، ففي رسالة شاهانية من الخليفة العثماني إلى والي الجزائر ما يؤكد ذلك، ففي مقدمة الرسالة جاء ما يلي: "وجهت إلى حاكم فاس مولاي أحمد ردا على رسالته الموجهة إلى المقام الشاهاني...بيؤكد فيها إخلاصه وصداقته وتعلقه بالمقام الشاهاني المكرم..."

¹ فهد بن محمد السويكت، "موقف الأشراف السعديين في المغرب من مسألة الخلافة العثمانية"، مجلة جامعة الملك مسعود، المجلد 19، ج 01، السعودية، 2006، ص 200. (ص 177، ص 221).

² أحمد سالم سالم علي، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي المتوسط في القرن 16، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، د ط، 2011، ص 179.

³ إلتز، مرجع سابق، ص 261.

ليختم بالقول: "وبما أن أمثال هذه الوثيقة قد تكررت مرارا وقد عربت جُلها، فإنني لا أرى حاجة إلى الترجمة الحرفية بل نكتفي بتلخيص المضمون فقط"¹.

كما تتجلى مظاهر التبعية في إرسال الهدايا السنوية للمقام الشاهاني؛ فالمؤرخ بوفيل يقول أنه على الرغم من حالة السخط التي كان يُكنُّها الخليفة العثماني للمنصور جراء تلقُّه بالخليفة ومناوراته السياسية إلا أنه كان مقبولا، باعتبار أن المنصور كان سنويا يرسل هدايا إلى اسطنبول كان الخليفة العثماني يعتبرها من قبيل الجزية²، ويجب الإشارة هنا إلى أن الآراء القائلة بأن الباب العالي تأثر بالضعف العسكري جراء هزيمته لبيانتو سنة 1571 فهي غير صائبة حسب نظر الكاتب بروشين فباستعراض الأحداث بعد هذا التاريخ يظهر أن البحرية العثمانية عادت بقوة بعد هذه الهزيمة، ففي سنة 1573 استولى الأسطول العثماني على قبرص وشمال البندقية واسترجاع تونس من الإسبان سنة 1574³، والتهديد المباشر للمنصور السعدي باستخدام القوة العسكرية سنة 1581، وبالتالي مسألة الغزو العثماني المباشر للمغرب الأقصى في عهد المنصور لم تتأثر بنتائج هذه الهزيمة وإنما تأثرت بموقف المنصور.

ليواصل المنصور بعدها في سياسته الدبلوماسية بهدف إبعاد الخطر العثماني عليه ويظهر ذلك من خلال مكاتباته لباشوات (حكام) الجزائر، حيث "أكد المنصور في معاهداته مع باشاوات الجزائر أنه تابع للأتراك وأكد ذلك باتخاذ ذيل الفرس الأبيض، وهو رمز تركي عثماني كشعار لإرضاء الباشا حاكم الجزائر ولنيل صداقته بل إنه كان يؤدي إتاوة التبعية للباب العالي"⁴، وتبعية وخضوع المنصور هذه يؤكدها المؤرخ الإسباني أنطونيو دي صالدانيا الذي يقول أن المنصور كان يرفع الراية التركية حسب وصفه المقرونة بذيل جواد أبيض وهي علامة تبعية للسلطان العثماني كانت ترقع أمام خيمته⁵.

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 48، عدد 31، رسالة شاهانية إلى حكم فاس في 990هـ - 1582م.

² إ. بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ط 2، طبعة منقحة ومزودة بقلم روبن هاليت، تعريب الهادي أبو لقمة، محمد عزيز، منشورات جامعة قاروينيس، بنغازي، ليبيا، 1988، ص 284.

³ ن، إ. بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، ترجمة وتقديم عماد حاتم، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط 2، 2001، ص 33.

⁴ شرف، مرجع سابق، ص 44، للمزيد ينظر: سالم، مرجع سابق، ص 180.

⁵ إبراهيم القادري بوتشيش، مذكرات أسير برتغالي في مغرب القرن السادس عشر، مجلة أسطور، ع 01، مايو 2015، ص 60، (ص 176-185).

فهذه التبعية المفروضة لم تكن برغبة المنصور وإنما ظروف المرحلة ومعطيات العصر فرضت عليه هذه الخضوع منتظرا تغير الأحوال ليعيد المحاولة التي فعلها سنة 1581، والتي اعتبرها بعض المؤرخين المغاربة وعلى رأسهم محمد حجي بأنها آخر محطة من العداء بين الخلافة العثمانية والمغرب الأقصى تلاها ثلاث قرن من المودة والصفاء لم تقطع خلاله السفارات في استانبول والجزائر والمغرب ويسمون هذه الفترة بفترة السلم 1581-1603¹.

وعليه يطرح التساؤل حول سبب جنوح الطرفين لهذا السلم، والذي تظهر إجابته كما أسلفنا في الخضوع أو التبعية المفروضة على الأقل من 1581م-1591م، كان فيه المغرب السعدي تحت الضغط العثماني، وتحت التهديد المباشر للقوة العسكرية، استعمل فيها المنصور كل الطرق الدبلوماسية الممكنة لتجنيب بلاده التبعية المباشرة، فالخلافة العثمانية في هذه الفترة كانت تُعتبر الأراضي المغربية تدخل ضمن مجال حمايتها ويلاحظ ذلك بشدة في رسائل الخليفة العثماني الى ولايته في المغرب العربي، ففي رسالة مؤرخة في 992هـ-1584م، موجهة إلى أمير أمراء الجزائر تتضمن في فصولها أوامر بضرورة التنبيه لهجوم محتمل من طرف الإسبان على مملكة فاس وأنه يتوجب حمايتها، حيث تقول الرسالة في ديباجتها أن القبطان مراد راييس قد أسرَ عدد من السفن التابعة للإسبان تحتوي على بعض الأسرى المسلمين وقد اقتضى الأمر الرجوع الى هؤلاء لمعرفة أحوال الكفار بشكل عام « فصرحوا لنا بأن القراصنة الفرنسيين بتعاون وبتأييد من الإسبانيين يفكرون ويُخططون الاستيلاء على ميناء فاس حتى أن الأسطول الإسباني أصبح يعد نفسه لهذه العملية»²، وبناء على هذه المعلومات أمر الخليفة العثماني بما يلي: «عند وصول أمري إليكم كونوا على يقظة تامة وبصيرة في الأمر وألا تتركوا مجالا للغفلة والإهمال وابعثوا من عندكم جواسيس لتقصي الأخبار واكتشاف الأسرار المتعلقة بأفكار الكفار الفاسدة حول هذه القضية ثم أرسلوا إلي كتابيا ما توصلتم إليه من أخبار ومعلومات بطريقة مُفصّلة ومشروحة....فنبادر باتخاذ الإجراءات اللازمة لصد هذه المحاولات المقصودة من طرف الكفار»³.

ومن خلال هذه الرسالة نكتشف أمرين مهمين هما مكانة مملكة المغرب الأقصى، وخاصة الثغور الساحلية لدى الباب العالي، وعلاقة الفرنسيين بالأمر، فرد فعل العثمانيين على أي محاولة لغزو المغرب

¹ أبو رحاب، مرجع سابق، ص 92.

² الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 52، عدد 271، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب، في 992هـ-1584م، ص 21.

³ نفسه ص 21.

كان عنيفا؛ حيث يعتبر الاعتداء على المغرب اعتداء على أملاك الباب العالي، فالتحضيرات العثمانية بعد هذه المعلومات الإخبارية كان حقيقيا فالسفير الإنجليزي في اسطنبول يؤكد في رسالة إلى الملكة إليزابيث في نفس السنة أن الباب العالي يحضر لحملة عسكرية ضد الأهداف الإسبانية في المغرب¹، أما الأمر الخاص بالفرنسيين وبتحالفهم مع الإسبان حسب الرسالة فهو أمر ممكن خصوصا وأن الفرنسيين كانوا قد ربطوا علاقات تجارية مع المغاربة، لذلك ربما بدأ الطمع يدب في نفوسهم للسيطرة على المغرب، فالعلاقات المغربية الفرنسية كانت قد بدأت سنة 984هـ/1576م، مع المولى عبد الملك (أول سفارة) منه إلى ملك فرنسا يطلب فيها فتح قنصلية في المغرب لتتوالى بعدها السفارات²، لكن ما يلاحظ من أخبار هذه الرسالة أن العلاقات العثمانية الفرنسية في هذه الفترة كانت ودية حيث سمحت الخلافة العثمانية خلالها بمرور السفن الفرنسية للبحر الأسود³.

فلماذا تخطط فرنسا إذا للسيطرة على المغرب بمساعدة إسبانيا، فمن الممكن أن تلك المعلومات الاستخبارية كانت غير صحيحة إذا فهمنا أن الإسبان والعثمانيين كانوا في هدنة تم توقيعها في سنة 1581، لكن ما يهمنا في الموضوع هو رد الفعل العثماني اتجاه هذه الأخبار، وهذا ما يؤكد أن المغرب السعودي كان يوالي العثمانيين اسميا ولو بصفة ظاهرية، لكن الأهم هو أن العثمانيين كانوا ينظرون إلى المغرب كولاية تابعة لهم، خصوصا إذا علمنا أن شروط أو معايير التبعية التي كان يقبل بها السلاطين العثمانيين حسب تصريح السلطان محمد الثالث (1595-1603) عندما سئل عن النظام الجديد الذي طبق في الولايات الثلاثة (حكم مركزي)، فأجاب أنه ليس هناك ما يدعو إلى مضايقة الجيش وإثارة غضبه، طالما أن سلطة السلطان لم تمس، وضرورية الولاية السنوية تدفع له بانتظام، فالخليفة العثماني كان يقبل هذا النوع من النظام ولا يظهر أي معارضة أو رفض⁴، وإذا كانت هذه هي سياسة الباب العالي مع الولايات المغاربية فإنها نفسها اتجاه المغرب فما دام المنصور يدفع جزية سنوية والدعاء للسلطان العثماني فهو في مأمن من الامتداد العثماني المباشر.

¹ كريم، مرجع سابق، ص 142.

² عبد العزيز بنعبد الله، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، د ط، دار المعرفة للنشر والتوزيع، المغرب، 2001، ص 67.

³ السيدس عبد الرحمان بن علي بن عبد الله، "مراحل العلاقات العثمانية الفرنسية 948-1217/1535-1802"، مجلة العلوم العربية والانسانية، مج 09، ع01، 2015، السعودية، ص337.

⁴ كريستيانزو برينا، طرابلس من 1510 إلى 1850، تعريب خليفة محمد التليسي، د ط، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، 1985، ص87.

وما على المنصور إلا مسايرة الوضع إلى حين مع القيام ببعض الإصلاحات والأعمال الداخلية لتحسين نفسه لأي طارئ مع مواصلة العلاقات الودية، ففي رسالة مؤرخة في 993هـ-1585م موجهة من الخليفة العثماني إلى أمير أمراء جزائر الغرب جاءت كالتالي: «إن سعادة سلطان أحمد سلطان فاس سابقا كان قد أرسل رسولا إلى المقام الشهاني العالي وهذا السفير الذي أقام كما يلزم ثم أرفقه ببعض المحافظين لكي يصل إلى بلاده في أمن وسلام... وكذلك عندما يأتي إليكم راجعا من بلاده تصرف معه بنفس التصرف الذي تصرفته في الأول من حيث الإكرام والاستضافة ثم أرسله إلى الأستانة بمعية المحافظين الذين يعينون من طرفك لمرافقته في الطريق حتى وصوله»¹.

وعلى ضوء هذه الرسالة نلاحظ أن حدة الخطاب بخصوص المنصور قد انخفضت مقارنة برسالة سنة 1581 التي كانت تدعو إلى مراقبته والتحذير منه، فالخليفة العثماني يكون بهذا راضيا عن أعمال المنصور اتجاه الباب العالي، وقد أكدت الرسالة الثانية المؤرخة 993هـ-1585م نفس مضمون الرسالة الأولى الداعية إلى حسن التصرف مع سفراء المنصور²، وفي ظل هذه الأوضاع المنصور السعدي لم يتقبل هذا الوضع المفروض عليه، حيث نجده سنة 1589 يقوم بوقف إرسال الهدايا والإتاوة للباب العالي، فكان رد العثمانيين سريعا بسفارة في نفس السنة إلى المنصور، قام على إثرها هذا الأخير بتدارك الأمر ثانية وأرسل سفارة محملة بالهدايا بقيادة كاتبه عبد العزيز الفشتالي والتمقروتي لتفشل محاولة المنصور الثانية في التخلص من الهيمنة، فالباب العالي حتى هذه الفترة لا زال محافظا على قوته وهيئته الدولية³.

لنتواصل سياسة الباب العالي اتجاه السعديين كولاية تابعة لهم بعد هذا التاريخ ويتجسد ذلك في التدخل في الشأن الداخلي والسيادي للسعديين، ففي سنة 1590 وصلت إلى مراكش سفارة الخليفة العثماني حاملة رسالة للمنصور تحثه على منح ابن أخيه المولى إسماعيل بن عبد الملك الموجود بالجزائر من مدخول بعض الأقاليم المغربية ويقدر المبلغ بنحو ثلاثون ألف دوكة⁴، وفي نفس السنة أرسلت ملكة إنجلترا إليزابيث رسالة إلى السلطان مراد الثالث تطالب فيها بالتوسط لها لدى المنصور وحثه على نجدة دون أنطونيو البرتغالي، وإنجاز ما وعده بها من قروض ومساعدات عسكرية ضد ملك إسبانيا، وبالفعل

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 58، عدد 82، حكم إلى أمير أمراء الجزائر، في 993هـ/1585.

² الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 58، عدد 80، بتاريخ 993هـ/1585م، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب.

³ إلتز، مرجع سابق، ص 304.

⁴ كريم، مرجع سابق، ص 143.

قام السلطان مراد بمكاتبة المنصور والضغط عليه لتنفيذ ما طالبت به إليزابيث، وبالفعل رضخ المنصور لمطالب مراد الثالث وأرسل الدون انطونيو إلى إنجلترا¹، وكان مضمون رسالة مراد الثالث إلى المنصور كما يلي: « نعلمكم أننا نرتبط مع ملكة بريطانيا بصدقة قديمة، ولم نتدخل بالصراع القائم بينها وبين ملك إسبانيا... وقبل ذلك التاريخ كان ملك البرتغال دون أنطونيو قد وضع ابنه رهينة لديكم، لقاء مساعدته ورجونكم بتقديم المساعدة، ولكن المساندة... ولم يترك ابنه أيضا وعلمتنا ملكة بريطانيا بوجود قوات إسبانية لديكم، ورجتتا بكل إخلاص من أجل إطلاق سراح ابن ملك البرتغال فأرسلنا لكم سفينة من ترسانتنا العامرة مع رسالة يحملها أحمد شاويش الباب العالي»².

ليواصل السلطان مراد في رسالته قائلا: «ولدى استلام الرسالة سلم ابن حاكم البرتغال إلى الشاويش وزوده بعدد كاف من الرجال وأرسلهم إلينا بأسرع وقت ممكن... والمشار إليها ملكة بريطانيا تذكر بأنكم قمتم بحبس تجارها الموجودين في ولايتكم، ولم تطلقوا سراحهم بناء على رغبة ملك إسبانيا، إن سجنكم لتجار أصدقائنا وتلبية لرغبة ملك إسبانيا ليس عملا لائقا بمقامنا، نطلب منكم إطلاق سراح التجار مع إعادة أموالهم بشكل تام وسريع ومهما كانت الأسباب الداعية لذلك»³.

وانطلاقا من هذه الرسالة نستنتج حجم التبعية المغربية السعدية للدولة العثمانية فالرسالة عبارة عن أمر يجب القيام به ومنه نستطيع تحديد طبيعة العلاقات العثمانية المغربية في هذه الفترة أي من 1581 إلى 1591، لتعرف العلاقات بعد هذه الفترة منحى آخر تمكن المنصور خلالها من التخلص من التبعية الاسمية للباب بحيث لم نجد المصادر التاريخية تحدثت عن مواصلة المنصور إرسال الهدايا سنويا إلى الباب العالي ولم نجد كتابات تتحدث عن مطالبة الباب العالي بها، وبذلك يمكن الاستنتاج والقول بأن تبعية المنصور للباب العالي توقفت سنة 1591 وبداية فصل جديد، ليدخل المغرب و الخلافة العثمانية في قضايا وسياسات أخرى كقضية الحدود وسياسة التنافس العثماني المغربي على النفوذ في غرب إفريقيا.

¹ نفسه، ص 144، للمزيد ينظر: ب. روجرز، (تاريخ العلاقات المغربية الانجليزية)، مرجع سابق، ص 52.

² إلتز، مرجع سابق، ص 30.

³ نفسه، ص 306.

فهذه القضايا لم تكن وليدة الأحداث بل كانت ذات تخطيط وعمل مسبق، من خلال سعي المنصور من بيعته سنة 986هـ-1578¹ إلى غاية 1591 تاريخ غزوه لبلاد السودان إلى الاستقلال بنفسه والتخلص من السلطة العثمانية على بلاده وإحياء سنة الخلافة الإسلامية عن طريق الأشراف فاتحا بذلك فصلا جديدا حول هذه القضية التي توقفت في السابق مع المولى محمد الشيخ السعدي والتي كلفته حياته بمؤامرة عثمانية سنة 1557.

1-1-أ موقف المنصور من سياسة الباب العالي اتجاهه (عودة لمسألة النسب الشريف وإشكالية الخلافة):

نتناول في هذا العنصر أبرز الأعمال التي قام بها أحمد المنصور في سبيل التخلص من الهيمنة العثمانية والتي من خلالها استطاع تجنب بلاده التبعية المباشرة واستطاع حماية حدود بلاده من الإسبان والقوة الأخرى، لذلك نتساءل هل نجح أحمد المنصور في سياسته؟ وماهي أبرز مظاهرها؟

تُعتبر فترة أحمد المنصور من أزهى الفترات التاريخية التي مر بها المغرب الأقصى حسب المؤرخين المغاربة، ففي هذه الفترة عرف المغرب الأقصى الازدهار والاستقرار واتساع رقعة الدولة وتحرير المدن²، فالكتابات الإسبانية تحدثت عن فترة المنصور بنفس السمة فالمؤرخ البرتغالي كولاصو يتحدث عن هذه الفترة بنوع من الإسهاب معتبرا إياها مرحلة مميزة في تاريخ المغرب³، وتوافقه في ذلك الكاتبة الإسبانية Mercedes Garcia التي تقول أن فترة المنصور تشكل عتبة المغرب الحديث، نظرا لكونها فترة ازدهار، لتعود لتذكر بأن هذه الحادثة توقفت بعد موته سنة 1603، حيث تصفه بأحد الملوك العظام⁴، فهذه الآراء واقعية نظرا لعدة إنجازات قام بها المنصور على المستوى الداخلي في الفترة الأولى من 1578-1593، وعلى المستوى الخارجي بعد هذا التاريخ 1593.

فعلى المستوى الداخلي كانت سياسة المنصور قائمة على أمرين أساسيين وهما: إعلان نفسه كخليفة للمسلمين بناء على القواعد الشرعية التي تجيز له ذلك، والعمل على تمهيد الطريق لتنفيذ جوانب

¹ ابن القاضي، مصدر سابق، ص 244.

² أبو رحاب، مرجع سابق، ص 57.

³ البارون دي كولاصو ماكنمار، الملوك المغاربة، ترجمة عثمان المنصوري، ط1، مطابع الرباط نت، المغرب، 2016، ص 43.

⁴ محمد حبيدة، "أكاد المغرب دخول العصور الحديثة؟"، مقال من كتاب "مقالات الدكتور محمد حبيدة"، إعداد وجمع لحرش رضوان، د ط، سلسلة مقالات رقم 02، المغرب، 2017، ص 23.

الخلافة من خلال تحصين الجبهة الداخلية وعدم تكرار سيناريو سابقه، مع الحفاظ على سلامة أراضيها من الخطر الخارجي بواسطة المسابرة والرضوخ في أحيان عدة تجنبا لخراب بلاده، ففي مسألة إحياء الخلافة ومنازعة آل عثمان اعتمد في سياسته على النسب الشريف لإبراز هيئته وعظمته كخليفة للأمة بحيث قام بتوظيف الدين لخدمته السياسية لتحقيق أهدافه، وذلك من خلال إبراز الحضور المادي للمخزن الذي تجسد في الجيش والإدارة مع التبرير الإيديولوجي إذ قَدّم مسوغات دينية من قبل كالجهد ضد الكفار لاسترجاع بلاد الأندلس واسترجاع الثغور المحتلة بحيث كان الاكتمال السياسي رهينا بالدعم الديني¹.

لذلك كان لابد من إحياء الخلافة لتحقيق هذه الغاية ومن جملة ما قام به في ذلك هو توظيف الكثير من العلماء لتجسيد هذه الفكرة الدينية، وأحاطهم بعناية كبيرة ومن هؤلاء الكاتب أحمد ابن القاضي الذي قام بنوع من التفتيح في ذكر شخصية المنصور وأحقيقته بالخلافة حيث كتب بإسهاب عن الرسائل التي كانت ترد على المنصور من علماء الإسلام في المشرق وعلى رأسهم البكري أحد علماء مصر الذي كان قد خاطب المنصور في رسالة تحمل نوع من التمجيل والتفتيح وإنزاله بمنزلة الخلفاء²، وهو الأمر نفسه بالنسبة لوزيره وكاتبه التمقروتي الذي يقول عن خلافة المنصور: «هم جملة الممالك (العثمانيين) والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين، وجعلهم سورا حصينا وسورا للإسلام وإن كان أكثرهم وأكثر أتباعهم ممن يصدق عليهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر" وإن كانوا وإنما حملوا الإمارة وقلدوا الأمر الحقيقة نيابة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها وأهلها وهم موالينا وسادتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب الذين شرفت بهم الإمامة والخلافة، وكل مسلم يقول عكس هذا ولا خلافه... وقد أجمع المسلمون على أن الخلافة لا تعقد إلا لمن هو من صحيح قریش»³.

فالمقصود في طرحه لقضية الخلافة يكون قد أعاد طرح إشكالية جديدة في الفكر الديني للمسلمين في العالم الإسلامي، وبالتالي أصبح يشكل خطرا على خلافة آل عثمان التي أخذوها بالاستحقاق فسعي المنصور وطموحه للخلافة كان ناتجا عن قواعد شرعية دعم بها موقفه، وهو التمسك بقاعدة القرشية في

¹ رضوان باتو، "مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب للكاتب جادور"، مجلة عمران للعلوم الانسانية والاجتماعية، العدد 215، سنة 2013، ص 201 (ص 199، ص 206).

² أحمد ابن القاضي، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، دراسة وتحقيق محمد زروق، ج 01، مكتبة المعارف، للنشر والتوزيع، المغرب، 1566، ص 220.

³ التمقروتي، مصدر سابق، ص 135.

الخلافة والانتماء للسلالة النبوية كإحياء منه بأفضليته على منافسيه في المغرب والعثمانيين في المشرق وكتأكيد لحق السعدين الشرعي مؤكدين بأن التبعية في قريش سادة العرب وهم منهم¹، فالمؤرخ الزباني يقول حول هذه المسألة: « ومن الفرض في علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز ولا تصح إلا في ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له وهذا لا يصلح أصليا»².

يلخص لنا الباحث جون رالف John Ralph أهم القواعد الدينية أو الشرعية التي روج لها المنصور وحاشيته لخدمة فكرة أحقيته في الخلافة في الأحاديث النبوية التالية: « قريش سادة الأمة»، "الإمامة في قريش"، "ستبقى الإمامة في قريش مادام مسلمان موجودان"، "ستبقى القوة في قريش"³، وفي إطار هذه المسألة أشار المؤرخ المغربي محمد حجي إلى نقطة مهمة جدا لم نلقى لها صدى في أوساط الباحثين هل خلافة المنصور وإمامته التي كان يطمح لها وطمح لها أسلافه قبله سنية أم شيعية؟، حيث يقول: "لقد نشأة فكرة الخلافة مع نشأة دولة الشرفاء... فكان أول من حمل الألقاب "القائم بأمر الله"، وهو شعار معروف لأئمة الشيعة، ثم لقب ولده الأصغر محمد الشيخ بالمهدي وهو أيضا من ألقاب الإمامة، فهل هذا يعني أن السعدين كانوا شيعة؟ ومن أي الفرق الغلاة أو المعتدلين؟، ظاهرين أو متسترين بالتقية؟"⁴.

فمحمد حجي أثار إشكالية تاريخية كانت غائبة ولتقصي الأمر لاحظنا أن بعض الكتابات التاريخية تشير إلى قيام المنصور بإرسال قاضيا مكيا إلى اليمن يدعى الشريف الأدبي أبا الفضل المعروف بابن العقاد الملكي «بعد أن أنعم عليه بالمال والخلع والكسي وكتب له كتابا لخاقان ملك الترك (الخليفة العثماني) يوليه خطة القضاء باليمن»⁵، وبدورنا نتساءل أي الأشراف كان ينتمي الإمام ابن

¹ السويكت، مرجع سابق، ص 182.

² نفسه، ص 178.

³ Jhon Ralph Willis, «the Bayaa in Islam and some Aspects of The Bayaa in morocco's relations with the western Sudan», un chapitre d'un livre «Le Maroc et l'Afrique aux début des temps modernes », colloque international, morakech, 23-25 octobre 1992, éditent 01, 1995, p220. (p-p 219-236)

⁴ محمد حجي، "حملة المنصور وهاجس الخلافة"، فصل من كتاب "المغرب وامبراطورية السونغاي نهاية القرن السادس عشر"، معهد الدراسات الإفريقية، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1995، ص 28 (ص 27- ص 31).

⁵ السويكت، مرجع سابق، ص 209.

العقاد هل هو من الشيعة الزيدية؟ أم هو من الأشراف الطاهرين؟، فالكتابات باستثناء موطنه ومكانته العلمية لا تقدم تعريفا له، وبالتالي تبقى مسألة طبيعة الخلافة والإمامة التي دعا لها السعديين في مكتبة التاريخ ولكن وباستعمال الفرضيات التاريخية نلاحظ أن المنصور راسل في تلك الفترة علماء كثر في المشرق والمغرب وعلى رأسهم قاضي مصر كما أسلفنا وقاضي مكة المكرمة، ولذلك لا نطن بتشيع السعديين، خصوصا إذا علمنا أن الشيعة الزيدية أو الإمامية لا تتلاقى مع آل البيت السنيين في أي شيء ومثال اليمن الذي أشرنا له في الفصل الثاني دليل على ذلك، فرغم حالة الضعف والقتال نرى أشراف اليمن الزيديين والطاهريين بعدين كل البعد مذهبيا ولم نشاهد اتحاد بينهما لقتال العثمانيين.

وبالتالي مسألة تشييع السعديين تقديريا غير ممكنة، فالمهدوية والتفاخر بالانتماء إلى آل البيت ميزة كل سلاطين الدولة السعدية، بل وحتى كل من مر بتاريخ المغرب منذ عهد الأدارسة فالفكرة الدينية كانت أساس قيام الدول أي المغرب الأقصى، بحيث كانت هذه الفكرة تقوي وتضعف حسب طبيعة كل مرحلة، وحسب شخصية كل سلطان، لذلك يعتبر السلطان أحمد المنصور أقوى السلاطين المغاربة في الفترة الحديثة، آمن بدور الفكرة الدينية القائمة على النسب لشريف وضرورتها في تأسيس دولته أو خلافة كما كان يدعى، وبالتالي كان لابد عليه لإنجاح طموحه تكريس هيبته داخليا وخارجيا.

فعلى المستوى الداخلي دائما مارس سياسة ثيوقراطية بالمفهوم المعاصر من خلال تكريس فكرة الإمامة والخلافة وكسب تأييد المجتمع له سواء بالسلم من خلال البيعة أو بالحرب من خلال الإيجار، وهنا نقصد بالذات القوى المهمة في البلاد والمجتمع المغربي من علماء ورجال الدين وقادة سياسيين وعسكريين، فالمنصور يبدو أنه تدارك الوضع وفهم الدرس عكس سابقه كمحمد الشيخ الذي دعى لنفسه بالخلافة، لكنه في نفس الوقت كان عرضة للاختراق وسهل الوصول إليه، فالمنصور كان خلاف ذلك حيث عمل إحاطة نفسه بأشخاص ذوي ثقة وكان أغلبهم قادة مغاربة أو أندلسيين أو علوج، فعملية الوصول إليه واختراق محيطه صعبة على خصومه العثمانيين، ومن نماذج سياسته هذه إلقاء القبض على بعض القادة المشكوك في أمرهم ومنهم القائد الدغالي¹، قائد جيش الأندلس الذي اغتاله وصادر أمواله وكذلك الكاتب محمد ابن عيسى الذي تعرض لنفس المصير حيث كان من أثرياء مدينة فاس،

¹ هو قائد أندلسي اسمه سعد ابن فرج الدغالي قتله المنصور رفقة القائد الأندلسي الآخر محمد زرقون بعد اتهامهم بالولاء للعثمانيين خاصة مع الفتنة التي وقعت أثناء مبايعته حيث طالب البعض بتولية اسماعيل ابن المعتصم بدلا منه لذلك انتقم منهم للمزيد ينظر: الفشتالي، مصدر سابق، ص41.

فحسب الكتابات بنى ثروته من خلال علاقاته السرية مع الجهات الأجنبية حسب قول المنصوري¹، وفعل الأمر ذاته مع قائد القصر الكبير أحمد بلكوشة الذي كانت له ثروة ضخمة، فقد مات كل أبنائه تحت التعذيب².

إضافة إلى ذلك عمل المنصور على توحيد كلمة القبائل حول بيعته وخلافته، ففي الجنوب قام في 01 ربيع الأول 988 هـ/16 أبريل 1580 بإنشاء الديوان الخاص بقبائل منطقة سوس، حيث جمعهم على كلمة السلطان ومبايعته وفرض عليهم الجباية، ونظم المنطقة إداريا من خلال هذا الديوان، كما قام في نفس الإطار بقطع كل دابر للفتنة ففي 1588 قام برحلة عسكرية لمدينة سوس لمحاربة ابن أخيه داوود ابن عبد المؤمن وذلك بعدما لجأ هذا الأخير إلى سوس³، وسياسة المنصور هذه تظهر بشكل واضح في رسالته إلى ابنه المأمون في فاس، ففي هذه الرسالة يعاتب فيها ابنه على ثقته في بعض رجال القبائل المغربية الذين كان لهم مواقف عدائية ضد السعدين، ويوضح له في رسالته أنهم سينقلون أخباره إلى الأعداء العثمانيين وأنهم سيكونون عورات البلاد، وقد يساعدون العثمانيين ضده⁴.

فالمضمون من خلال سياسته هذه ومن خلال هذه الرسالة يكون قد أدرك وتيقن من قوة الاختراق العثماني الذي تكلمنا عنه في الفصل الأول والثاني وأنه حقيقة تاريخية، فمحيط السلاطين السعدين السابقين كان مكشوف، وبالتالي عملية الإطاحة بهم سهلة لذلك المنصور سار عكس النهج فداخليا حصن نفسه وخارجيا ساير القوى الكبرى ولم يتحداها ولم يدخل في صراع معها وخاصة العثمانيين، فالمنصور اقتنع بضرورة وقف العداء ضدهم وعدم تصارعهم أو منازعتهم فلا فائدة له من ذلك خصوصا وأنهم أقوياء ويظهر موقف المنصور بشكل واضح في كلامه لحاشيته قبل غزو بلاد السنغاي حيث قال: «...وأياها فإن بلاد السودان أنفع من إفريقيا فالاشتغال بها أولى من مغازلة الترك لأنه تعب كبير في نفع قليل...»⁵.

¹ عثمان المنصوري، المغرب والبرتغال أبحاث من الأرشيف البرتغالي، د ط، مطابع الرباط نت، المغرب، 2017، ص 55.

² المنصوري، (المغرب والبرتغال...)، مرجع سابق، ص 56.

³ إبراهيم بن علي الحساني، ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، تحقيق عمر آفا، مطبعة القسمة، المغرب، 1989، ص 26، للمزيد ينظر: الناصري، الاسقصا، ج 5، ص 19.

⁴ السويكت، مرجع سابق، ص 201.

⁵ نقولا زيادة، دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، ط1، دار رياض الريس للكتب والنشر، بريطانيا، 1999، ص 379.

إضافة إلى سياسة التحصين الذاتي عمل المنصور في نفس الوقت على إبراز هيئته وحضوره كخليفة وسلطان عظيم من خلال بعض الأعمال الإدارية والعسكرية ومنها سياسة الحركة¹، ولتأكيد وإبراز الرموز السياسية لخلافته والتي تتجلى في مظاهر الاحتفالات الرسمية وفي العمارة والبناء، الموكب السلطاني، والاستعراضات العسكرية التي ترسخ تراث الأسلاف وتجدد مشروعيتها الثيولوجية أمام الرعايا، بحيث سعى للحفاظ على هويته الخاصة وخاصة في بعض الفضائل الخاصة بالملوك التي تظهر في أوقات المحن كحدوث المجاعات وحدث موجات الغلاء والأوبئة، فهذه الظواهر فرضت لإبراز دور السلطان أو الملك أو الخليفة لدى شعبه².

هذا بخصوص السياسة الداخلية أما على المستوى الخارجي فالمنصور كان ذكيا في التعامل مع القوى الأجنبية الكبرى وهي الخلافة العثمانية، إسبانيا وإنجلترا وكانت سياسته قائمة على الدبلوماسية والدهاء(الحيلة)³، حيث لم يعادي أي جهة ولم يتحالف مع أي جهة، فسياسته نحو العثمانيين كانت واضحة من خلال إرسال الإتاوة التي فرضت عليه جبرا؛ هذه الإتاوة التي كلفت أبوه محمد الشيخ حياته وكلفت عمه عبد الله الغالب الكثير من الخسائر المادية والبشرية جراء حروبه ضد العثمانيين وضد المتآمرين عليه داخليا بدعم من العثمانيين، وبالتالي سياسة سابقه الفاشلة لم يسر عليها، أما سياسته نحو إنجلترا فكانت على نفس النسق المسايرة والحيلة، فالمنصور كان على علم بقوة الإنجليز وتحالفهم مع العثمانيين، فهو واصل نفس سياسة المولى عبد الملك مع الإنجليز، وكان قد سمح للتجار الإنجليز بالإقامة والتجارة في المغرب، ولعل حادثة سنة 997هـ/1588 م مثال واضح لنظرة المنصور وحنكته فقد تم السماح للتجار الإنجليز والهولنديين والفرنسيين بالنتزه والاحتفال بمراكش عاصمة ملكه بانتصار الإنجليز على الإسبان في معركة الأرمادا أين وقع على إثر تلك الواقعة حدوث مناوشات مع عامل إسباني يدعى DIEGO MARTIN الذي اعتقله المنصور بعد مهاجمته للمحتقلين⁴، فهذا الحادث وإن كان بسيطا فقد مثل دافع دبلوماسي لموقف المنصور خصوصا وأنه كان على تواصل مع ملكة إنجلترا

¹ هي حملة تأديبية يقوم بها السلطان ضد القبائل لانتزاع الضرائب عنوة، وإجبارها على الاعتراف بسلطته السياسية، وتمثل جوهر العملية في استخلاص الجبايات الشرعية والعادية التي تحتكم إلى سياسة العصا والجزرة، والهدف هو تأطير القبائل وإبراز دور الإدارة المخزنية وفعاليتها، للمزيد ينظر: باتو، مرجع سابق، ص 201.

² نفسه، ص 202، ص 203.

³ بوتشيش، مرجع سابق، ص 180.

⁴ بن عبد الله، (الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ)، مرجع سابق، ص 76.

إليزابيث التي كان قد وعدّها بالمساعدة في الهجوم على الإسبان لكنه أخلف ذلك بحجة تحضيره لفتح بلاد السودان¹.

أما بالنسبة للإسبان فقد فعل نفس الشيء الذي فعله مع آل عثمان حين عقد معهم عدة اتفاقيات منها اتفاقية سنة 1581 التي تطرقنا إليها في العنصر السابق وكذلك اتفاقية 1589 ومن بنودها:

- أن يلتزم المغرب موقف الحياد من الصراع الانجليزي الاسباني.
- حجب المنصور لتأييده لمسلمي الأندلس النائرين مقابل استفادته من استرجاع مدينة أصيلا².

وكان المنصور في تواصل مع الملك الإسباني من خلال تبادل السفارات، فالمنصور أرسل أحد الأساقفة يدعى مارين Marine إلى الملك فيليب للتفاوض حول بعض القضايا المشتركة حيث اشترط عليه فيليب في رده على هذه السفارة على تقديم مساعدات للسعدين وضمان أمنه وتسليمه الأميرين السعديين اللاجئين في إسبانيا وهما الناصر بن الغالب والمولى الشيخ مقابل قطع كل علاقاته مع العثمانيين ومع باشوات الجزائر³.

وعلى ضوء هذا نستخلص أن العلاقات العثمانية السعدية كانت قوية ككل ظاهريا على الأقل فالطابع الودي بين الجانبين القائم على التبعية الاسمية كان محطة أنظار الإسبان وحتى الإنجليز، فلولا عدم دراية هؤلاء بأطوار تلك العلاقات ما طلب فيليب من المنصور قطعها، وما طالبت إليزابيث من مراد الثالث الضغط على المنصور، وبالتالي هذا يقودنا إلى نتيجة مفادها أن سبب عدم ضغط العثمانيين عسكريا على المغرب الأقصى يعود لدبلوماسية المنصور في فرض التوازن بين القوى، ورده على العثمانيين سنة 1581 على إثر حملة عالج علي، بأن الغرض من هذه الاتفاقيات هو مسيطرة إسبانيا، واسترجاع بعض المدن المحتلة خير دليل على ذلك.

فالعود التي قدمها المنصور إلى إسبانيا بقطع العلاقات مع العثمانيين والتنازل لهم عن ميناء العرائش الذي كانت تستعمله القوات البحرية العثمانية، مجرد كلام كما سبق وأنه برر للسلطان العثماني ذلك، لذلك لا يمكن اعتبار أن هذه الاتفاقيات هي تهديد مباشر للعثمانيين أو أنها أوقفتهم عن غزو المغرب كما يرى الباحث محمد كمال شبانة الذي يقول أن نجاحات أحمد المنصور كانت محل حسد

¹ روجرز، مرجع سابق، ص52.

² العربي، مرجع سابق، ص102.

³ موسى، مرجع سابق، ص43.

وربية من سلاطين آل عثمان الذين شرعوا لقراصنتهم حسب قوله مضايقة دولة المنصور ولذلك لجأ التحالف مع الإسبان كورقة ضغط ضد العثمانيين، معترفا بنفس الوقت بفشل تلك الاتفاقيات مع الإسبان بسبب أطماعهم¹.

صحيح نتفق مع الباحث شبانة في مضايقة العثمانيين لدولة المنصور وأشرنا إليه بمصطلح التبعية المفروضة أو الإجبارية فالمنصور بذكائه لا يمكنه المغامرة بالتحالف مع الإسبان ضد آل عثمان لأنه يدرك قوة العثمانيين من جهة ويدرك نفوذهم في الأطلسي من خلال خلافتهم الودية مع الإنجليز فإن فعل ذلك يكون قد سار عكس التيار ويكون قد اتخذ وواكب التيار الأضعف خصوصا إذا قارنا قوة العثمانيين والإنجليز في تحالفهم مقابل القوة الإسبانية، وبالتالي المنصور كان أذكى من اتباع تلك السياسة، وعموما طبيعة العلاقات العثمانية من 1581 حتى تاريخ غزو المنصور لبلاد السودان كانت ودية قائمة على التبعية الإسمية وإن كانت ظاهريا على الأقل وبعد هذا التاريخ اتخذت العلاقات مدخل آخر، وبالتالي نستطيع القول بأن المنصور نجح في سياسته في مسايرة وترويض القوى العالمية آنذاك ولو بالتنازل عن بعض الأمور المتعلقة بالسيادة، لكنه استطاع تجنب بلاده من الغزو وعاش المغرب في عهده الاستمرارية السياسية والاجتماعية.

وعن شخصية المنصور التي خرجت عن الواقعية إلى التهويل حسب تصريح الباحث محمد جادور بسبب كتابات مؤرخي البلاط الذين عهد المنصور إليهم تدوين انجازاته وإظهارها للعالم كنوع من الإشهار السياسي لفكرة المنصور الدينية المتعلقة بالخلافة حيث نجد الفشتالي يتمادى في تعظيم شخصية المنصور وكذلك المؤرخ المتأخر الناصري الذي قال في إحدى كتاباته "وكانت بوادر الأخلاق ميسرة للمنصور"²، وسار الباحث السعودي السويكت وفق جادور في ذلك حيث يرى أن الدعاية للمنصور كان لها الأثر في التعريف وانتشار فكرة المنصور (الخلافة) في المشرق غير أن القناعات التي ظهرت في المشرق حول حقيقة الشرفاء بالخلافة من العثمانيين لم تكن تتعدى حتى القول المجرد وهذا أبرز دور كل من المؤرخ العثماني وابن القاضي في الدعاية لأفكار المنصور³.

1-2- سياسة التوسع المغربية (مسألة الحدود):

¹ محمد كمال شبانة، الدويلات الإسلامية في المغرب، ط 1، دار العلم العربي، مصر، 2008، ص 94.

² محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، منشورات عكاظ، 2011، المغرب، ص 53.

³ السويكت، مرجع سابق، ص 218.

يعتبر ملف الحدود أحد القضايا التاريخية التي كانت لها الأثر الفعال في توجيه السياسات الدولية في بلاد المغرب العربي الحديث، ومن أبرزها قضية الحدود الجزائرية المغربية في القرن 16م، فهذه المسألة حسب الباحثة المغربية زهراء النظام طرحت لأول مرة في القرن السادس عشر ميلادي وشكلت أحد القضايا الهامة في علاقة السعدين بالعثمانيين، وتحديدًا سنة 1550¹، وانطلاقًا من هذا نحاول في هذا الفصل التطرق إلى هذه القضية والتركيز عليها خاصة في فترة أحمد المنصور الذهبي الذي أعاد هذه القضية إلى الواجهة بعد اختفائها لمدة قصيرة بعد موت السلطان عبد الله الغالب، حيث سنتناول المسألة على ثلاثة أقسام: الحدود الغربية الشمالية، الحدود الغربية الوسطى والحدود الغربية الجنوبية مبرزين أهم الأحداث المحيطة بها، وكيف أثرت على السياسة العثمانية في المنطقة.

1-2-أ- الحدود الشمالية: ونقصد بها هنا الحدود الغربية الشمالية الممتدة من حدود تلمسان الغربية إلى غاية حدود إقليم وادي الساورة (بشار حاليا)، فما هو معروف تاريخيا أن الكيان السياسي الذي كان يشغل جغرافيا منطقة المغرب الأوسط هي دولة بني عبد الواد الزيانية ويمتد من الحدود الغربية لبجاية شرقا حتى وادي ملوية غربا الذي يعد الحد الفاصل بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى وقاعدته تلمسان²، بحيث يؤكد الإسباني مارمول بقوله: «إن مملكة تلمسان هي ثالث ممالك البربر، وقد سماها القدامى موريطانيا القيصرية، يحدها غربا مملكة فاس إذ يفصل بينهما نهران أحدهما يسمى زيز وينبع من جبال زكانة وبعد مروره بالقرب من مدينة كرسيلوين وعبر إمارات كنانة (كذا) ومطغرة والرتب، يذهب إلى سجلماسة ومن هناك إلى الصحراء حيث يتحول إلى بحيرة، ويسمى النهر الآخر ملوية وينحدر من الأطلس الكبير بعد مسيله نحو الشمال يذهب ليصب في البحر المتوسط قرب مدينة أونى (كذا) يحد هذه المملكة شرقا الإقليم الذي سمي...إفريقية وتمتد على طول الساحل من مصب هذا النهر الأخير إلى مصب آخر...بجاية»³.

¹ العربي واعي، منعم بوعملات، قراءة في كتاب: "العلاقات المغربية الجزائرية، مقارنة سياسية ثقافية خلال القرن 16م /10هـ تأليف الدكتورة زهراء النظام"، ندوة تاريخية من تنظيم كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة الحسن الثاني، المغرب، 2015-2016، ص324.

² فيلاي مصطفى، المغرب العربي في عهد عقبة بن نافع، د ط، دار الكتاب الحديث، الأردن، 1988، ص 18.

³ كاربخال، ج01، مصدر سابق، ص291.

ويوضح الباحث جلول المكي أن بنو عبد الواد استقروا في منطقة المغرب الأوسط من تاهرت شرقا إلى وادي ملوية غربا ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى الصحراء جنوبا، يخرجون إلى ماشيتهم هناك وعاشوا نصف قرن بين وادي ريغ والزاب وتيكورارين وفكيك وتافلايت ودرعا¹.

وانطلاقا من هذه التعاريف الجغرافية نحاول تحديد أهم البؤر التي شهدت صراعا سياسيا وعسكريا في ق16م مع تحديد أسباب ذلك الصراع وحقيقته وخاصة في الفترة 1581-1603 ولكن قبل ذلك يجب إعطاء مسح تاريخي قبلي لمعرفة أصل المشكلة التي تشكلت منذ عقود عدة، وخاصة في طرف الشمال الغربي لولاية الجزائر، والغرض من ذلك هو تجديد الدراسة، وهذا التجديد حسب محمد حجي لا يعني قيام دراسة جديدة في هذا العصر مكان القديمة وإنما هو تطوير في نطاق الاستمرارية لكن بشكل آخر طعم بعناصر متعددة سواء من حيث المادة المدروسة أو من حيث العناصر البشرية القائمة على التلقين والطرق المتبعة في ذلك².

وعلى ضوء ذلك ومن خلال الملاحظة والتمحيص يلاحظ أن أهم المناطق التي عرفت صراعا سياسيا وعسكريا حولها هي المدن والأقاليم التالية: تلمسان، وجدة، تاوريرت، تازة، مكناسة وقلعة تميزدكت، هذا بالتحديد حيث تعتبر هذه المناطق مناطق تقوم واحتكاك مباشر، ولاستكشاف حيثيات الصراع نتناول كل مدينة على حده.

1-2-أ-أ/ وجدة: هي مدينة مغربية تقع في الشمال الشرقي للمملكة المغربية حاليا قرب الحدود الجزائرية من جهة تلمسان غربا يصفها المؤرخ حسن الوزان ويشيد بها أكثر مما أشاد بأراضيها الفلاحية وغزارة إنتاجها وركز في وصفه للمدينة على ظروفها الصعبة، التي عرفتها من جراء الحروب المتوالية التي كانت

¹ السيد المكي جلول، مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من 631هـ إلى 1263هـ/1234م-1847م، رسالة جامعية للحصول على الماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1993، ص15.

² محمد حجي، "تجديد الدراسة بالقرويين أيام السعدين"، فصل من كتاب: "محطات تاريخ المغرب الفكري الديني"، تنسيق وتقديم محمد العيادي، ط01، مطبعة فضالة، المغرب، 1999، ص39، (ص39، ص45).

تدور رحاها بين ملوك فاس وملوك تلمسان الذين كانت منحازة لهم¹، فوجدة كانت محل صراع دائم بين هاتين القوتين، وقد شهدت عدة أحداث منها تهديم المدينة سنة 694هـ/1295م على يد ابن أبو يعقوب².

فوجدة وسكانها سياسيا كانت ذات تبعية متغيرة حسب طبيعة كل مرحلة، أي أنها كانت دائما تخضع لإرادة الغالب ورغبته في توسع النفوذ، وعلى العموم وجدة كانت ضمن المجال الجغرافي الزياني قبل وادي ملوية، أي أنها كانت أصلا زيانية إذا ما نظرنا إلى التعريفات السابقة، فالوزان يقول عن أهلة وجدة: «وسكانها فقراء يؤدون الخراج إلى ملك تلمسان وإلى الأعراب المجاورين لهم بمغازة أنكاد»³، ولمعرفة حقيقة التواصل الزياني الوجدي ينبغي معرفة أطوار العلاقات الاجتماعية والتجارية كذلك، فسكان وجدة قبل القرن 16م كانوا يتاجرون في تلمسان التي كانت سوقا لمنتجاتهم المختلفة⁴، ويصرح الباحث مولاي إسماعيل العلوي أن وجدة ما كانت تتفك من قبضة بني عبد الواد إلا مدة يسيرة ثم اضطرب وضعيتها بسبب دسائس أصحاب المصالح وخصوصا بعض التجار وشيوخ القبائل⁵، وهذا يؤكد الاتصال الاجتماعي والتجاري الكبير بين تلمسان ووجدة، مما جعلها مدينة زيانية في أغلب الأحيان.

أما عن حالة وجدة في القرن 16م ومع بداية الوجود العثماني بالمغرب العربي، وترسيم إلحاق ولاية الجزائر ضمن أملاك الخلافة العثمانية أصبح البعد الحدودي مطروحا وبإلحاق⁶، وأصبح من الضروري ترسيم الحدود ووضع حد للصراع القائم، والخاضع لمنطق القوة والغلبة.

¹ الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، ج02، ط02، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1983، ص12. للمزيد حول المدينة ينظر: أحمد العربي، "وجدة مدينة الحيرة أو حيرة المدينة"، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 02، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، ص 126.

² مصطفى النشوي، "أثر المتغيرات السياسية والاقتصادية على تطور السكان بمدينة وجدة"، ندوة بعنوان: "المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر، الوسط الطبيعي، التاريخ والثقافة"، أيام 13-14-15 مارس 1986، جامعة محمد الأول، منشورات كلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية، جامعة محمد الأول، ص 107.

³ العلوي، مرجع سابق، ص14.

⁴ نفسه، ص 15.

⁵ نفسه، ص 15.

⁶ محمد بن شريفة، "ملاحم من شخصية محمد الأول"، مجلة دعوة الحق، العدد 258، سنة 1986، المغرب، ص 338. (ص315- ص 342).

وعن حالة وجدة بالتحديد تفيد المصادر والمراجع التاريخية بأنها استمرت كبؤرة صراع خلال القرن 16م أيام العثمانيين والسعديين، والسبب في ذلك هو أن العثمانيين واصلوا نفس السياسة السابقة في مجال الحدود بإخضاع كل منطقة تصل إلى نهر ملوية حدود الزيانيين السابقة بينما سار سلاطين السعديين على نفس سيرة أسلافهم بنو مرين واعتبروا أن كل ما يقع قبل نهر التافنة الواقع بتلمسان هو لهم، وبالتالي عرفت المناطق التي ذكرناها صراعا سياسيا وعسكريا شديدا، فوجدة طيلة هذه المدة وحتى القرن 17م سنة 1210-1795 كانت تابعة لولاية الجزائر العثمانية ولا شك أن هذا التخم كان معلوما قبل ذلك حسب المؤرخ الناصري نقلا عن ابن خلدون¹.

ففي النصف الأول من القرن 16م كانت وجدة تعاني من أهوال الخلاف المسلح الذي استمر بين السعديين والعثمانيين، فعند تقهقر الجند المغربي حسب تصريح حجي يحتلها الإنكشارية ثم يجلون عنها بعد أن يكر عليهم المغاربة ويطاردوهم إلى ما وراء تلمسان ووهران ويقصد الباحث هنا حملات محمد الشيخ السعدي على تلمسان، ليصف أن المنطقة عرفت استقرارا في الربع الأخير للقرن 16م بداية من فترة عبد الملك المعتصم وأنها أصبحت مدينة الحدود المغربية كما أصبحت تلمسان مدينة الحدود الجزائرية². ويجب التنويه هنا إلى أن الفترة التي شهدت فيها مدينة وجدة الاستقرار في عهد المولى عبد الملك المعتصم كانت الدولة السعدية تابعة اسميا للباب العالي كما ناقشناه في الفصل الثالث، وبالتالي كان العثمانيين يرون أن وجدة والمناطق المتاخمة لها كغرسيف وتازة ملكا لهم بغض النظر عن تبعية المغرب لهم، فالمغرب كان يدفع الضريبة السنوية للباب العالي، أما بخصوص حالة مدينة وجدة في فترة المولى أحمد المنصور الذهبي، فقد كانت مستقرة سياسيا والسبب هو تبعيتها للجزائر العثمانية من جهة وعدم مطالبة المنصور بها، ويظهر ذلك في السياسة التوسعية التي كانت نحو الجنوب بدل الشرق، ويظهر ذلك في كلامه لحاشيته قبيل غزو السودان الذي ذكرناه في المطلب الأول، فالمنصور كان يتخوف من العثمانيين خصوصا وأنه عاصر قباظنة وحكام أقوياء أمثال صالح رايس، وطرغوث بكلكري وقلج علي³، فالمنصور نجده يغض الطرف في المطالبة بهذه الأقاليم ومنها وجدة التي عمل أسلافه على محاولة ضمها حيث تجنب مواجهة أساطيل العثمانيين الناشطة على سواحل المغرب الشمالية والشرقية والسبب

¹ الطاهر بخدة، " دور الأتراك في انبعاث ووحدة الدولة الجزائرية الحديثة"، مجلة عصور الجديدة، العدد 11، ج2، 2013-2014، الجزائر، ص211 (ص196-ص211)، للمزيد ينظر: مارمول، مصدر سابق، ص291.

² محمد حجي، الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين، ج2، مطبعة فضالة، د ط، المغرب، 1978، ص431.

³ جميل، مرجع سابق، ص280.

في ذلك إدراكه لقوة العثمانيين وتخوفه من القادة سابقى الذكر فسفير المنصور ينقل لنا جانب من تلك القوة المرهبة سنة 1583 بقوله: «مرساها عامر بالسفن ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش.... يقهرون النصارى في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبا في قلوب العدو فبلادهم بذلك أفضل بكثير من بلاد إفريقيا وأعر»¹.

وتظهر عدم نية المنصور بمقارعة آل عثمان على هاته المناطق في حوار مع أحمد بابا التتبتكي عندما سأله عن سبب احتلاله السونغاي والترك أقرب إليه مستولين على المناطق المغربية؛ فرد عليه المنصور "الترك الترك ما تركوك"²، وبالتالي وجدة خلال هذه الفترة كانت منطقة جزائرية تابعة للخلافة العثمانية.

1-2-أ-ب/ تلمسان وأحوالها:

تلمسان هي البؤرة الحقيقية للصراع العثماني السعودي حيث كان هؤلاء (السعديين) يسعون إلى السيطرة عليها وخاصة في عهد محمد الشيخ السعودي بحجة أن أهالي تلمسان هم من طلبوا ذلك وبالتحديد رسالة أهالي تلمسان لمبايعة محمد الشيخ أي بدايات التواجد العثماني في المدينة³، وهي في الحقيقة تمثل جزء أهالي تلمسان وليس الكل وخاصة الموالين للسلطين الزينيين الذي خلفهم العثمانيين في الحكم، على إثر هذا بادر السعديين بداية من سنة 1550 إلى محاولة السيطرة على تلمسان في أحيان عدة، وكان الرد يأتي سريعا من طرف العثمانيين، ففي سنة 1551 يقول الباحث الجزائري هلايلي حنفي أنه بعد هجوم الشيخ على تلمسان ودحره بعد ذلك تم عقد اتفاقية وادي ملوية بين والي الجزائر حسن باشا ومحمد الشيخ السعودي ومن بنودها ما يلي:

1. وادي ملوية هو الحد الفاصل بين البلدين.
2. احترام الحدود المتوارثة من زمن المرينيين والزينيين.
3. عدم الاعتداء على بعضهما البعض.
4. عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي بلد.
5. عدم التحالف مع الأعداء ضد كل طرف.
6. عدم تأييد الثائرين على النظام القائم في أي بلد⁴.

¹ التمروتي، مصدر سابق، ص 16.

² بنيرد، مرجع سابق، مجلة كان العدد 28.

³ كريم، مرجع سابق، ص 76.

⁴ بخدة، مرجع سابق، ص 205.

وبعدها بسنة أي سنة 1552 قام والي الجزائر صالح رابيس بإرسال سفارة بقيادة العالم الخروبي الطرابلسي لترسيم الحدود نهائياً¹، ولكن هذه السفارة لم تحقق شيئاً وعادت المحاولات السعدية من جديد للسيطرة على تلمسان، ففي جوان 1557 احتل محمد الشيخ تلمسان لينسحب منها في أوت 1557 بعد علمه بانطلاق الحملة العثمانية ضده لتعاد الكرة مع خليفته السلطان عبد الله الغالب الذي هاجم تلمسان لكنه انسحب بعد هجوم العثمانيين عليه على إثر واقعة وادي البن سنة 1558²، فتلمسان كانت أهم قاعدة للعثمانيين في الغرب نظراً لثقلها الاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي حيث كانت ملتقى للطرق التجارية سواء القادمة عن طريق فاس باتجاه وهران أو القادمة جنوب الصحراء، فكما أشرنا سابقاً لتلمسان كانت سوقاً وملتقى لسكان وتجار منطقة وادي ملوية كوجدة التي ذكرناها سابقاً، فندرومة التابعة لتلمسان كانت أهم سوق لسكان وجدة وغرسييف وتازة، وبالتالي كانت تحتوي على طبقة شعبية (اجتماعية) متنوعة حسب الباحث دادة ومنهم الكراغلة، العثمانيين، اليهود³، لذلك مسألة الصراع عليها كانت مسألة فرض الوجود.

أما عن حالة تلمسان وأحوازها بعد سنة 1575، فقد شهدت مرحلة من الاستقرار في فترتي السلطان عبد الملك السعدي وأحمد المنصور الذهبي باعتبار أن المغرب كان سابقاً تابعاً للباب العالي وكذلك عدم تجرؤ هؤلاء السلاطين على السيطرة على تلمسان كما فعل محمد الشيخ الذي اغتيل سنة 1557 وكذلك عبد الله الغالب الذي عرفت حالة من عدم الاستقرار في عهده.

1-2-أ-ج/ مدينة مكناس:

إن مكناس وإن كانت بعيدة تاريخياً عن مجرى الصراعات العسكرية بين الجانبين فقد جاء ذكرها في بعض المصادر كمدينة واقعة تحت سيطرة العثمانيين خلال هذه الفترة وخاص في بداية فترة السلطان أحمد المنصور الذهبي، فالمدينة كانت ذات نظام خاص بها حيث كان على رأسها بداية من حكم

¹ حنيفي هلايلي، "أوراق قديمة من كراس الجزائر في العهد العثماني"، ط1، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص57.

² محمد دادة، "تلمسان في دوامة الصراع الثلاثي بين الاسبان والعثمانيين والمغاربة في القرن 16"، مجلة عصور الجديدة، ع02، 2011، الجزائر، ص198، (ص193-ص202). للمزيد ينظر: محمد الصباغ، الصحراء في علاقات المغرب الدولية 1840-1975، رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الزقازيق، مصر، ذت، ص 39. الصالح بن سالم، التواصل الثقافي بين الجزائر والمغرب خلال 1549 - 1664، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، الجزائر، 2013، 2014، ص 27.

³ نفسه (دادة)، ص 199.

السلطان عبد الملك السعدي الأمير داوود بن عبد المؤمن ابن أخ السلطانين المذكورين الذي قتل على يد الغالب وكان من المخلصين للدولة العثمانية وكان لاجئاً لديها¹.

ويجب التنويه هنا إلى أن دواد رفض بيعة المنصور سنة 1578 وكان يمثل مشروع الخلافة العثمانية لحكم المغرب، حيث كان مدعوماً منها ومدعوماً من بعض القيادات الداخلية كالقائد زرقون والدغالي اللذان قتلها المنصور بتهمة التآمر عليه مع العثمانيين، حيث خاض داود تمرداً ضد عمه المنصور حتى اغتيل في آخر معركة له سنة 1581 بسوس، وانطلاقاً من هذا نستطيع القول أن مكناس كانت تابعة للدولة العثمانية حتى تاريخ 1584 على الأقل فهناك رسالة أرشيفية تؤكد ذلك، ففي رسالة مؤرخة في 992هـ/ 1584 موجهة من الخليفة العثماني إلى أمير أمراء جزائر الغرب جاء في مقدمتها: «جاءت رسالة إلى المقام الشاهاني الكريم من قاضي جزائر الغرب وآغا الإنكشارية بها حول مدينة مكناس التابعة لسنجق تلمسان وتتمحور محتويات هذه الرسالة حول وضعية مدينة مكناس من حيث التبعية هل هي تابعة لمدينة تلمسان وبالتالي للجزائر كما كان ذلك منذ الفتح الخاقاني أم أصبحت بموجب أمر شاهاني جديد تابعة لحاكم فاس؟»².

وتضيف الرسالة أن «سبب هذا الخلاف راجع فيه أن هذه المدينة-مكناس- كانت تدفع الرسوم والضرائب إلى الجانب الجزائري منذ الفتح الخاقاني إلى الآن لكن هذه المرة طلب منها هذه الرسوم والضرائب حسب العادة المألوفة والمتبعة امتنع أهلها عن الدفع قائلين بأن هذه المدينة لم تبقى تابعة لولاية الجزائر وإنما هي أصبحت تابعة لمولانا أحمد حاكم فارس بموافقة الباب العالي على ذلك»³، فالرسالة التي أرسلها والي الجزائر جاءت على سبيل الاستفهام والاستفسار إن فعل الباب العالي ذلك أم لا وكان جواب الخليفة العثماني كالتالي: «ولذا أمرت ما يلي: عند وصوله بادر إلى معالجة الأمر بحكمة وفي ضوء العادة المألوفة منذ القدم حتى لا تكون التغييرات الجديدة ضارة بالنسبة للرعية والدولة ولا تخلف العادة الجارية في هذا الموضوع ولا تسمح لأحد أن يخالفها أيضاً، وكن حريصاً كل الحرص على حماية وحراسة المصالح التابعة للإيالة المذكورة... ولا تترك فرصة لحاكم فاس للتدخل في هذه المناطق لأن ذلك قد يؤدي إلى نتائج غير ملموسة واثبت ولا تتغير في مواقفك لأن إن فعلت هذا تجدهم يعظمونك ويرهبون

¹ كنون، مرجع سابق، ص 26.

² الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 52، عدد 227، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب، في 992 - 1584، ص 01.

³ نفسه، ص 01.

جانبك ولا يقدرّون على التفكير في التدخّل والتعرّف على ما في يدك وتحت نفوذك بحكم التمثيل والسلطة وكن حذرا دائما ومستعدا لجميع الأحوال والطوارئ حتى لا تفاجأ غفلة والسلام»¹.

وعلى ضوء هذه الرسالة نستخلص أن مكناس كانت تابعة لمقاطعة تلمسان كما ذكر الخليفة العثماني، ولكن استمرارية التبعية بعد هذا التاريخ 1584 لم نجد معلومات ولا وثائق تؤكد ذلك ولكن نظريا؛ وحسب الوثيقة وبحكم الظروف أنها استمرت في تبعيتها للجزائر، ويجب التذكير أن هذه المدينة إضافة إلى المدن الأخرى التي سنذكرها دخلت تحت الوصاية العثمانية في عهد عبد الله الغالب وهو ما سننتظر إليه في العنصر الموالي، وكانت معارضة له².

1-2-أ-د/ تازة، تمزيردكت، غرسيف:

تشكل هذه التخوم المناطق الحدودية بين ولاية الجزائر العثمانية والمغرب السعدي فتازة بينها وبين تلمسان نحو سبع مراحل وبينها وبين فاس ثلاث مراحل³، أما من حيث التبعية السياسية فيقول الباحث الجزائري المكي جلّول إنها كانت قبل الوجود العثماني في الجزائر وبالتحديد أواخر عمر الدولة الزيانية والمرينية مستقلة إداريا وسياسيا جراء ضعف هاتين القوتين في آخر مرحلتهما⁴، أما عن وضعيتها أثناء الوجود العثماني يقول محمد حجي كانت تعيش في حالة من التوتر وبؤرة صراع حتى سنة 1567 حيث قال: «كذلك عرفت مدينة تازة أيام السعديين إلى جانب كتائب الجند المرابطة، البستيون والمحلات السلطانية أو التركية الغادية الرائحة»⁵، فدخل العثمانيين تازة كان سنة 1554 أثناء قيام صالح ريس بإعادة أبي حسون بحكم فاس، حيث كانت تمثل بداية طريق صالح ريس نحو المغرب ببادس التي حدث فيها قتال مع القوات السعدية ثم تقدم العثمانيين نحو الداخل واستطاعوا دخول مدينة تازة بعد عدة معارك ليتوجهوا بعدها إلى فاس⁶، أما بخصوص قلعة تامزيردكت فقد كانت قبل الوجود العثماني حصنا قويا لبني

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 52، عدد 227، مصدر سابق، ص 01.

² كانت مكناس قبل عهد المنصور من المدن المعارضة للحكم السعدي، فالعالم الشيخ أحمد بن حرزوز عالم هذه المدينة رفض مبايعة السعديين وحرص الناس عليهم حيث قال: «جاءكم أهل السوس الأقصى البعاد مع رئيسهم الشيخ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل... فحسبه بهم وليس المهاد» ينظر: حجي، (الحركة الفكرية في...)، مرجع سابق، ص 339.

³ أحمد بن المهدي الغزال، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد 1728-1766، تقديم تعليق الفريد التبانى، منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الاسبانية 1941، ص 102.

⁴ المكي، مرجع سابق، ص 88.

⁵ حجي، (الحركة الفكرية في المغرب...)، مرجع سابق، ص 436.

⁶ سالم، (السيطرة العثمانية على الحوض الغربي...)، مرجع سابق، ص 170.

زيان فهي تقع على الطريق من فاس إلى تلمسان، وبعد ضعف الدولة استولى عليها الأعراب وعندما جاء العثمانيين سيطروا عليها وحصنوها وأقاموا حمية بها¹.

فمدينة تازة وقلعة تمزيزدكت لها صدى في الوثائق العثمانية رغم عدم ذكرها بالاسم الصريح فهذه المناطق كانت قد طالبت بها الخلافة العثمانية عبد الله الغالب السعدي لفائدة إخوته الموجودين في الجزائر ففي رسالة أرشيفية بتاريخ 1568 إلى حاكم الجزائر تذكر أنه كان للمولى عبد المالك لما كان يقيم في الجزائر منحة من خزينة الجزائر « وكذلك المحصول السنوي من (قلعة) وطن وقرية مصانة وغيرها»² حيث أوضحت الرسالة الثانية بتاريخ 976/05/20 هـ - 1508/11/10 م قيمة ما كان يأخذه وهو ما يعادل ستة آلاف زياتي ذهبي كمخصص عن ستة أشهر من ناتج مدينة "قلعة" كما تذكر الرسالة وكذلك قرية مصان التي يبلغ محصولها السنوي ستة مئة سوداني³، فبالنسبة للتسمية لم نجد لها صدى في المصادر والمراجع التاريخية ومن المرجح أن القلعة يقصد بها تمزيزدكت، ومصانة غرسيف، فبحكم أن تسمية المدينتين أمازيغيتين والرسالة قادمة من اسطنبول باللغة العثمانية ومن كتاب عثمانيين ربما صعب نطقهما وتمت الإشارة لهما بالقلعة وبمصانة، فمدينة غرسيف حسب الباحث قادة دين كانت تدفع الضريبة للسلطة العثمانية في منتصف القرن 16م 1548م - 954 هـ على الأقل⁴.

ولتأكيد هذه المعلومات قمنا باستطلاع وثيقة أو خريطة إسبانية يرجع تاريخها إلى فترة أحمد المنصور الذهبي تظهر أن مساحة المغرب السعدي شمالا حتى سنة 1590 لم تكن تجاوز فاس من ناحية الشمال الشرقي مظهرة بداية خضوع هذه المدينة بداية من 1548 وخضوع توات ما بين 1583-1581⁵، فالمؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني يصرح حول مسألة الحدود بالقول أنها لم تكن دقيقة

¹ مارمول، مصدر سابق، ص 293. توضيح: بخصوص قلعة تامزيزدكت توجد كذلك قلعة أخرى من جهة بجاية بهذا الاسم كانت على حدود بني زيان الشرقية للمزيد ينظر: بدر الدين شعباني، تمزيزدكت المدينة الزيانية المحصنة، مجلة دراسات آثار الوطن العربي، م01، ع 14، المغرب، 2002، ص959 (ص957- ص965).

² أ. و. ج، د. م رقم05، صحيفة رقم 899، عدد 2462، مصدر سابق.

³ أ. و. ج، د. م رقم07، صحيفة رقم 899، عدد 2461، مصدر سابق.

⁴ قادة دين، "الحدود الجزائرية المغربية عبر التاريخ"، مجلة عصور الجديدة، م07، ع07، 2017-2018، الجزائر، ص 211، (ص203- ص229).

⁵ Juan Manwel Riesgo, « la formation de un ejercition hispano-Marroqui y la conquista del Sudan Nigerian a end 1591», un chapitre d'un livre «Le Maroc et l'Afrique aux début des temps modernes», colloque international, morakech, 23-25octobre1992, éditent 01, 1995 p158 (p13-p160).

وكانت في الصحراء مفتوحة¹، ونجانبه الصواب في طرحه بحكم أن هذه المناطق شهدت نوع من محاولة عدم التفاهم لعدم وجود اتفاقية رسمية دائمة وبقيت كما في السابق خاضعة لمنطق القوي والغالب والأحداث الموائية بعد القرن 16 عشر خير دليل على ذلك.

1-2-ب- حدود الجنوب الغربي الأعلى والأوسط والأسفل.

نتناول في هذا المحور موضوع حدود الجنوب الغربي الأعلى والأوسط والأسفل لولاية الجزائر العثمانية والتي تشمل حاليا المناطق التي تقع جنوب تلمسان الزيانية سابقا وتشمل كل من ولاية البيض (قصر بوسمغون سابقا)، ووادي الساورة أو بني عباس (بشار حاليا)، وكذلك إقليم فكيك أو فغيغ والذي يشمل المنطقة الحدودية بين المغرب الأقصى والجزائر حاليا، إضافة إلى منطقة توات محاولين تبيان الوضعية السياسية من حيث التبعية لهذه المناطق في الفترة العثمانية خلال القرن 16م وخاصة في الفترة من 1581-1603 فترة بداية التوسعات السعدية نحو الجنوب فما مصير هذه المناطق في هذه الفترة وما هو وضعها السياسي؟.

1-2-ب-أ/ الجنوب الغربي الأعلى "قصر بوسمغون":

تشير بعض الأبحاث التاريخية أن هذه المنطقة كانت في الفترة الحديثة تابعة للمغرب الأقصى ممثلا في السعديين والعلويين، مستدلين في ذلك بالروابط الاجتماعية التي تربط ساكنة الإقليم، ولاستكشاف الأمر قمنا باستطلاع تاريخ المنطقة قبل القرن 16م تاريخ بداية الوجود العثماني بالجزائر، حيث يشير الباحث المكي في هذا الصدد أن هذا الإقليم كان يعد من ممتلكات الدولة الزيانية²، ويشمل كل من قصر بوسمغون³، فكيك، ووادي الساورة أو بني عباس، فحاضرة بوسمغون خلال الفترة الوسيطة خضعت للقوى السياسية القائمة آنذاك، ففي القرن 10هـ/10م وصلتها سلطة الأشرف الأدارسة، وفي القرن 11م/05هـ عرفت امتداد المرابطين عليها وفي القرنين 06 و07هـ/13 و14م سكنته وسيطرت عليه القبائل العربية الهلالية، من بني عامر، وبني زغبة وقد تعاونوا مع الدولة الزيانية في حكم الحاضرة⁴.

¹ أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري للناشئة الإسلامية، د ط، المطبعة الشرقية، تونس، 1948، ص 07.

² المكي، مرجع سابق، ص 15.

³ قصر بوسمغون ينتمي إلى ما يعرف حاليا بالجنوب الغربي الأعلى الذي هو جزء هام من الصحراء الجزائرية الكبرى، كما يشكل همزة وصل بين الشمال الغربي الجزائري والجنوب الغربي الأوسط (الساورة) والأسفل (توات وكورارة) وتنتمي حاليا إلى البيض، للمزيد ينظر: محمد الكبير فيقيقي، حاضرة بوسمغون في المصادر المغربية أثناء العصر الحديث، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 09، سنة 2014، الجزائر، ص 305.

⁴ فيقيقي، مرجع سابق، ص 308.

وهناك عدة شواهد تدل على ارتباط قصر بوسمغون (البيض) بالدولة الزيانية سياسيا قبل القرن 16م، ومن هذه الدلائل هي أن التجارة أو المعاملات التجارية التي كانت تتم على مستوى القصر أو على مستوى قصر عسلة، عرفت حضور العملة الزيانية وهي الدينار الذهبي الزياني¹ في هذه المعاملات وكذلك وحدة التبر بالوزن الزياني².

فوضعيتها كانت مشابهة لوضعية المناطق الشمالية الحدودية أي خاضعة لمنطق القوة والتوسع، فالمرينيين في المغرب الأقصى كانوا كلما أحسوا بالضعف الزياني هاجموا الأراضي الزيانية ما وراء نهر ملوية، فالباحث حسن حافظي العلوي يقول بأن الحدود كانت متوترة قبل التواجد العثماني فسجلماسة في القرن 13م كانت خاضعة للزيانيين الذين استولوا عليها بعد تحالفهم مع عرب المنبت المستقرين واسترجعها المرينيين في أواخر القرن 13م³، وهي نفس الحالة بالنسبة لبوسمغون، فكيف، ووادي الساورة لكن بحكم العرف السياسي هذه المناطق كانت زيانية في الأصل فالاعتداء كان دائما يأتي من جهة الغرب (المرينيين)، فالزيانيين في أفضل مراحل قوتهم لم يتجاوزوا وادي ملوية ولم يتوسعوا على حساب الأراضي المرينية. وعن النشاط الثقافي والاجتماعي في منطقة الجنوب الغربي الأعلى والأوسط في هذه الفترة فقد كانت ذات نظام متشابك ومترايط ثقافيا حيث يلاحظ المؤرخ روني باسي أن اللهجات التي يتحدث بها سكان الواحات كتيوت وبوسمغون، والمكرار، والسلالة وعسلة وإيش وفجيج متشابهة تمام التشابه وأن المنطقة الممتدة من وهران إلى حدود تافلات تتحدث بلغة بربرية واحدة⁴.

1-2-ب-ب/ منطقة الجنوب الغربي الأوسط "فجيج"⁵، "وادي الساورة" (بشار حاليا):

¹ الدينار الذهبي الزياني هي عملة من الذهب الخفيف وقد لاقت هذه العملة رواجاً واستشاراً في البلدين خلال القرن 16 م، وكانت هذه العملة تسك بتلمسان في العهد الزياني، ينظر: فيصل قاسم، "الحركة التجارية بين موانئ بلدان المغرب العربي خلال العهد العثماني"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الأمير عبد القادر العلوم الإسلامية، الجزائر، 2013-2014، ص 86.

² سيرات بوحفص، "الجنوب الغربي الجزائري، قصر بوسمغون نموذجا"، مجلة تنوير، العدد 02، 2017، ص 192.

³ حسن حافظي العلوي، سجلماسة وإقليمها في القرن 14م/هـ، د ط، مطبعة فضالة، المغرب، 1997، ص 32.

⁴ أحمد مزيان، فجيج، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن 19 (1845-1903)، د ط، مطبعة فجر السعادة، المغرب، 1988، ص 80 للمزيد ينظر: فيقيقي، مرجع سابق ص 306.

⁵ تسمى كذلك فجيج وفيقيقي والإسم المناسب والمتداول هو فيجيج الذي يحمل الدلالة الجغرافية للفجاج LES CLUSES والانفراجات التي تخترق الواحة في كل الجهات، يعرفه الزياني في الترجمانة قائلا: «ويقابل تلمسان خلف جبل درن، إقليم فيقيقي فيه قصور وقرى كثيرة، وعمائر معتبرة، ونخيل وبساتين ومياه جارية، وأم لا تحصى»، للمزيد ينظر: المملكة المغربية، وزارة الداخلية، إقليم فجيج: منوغرافية جماعة فجيج"، 2013، ص 08-09 (ص 01 - ص 89).

لقد عرفت المنطقة محطة تاريخية جديدة مع سقوط القوى التقليدية (الزيانية) ومجيء الخلافة العثمانية التي ورثت حكم الأقاليم الزيانية، فما هو معروف عن آل عثمان أنهم إذا دخلوا منطقة معينة لا يغيروا الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية فيها حتى يستأنس السكان بالوافدين الجدد كما أن الحكم العثماني كان متساهلا إلى حد بعيد مع المناطق ذات البنية الاجتماعية والدينية الخاصة، حيث لم يتدخل في تغيير تلك البنيات مقابل الاعتراف الرسمي بالسلطة العثمانية، ودفع الضرائب السنوية مع الدعاء للخليفة العثماني، وفي بعض الأحيان إرسال عامل للمنطقة يمثل السلطة الرسمية، ويتكفل بأمر الأمن وجمع الضرائب، وفي ذلك الإطار تعاملت السلطة العثمانية مع مناطق الواحات في الجنوب الجزائري.

فالمؤرخ محمد حجي له نظرة ورأي حول التبعية السياسية لفجيج وبني عباس في القرن 16م، حيث يقول أن فجيج في هذه الفترة شهدت فوضى أمنية كبيرة نظرا لقصور سلطة الوطاسيين ثم السعديين من جهة، وهياج قبائل الأعراب ضد القوات العثمانية والإسبانية المتصارعة على امتلاك الجزائر من جهة ثانية، وراح ضحية تلك الفتنة حسب حجي مفتي فجيج آنذاك، أما بخصوص بني عباس أو وادي الساورا يقول حجي أن الصحراء الكبرى خضعت لنفوذ السعديين منذ أوائل ملكهم وذلك من المحيط الأطلسي غربا إلى الصحراء الشرقية شرقا ثم ملكوا السودان في أواخر القرن 16م¹، حيث يؤكد أن بني عباس خضعت لحكم المنصور السعدي وعين ابن أبي محلى مستشارا له على فكيك بعد غزوه لتوات وتيكوارين فابن أبي محلى قدم لفكيك سنة 1000هـ/1591 مارا إلى الحج أين مكث فيها ثلاثة أشهر تزوج حينها بابنة شيخ البلد واستقر فيها آنذاك ليثور على حكم المنصور سنة 1610م².

وعلى ضوء ما كتب حجي نستخلص أن فجيج كانت سياسيا خاضعة للحكم السعدي أو على الأقل هي مغربية التبعية حسبه منذ الحقب الأولى أي منذ عصر الموحدين، لكن غاب الحكم عنها في العهد الوطاسي والسعدي الأول بسبب الصراعات والضعف السياسي والعسكري، وعموما هذا الطرح يوافق طرحة معظم المؤرخين المغاربة في نظرتهم وفي كتاباتهم حول مسألة الحدود فالباحث فهمي هيثم ونقلنا عن الكتابات المغربية يقول أن كرزاز (منطقة بيشار حاليا) منطقة مغربية³.

¹ حجي، (الحركة الفكرية في المغرب...)، مرجع سابق، ص 512.

² نفسه، ص 226.

³ فهمي خشيم، أحمد زروقي والزروقية، دراسة حياة وفكر وطريقة ومذهب، ط 3، دار المدار الاسلامي، 2002، لبنان، ص 177.

لكن مقابل ذلك نجد للمنطقة صدى مخالف لرأي حجي في الكتابات العثمانية، فسياسيا نجد أن السلطة العثمانية امتدت بالفعل لهذه المناطق التي كانت تدفع الضريبة السنوية المسماة بضريبة اللزمة¹، وهو ما تشير إليه وثيقة أرشيفية موجهة من الخليفة العثماني إلى حاكم الجزائر حسن الباشا بتاريخ 1577م جاء فيها أن الخليفة العثماني بلغه أن أمير أمراء جزائر الغرب السابق رمضان باشا كان قد بعث بعساكره "المذكك" حسب ما تذكر الوثيقة لاستخلاص الضرائب وبناء على ذلك أمره بمطالبة المشار إليه (رمضان باشا) بالمبلغ المذكور فور وصول هذا الحكم، بعد تحصيله يجب وضعه في جعبة وإرساله إلى القسطنطينية محذرا إياه من الإهمال والتساهل².

لكن الرسالة لم تشر صراحة إلى اسم فكيك أو فغيغ لذلك كان يجب الرجوع إلى المراجع لتوضيح الأمر، وهو ما يقدمه المؤرخ سامح عزيز إلتز الذي يقول أنّ واحة فيغيغ الواقعة جنوب تلمسان كانت في فترة رمضان باشا تدفع الضرائب لولاية الجزائر، ففي عهد هذا الأخير الذي ذكرته الرسالة دفعت فغيغ 14,000 فلوري³، لكن استولى عليها رمضان باشا وبعد تنحيته علم خلفه بها فشكى للباب العالي وقام بعدها بإرسالها مختومة لإسطنبول⁴.

كما ينقل لنا المؤرخ إلتز أصداء عن أزمة فجيغ Figig سنة 992هـ/1584م تاريخ إرسال المنصور السعدي حملة عسكرية عليها واحتلها وقتل الشخص المعين عليها من قبل ولاية الجزائر حسبما ذكر، وبينما احتج حسن باشا على تصرفه قال المنصور الذهبي بأن اسطنبول تركتها له، فعرض حسن باشا الأمر على اسطنبول تخوفا من تعرض المحلة المكلفة بجمع ضريبتها للقضاء التام⁵ وفي 13 محرم من نفس السنة 992 هـ/1584م صدر الحكم العثماني وهذا نصه: «فغيغ كيف كانت قديما تدار الآن، يجب أن تدار على نفس المنوال، ولا يحق لحاكم فاس التدخل فيها إننا نأمرك بتطبيق ذلك وننبهك لكي لا تنسى ولكي لا تملأ الصدور بالحقد ويعم الفساد، وتتحول الأزمة من جزئية إلى كلية، فكن صاحب

¹ هي ضريبة كانت تجبى على رجال القبائل البدو وعلى المقيمين في الواحات، وعلى أولئك المقيمين في بلاد القبائل. للمزيد ينظر: سبنسر، مرجع سابق، ص 149.

² الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 30، صحيفة رقم 179، حكم رقم 419، حكم الى حسن باشا أمير أمراء جزائر الغرب، في 1577/05/23-985/03/05.

³ الفلوري عملة فرنسية ضربت في فلورنسا في القرن الأول وكانت سابقا تضرب من الذهب للمزيد طالع : إلتز، مرجع سابق، ص 252.

⁴ نفسه، ص 252.

⁵ إلتز، مرجع سابق، ص 265، ينظر كذلك: دين، مرجع سابق، ص 214.

بصيرة، واجعل العقل سيد الموقف لأنه إذا حدث شيء يتعارض وشرف وناموس السلطة العلية فإنك تتحمل كامل المسؤولية»¹.

وانطلاقاً من هذا نستخلص أن فجيح كانت تابعة لولاية الجزائر العثمانية في هذه الفترة وبقيت تابعة حسب مفهوم الرد الهمايوني، على خلاف ما يذكر عبد الرحمان المودن الذي يؤكد أن الصراع بين المنصور وحسن باشا انتهى لصالح السعديين بعد تدخل تحكيمي من طرف اسطنبول²، وهذا ما لا نلتسمه من فحوى الرسالة الهمايونية، كما يجب الإشارة هنا إلى أن المنصور في غزوه لفيجيح استخدم نفس الحجة التي استخدمها في مكناس كما ذكرنا سابقاً، حيث أبلغ ممثلي الجزائر وحاكمها بأن الخليفة العثماني هو الذي منحهما إياه، وموقف المنصور هذا نابع من دهائه الدبلوماسي فوالي الجزائر آنذاك حسن باشا لا يستطيع مهاجمة قوات المنصور مباشرة، لأنه يدرك أنه تابع اسماً للباب العالي ويدفع ضريبة سنوية، وبالتالي لا يعتبر عدو مباشر يستحق الرد المباشر، بل يقتضي الرجوع للباب العالي، وبخصوص المنطقة بعد هذا التاريخ 1584 هل نفذ حسين باشا ما أمر به؟ لا نجد له حسب علمنا صدى في الكتابات حول المنطقة عدا تصريح محمد حجي السابق الذي قال بأنها كانت تابعة للمنصور بعد تولية ابن أبي محلى عاملاً عليها لصالح المنصور، ومن ذلك نستطيع تحديد مصير المنطقة على الأقل من 1577-1591 وهي تبعيتها للجزائر العثمانية، لكن بعد هذا التاريخ وفي ظل سياسة التوسع التي بدأها المنصور خصوصاً بعد وفاة أعدائه العثمانيين عالج علي واستغلالاً للظروف القائمة آنذاك استطاع غزو المنطقة إضافة إلى توات وتيكورارين، لكن الحكم السعدي لم يظل فيها، فطيلة هذه الفترة القصيرة 1591-1603 عانى السعديين من الرفض الاجتماعي لهم من طرف سكان الإقليم حتى انتهائه سنة 1610 بعد ثورة ابن أبي محلى على السعديين مع العلم أن في هذه الفترة لم تقطع علاقة المنطقة بالعثمانيين، وخاصة ثقافياً حيث شهدت المنطقة وفادة العالم سعيد قدورة الجزائري³ قادماً من مدينة الجزائر إلى ابن أبي محلى سنة 1606 وأقام يدرس بها لفترة قصيرة وعقد مع ابن أبي محلى دروساً في

¹ لتر، مرجع سابق، 265.

² عبد الرحمان المودن، "تساؤلات حول موقف العثمانيين من الغزو السعدي لبلاد السودان"، فصل من كتاب "المغرب وإمبراطورية السنغالي في نهاية القرن السادس عشر"، منشورات مهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط 1، 1995، ص 16، (ص 11-20).

³ تعود أصوله إلى تونس قدم مدينة الجزائر واستقر بها ورغم أنه مالكي المذهب إلا أنه نال حضوة كبيرة عند حكام الجزائر فقلده مناصب الإفتاء والتدريس والخطبة بجامع الكبير، إلى جانب وكراته على أوقاف المسجد ثم تقلد أولاده من بعده أحمد ومحمد هذا المنصب. للمزيد ينظر: بن سالم، مرجع سابق، ص 32.

شهر رمضان وبعد ثورة هذا الأخير افترق الجانبان¹، ففيغيع عرفت أوج نشاطها العلمي في القرن 16، ولعل آلاف المخطوطة الموجودة بالمكتبات العائلية التي تعود لتلك الفترة شاهدة على ذلك².

1-2-ب-ج/ حدود الجنوب الغربي الأسفل (توات وتيكورارين):

1-2-ب-ج/1- الجنوب الغربي الأسفل قبل القرن 16م:

تعتبر منطقة الجنوب الغربي الأسفل للجزائر من البؤر التي شهدت توترات سياسية في العصور الوسطى والحديثة، رغم بعدها عن مركز القرار السياسي للقوى السائدة آنذاك، لكن موقعها الجغرافي المتحكم في الطرق التجارية الصحراوية جعلها دائما تعيش أجواء الخلاف السياسي بين مختلف القوى حولها، والمنطقة التي نحن بصدد دراستها هي منطقة توات التي تضم الكثير من الواحات أو قصور الواحات مثل تمنطيط³، قصور تيميمون⁴، تيجوارارين⁵، تتميز بنظام سياسي واجتماعي مبني على القبيلة في تسيير الأمور والولاء، كانت أيام حكم دولة الموحدين تدفع المكوس والضرائب للمهدي بن تومرت، حيث "يحكي القدماء أن أهل الصحراء لما طالبهم المهدي ملك الموحدين بالمكوس والمغارم استضعفوا وقالوا لم يكن بأرضنا ذهبا ولا فضة، وكان ذلك شهر الخريف، فأمر عامله أن يقبض في المغانم الرطب والعنب وسائر الثمار والكروم ففعل ثم باعه السلطان للبدو النازلين غرب تلمسان"⁶.

وبعد سقوط دولة الموحدين دخلت توات في نوع من التسيير الذاتي لشؤونها، لكنها حافظت على روابط الولاء للدولة الزيانية، وقد ساهم العامل الاجتماعي في ذلك رغم الحملات المتكررة عليها من

¹ حجي، (الحركة الفكرية في المغرب...)، مرجع سابق، ص 627.

² كمال عبو، "من أجل الاعتراف بتراث الواحة وقصور فجيح"، فصل من كتاب "فجيح ومنظومة المدن والواحات للمغرب"، التنسيق العام روبرتو ماسكارونشي، التحرير والمراجعة سيسيليا فوماكالي، نشر وكالة الجبهة الشرقية، مجموعة أوريونتال، الرباط، دت، ص 16 (ص 10-ص 26).

³ هي إحدى التجمعات السكانية بإقليم توات تقع جنوب قصر تيمي وتتشكل من خمسة قصور، ثلاثة عبارة عن حصون، ويقول عنها المؤرخ ابن بابا في القول البسيط في أخبار تمنطيط: «فإذا فهمت هذا فاعلم التمنطيط اسم لمدينة في إقليم توات، وهي بها قاعدة اجتمع فيها العلم والإمارة والديانة والرياسة»، للمزيد ينظر: الأرقش، مرجع سابق، ص 745، وأيضا: محمد الصالح حوتية، توات والأزواد، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007، ص 33.

⁴ تقع في جزء تيكورارين من منطقة توات وهي مجموعة من القصور مكونة من 27 قصرا، للمزيد راجع: حوتية، مرجع سابق، ص 29.

⁵ هي منطقة تقع شمال توات يحيط بها العرق الغربي من جهة الشمال الشرقي ومن الجنوب هضبة تادمايت، ومن الشرق الحوض الشرقي لوادي الساورة، ويوجد الإقليم في موقع جغرافي متشابه، طبوغرافيا، للمزيد: حوتية، مرجع سابق، ص 28.

⁶ حوتية، مرجع سابق، ص 37.

جيرانهم المرينيين، ففي سنة 1315 انطلق ابن السلطان المغربي أبو علي من تافيلت ليغزو توات وقورارة والمناطق المجاورة لها ويجعلها تحت حكمه لكنه تنازل عنها بعد ذلك وأعطاهما استقلالها¹، وبذلك تؤكد الكثير من الكتابات بأن توات عبر التاريخ كانت أرض أمان واطمئنان وهو ما جعلها مقصدا لكثير من العلماء².

وكذلك مقصدا للكثير من الملل والنحل فقد سكن توات اليهود والعرب والأمازيغ والسود القادمين من جنوب الصحراء، ولعل أهم طائفة برزت في توات هم قبائل بني معقل العرب استطاعوا فرض أنفسهم بعد صراع قبلي مع القبائل المغربية والقبائل الأمازيغية حول الرياسة، بحيث آل الحكم إليهم بعد تحالفات قبلية وقد ساعدهم في رياسة توات كثرة عددهم وضعف أمراء المناطق المجاورة³، فعرب بني معقل قد شغلوا كل المنطقة الممتدة من تلمسان إلى توات، ولعل سبب ذلك هو التواصل الجيد من السلطة الزيانية التي فتحت لهم أبواب البلاد للاستقرار والرعي والتجارة، خصوصا بعد الضغوطات التي وجدها من القبائل المغربية المتحالفة مع المرينيين، ففي عهد السلطان الزياني أبو حمو الثاني قام باستغلال هذه الخلافات بفتح المجال أمام المعاقلة الذين شكلوا كيان اجتماعي مهم يمتد من تلمسان شمالا إلى توات جنوبا وكان لهم تأثير كبيرا في المنطقة خصوصا بعد تحالفهم مع السلطة السياسية الزيانية أين شاركوها في الكثير من حروبها ضد المرينيين والحفصيين⁴، وقد مارسوا الرعي في المنطقة الممتدة من تلمسان إلى تاويرت في القرن 12م، ومنها كانوا يتجهون بماشيتهم إلى تخوم الصحراء الكبرى مرورا بتافيلت وواحة فكيك، ومنهم من كان يكتفي بمصاحبة القوافل التجارية لحمايتها من قطاع الطرق مقابل ضريبة الإجازة أو الخفارة⁵.

فالمعاقل حسب الكتابات التاريخية قدموا إلى المغرب رفقة الهالبيين ونزلوا المنطقة التي تلي ملوية ورمال تافيلت حيث أنه يمكن القول أنهم امتدوا حسب امتداد دولة بني عبد الواد، وكانت رياستهم على

¹ إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881-1912، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، د ط، 1996، ص 26.

² أحمد بابا الصافي جعفري، من تاريخ توات أبحاث في التراث، ط1، منشورات الحضارة الجزائرية، 2001، ص 364.

³ مياسي، مرجع سابق، ص 25.

⁴ بسام كامل عبد الرزاق شقدان، "تلمسان في العهد الزياني(1235-1555)"، رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2002، 128.

⁵ العلوي، مرجع سابق، ص 69.

توات بعد ازدياد نفوذهم وضعف القبائل التواتية¹، لذلك لم يجد أمراء بني مرين مفرا من الاعتراف بالأمر الواقع فضلًا إقليم توات مفتوحا أمام الهجرات المختلفة أي أصبح منطقة للفارين²، وانطلاقا من هذا يستخلص أن توات في هذه الفترة كانت مستقلة في تسيير شؤونها كانت سلطتها قبلية مكونة من تحالف القبائل والكلمة كانت لقبائل بني عقل العربية، ومن حيث تبعيتها السياسية كانت توالي الزيانيين، باعتبار أن المعاقلة هم حلفاء بني زيان وأراضي الدولة الزيانية كانت مفتوحة أمامهم وهو ما يفسر استقرار السلطان الزياني أبو حمو الثاني في تيكورارين سنة 773هـ/1372م بعد فراره من غزو المرينيين في عهد السلطان عبد العزيز المريني³.

ومما يشير على قوة التواصل الزياني التواتي هو النشاط الثقافي، فتوات كانت قبلة للعلماء والطلاب القادمين من تلمسان وملتقى أو حاضرة علمية، ففي القرن 15م وفد على توات ونشط فيها الشيخ عبد الكريم المغيلي الذي قام بتأسيس زاويته القادرية بقصر بوعلي سنة 850هـ-1480م حيث كانت مركزا لنشر الإسلام ومركزا للجهاد ضد اليهود بتمنيط⁴، فالمغيلي خلف السلطة السياسية الزيانية على توات بحكم بعد توات عن تلمسان، وكذلك طبيعة العلاقة مع رياس توات لتحل محلها السلطة الدينية التي مثلتها الطريقة القادرية بقيادة الشيخ المغيلي، حيث كان أول دخول للمغيلي لأرض توات سنة 882هـ⁵ على الأرجح أين وجد اليهود يومها قد ضربوا بأذنانهم في كل شاردة وواردة من أمور حياة التواتيين بالإضافة إلى تمردهم على الكثير من الأحكام الشرعية عليهم وهو ما رأى فيه الإمام إسقاطا لصفة الذمي

¹ كانت القبائل الأصلية لتوات مشكلة من الزناتيين الذي سكنوا توات منذ أقدم العصور، كانوا يتنقلون بين جبال الزاب ومنطقة بسكرة ووادي ريغ، كما كانت لهم علاقة مع سكان الصحراء، ثم نزحوا نحو الجنوب، فاستقروا بوادي أمقيدن، ثم نزلوا إلى تجوارين وعند سقوط دولة العبيديين في القرن 10هـ استقروا نهائيا بها وأسسوا قصور منها: بني ملوك، بني هلال، أولاد راشد، إضافة إلى قبائل زناتية سكنت عدة قبائل منها الحارزة ارتبطت باسم علي بن مسعود الذي قدم من الجزائر من بلاد تونس رفقة الشيخ معمر بن سليمان المعراج خلال القرن 7 و8هـ، كما سكنت بها قبائل الشعابنة التي قدمت من مثليلي، وكانت التجارة سببا في استقرارهم. للمزيد ينظر، حوتية، مرجع سابق، ص 70، ص 72.

² مبخوت، مرجع سابق، ص 240.

³ فيقيقي، مرجع سابق، ص 310.

⁴ زهرة مسعودي، الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب إفريقيا من القرن 18م إلى القرن 20م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر، جامعة أدرار، 2009-2010، ص 52.

⁵ يقول الشيخ محمد باي بلعالم أن المغيلي قدم إلى توات أول مرة كان عام 870هـ-1465م ثم عاد إليها عام 882هـ، أين حارب اليهود، للمزيد ينظر: الشيخ محمد باي بلعالم، الرحلة العلمية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعيادات وما يربط توات من الجهات، ج1، دار هومه، الجزائر، 2005، ص 66.

عنهم وجوبا لهدم ما استحدثوه من كنائس في أرض المسلمين وبدأ حينها في حوار مع بعض العلماء المسلمين حول هذه القضية¹، ومنهم قاضي توات²، ليظهر بعدها وبعد خلاف مع بعض العلماء الى قطع دابر اليهود بتوات بحيث هدم كنائسهم وأضعف نفوذهم³.

وعلى ضوء هذه الأحداث ومن حيث الولاء السياسي يلاحظ أن توات كانت الأقرب إلى الزيانيين بحكم التحالف السياسي والعسكري وكذلك التواصل الثقافي القوي فالعسقوني قاضي توات والمغلي كلهم من تلمسان، وبالتالي وإن غابت سلطة الزيانيين فعليا فإنها كانت قائمة نظريا من خلال الروابط السابقة.

1-2-ب-ج/2- منطقة توات في القرن 16:

مع بداية القرن السادس عشر دخلت توات في حالة من الفراغ السياسي والثقافي، بحيث انعكست الأوضاع القائمة في تلمسان وبلاد المغرب عامة عليها سلبا، واستمرت في نظامها القبلي في ظل التعايش بين مختلف القبائل⁴، واستمرت في عدائها للقبائل المغربية القاطنة في الجنوب الشرقي المغربي بسجلماسة، وذلك بسبب الصراع العرقي على النفوذ، فإقليم توات الذي كانت تستقر به قبائل بني معقل، كان هناك في المقابل نشاط وتحالف القبائل الأمازيغية الصنهاجية التي شكلت ما يسمى بحلف قبائل آيت عطا أو اتحادية آيت عطا لحماية نفسها وأماكنها والحصول على مناطق النفوذ حيث كانت في بداية القرن 16م تغير على توات وامتد نفوذهم إلى مناطق بعيدة من الصحراء وانظم آيت خباش ومجموعات أخرى من آيت سغول وآيت علوان في كثير من المرات للاعتداء على سكان توات⁵.

ومع بداية الدخول العثماني إلى بلاد المغرب، وانضمام ولاية الجزائر رسميا، كانت منطقة توات كغيرها من المناطق الفارغة سياسيا كما سبق ذكرنا، نظرا للأحوال السياسية للسلطة التقليدية آنذاك، وكانت كغيرها مثل وادي الساورة وبوسمغون، لكن الامتداد العثماني وصل إلى هاته المناطق (الجنوب

¹ جعفري، مرجع سابق، ص 14.

² هو عبد الله العسقوني نزل إلى توات قادما من تلمسان سنة 862هـ وتولى القضاء بها سنة 877هـ ينظر: جعفري، نفسه، ص 15. واستمر حكم أسرة آل العسقوني حتى نهاية القرن 16م، فأثناء الحملة العسكرية الأولى للمنصور السعدي على توات كان على رأس قضاء توات الشيخ عبد الرحيم بن عبد الله العسقوني التواتي (ت 1582/990) للمزيد ينظر: حجي، (الحياة الفكرية في المغرب في عهد السعديين...)، مرجع سابق، ص 632.

³ نفسه، ص 631.

⁴ مصطفى من دهبنة، قطوف من تاريخ تندوف، ط1، المجلس الأعلى للغة العربية، دار راجعي للنشر، الجزائر، 2010، ص 10.

⁵ أحمد أحدي، القبائل الامازيغية بالجنوب الشرقي المغربي وعلاقتها بالمجال الصحراوي من القرن 16م إلى القرن 20م، فصل من كتاب: "دراسات حول الجنوب والصحراء"، تنسيق أحمد المقرري، ط01، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، المغرب، 2011، ص 25.

الغربي الأعلى والأوسط)، فهل حدث نفس الشيء بالنسبة للجنوب الغربي الأسفل (توات وتيكورارين) أم أنها استعصت عليهم؟ فما هو معروف أن العثمانيين كان لهم نظام حكم خاص بهم كما سبق ذكرنا في المناطق البعيدة وذات الخصوصيات، حيث فرض الجباية دون الحكم المباشر كما هو الحال بالنسبة لفكيك مع العلم وللتوضيح منطقة الجنوب الغربي مترابطة اجتماعيا سواء الجهة العليا، الوسطى أو السفلى، حيث تحتوي على كيان اجتماعي واحد، وما عرف عن توات في القرن 16 أنها كانت مركزا لنشاط الطريقة القادرية التي أسسها المغيلي وكانت في هذه الفترة ذات نفوذ كبير وصل حتى لغرب إفريقيا ولها العديد من الأحباس والأوقاف¹.

وفي ظل بقاء محتويات الأرشيف العثماني مجهول لحد الآن، استوجب ربط الأحداث التاريخية بناء على افتراضات تاريخية لمعرفة صلات العثمانيين بالمنطقة (توات)، فالعثمانيين كما هو معلوم ربطوا علاقات قوية مع الطرق الصوفية وخاصة القادرية، وقد ساعدهم ذلك كثيرا في بسط نفوذهم في تلمسان والكثير من المناطق وأصبحوا بحكم هذه العلاقات يهددون الكيان المغربي السياسي²، مما اضطر بالسلطين السعديين إلى التضيق على الطرق الصوفية، وخاصة القادريين وأتباع الطريقة اليوسفية، وبحكم قوة العلاقة العثمانية الصوفية يمكن القول أن العثمانيين تواصلوا من سكان توات، وعن الضريبة يمكن القول أو الافتراض أن عامل العثمانيين بفكيك، كان يجمع الضرائب من التواتيين باعتبار أن المنطقة ذات كيان اجتماعي مترابط، وفي ظل هذه الفرضيات لا يوجد ما ينفىها كما لا يوجد ما يؤكدها إلا الإسقاطات التاريخية خصوصا إذا علمنا أن السياسة العثمانية اتجهت مناطق الصحراء كانت واضحة وقائمة³.

وعن هذه التبعية السياسية لتوات قبل غزو المنصور السعدي لها يقول أبي رأس الناصري «...إذ أن أهل تلك البلاد قد انكفت عنهم أيدي الملوك ولم تمسهم الدولة منذ أزمان، ولا قادهم سلطان قاهر إلا ما يراد منهم فسبح للمنصور أن يجمع بهم الكلمة ويردهم إلى أمر الله»⁴ فكلام الناصري يحمل نوعا من

¹ مسعودي، مرجع سابق، ص52. للمزيد ينظر: الهادي هارون، بوسليم صالح، "التأثير السياسي للطريقة القادرية في إفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث"، مجلة روافد للبحوث والدراسات، ج02، 2017، ص72 (ص66-ص93).

² بعارسية، مرجع سابق، ص86.

³ حاول العثمانيون بعد سيطرتهم على المناطق الساحلية والداخلية الامتداد إلى الجنوب لإخضاع الإمارات والواحات حيث حاولوا سنة 1534م/914هـ دخول بسكرة لكنهم فشلوا أمام الثائر الهادف بن بلقاسم الفطناسي ليدخلوها مجددا ورسميا سنة 1541 في عهد الوالي حسن آغا (1533-1544)، للمزيد راجع: بخدة، مرجع سابق، ص203.

⁴ الناصري، مصدر سابق، ص98.

الجدد التاريخي حسب رأينا، فهو يتكلم عن غياب الكيان السياسي الحاكم للمنطقة وتلك نظرية عامة الكتابات المغربية، لكنه يتجاوز الحقيقة عندما يقول عن أهل توات "ليردهم الى أمر الله"، فالتواتيين كان لهم نظام قبلي خاص بهم، وكانت أسرة آل العصنوني التلمساني تمارس القضاء بها منذ القرن 15م، وبالتالي هذا الحكم لا يجوز في حقهم لتبرير حملة المنصور عليهم، فالمراد من ذلك هو الصراع المستمر بين قبائل توات وقبائل المغرب الجنوبية هوما أدى بالناصرى لإطلاق حكمه نظرا لموقعه السياسي في المغرب.

كما يقول أحمد بن هطال التلمساني عن توات ما يلي: «وفي جهة القبلة رأى أنها ذات بلدان كثيرة وأعراب راحلة ومقيمة غزيرة إلا أنها أمة أبقت (هربت) من أهلها، أو حرة نشزت من بعلها...»¹، ويجب التوضيح أن هذا الوصف كان في القرن 18م، أي أيام السلطة العلوية المغربية التي يقول المؤرخين المغاربة أنها حكمت أو ورثت حكم توات من السعديين الشرفاء بداية من حكم المنصور ومن هؤلاء الباحثة زهراء النظام²، أما عبد الرحمان المودن فيقول أن الخلافة العثمانية فشلت في فرض سلطتها على توات بعد فشل حملتها عليها لإخضاعها سنة 1579، لكن من خلال عملية البحث لم نجدى صدى تلك الحملة في المراجع التاريخية³.

أما المؤرخ محمد جادور فقد عارض آراء معظم الباحثين الآخرين الذين يقولون بأن توات وتيكورارين هي ضمن الممتلكات المغربية آنذاك منذ عهد المرينيين، وأنهما كانتا تتمتعان بحكم ذاتي وتخضعان لحكم الملوك المغاربة⁴، حيث يقول أن الحدود الجنوبية للدولة الزيانية في صحراء نوميديا تبدأ من إقليم توات الذي كان سابقا للدولة الزيانية إلى بلاد ميزاب وعاصمتها غرداية وصولا إلى وارجلان في جنوب الصحراء⁵، ومن خلال نظرة ورأي جادور نلاحظ أن المد العثماني شمل كل هذه المناطق عبر مراحل مختلفة، حيث دخلت بسكرة وبلاد ميزاب وورجلة تحت السلطة العثمانية، وكذلك فكيف فكيف أن لا تمتد إلى توات، اللهم إلا إذا كانت توات تابعة لعاملهم في فغيغ حسب نظرة الحكام العثمانيين.

¹ أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد باي بلكبير في الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط01، دار عالم الكتب، مصر، 1969، ص37.

² بوعمالات، مرجع سابق، ص448.

³ المودن، مرجع سابق، ص16.

⁴ أبو رحاب، مرجع سابق، ص96.

⁵ جادور، مرجع سابق، ص05.

وفي إطار عملية استطلاع المصادر الأجنبية لكشف حقيقة وضعية التبعية السياسية لتوات في تلك الفترة استطلعنا كتابات المؤرخ الإسباني مارمول الذي عاش في تلك الفترة في المغرب، وكتب عن مختلف الجهات، فعن توات ذكرها وتناول بحيرة جنوب رقان التي تتجمع عندها مياه وادي قير في نهر وادي الساورة الذي يجري حاليا نحو الجنوب إلى مشارف بلاد توات وهي ولاية أدرار حاليا، وكان نهر وادي قير يكون قديما بحيرة كيلونيديا¹، لكن من حيث التبعية السياسية مارمول لم يذكر بأنها كانت تابعة للزيانيين ولا للمغاربة وهو الذي عاش فترة معتبرة بالمغرب الأقصى.

1-2-ب-ج/3- غزو المنصور لتوات وتيكورارين:

تشير بعض الكتابات التاريخية أن أول محاولة سعية لغزو واخضاع توات كانت سنة 1540 لكن هذه المحاولة فشلت²، ليفكر المنصور بعدها لغزو المنطقة في إطار سياسة التوسع التي انتهجها واستغل في ذلك أمران، وهما التحجج بأن الخليفة العثماني هو الذي منحه الإذن بأخذ بعض الأقطار كفكيك ومكناسة وكذلك استغلاله لنسبه الشريف وبأنه له الأحقية في حكم تلك الجهات كخليفة للمسلمين.

ولعل السبب في غزو المنصور لتوات وتيكورارين هو الدور الهام لهاتين المدينتين في سياسته المستقبلية³، خصوصا وأن المنطقة تشكل أكبر ملتقى تجاري بالنسبة لتجارة السنغاي(عصب التجارة)⁴، إضافة إلى ذلك ضعف المنطقة عسكريا، أما الباحث أبو رحاب فيقول أن هدفه هو قطع الطريق أمام العثمانيين إذا ما فكروا بالاتجاه نحو بلاد السودان وغرب إفريقيا بوجه خاص لغنى المنطقة بالثروات ولمركزها الاستراتيجي المهم⁵.

إضافة إلى ما سبق هناك سبب أقوى وهو محاولة التمهيد لتحقيق حلمه الكبير بخلافة الأمة ابتداء من مناطق الجنوب التي يقول أنها ملك للمغرب، ففي رسالته لأهل توات يقول: «عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: "يد الله مع الجماعة" وإنكم معشر الجماعة المرعية والفئة المرضية، وممن خب في هذا

¹ حفاوي بعلي، صحراء الجزائر الكبرى في الرحلات وظلال اللوحة وفي الكتابات الغربية، ط1، دار دروب للنشر والتوزيع، الأردن، 2016، ص79.

² مياسي، مرجع سابق، ص26.

³ كريم، مرجع سابق، ص150.

⁴ E. Mc Dougall, «The question of Tegaza and the conquest of Songhay: some Sahara considerations», un chapitre d'un livre «Le Maroc et l'Afrique aux début des temps modernes», colloque international, morakech, 23-25octobre1992, éditent 01,1995, p276. (p231-281).

⁵ أبو رحاب، مرجع سابق، ص96.

المضمار وأوضع وتأرج تسميته بخدمة هذا المقام وتضوع...»¹، ليضيف « وبحسب هذا وجهنا إليها محلاتنا السعيدة التي نهض فيها عساكرنا المظفرة وأجنادنا المؤيدة من الله...وتشيد بها منار العدل الشامل وتقيم أعلام الحنيفية البيضاء لإرشاد أهل السنة في تلك البلاد المجاهل...»²، ويقول عن تبعية توات ما يلي: «هذا والذي أوجبه إليكم أكرمكم الله بتقواه...إعلامكم أنه لما كانت تلكم البلاد من أجل ممالكنا التي لها عندنا الخطر والبال ونتوجه إليها بوجه الإيثار والابتهاال ونحني حماها من طوارق البغي والفساد»³.

ويجب التنبيه أن جل الكتابات المغربية بنت آراءها حول التبعية السياسية لتوات قبل القرن 16 وبعده على هذه الخطابات الرسمية والتي كتبها مؤرخي البلاط أو الدولة السعدية، لتبدأ حملة المنصور على توات في 991هـ/1583م، حيث كانت الحملة الأولى بقيادة أبي عبد الله محمد بركة والثانية بقيادة أبو العباس أحمد بن الحداد العمري المعقلي، وكانت انطلاقة الحملة من سجلماسة وقصدت تميمون قاعدة قصور تيكوارين وفرض عليها حصارا بعد أن رفض سكانها إعلان الطاعة والولاء للمنصور⁴.

لكن التواتيين لم يستسلموا ولم يخضعوا لقوات المنصور بحيث تمردت منطقة الشط الزهراني على المغاربة لكن الجيش المغربي حاصرهم وأخضعهم بالقوة، وتمرد أهالي توات بعد فشل جيش المنصور من السيطرة على تغازي وانسحابه منها لكن الجيش المغربي بقيادة سليمان توجه إلى تيمي بتوات وقتلوا قائدها أبو القاسم عمر فاقتطعوا نخيله وجربوها، أما الفرقة الثانية من الجيش المغربي فكانت بقيادة محمد بن بركة الذي نزل إلى الشط الزهراني بتكوارين وحارب التمرد ودمر المدينة وترك حامية بها واصطحب معه كبار توات (كبار القوم)، إلى مراکش وقام المنصور بتعيين حم بن فارس والي على توات وتيكوارين ووضع تحت تصرفه حامية عسكرية⁵، وعن موقف الخلافة العثمانية من الغزو المغربي لتوات لا توجد كتابات أو آثار أرشيفية تتحدث عن الأمر مما يشكل ثغرة تاريخية كبيرة، لذلك يمكن أن المنصور قام بحركته تلك كما أشرنا سابقا باستخدام تلك الخدع، وعموما حكم المنصور لم يدم طويلا بتوات خصوصا

¹ كنون، مرجع سابق، ص 107.

² نفسه، ص 169.

³ نفسه، ص 170.

⁴ كريم، مرجع سابق، ص 150.

⁵ الصباغ، مرجع سابق، ص 07.

بعد وفاته سنة 1603م، حيث توقف حكم توات بعد موته، فالكاتب روس إدان يقول أن قبائل الصحراء والواحات في الجنوب الشرقي كانت متضايقة من الحكم المغربي السعدي والعلوي فيما بعد¹.

2- سياسة الخلافة العثمانية في التعامل مع الطموح المغربي.

2-1- السياسة العثمانية العامة في الحوض الغربي للمتوسط 1581-1603:

تناولنا في الفصول السابقة أطوار النشاط العثماني البحري في الحوض الغربي للمتوسط وقيام الأعمال الجهادية التي قام بها الرياس، كما تناولنا مسألة الحضور العثماني في السواحل المغربية المتوسطية والأطلسية، ومدى أهمية هذه السواحل في السياسة العثمانية في المنطقة، في هذا الفصل سنتطرق إلى مسار الاستراتيجية البحرية العثمانية في الفترة 1581-1603 في ظل المتغيرات الجديدة.

لقد عرفت منطقة الحوض الغربي للمتوسط ولا سيما سواحل المغرب بالأخص نشاطا مكثفا كان يقوده الرياس والمجاهدين البحريين من الأندلسيين المهاجرين، الذين شكلوا مدن وقلاع بحرية على طول الساحل تهدف إلى الجهاد ضد القوات الإسبانية، وقد اشتركوا في ذلك مع بحارة مسلمين من البلاد العثمانية كالجزائر وتونس سواء كانوا ينشطون في إطار رسمي أو بصفة منعزلة، يضاف إليهم الأعداء المسلمين القادمين من أوروبا وقد كانت مدن باديس، العرائش، سلا، تطوان إضافة إلى بعض الحصون البحرية قواعد نشطة في هذه العملية، فالمصادر التاريخية تذكر أن مليية عرفت سنة 1558 نشاطا عثمانيا مكثفا حيث تشير إلى وصول مركب محمل بالمدافع للمدينة بهدف مساعدة حسن باشا الذي كان يحاصر مدينة فاس، ومنذ ذلك التاريخ اهتموا بهذا الحصن وسموه بالحصن الجديد².

فهذا النشاط امتد لمدن أخرى أين تحالف رياس وقباطنة الجزائر مع الأندلسيين الذين كانوا شبه مستقلين في هذه المدن، وقد ظهرت في الفترة الممتدة من 1550-1581 ما يعرف بقضية الدعم العثماني للموريكسيين، بحيث شكلت هذه القضية سجل تاريخي بين من يرى أن الدعم العثماني لثورات الأندلسيين كان غير فعال وبعيد عن الواقع، ومنهم المؤرخ الإسباني بيانوبيا الذي يرى أن الدعم العثماني للأندلس كان مخيبا للأمل، وأن نداء الاستغاثة الذي أرسله هؤلاء للعثمانيين لم ينتج عنه شيئا إلا بضع المئات من

¹ بعلي، مرجع سابق، ص 79.

² وليد موحن، "العلاقات التجارية بين شمال المغرب والمغرب من الفترة الوسيطة إلى التاريخ المعاصر"، دورية كان التاريخية، العدد 42، 2017، ص 85. (ص 83، ص 87).

الجنود الذين أرسلهم عرج علي لتأطير الثورة الأندلسية سنة 1568م ويرى أن هذه المساعدة الضعيفة استغلت من طرف دعاة الطرد لتبرير أهدافهم¹.

فبيانوبيا يسير ويؤيد رأي المؤرخ بروديل الذي يرى أن المساعدة العثمانية لثورات الأندلسيين كانت في الأطراف فقط واقتصرت على مهاجمة الأملاك الإسبانية في ملقة وبعض الجزر التابعة، ويرجع سبب ذلك الفشل إلى صعوبة المهمة خصوصا أن الثورة تراكمت وفصل الشتاء الذي لا يساعد النشاط البحري الحربي²، ويساير المؤرخ إي غيرفيريا بيانوبيا في رأيه معتبرا أن نظرية المؤامرة العثمانية الأندلسية مجرد دعاية إسبانية من مؤيدي الطرد واعتبر الأمر خطأ سياسي تاريخي³.

بينما يرى البعض الآخر العكس من ذلك مبرزين أهم الأعمال الجهادية التي قام بها العثمانيين لمساندة الأندلسيين في هذه الفترة والتي استمرت حتى الفترات اللاحقة لتاريخ 1581 وهي فترة دراستنا، وما يهم أكثر حول الدعم العثماني هو مكانة منطقة المغرب والمجاهدين المغاربة بما فيهم الأندلسيين من سياسة الإنقاذ العثمانية، وكنا قد تطرقنا في الفصل الثاني والثالث إلى عملية الاختراق العثماني للسواحل المغربية من خلال إقامة لشبكة علاقات قوية مع سكان السواحل وقد تعزز هذا الاختراق بعد سنة 1574، تاريخ صعود عبد الملك إلى عرش المغرب وتبعيته الإسمية للباب العالي، فالبعض يرى أن في هذه الفترة قامت الخلافة العثمانية بأعمال كبيرة لإنقاذ أهالي الأندلس، فالباحث الإسباني بوستو يبرز دور العثمانيين في هذه الفترة وأن الباب العالي نسج شبكات مع الأندلسيين على سواحل المغرب ففي سنة 1562 خلف أحمد على حكم تطوان سيدي حمو Sidi Hamou الذي تمرد علنا على حكم عبد الله الغالب ولقى مساعدة العثمانيين في ذلك وفي سنة 1577 ساعدت القوات البحرية العثمانية قائد تطوان سيدي موسى في حملته على تطوان بمراكب حربية⁴.

¹ فرانثيسكو ماركيت بيانوبيا، القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى، ترجمة عائشة محمود سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمان، ط01، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2005، ص147. للمزيد ينظر: خينيس بيريث دي إيتا، الحرب ضد =الموريسكيين، ج02، ترجمة عائشة محمود سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمان، ط01، المركز القومي للترجمة، مصر، 2009، ص34-35.

² بيانوبيا، مرجع سابق، ص149.

³ خوسي مينيوث إي غيفيريا، تاريخ ثورة الموريسكيين وطردهم من إسبانيا وعواقبه على سائر أقاليم المملكة، ترجمة عبد العزيز السعود، ط01، منشورات ليتوغراف، المغرب، 2010، ص108.

⁴ غيرمو غوثالبيس بوستو، الموريسكيون في المغرب، ترجمة مروى محمد إبراهيم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمان، ط01، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2005، ص49.

وفي سنة 1576 أبلغ ملك إسبانيا فيليب الثاني¹ بوجود قائد عثماني بتطوان، ويخروج 17 سفينة متجهة إلى تطوان من مدينة الجزائر حاملة على متن إحداها زوجة القائد لكي تنظم له، فتطوان في هذه الفترة، حتى قبل 1581 كانت تشكل مركزا لتمويل الأساطيل العثمانية الصغيرة، والتي كانت تمثل صلة السلطة العثمانية بالجزائر بالشؤون المغربية، والدليل على ذلك حسب الباحث هو أن الملك فيليب تلقى أخبارا سنة 1578م من جواسيسه تفيد بأن قائد جيش عبد الملك العثماني أرسل على جناح السرعة مركبين عثمانيين كانا في نهر تطوان لتحذير حاكم الجزائر مما كان يحدث في القصر الكبير، شارحا له وضع المغرب وفقا له لتدخل عثماني مباشر².

فهذا التقرير الاستخباراتي الإسباني يتحدث عن التحضيرات العثمانية للمشاركة في معركة وادي المخازن 1578م، وهو تأكيد على المشاركة العثمانية وحجمها وتأثيرها، وعموما كانت سواحل المغرب تمثل قواعد خلفية للنشاط البحري العثماني في المتوسط والأطلسي كذلك والتساؤل المطروح هو هل استمرت هذه القواعد في الخدمة بعد 1581م؟.

قبل الإجابة على هذا التساؤل ينبغي علينا مناقشة السؤال الأكبر هو هل استمرت الاستراتيجية العثمانية على نفس الوتيرة بعد 1581م؟ هذا السؤال التاريخي حاز على جزء مهم من الطرح التاريخي العام، حيث يرى الكثير من المؤرخين أن الدور العثماني في الحوض الغربي المتوسط بدأ يتلاشى بداية من 1571 وانتهى بتوقيع معاهدة السلم مع الإسبان 1581م، ومن هؤلاء الباحثة نادية مصطفى حيث ترى أن السياسة البحرية العثمانية بعد معركة ليبانتو 1571م في الحوض الغربي للمتوسط قد تغيرت ووصلت إلى مرحلة الجمود من حيث الصراع العثماني الإسباني على أن يكون الساحل الشمالي مسيحيا والجنوب إسلاميا مع استمرار مقاومة القوى المسيحية لهذا الوضع ثلاثة قرون بعد ذلك³، وحسب الباحثة السياسة العثمانية تغيرت من الهجوم إلى المسالمة والدفاع، وتستدل الباحثة في تأكيد رأيها على ضعف الدعم

¹ فيليب الثاني هو ابن الملك شارل الخامس تولى الحكم بعد والده من 963-1006هـ=1556-1558م سار على نفس الاستراتيجية العامة التي حددها أبوه حيث بادر إلى بذل مجهوداته، من خلال وضع حد للتناقضات السياسية الصارخة بينه وبين فرنسا وإنجلترا بعقد معاهدة Catou Cabrsis في 03 أبريل 1553، ووجه اهتمامه الكلي لمواجهة الخطر العثماني في المتوسط، وتوسعهم المخيف في الحوض الغربي. للمزيد ينظر: مفتاح عثمان علي عبد الكافي، الموريسكيون ودورهم في الحفاظ على الهوية الإسلامية في الأندلس، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب والتربية، جامعة التحدي، سرت، ليبيا، د ت، ص 179.

² بوستو، مرجع سابق، ص 52.

³ نادية مصطفى، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي منظور حضاري مقارن، تقديم طارق البشري، دار البشير للثقافة والعلوم،

ج01، ط01، مصر، 2015، ص 22.

العثماني لثورات الأندلسيين¹، ويشاطرها الرأي الباحث عبد الرحيم بن حادة الذي يرى أن الخلافة العثمانية تخلت عن سياستها في البحر الأبيض المتوسط منذ الثمانيات، أي بعد توقيع المعاهدة العثمانية الإسبانية 1581 والتي اعتبرها انسحابا للباب العالي وإسبانيا كذلك من الصراع في البحر المتوسط².

فالتوجه العثماني الجديد وتخليه عن دوره في المنطقة حسب رأي الباحث المنصوري هو الضغط الإسباني، فالسياسة البحرية للإسبان بعد 1578 كانت فقط تسعى إلى خنق التقدم العثماني في الحوض الغربي للمتوسط، ويظهر ذلك من خلال ممارسة ضغط على الملك البرتغالي لكي لا يتخلى عن المراكز المحتلة في المغرب، لكن سرعان ما استولت إسبانيا على البرتغال وتولت زمام المراكز المحتلة³، وبالتالي زيادة الدور الإسباني والضغط كذلك في المنطقة، إضافة إلى ذلك كانت إسبانيا على اطلاع مباشر على التواصل العثماني الأندلسي من خلال الرسائل المتبادلة سواء بين من كانوا في إسبانيا أو من هم في سواحل المغرب الأقصى، وكانت على علم كذلك بنشاط ومخططات العثمانيين بالعرائش التي كانت قاعدة للهجمات نحو إسبانيا لذلك عملت على إفشال المخططات العثمانية⁴، خصوصا وأن سياسة الملك فيليب بعد 1578 كانت متجهة إلى صد الخطر العثماني في المنطقة كاستراتيجية إسبانية أولية، فمؤرخي إسبانيا والبرتغال يرون أن السيطرة على البحار هو السبيل إلى السيطرة على التجارة العالمية لذلك أولوا أهمية كبيرة بالبحر وأسوأ القواعد العسكرية عليه حيث يقول الشاعر البرتغالي فرناندوا سبيو:

أيها البحر المالح كم يعج ملحك بدموع برتغالية

فهل يستحق الأمر ذلك؟ بلا

فكل شيء يستحق التضحية إن لم يكن الطموح محدودا

فمن يستطيع تجاوز رأس بوجادور عليه تحمل الآلام وأن لا يخشى استعمال هذا الطريق⁵.

¹ مصطفى، مرجع سابق، ص 224.

² عبد الرحيم بن حادة، "ما بعد الهدنة: الرد العثماني على مطالب زيدان المهدي"، مجلة أسطور، العدد 01، 2015، ص 211. (ص 211، ص 220).

³ المنصوري، (المغرب والبرتغال...)، مرجع سابق، ص 191.

⁴ محمد زروق، "العرائش داخل إطار القضية الأندلسية"، مجلة المليحة، العدد الأول، المغرب، 1667، ص 60. (ص 59، ص 63).

⁵ عبد المجيد القدوري، "البحر في المتخيل المغربي، د ط، مطبعة أوقاد، المغرب، 1998، ص 05. للمزيد حول سياسة الإسبان في الحوض الغربي للمتوسط ينظر: دادي مارية، "أصواء على العلاقات الإسبانية المغربية خلال القرن 16 من خلال مراسلات باللغة الإسبانية"، الندوة الدولية لتكريم الأستاذ عثمان المنصوري، المغرب والتحولت الدولية، الرقم 22، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة الحسن الثاني، المغرب، 2007، ص 75، (ص 65، ص 80).

أما المؤرخ الإسباني بيانوبيا فيرى كذلك أن استراتيجية العداء العثمانية للإسبان توقفت بعد ليبانو 1571 وتأكدت بعد صلح 1581 وأن العمليات التي حدثت بعد هذا التاريخ كانت مجرد حملات إنسانية¹، ويرجع الباحث المغربي جادور تراجع العثمانيين عن استراتيجيتهم إلى هزيمتهم في ليبانو 1571 وكذلك تراجع اهتمام الإسبان بمناطق إفريقيا خصوصا بعد ضمهم لممتلكات البرتغال في الأمريكيتين حيث تحول اهتمامها من إفريقيا إلى أمريكا مع بقاء استراتيجية الدفاع عن ممتلكاتها قائمة في إفريقيا، إضافة إلى بداية إفلات السيطرة العثمانية على إيالاتها وخاصة الجزائر بعد مجيء نظام الباشوات². وانطلاقا من هذه الآراء يظهر أن الدور العثماني توقف أو بالأحرى تراجع بداية من 1571 وتؤكد سنة 1581، مع بقاء بعض الأنشطة البحرية التي وصفها الباحثة نادية مصطفى بالمقاومة، ووصفها بيانوبيا بأنها حملات إنسانية، فيما رأى الباحث جادور أن ليس الدور العثماني الذي تراجع فقط وإنما الصراع الدولي في منطقة الحوض المغرب وخاصة بعد 1588 بالنسبة للإسبان "التراجع النهائي" وبهذا يبدو أن الإجابة اتضحت حول السؤال الأكبر الذي طرحناه، لكن فيما يخص السؤال الفرعي مستقبل القواعد العثمانية أو بالأحرى القواعد الخلفية المشتركة العثمانية المغربية بعد 1581، الذي رافق فترة حكم المنصور السعدي تقتضي التعرف على أهم النشاطات العثمانية في هذه الفترة وتحديد فعاليتها ليتسنى لنا الحكم وتأكيد حقيقة التراجع العثماني في المنطقة، وكذلك معرفة مصير البيراتاس Piratas بعد هذا التاريخ³.

2-1-أ/ النشاط العثماني على سواحل المغرب الأقصى خلال 1581-1603:

إن القواعد البحرية العثمانية المتمثلة في المدن والقلاع والحصون كانت تمثل الخطوط الأمامية في السياسة البحرية العثمانية طيلة فترة نشاطها الجهادي في حوض المتوسط الغربي في مواجهة القوى

¹ بيانوبيا، مرجع سابق، ص 80.

² جادور، مرجع سابق، ص 81.

³ Piratas وهم في مفهوم النصوص الإسبانية أولئك المجاهدين الذين ينطلقون من شمال إفريقيا انطلاقا من الجزائر، تطوان، العرائش وسلا للقيام بغارات على السواحل الإسبانية وهم يعملون دائما بالطريقة نفسها، ويقود هؤلاء بعض الموريسكيين المهاجرين وينزلون أول الأمر في مكان خالي ومن هناك ينطلقون إلى قرية ما ويقومون بعمليات انتقامية ضد =المسيحيين، والعمليات من هذا النوع متعددة خلال القرن 16 على السواحل الإسبانية انطلاقا من قانس إلى جزر الباليار للمزيد ينظر: عبد الكافي، مرجع سابق، ص 178، وكذلك: Bernard Vincent, « les bandits morisques en andalouse aux XVI le siècle », Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, n°03, Année 1974, P390, pp. 389-400.

الإسبانية والبرتغالية¹، وقد استمرت طيلة القرن السادس عشر وامتدت حتى قرون قادمة حيث سميت عمليات الجهاد طيلة هذه الفترة حتى النصف من القرن 17 بالقرصنة الحرة بالنسبة للمجاهدين المغاربة فحسب محمد حجي الجهاد البحري حتى سنة 1671م-1081هـ كان يتم خارج إدارة وتسيير الدولة السعودية²، وهذا ما يؤكد نظرية الوجود العثماني في سواحل المغرب وعلاقته بمدن الجهاد في هذه الفترة فقد شوهد عدد كبير من البحارة الجزائريين في العمليات الجهادية في الموانئ المغربية وقد أشارت بعض التقارير الفرنسية إلى نشاط القرصان بوسطنجي في سلا، ونفس التقارير تشير إلى عمليات بحرية لمجاهدي المغرب في مدينة الجزائر³، فالحركة البحرية كانت قائمة ومنسقة بين مدينة الجزائر ومدن المغرب الساحلية كتطوان التي كان تجار الجزائر يرسلون إلى فاس عن طريقها بضائعهم المختلفة على متن سفن ذات مجاذيف، كانت تبحر في كل الفصول ويرافق بضائعهم أبناءهم أو مواليتهم أو أقاربهم لبيعها هناك واستخلاص أثمانها⁴.

وعلى ضوء هذا يلاحظ أن الصلات الجهادية والتجارية أو بالأحرى التنسيق الجهادي ظل مستمرا والدليل على ذلك وجود كتابات تتحدث عن نشاط عثماني مغربي بحري مشترك في الجهاد والتجارة بعد القرن 16، لكن طبيعة هذا الجهاد هي الهدف من البحث هل هي مقاومة أم حملات إنسانية أم نشاط رسمي؟ وماهي أهم القواعد البحرية لذلك؟.

لقد عرفت المدن الساحلية المغربية في هذه الفترة نشاطا مكثفا للعمليات الجهادية وشكلت قواعد عسكرية للدفاع والهجوم، فميناء المعمورة كان يمثل حصنا خلفيا للمجاهدين فأثناء غزوة مراد ريس 1585 احتفى به بعد غزوته طيلة شهر كامل⁵، وهو نفس الحال بالنسبة لمدينة سلا التي شبهت في هذه الفترة بمدينة الجزائر نظرا لكونها دار الجهاد بالنسبة للمغرب حيث حافظت على علاقتها الوطيدة مع مدينة الجزائر فقد كان المجاهدون يتبادلون الزيارات المتواصلة ويقومون بالغارات المشتركة وكان مجاهدي الجزائر يدعون انتمائهم لسلا كما كانوا يعتبرون تطوان ميناء تابعا لأملاكهم⁶.

¹ Jane Hathaway, The Arabs lands under Ottoman Rule 1516-1800, Routledge taylor and francais group, new york, 2019, p44.

² محمد حجي، صلحاء مغاربة لهم علاقات بالبحر، مطبعة أوقاد، د ط، المغرب، 1998، ص21.

³ قاسم، (الحركة التجارية بين موانئ بلدان المغرب...)، ص73.

⁴ نفسه، ص87.

⁵ كواندرو، مرجع سابق، ص59.

⁶ نفسه، ص59.

أما فيما يخص ميناء العرائش الذي شهد نشاطا مكثفا للعثمانيين به خلال هذه الفترة فقد كان يمثل أكبر وأفضل موانئ المغرب وقد عمل الإسبان بكل الطرق للسيطرة عليه¹، حيث يصفه الملك البرتغالي بأنه ذو قدرة كبيرة على إيواء العديد من القوارب، وأنه محاط بمتسع فسيح يمكن تحصينه بسبب توفر مواد لبناء التحصينات، ويمكنه تلقي النجدة بسهولة إضافة إلى وقوع العرائش في طريق السفن القادمة من قشتالة والمضيق ويمكن اللجوء إليها للاحتماء من الرياح القوية المصحوبة بعواصف²، فالأسطول العثماني حسب التقارير الإسبانية كان يتخذ من هذا الميناء مرسى له طيلة فصل الشتاء³.

أما عن الحملات الجهادية المشتركة التي قادها الجيل الثالث من البحارة مثل درغوث ريس وعلج علي وغيرهم⁴، فقد عرفت نشاطا قويا بحيث لم يقتصر نشاطها في الحوض الغربي المتوسط بل امتد للأطلسي، ففي سنة 992هـ-1581م هاجم علج علي سواحل إسبانيا في إطار عمليات الإنقاذ للموريسكيين، وفي سنة 1584م قام القائد حسن فنزيانو بنقل حوالي ألفي مسلم أندلسي إلى الجزائر من نواحي أليكانت⁵، وفي رسالة مؤرخة في 991هـ-1584 من الخليفة العثماني لحاكم الجزائر بعد وصول أنباء إلى الأستانة على استلاء مراد ريس⁶ على سفن تابعة للإسبان بها أسرى مسلمين وبعد التحقيق معهم معهم علموا أن الإسبان وبمساعدة الفرنسيين يحضرون لحملة عسكرية على سواحل المغرب الأقصى (فاس) لذلك أمر الخليفة العثماني بما يلي: «عند وصول أمري إليكم كونوا على يقظة تامة وبصيرة في

¹ زروق، (العرائش داخل إطار القضية الأندلسية)، مرجع سابق، ص60.

² عثمان المنصوري، "تطور مركز العرائش في القرن 16"، مجلة المصلحة، العدد 01، 1997، ص69، (ص65، ص74).

³ سالم علي، (السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للمتوسط)، مرجع سابق، ص176.

⁴ توفيق البشروش، جمهورية الدايات في تونس 1591-1675، د ط، مجموعة أيام الناس، تونس، د ت، ص86.

⁵ مصطفى داودي، "دور البحرية الجزائرية في القضايا الإنسانية الخارجية بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديين"، ملتقى ملتقى دولي: "الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحرابا"، انعقد يومي 07-08 ديسمبر 2009، جامعة الجزائر 02، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط إلى نهاية العهد العثماني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ص287، (ص269، ص290)، للمزيد ينظر: حنفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين = الأندلسيين خلال القرنين 16 و17"، ملتقى دولي: "الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحرابا"، انعقد يومي 07-08 ديسمبر 2009، جامعة الجزائر 02، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط إلى نهاية العهد العثماني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ص260، (ص177، ص213).

⁶ خدم تحت سلطة أكبر الرياس كقارة علي، وعلج علي لقب بالكبير لأنه أول من دخل إلى المحيط الأطلسي في القرن 16، وأسره لسفينة يابورة قبالة سواحل جزر الكناري، للمزيد ينظر: خيرالدين شترة، النشاط البحري للأسطول الجزائري خلال العهد العثماني"، ملتقى دولي: "الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحرابا"، انعقد يومي 07-08 ديسمبر 2009، جامعة الجزائر 02، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط إلى نهاية العهد العثماني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ص676، (ص647، ص602).

الأمر وألا تتركوا مجالاً للغفلة والإهمال وابعثوا من عندكم جواسيس لتقصي الأخبار واكتشاف الأسرار المتعلقة بأفكار الكفار... الغامضة حول هذه القضية»¹، فرسالة الخليفة العثماني تؤكد مدى أهمية موانئ المغرب بالنسبة للجيش البحري العثماني وتؤكد على استمرار النشاط العثماني في المنطقة بغض النظر عن طبيعة ذلك النشاط.

كما تشير المصادر التاريخية إلى بعض الحملات العثمانية في المحيط الأطلسي ومنها حملة الراجس مراد سنة 1585 على كناريا انطلاقاً من جبل طارق وعلى إثرها هاجم جزيرة لانزروت Lanzarot فحسب المؤرخ إلتز في أواخر القرن 16م بدأ تركيز العمليات على المحيطات واستمرت حتى منتصف القرن 17م شملت السواحل الدنماركية (آيسلند) سنة 1627 وبروسني الإنجليزية سنة 1625²، بحيث كانت انطلاقاً هذه الحملات من القواعد البحرية في المغرب كسلا التي انطلق منها الراجس مراد سنة 1585 بحملة مكونة من ثلاثة سفن حربية³.

كما كانت تنطلق من القواعد الجزائرية فالطريق إلى الأطلسي اتخذ مساره انطلاقاً من هذه المدن المغاربية مروراً بسواحل إسبانيا كبرشلونة وفلاكس وألكيانت، وملقة فهذا الطريق كان مخصص للاستطلاع وللوصول إلى أعالي قادش وطنجة وتنقسم السفن المكونة للحملة إلى قسمين: قسم مهمته التجول على طول السواحل الإسبانية والبرتغالية فيبدأ من رأس سان فانتان إلى رأس فيتيس وقسم يبحر في المياه العالية لمطاردة السفن التي يصادفونها⁴، ولتأكيد الحضور العثماني في سواحل المغرب السعدي السعدي تحفظ لنا الوثائق الكثير من أسماء بعض الراجس العثمانيين الموجودين في سلا ففي وثيقة أرشيفية إسبانية حول تحرير الإسبان المسجونين بسلا تحتوي على الكثير من الأسماء التي تدل على ذلك الحضور ومنهم مامي راجس، الراجس التونسي، القرصان التركي المدعو طريق⁵.

كما تؤكد البيارق والأعلام العثمانية صحة ذلك الحضور والنشاط، فسفن مجاهدي سلا كانت ترفع البيارق الحربية العثمانية مثل بيارق التركي الكبير وهي ذات أشكال مختلفة منها بيارق أحمر يحمل ثلاثة

¹ أ. و. ج، دفتر مهم رقم 22، عدد 271، مصدر سابق.

² إلتز، مرجع سابق، 290.

³ كواندرو، مرجع سابق، ص 59.

⁴ شترة، مرجع سابق، ص 688.

⁵ محمد عبد المومني، "وثيقة إسبانية حول تحرير الأسرى من قسبة سلا سنة 1632"، مجلة أسطور، العدد 09، 2009، ص 220،

(ص 216، ص 287).

أهلة فضية تتجه رؤوسها إلى الخارج، يبرق المعركة الجزائري وهو أزرق ذو ذراع فضي ومعصم محلي بسوار ذهبي لامع ينبثق من سحب رملي¹.

وللاطلاع أكثر على طبيعة النشاط البحري في هذه الفترة، توضح رسالة مؤرخة في نوفمبر 1587 موجهة من إليزابيت إلى مراد الثالث تساند فيها السلطان إرسال كل القوة الهائلة للإمبراطورية وعلى الأقل ستين أو ثمانين سفينة جالي ضد الوثي ملك إسبانيا الذي يريد تدمير انجلترا ومن ثم تركيا والسيطرة على العالم، حيث كان الرد العثماني إيجابيا على هذه الاستغاثة من خلال إرساله بعض القطع البحرية، بحيث يقول الباحث إدوارد شيفرسكي "لقد تشكل الأسطول التركي الذي تعامل مع دراك drake ورالي raleigh في القتال حلقة قوية في ملحمة الأرمادة"²، وهذا دليل على مشاركة العثمانيين في هذه المعركة.

كما أشارت التقارير الإسبانية إلى أن الخلافة العثمانية منذ 1589 حتى أوائل 1591 قامت بإحضار 300 سفينة بالقسطنطينية بهدف مساعدة الموريسكيين³، وانطلاقا من ذلك نستخلص أن الدور العثماني في الحوض الغربي لم يتوقف رغم حقيقة ضعف النشاط القتالي البحري الموجه ضد الإسبان مقارنة ما قبل 1581، فالأعمال الجهادية كانت مثل ما قال بيانوبيا أعمال إنسانية، وتركزت على سواحل وجزر المحيط الأطلسي، والدور العثماني بقي من خلال هذا النشاط وكذلك من خلال حضوره في سواحل المغرب وكذلك تحالفه مع الإنجليز.

أما فيما يخص موقف المنصور الذهبي من نشاط العثمانيين فالمصادر التاريخية لم تذكر أي معارضة للمنصور لذلك، فهو كان يخشى العثمانيين لذلك لم يبدي أي رد فعل، ولقد كان على اطلاع بقوتهم البحرية وذلك يظهر في وصف سفيره التمقروتي إلى الباب العالي⁴، فرغم أنه قام ببعض الأعمال البحرية في سلا والعرائش⁵، حيث أمر دار الصناعة بسلا والعرائش وكان على تواصل مع حاكم تطوان

¹ كواندرو، مرجع سابق ص 189.

² إدوارد شيفرد كريسي، تاريخ الأتراك العثمانيين، ترجمة أحمد سالم سالم، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، ط01، قطر، 2019، ص 317.

³ عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، ط01، تونس، مطبعة فاز بريس، 1989، ص 22.

⁴ القدوري، (البحر في المتخيل المغربي)، مرجع سابق، ص 13.

⁵ الناصري، مصدر سابق، ص 26.

آل النقيس وكان على اطلاع على أعمالهم الجهادية ضد كفار سبتة¹، لكنه لم يبدي أي ردة فعل اتجاه العثمانيين رغم امتعاضه منهم.

2-2- علاقة الخلافة العثمانية ببلاد السودان وموقفها من حملة المنصور الذهبي سنة 1591

2-2-أ- التواصل العثماني ببلاد السودان الغربي:

بعدما استتاب الأمر للعثمانيين في بلاد المغرب، وبعد انضمام الجزائر نهائيا سنة 1520، وكذلك طرابلس الغرب سنة 1555 إضافة إلى المغرب الأقصى وإن كان حالة استثنائية، لكن على الأقل ضمنت الخلافة العثمانية ولائه وخاصة بعد تقليد الخليفة العثماني للملك المغربي عبد الملك الخلعة الهمايونية: " وأمرت: ترتدي الخلعة الهمايونية المقرونة بعزتي حال وصولها، وأن تبذل كل قدراتك اتجاه الأمور المتعلقة بدولتي الأبدية الكراونية وأن تظل على اتصال مع أمير الأمراء المشار إليه..."².

وانطلاقا من هذا بدأ الطموح العثماني يتمدد إلى الجنوب باتجاه بلاد السودان في إطار استراتيجية بعيدة المدى خصوصا وأن العثمانيين كانوا في صراع مع البرتغاليين في المحيط الهندي وكانوا على علم بالتغلغل البرتغالي في غرب إفريقيا من خلال الرحلات الاستكشافية التي كان يرسلها بداية من القرن 16م أين قام الرحالة البرتغالي بشيكوا بريرا *durata bchico perira* برحلة بإشراف البلاط الملكي البرتغالي سنة 1505 إلى إفريقيا الغربية أين كتب كتاب مفصل عن المنطقة من حيث السكان والمدن والتجارة وأماكن تركز الذهب وأسواق العبيد، وقام الرحالة الآخر أندري دونلا *andre donela* برحلة أخرى سنة 1570 لنفس الغرض³ وانطلاقا من هذا نتساءل عن موقف العثمانيين من التوسع البرتغالي؟.

فالكتابات التاريخية صراحة لا تتحدث عن علاقات عثمانية مع إفريقيا جنوب الصحراء رسمية في هذه الفترة ونقصد هنا بالذات علاقاتها مع السودان الغربي فالمصادر في هذه الفترة سكتت عن ذلك باستثناء تقديم بعض الإشارات على التواصل التجاري بين المدن في جنوب الصحراء كتمبكتو وكوكبا مع مدن الشمال كالقاهرة والمغرب وطرابلس، وهي الطرق التي كانت نشطة سابقا بين مملكة مالي ودولة

¹ أبو العباس أحمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، ج02، ط01، مطبعة أطو بريس، 2001، المغرب، ص48.

² الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 07، حكم رقم: 2481، مصدر سابق.

³ حسين بويدي، "التجارة والتجار في إفريقيا الغربية من خلال المصادر الأوروبية ق14-16م"، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد06، العدد01، جوان 2020، الجزائر، ص334. (ص325-348).

المماليك بمصر¹، ولذلك نتساءل عن السبب في عدم ربط الباب العالي اتصالات رسمية مع مملكة السنغاي رغم أن الباب العالي في تلك الفترة كان يعرف أوج قوته السياسية والعسكرية.

فالباحث محمد الغربي يجيبنا عن ذلك بالقول أن مملكة السنغاي كانت في هذه الفترة (1550-1591) تعيش النمو والازدهار "مرحلة القوة" فالسلطان سني علي كان حاكما وقاتحا عظيما كما كان الأسكيا الحاج محمد من أقوى الملوك فقد زار مصر واقتبس من نظمها وفتح المجال أمام العلماء من تلك الديار²، أما الباحث أبو رحاب فيقول أن الخليفة العثماني لم يجد مايرر به تدخله في هذه البلاد التي تدين بالإسلام³، لكن يبدو أن هذا الرأي يخالف المعطيات التاريخية آنذاك فماليك مصر كانوا مسلمين لكن امتدت عليهم سلطة العثمانيين، وبلاد السودان الأوسط كانت مسلمة لكن اتبعت الخلافة العثمانية، ولو بصفة اسمية كغيرها من المناطق الإسلامية البعيدة، وللتحري أكثر في الموضوع نحاول استطلاع ملامح التواصل العثماني بهذه البلاد ومعرفة تأثيره على الجانب السياسي.

الباب العالي ربط اتصالات تجارية مع هذه البلاد بصفة رسمية ولو بطريقة غير مباشرة وذلك من خلال المدن الصحراوية في إيالتي الجزائر وتونس فبعد سيطرتها على المناطق الداخلية توجهت نحو الجنوب فبعد إخضاع بسكرة سنة 1544، قامت سنة 960هـ / 1552م بضم وارجلان تحت نفوذها بصفة رسمية مع احتفاظ المدينة بنظام سلطنتها المحلية فهي مطالبة بالولاء وبتحويل خزانة ولاية الجزائر عن طريق دفع ثلاثين عبدا أسودا كهدايا وهو نفس الشيء بالنسبة لتقرت التي خضعت في نفس السنة للسلطة العثمانية بقيادة صالح رابيس⁴، فهذه المدن كان لها روابط تجارية سابقة مع مدن السودان الغربي وبعد هذا التاريخ أصبحت تمثل السلطة العثمانية الرسمية بالتجارة كانت تحت إشراف السلطة العثمانية أو على الأقل كانت تحت مراقبتها.

¹ موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام القرنان السادس عشر والسابع عشر، المجلد 04، ط02، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريد داغر، منشورات عويدات، لبنان، 1987، ص523.

² الغربي، مرجع سابق، ص59.

³ أبو رحاب، مرجع سابق، ص97.

⁴ أحمد زكار، حاضرة وارجلان وعلاقتها التجارية بالسودان الغربي من سنة 1000هـ إلى 1301هـ/1591 إلى 1883، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر، جامعة أحمد درارية أدرار، 2009-2011، ص57. للمزيد ينظر: هشام بلمرحة، "جوانب من العلاقات الثقافية بين المغرب السعدي والسودان الغربي"، مجلة ليكسوس، العدد35، أكتوبر2020، ص40. (ص29-43).

وهناك بعض الإشارات التاريخية التي تؤكد ذلك، فالرحالة مالفت يذكر في وصفه لتمبكتو وأسواقها أنها كانت تحتوي على سلع مستوردة من رومانيا وآسيا الصغرى¹، كما يشير حسن الوزان إلى وجود بعض السلع القادمة من أراضي الخلافة العثمانية عبر بلاد المغرب في أسواق غوا في عاصمة السنغاي كالقماش الذي يقول فيه أن ثمن الذراع الواحد منه يبلغ نحو ثلاثين دوقة²، ومن هذا المنطلق نلاحظ أن السلطة العثمانية حافظت على النسيج التجاري السابق الذي كان يربط بلاد السودان الغربي والأوسط ببلاد المغرب العربي وبمصر، فمملكة مالي كانت لها علاقات دبلوماسية وتجارية قوية مع البلدان السابقة من خلال تبادل السفراء والرسائل وكذلك تبادل الزيارات العلمية حيث درس طلاب مالي في مصر والقيروان وفاس، كما حافظت مملكة سنغاي التي خلفت مالي على هذه العلاقات فيما بعد وعلى نفس النسق والأهمية ورحل علماء المسلمين أمثال جلال الدين السيوطي وعبد الكريم المغيلي للتدريس في جامعة سنكري التي اشتهرت في بلاد السودان الغربي³.

وبذلك يمكن القول بأن الباب العالي كان في تواصل رسمي مع بلاد السودان الغربي لكن في إطار تجاري دون الجانب السياسي المتمثل في التبعية الإسمية مثل ما كانت عليه بلاد السودان الأوسط ولعل السبب في ذلك عدم وجود احتكاك مباشر بين المنطقتين مقارنة بالسودان الأوسط الذي شكلت فيه فزان⁴ نقطة احتكاك وقاعدة عسكرية للقوات العثمانية ومن خلالها استطاعت ربط علاقات سياسية مع سلطة تلك البلاد، فالمسافة بين مدينتي وارجلان وتقرت وبسكرة وميزاب التي كانت خاضعة للسلطة العثمانية بعيدة جدا عن أقرب نقطة في السودان الغربي.

¹ بويدي، مرجع سابق، ص344.

² زيادة، مرجع سابق، ص329.

³ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، "السلطنات الإسلامية في السودان الغربي"، مجلة الفيصل، العدد 126، 1987، ص34، (ص31-ص35).

⁴ في سنة 956هـ/1549م في عهد مراد آغا حاكم ليبيا راسلته خودة بنت شرومة بن محمد الفاسي صاحب فزان فأرسل إليها طائفة من جنده وملكو أرض فزان والصحيح أن أخذ فزان إنما كان سنة 985هـ/1577م بعد فتح طرابلس وموت = طرغود باشا بأيام للمزيد ينظر: الطرابلسي، مصدر سابق، ص93. كما يشير الباحث إبروشين أن فزان كانت قبل الوجود العثماني خاضعة لنظام حكم مستقل تحكمها أسرة أولاد محمد، وقد وسع السلطان منصور بن محمد أراضيه على حساب الجزء الجنوبي من طرابلس الغرب، والأراضي الممتدة إلى الشرق وحتى سوكنة، وبعد إخضاع العثمانيين للمدينة تركوا السلطة الحاكمة في السلطنة مقابل إلزامهم بدفع إتاوة سنوية، عرفت المدينة تمردا على العثمانيين سنة 1599 بعد استشعارهم بضعف قوة السلطة في طرابلس، لكنها سرعان ما عادت لوضعها السابق للمزيد ينظر: إبروشين، مرجع سابق، ص48. وكذلك: مصطفى خوجة، تاريخ فزان، تقديم وتحقيق حبيب وداعة الحسناوي، مركز منشورات جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، ص13.

2-2-ب/ علاقات الخلافة العثمانية ببلاد السودان الأوسط وتأثيره على الحضور المغربي في المنطقة:
2-2-ب/1- تعريف مملكة برنو:

تعتبر مملكة برنو الإسلامية من أهم الكيانات السياسية الإسلامية التي عمرت في بلاد السودان الأوسط، وخاصة في فترة حكم إدريس علومه¹، حيث تأسست برنو على أنقاض مملكة الكانم، بعد هروب ملوك هذه الأخيرة باتجاه منطقة غرب بحيرة تشاد حالياً، وهو الإقليم الذي انتزعه من قبائل شعب الصو (من شعوب الفلاتة)²، حيث عرفت أوج قوتها في عهد السلطان إدريس (979هـ-103هـ/ 1571م-1596م)³، حيث تمكن حكام كانم من نقل عاصمتهم نجيمي إلى الجزء الغربي من بحيرة تشاد بعيداً عن مضارب خصومهم البولالا في عهد السلطان عثمان بن إدريس (1390-1398)، وأطلق عليها اسم مملكة البرنو⁴، ويعتبر الملك علي غازي بن دوناما (1476م-1503م) المؤسس الحقيقي لدولة برنو، بحيث أسس عاصمة جديدة على نهر يولا غرب بحيرة تشاد وسماها نغازاغامو Nagazaguamu، ليخلفه ابنه بعد موته (1503-1526) كخليفة وهو السلطان إدريس علومه (1570-1603)⁵ في عهده عرفت الأسرة السيفية قمة المجد⁶.

حيث عرفت مملكة البرنو في عهد الملك إدريس علومه أوج ازدهارها فالسلطان إدريس شديد التمسك بالكتاب والسنة، شديد الكراهية لأهل البدع والمحدثات حيث حكم بالكتاب والسنة خلال فترة

¹ عبد القادر زيادية، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ت، ص 191.

² شعب الصو: هو أحد فروع شعب الفلاني تقطن منطقة بحيرة تشاد شكلوا دولتهم في القرن الثالث الهجري وكانوا في صراع مع دولة البرنو باستمرار للمزيد ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، دار صادر، لبنان، 1995، ص 01.

³ إسماعيل أحمد ياغي، شاكر محمود، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر - أفريقيا -، ج 2، دار المريخ، السعودية، 1993، ص 195.

⁴ أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، تحرير وتقديم حماه الله ولد السالم، د ط، دار الكتب العلمية، لبنان، 1971، ص 62.

⁵ الفترة التي جاءت بعد حكم إدريس بن علي (1503-1526) من 1526 إلى 1570 كانت بمثابة مرحلة فراغ حيث كان إدريس علومه صغير السن لم يبلغ سن الرشد لتولي عرش المملكة، حيث كانت في هذه الفترة أمه وصية عليه.

⁶ محمد علي باري محمد فاضل، كريدية سعيد ابراهيم، المسلمون في غرب إفريقيا، د ط، دار الكتب العلمية، لبنان، 2007، ص 13. للمزيد ينظر: مصطفى أنجاي، "من كانم إلى سوكونو موجز التاريخ السياسي للسودان الأوسط"، مجلة قراءات إفريقية، العدد 35، 2018، ص 6.

حكمه، وقام بنشر الإسلام وتنظيم أمور مملكته في جميع المجالات وإنعاش الاقتصاد، حتى توفي سنة 1603 أثناء غزواته بالكامبيرون¹.

كما تعد بلاد برنو من أهم المناطق الاقتصادية في بلاد السودان، حيث يقول حسن الوزان: "وأجمل بلاد السودان هي تلك التي تمتد على طول نهر النيجر"²، وهذه دلالة على خصوبة أراضي المنطقة وازدهار النشاط الاقتصادي فيها ولعلها تمثل أهم الأسباب التي جعلت حكام كانم ينتقلون إليها من الجنوب، فبحكم موقعها أصبحت مركزا تجاريا كبيرا يربط السودان بشمال إفريقيا وظهرت برنو في الخرائط البرتغالية عام (893هـ-1487م)³، وهذه دلالة أخرى على أهمية المنطقة نظرا لكون التواجد البرتغالي أو على الأقل محاولاته للسيطرة على أي منطقة تكون بعد دراسة حالة المنطقة ومقوماتها الاقتصادية والفوائد التي يمكن أن تقدمها للدولة الاستعمارية.

2-2-ب-2- التواصل العثماني البرنوي الرسمي:

كانت بوادر التواصل بين الخلافة العثمانية، وبلاد السوان الأوسط من خلال السلطان إدريس علومة⁴، الذي أرسل سفارة دبلوماسية رسمية سنة 1574 إلى الباب العالي تهدف إلى إقامة علاقات سياسية مشتركة تحفظ مصلحة البلدين خصوصا وأن السلطان إدريس كان يدرك مدى قوة العثمانيين وبلادهم أقرب إلى المجال العثماني فالإنكشارية كانوا يتمركزون في قاعدة فزان وقلعة قوران التي أخذها منه العثمانيين بالقوة⁵، لذلك السلطان إدريس كان ذو حنكة ودهاء فعوض الدخول في صراع غير متكافئ

¹ علي عبد الظاهر علي، ما أخفاه التاريخ: قصص منسية لبطولات أسطورية، ط1، دار المعرفة، مصر، 2017، ص135. للمزيد ينظر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، انتشار الإسلام في غرب إفريقيا، د ط، دار الفكر العربي، مصر، د ت، ص64.

² الوزان، مصدر سابق، ص34.

³ البكري، مصدر سابق، ص06.

⁴ تشير بعض الدراسات التاريخية أن أول تواصل رسمي بين برنو والخلافة العثمانية كان سنة 1563م/956هـ، أين قامت الملكة عائشة أم إدريس علومة بإرسال وفد إلى الباب العالي الأمر الذي أدى إلى تكرار الزيارات فيما بعد. ينظر: حمد = محمد حمد الجهيمي، العلاقات التجارية بين طرابلس ومملكة الكانم برنو فيما بين القرن السابع، وحتى القرن العاشر هجري، د ط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عمر المختار، ليبيا، د ت، ص19.

⁵ بعد سيطرة العثمانيين على طرابلس سنة 1551م أرسلوا إلى الصحراء بقيادة محمود بيه، فاستولى على فزان وقلعة قوران المهمة، وكانت هذه المناطق خاضعة لسلطة البرنو منذ وقت طويل، وقام القائد محمود بطرد حاكم برنو عليها ويدعى الولد محمد، ولكن سلطان برنو استقبل الخبر بهدوء، حيث كانت نظرة أهل برنو يومئذ نظرة وقار واحترام، وقام السلطان إدريس بمراسلة الخليفة العثماني. للمزيد ينظر محقق كتاب المسالك والممالك للبكري، مرجع سابق، ص67.

أرسل وفدا يطلب إقامة علاقات قائمة على حسن الجوار يستطيع من خلالها الحفاظ على ملكه وكذلك الاستفادة من ذلك بالتوسع نحو الجنوب.

أصداء هذه السفارة الدبلوماسية ونتائجها تذكرها بعض الوثائق الأرشيفية فمن خلال عملية البحث وجدنا وثيقتين أرشيفيتين محفوظتين بالأرشيف الوطني الجزائري الصادرتين بتاريخ 985/03/05هـ- 1577م/05/23، حيث كانتا مشتركتان في نفس التاريخ وفي نفس العنوان وهو أمير أمراء تونس، لكنهما مختلفتان في الحكم الهاميويني أو المضمون أي أن الأولى موجهة لحاكم تونس تحثه على ضرورة توفير الحماية الأمنية لوفد السفارة العائد لبلاده برونو "وأعدنا حال وصوله ينبغي القيام بإيصال المشار إليه آمنة وسالما مع أتباعه وأسبابه إلى ولايته ولا تدع أحدا يتدخل في أموره أو يتعرض سبيله"¹، أما في مضمون الرسالة الثانية فتشير إلى رسالة من الباب العالي إلى أمير فزان تحثه على حفظ الحدود بين الجانبين حيث جاءت كالتالي: "فإننا نأمر بالتنثية على قدوة الأمراء الكرام محمود- دام عزه- أمير فزان التي تشكل حدود أملاكنا المحمية مع تلك الديار الكثيرة"².

ويمكن تفسير توجيه الخليفة العثماني لرسالته لأمير فزان عبر أمير تونس هو بسبب موقع الاتصال أو التواصل العثماني مع الأقاليم فرسانل وفرمانات الخليفة العثماني كانت تمر عبر تونس أو طرابلس الغرب وهذا أمر طبيعي في هذه الحالة، وكان اختيار تونس لكون أن وفد مملكة البرنو كانت تونس تمثل طريق عودته إلى بلاده، وكذلك طرابلس الغرب عبر فزان فالطريق عبر هذه الجهات كان يشغله التجار وكان أغلبهم من طرابلس والمغرب³، حيث كانت القوافل تنطلق من غدامس الليبية وتصل إلى أسواق كانوا وزاريا محملة بالبضائع القادمة من مدينة الجزائر وكانت عملية البيع والشراء تتم بالمقايضة بغير الذهب أو ريش النعام وكانت التجارة الصحراوية من أهم مداخيل السلطة العثمانية في طرابلس الغرب آنذاك⁴، وبذلك الطريق معلوم من هذه الجهات خصوصا إذا علمنا أن العثمانيين كانوا حاضرين عسكريا في فزان.

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 30، حكم إلى أمير أمراء تونس، حكم رقم 440، 1577، ص 188.

² نفسه، ص 188.

³ الغربي، مرجع سابق، ص 66، للمزيد ينظر: ناعمي مصطفى، الصحراء من خلال بلاد تكتة- تاريخ العلاقات التجارية والسياسية، د ط، منشورات عكاظ، المغرب، 1988، ص 115.

⁴ سبنسر، مرجع سابق، ص 149.

أما فيما يخص ظروف السفارة تذكر بعض الكتابات التاريخية أنها كانت بعد حج السلطان إدريس علومه إلى مكة المكرمة، أين أعجب بالتنظيم الإداري والعسكري للعثمانيين في البلاد التي يحكمونها ومنها عرف تسمية الأسلحة النارية، فاشترى الكثير منها¹، كما أن مملكة برنو كانت على اتصال مع إيلات الخلافة العثمانية في الشمال قبل وأثناء التواجد العثماني، فالطريق التجاري الذي بدأ من ساحل طرابلس الغرب، كانت برنو وغانا مقصدا لها بعد المرور من غدامس وفزان²، فطرق الحج والتجارة في شمال إفريقيا كانت تحت نفوذ العثمانيين وكانت هذه المسالك هي المنفذ أمام سكان إفريقيا جنوب الصحراء إلى المشرق وأوروبا عبر تونس والجزائر ومصر وليبيا لذلك كان لابد عليهم من التعامل مع السلطات العثمانية ولابد لهذه الأخيرة أن تتابع ما يجري في بلدانهم³.

كما كانت على اتصال رسمي بحكام الإيالات، فقد ذكر الإيطالي جيوفاني لورنزو أنيانا *giovani loranzo aniani* على لسان أحد الأوروبيين الذين كانوا في الأسر في طرابلس الغرب، أن إدريس علومه أرسل رسالة إلى باشا طرابلس باللغة العربية⁴، ويشير الباحث كريستيانزو برنيا إلى أن هذه المراسلة جاءت بعد تولية إدريس الحكم خلفا لوالده أين أرسل سفارة على الفور إلى طرابلس التي كانت تحت ولاية جعفر باشا ليؤكد مشاعر الود والتفاهم والعلاقات الطيبة القائمة منذ القدم بين المملكتين وتم بهذه المناسبة تبادل الوفود والهدايا⁵.

وبالحديث عن مضمون الرسالتين فالأولى التي تحت رقم 439 الموجهة إلى ولاية تونس كانت تشير إلى مكانة السلطان إدريس عند الباب العالي، وكذلك مدة الإقامة التي تتضح أنها استمرت بعض الوقت بالنسبة للسفارة، حيث جاءت كما يلي: "سبق وأن حضر إلى إيالة سعادتنا رسول جناب صاحب الإمارة الملك إدريس حاكم برنو دامت معاليه، وبناء على طلبه لإجازتنا الهمايونية بالعودة ثانية إلى تلك الديار فقد أقرناه بإجازتنا الهمايونية"⁶، ويلاحظ من كلام الخليفة العثماني مراد الثالث، مكانة إدريس علومه الذي وصفه بالملك، وعن أهداف السفارة وحيثياتها توضح الرسالة الثانية تحت حكم رقم 480

¹ باري، كردية، مرجع سابق، ص 26.

² مبخوت، مرجع سابق، ص 311.

³ المودن، (تساؤلات حول موقف العثمانيين...)، مرجع سابق، ص 16.

⁴ زيادية، مرجع سابق، ص 114. للمزيد من المعلومات حول هذه الرسالة ينظر:

B. Martins, "Mai Idris and ottoman Turks 1576-1578", journal of Middle East, 1972, p90-p460.

⁵ برنيا، مرجع سابق، ص 77.

⁶ الأرشيف الوطني الجزائري، حكم رقم 440، مصدر سابق.

البعض من ذلك، جاءت كالتالي: "بعث جناب صاحب الإمارة الملك إدريس حاكم البرنو، دامت معاليه برسول معربا بذلك عن عبوديته وإخلاصه ومصافاته اتجاه إستانة سعادتنا"¹. وأمام هذا التصريح الصادر عن الخليفة العثماني نفتح باب الاستفهام لتفسير ذلك والتساؤل عن طبيعة ونوع العبودية والإخلاص التي وجهها الملك إدريس إلى الخلافة العثمانية؟

فيما هو متعارف عليه أن الخلافة العثمانية استخدمت الكثير من أنماط الإدارة والحكم في الأقاليم المختلفة، تختلف من منطقة لأخرى فقد كانت "هناك ولايات تتمتع بحكم ذاتي وتتميز عن تلك التي كانت خاضعة للحكم العثماني المباشر ألا وهي ولايات الساليانة وولايات الحكومة، بالإضافة إلى الإمارات المسيحية والمسلمة كخانية القرم، وإمارة كيلان"². وكمثال على ذلك مارست الدولة العلية نظام الشرافة في منطقة الحجاز بحيث كانت إلى جانب الوالي العثماني ممثل للأشراف في ولاية الحجاز³، وكذلك الهند كانت موالية للعثمانيين اسميا وهو ما يظهر في التحالف العثماني الهندي لمحاربة البرتغاليين في النصف الأول من القرن السادس عشر، لكنها لم تخضع للنفوذ العثماني المباشر⁴.

ومن هذا المنطلق نحاول الإجابة أو نحلل التقارب العثماني البرنوي والذي نفسه على أنه اعتراف إسمي رسمي من الملك إدريس علومة بولائه للخلافة العثمانية، خصوصا إذا علمنا أن حدود مملكته التي كانت متاخمة لحدود بلاد السودان الشرقي وتحديدا إقليم دارفور، ومعروف أن هذه المناطق بإفريقيا الشرقية كانت توالي العثمانيين إسميا نظرا لطبيعة المنطقة وبعدها عن مركز الحكم العثماني، كما نفسر من خلال هاتين الرسالتين أن النظريات أو الآراء التاريخية حول أن الوجود العثماني في إفريقيا انكمش على السواحل دون المناطق الداخلية⁵ هو أمر يحتاج إلى إعادة تفسير تاريخي خصوصا إذا علمنا أن مخزونات الأرشيف العثماني لم تفتح ولم تدرس بعد ففي رسالة أرشيفية حملت ما يشير لولاء مملكة برنو للخلافة العثمانية حيث جاء في ديباجتها ما يلي: "هذا كتابنا الشريف السامي السلطاني وخطابنا المنيف العالي...أرسلناه إلى جناب الكريم الكبير...ملك إدريس الوالي يومئذ بولاية بورنو أدام الله تعالى

¹ الأرشيف الوطني الجزائري، حكم رقم 440، مصدر سابق.

² إنجاليك، مرجع سابق، ص 109.

³ وصفي، مرجع سابق، ص 84.

⁴ يوسف بك أصف، تاريخ سلاطين بني عثمان من الأول حتى الآن، تقديم محمد زينهم، محمد حرب، ط1، مكتبة مدبولي،

مصر، 1995، ص 12.

⁵ جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، د ط، دار الفكر العربي، مصر، 1996، ص 315.

سعده...¹ وتجدد الإشارة ان هذه الرسالة جاء كرد من الخليفة العثماني على سفارة الملك إدريس السابقة الذكر.

ومن خلال الكتابات التاريخية يتضح أن هدف الزيارة، أو المراسلة هو حاجة الملك إدريس علومه للأسلحة النارية لمقاتلة الوثنيين المتاخمين لحدود مملكته، خاصة وأن الخلافة العثمانية اشتهرت في تلك الفترة بالصناعة العسكرية ولاسيما البنادق والمدافع، ويقول محقق كتاب المسالك والممالك أن السلطان إدريس أثناء رحلته للحج التي زار فيها مصر اشترى كميات كبيرة من الأسلحة النارية، وأحضر معه مجموعة من الجنود الأتراك لتدريب جيشه على استعمال السلاح الناري²، حيث كون من هؤلاء الجنود فرقة خاصة لهذا الغرض³، لكن على المستوى الرسمي هل قدم الخليفة العثماني الدعم الذي طلبه إدريس في هذه السفارة؟.

المصادر التاريخية لم تذكر طبيعة الدعم العثماني لبرنو، فالبعض يرى أن الدعم كان غير مباشر من خلال قيام البرنويين بالتجارة في الأسلحة مع تجار طرابلس الغرب، وذلك بطبيعة الحال بتسهيلات مقدمة من السلطة العثمانية وتحت مراقبتها، حيث كان تجار برنو يبادلون الأسلحة والمدافع مقابل العبيد⁴، فالمقيم التجاري الفرنسي في طرابلس الغرب يصف حجم التجارة بين السلطة العثمانية وبرنو حيث ذكر أن داي طرابلس كان يرسل إلى فزان قافلة مكونة من حوالي مائتي جمل مرتين في السنة محملة بالكثير من المنتجات مقابل مقايضتها بالعبيد⁵، كما تذكر أن استفادة إدريس من الدعم كان كذلك من خلال تجنيد متطوعين من الجيش العثماني، ومن المغامرين بمقابل، كما يطلق عليهم المرتزقة حسب وصف هذه

¹ أ ر و، الديوان الهمايوني، دفتر مهم رقم 30، حكم رقم 109، رسالة من الخليفة العثماني إلى الملك إدريس، ص 494، ص 495.

² البكري، مصدر سابق، ص 63، للمزيد من المعلومات حول سفر ملوك البرنو إلى مكة للحج ينظر:

Reni Dewaere, Du la Tchad A la Mecque : le sultanat de de borno et son monde (16-17 siècle), Edition de la Sorbonne, 2017, p155.

³ الغربي، مرجع سابق، ص 68.

⁴ Sébastian Flynn, the Relationship Between the ottoman empire and kanem borno during the King of sultan Murad III, a master thèses, Ihsan Dogramaci Bilkent université, Ankara, 2015, p102.

⁵ جاسم محمد شطب العبيدي، "تجارة الرقيق الصحراوية الإفريقية العثمانية وجدواها الاقتصادية، في القرن التاسع عشر"، مجلة الباحث، المجلد 11، العدد 04، 2014، ص 06. (ص، ص 401-434).

الكتابات، ويرجح أن يكونوا من عناصر الانكشارية الموجودين في طرابلس وفي المقاطعات العثمانية المجاورة ويقدر عددهم بنحو ألف مقاتل¹.

وعلى ضوء هذا نستخلص أن الباب العالي بالفعل قام بدعم السلطان إدريس ولو بصفة غير مباشرة في إطار خدمة مساعي الإسلام والمسلمين في الانتشار والتوسع والدفاع عنه كذلك خصوصا وأنها كانت في صراع حضاري مع العالم الغربي الذي بدأ نفوذه ينتشر في سواحل إفريقيا الغربية والشرقية وبالتالي أمر إيجاد حلفاء وتدعيمهم أمر واجب بالنسبة للاستراتيجية العثمانية العالمية.

ويؤكد الخليفة العثماني في رسالته إلى بايلرباي تونس على ضرورة حفظه الحدود مع مملكة برنو وعدم المساس بأمنها ورعاياها، حيث جاء مضمون كلامه كالآتي: "وكذلك التنبيه على سائر أمراء الحدود بالفعل على حسن الجوار، مع المشار إليه الملك إدريس كما يجب عليك عدم الإيذاء أو التعدي على الرعايا التابعين لألويتهم أو على الرعايا والعساكر التابعين للمشار إليه"²، ليؤكد وبشدة وبصورة جلية مكانة السلطان إدريس لدى الخلافة العثمانية من خلال حرص هذه الأخيرة على تكريس وتمتين العلاقات الثنائية، حيث قال الخليفة العثماني في هذا الخصوص: "ولتعلموا أن شكر وشكاية المشار إليه في حق تلك الأمور مثمرة ومؤثرة، فلا تتوانى لحظة من إهابتهم وليمضوا في العمل على المحافظة على ألويتهم وحاذر من التدخل والتعرض لذلك الجانب"³، وبذلك يكون إدريس قد نجح في تأمين حدوده الشمالية وكذلك توسيع ملكه في الجنوب.

ومن هنا نتساءل ونؤكد على أهمية المراسلة أو بالأحرى نتائجها النهائية، فالسلطنة العلية لا تخص الأقاليم بهذا الاهتمام إلا إذا كانت تابعة لها أو تربطها علاقات فوق العادة معها، وبالتالي يكون السلطان إدريس علومة، قد دخل تحت السلطة العثمانية، أو على الأقل كان أكبر وأقرب الحلفاء للباب العالي في بلاد السودان، ومن تجليات ذلك هو تنازل إدريس عن طلبه للسلطان العثماني⁴ في استرجاع قلعة قوران، وقبوله بقرار الخليفة العثماني الذي رد عليه بالسلب معتبرا أن الخلافة العثمانية أولى بها

¹ Sébastian, opcit, p104.

² الأرشيف الوطني الجزائري، حكم رقم 440، مصدر سابق.

³ أ. و. ج، حكم رقم 440، مصدر سابق.

⁴ قام إدريس علومة بإرسال رسالة إلى الخليفة العثماني افتتحها بتحية خفيفة تتم على حسن الطوية وأشار إليه فيما حدث بالنسبة لفران وقوران، وطلب منه رد هذه القلعة لأنها تمثل رباطا لدولة لبرنو لحراسة الطرق التجارية، ولتأديب الطوارق الخارجين على الدولة، وتأمين طرق التجارة بين برنو وشمال إفريقيا، وحتى يتم كل ذلك فإنه في حاجة إلى السلاح يجاهد به الأعداء. للمزيد ينظر محقق كتاب المسالك والممالك للبكري، مرجع سابق، ص 68.

حيث كان رد السلطان كالتالي: "...وقد أخبرنا قاصدكم المزبور بالتماسكم من جنابنا الشريف أن يعطى لكم القلعة المسماة بفران ولا يخفى عليكم أنه ليس من قواعد أبائنا العظام و(دماء) أجدادنا الكرام أن يعطوا قطعة من القلاع التي كانت في أيديهم..."¹، كما يحمل الرد جوانب إيجابية بقبول الخليفة العثماني التعامل مع الملك إدريس "...وينتهي أنه قد وصل كتابكم إلى سدتنا السنية التي يلتجأ إليها السلاطين العظام... واستدعائكم أن يكون أساس المودة بيننا مشيدا، وبنبان المحبة والصداقة موادا، ويمروا أهالي دياركم في ولايتنا من يشاء من الواردين والصادرين والتاجرين والزائرين حتى يصير سببا لكمال الود..."².

وعموما كانت نتائج السفارة البرنوية الاتفاق على بعض القضايا التي نعددها فيما يلي:

- رغبة برنو في إقامة علاقات جيدة مع العثمانيين وهو ما وافقوا عليه.
- السماح لرعايا برنو بالدخول إلى أراضي الخلافة العثمانية للسفر والتجارة.
- طلب برنو الحصول على قلعة قوران من العثمانيين لكن العثمانيين رفضوا ذلك.
- طلب إدريس علومة الأسلحة النارية وإلى حماية حدوده كزعيم إسلامي.
- إذا احتلت قوة ما الأراضي العثمانية في إفريقيا يكون على برنو الالتزام بدعم القوات العثمانية المحلية³.

وانطلاقا من ذلك يظهر أن سفارة إدريس إلى الخليفة العثماني استمرت ثلاثة سنوات إذا ما علمنا أن تاريخها كان سنة 1574⁴، وأن الوثيقتين الأرشيفيتين السابقتين تمثلان النتيجة المباشرة لنجاح هذه السفارة من خلال ما حملته من أمور ايجابية للعلاقات الثنائية، وعلى ضوء هذا نتساءل عن تأثير نجاح هذه السفارة في مستقبل العلاقات العثمانية المغربية، وخاصة في ظل المتغيرات الإقليمية، وأهمها الغزو السعودي لبلاد السودان الغربي.

¹ أ ر و، الديوان الهمايوني، (دقتر مهم رقم 30، حكم رقم 109)، مصدر سابق، ص 494، ص 495.

² نفسه، ص 494، ص 495.

³ Sébastian, opcit, p115.

⁴ Ibid, p116.

2-2-ب/3- تأثير سفارة إدريس علومة على مستقبل الطموح المغربي في بلاد السودان (1581-1603):

من خلال معرفة نتائج السفارة البرنوية يلاحظ أن الباب العالي، استطاع تحقيق مكاسب مهمة من خلال امتداد خلافته ولو بصفة إسمية أو على أقل ضمان أمن حدود إيالته الجنوبية في بلاد المغرب العربي، حيث كان لهذه السفارة الأثر على العلاقات الثنائية المستقبلية، استطاعت من خلالها الخلافة العثمانية تحقيق بعض المكاسب في المجال السياسي والثقافي والاجتماعي، حيث تمكنت من فتح أبواب التوسع الصوفي أمام الطريقة القادرية، في بلاد السودان، فما هو معروف أن العثمانيين في بلاد المغرب العربي تحالفوا مع القادريين خاصة في ضل صراعهم مع المغاربة على وجه الخصوص، ومن خلال تتبع مسار وعوامل الامتداد الصوفي القادري في بلاد السودان، يظهر أن العلاقات الطيبة بين العثمانيين والبرنويين ساهمت في انتشار هذه الطريقة، حتى أصبحت إمارة ماسينا في مالي على حدود مملكة البورنو معقل القادريين الذين حاربوا الامتداد المغربي في عهد أحمد المنصور الذهبي، بقيادة الأمير حمد آمنة الذي أنهك القوات المغربية بقيادة القائد مصطفى تركي الذي عينه جودر باشا لذلك، حيث استمر القتال لسنوات عديدة حتى وقع الصلح بعد معارك عديدة¹.

وعلى ضوء هذا نلاحظ أن الصراع الطريقي انتقل من الشمال إلى الجنوب بين القادرية والجزولية المغربية التي كانت تعتبر عصب القبيلة الدينية لدولة الأشراف السعديين كما ساهمت كذلك القادرية بحكم ولائها للعثمانيين في حماية مصالحها ببلاد السودان، فخلال المراحل اللاحقة بعد القرن 16م كانت القادرية شوكة في حلق بعض الأمراء المسلمين ذوي التأثير الصوفي المخالف للقادريين أمثال الحاج عمر الفوتي في القرن 19م الذي كان على الطريقة التيجانية في بلاد السودان الغربي، حيث خاض على أثرها حروب ضد القادرية التي انحصرت في بلاد السودان الأوسط والشرقي²، وعموما العلاقات الثنائية البرنوية العثمانية كان لها الأثر الكبير في انتشار ونشاط الطريقة القادرية الموالية لها، فالقادرية التي بدأت في الانتشار في بلاد السودان قادمة من تلمسان بواسطة الشيخ عبد الكريم المغيلي وتلامذته عبر توات قد تأثرت كثيرا بالأفكار الجديدة القادمة من مصر وبلاد الأناضول عبر شرق إفريقيا³، ومنه نستخلص كذلك

¹ السعدي، مصدر سابق، ص184.

² زيادية، مرجع سابق، ص281.

³ هارون، بوسليم، مرجع سابق، ص73. للمزيد ينظر: مسعودي، مرجع سابق، ص52.

أن بلاد السودان لم تكن خارج الاستراتيجية العثمانية رغم عدم وجود ارتباطات سياسية لها مباشرة في تلك الجهات.

أما في الميدان السياسي فقد كان للتواصل العثماني البرنوي الأثر الفعلي في محاولات العثمانيين في كبح طموحات المنصور في الخلافة، والتوسع على حساب ممالك السودان الغربي والأوسط، فبعد تولي السلطان المغربي أحمد المنصور العرش سنة 1578 سار على خلاف نهج أخوه المتوفي السلطان عبد الملك الذي كان يوالي العثمانيين، حتى وصلت الأمور في عهده إلى حد التبعية، لكن المنصور الذي كان يحقد على العثمانيين رغم موالاته وتبعيته الإسمية لهم ظاهريا أراد تجسيد طموحه وإحياء مجد الخلافة، نظرا لكون الشرفاء من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم وهم الأولى والأحق بالخلافة من العثمانيين، حيث جاء في إحدى الرسائل المنصور إلى الخليفة العثماني على يد كاتبه الفشتالي ما يلي: "فهم أصحاب الكساء وليس إلا بهم الاقتداء والاحتساء والمعنيون بقوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى» فمن أسعده الله في مودتهم منحه في حضرة قدسه، ومقام أنسه حدائق غلبا...¹.

لذلك عمل المنصور على كسب ولاء ملوك بلاد السودان ففي ذلك الإطار قام بمراسلة ملك بورنو إدريس علومة وكذلك الأسكيا إسحاق ملك السنغاي ومطالبتهم بالجزية وخراج الذهب²، فبالنسبة لإدريس علومة فقد راسله المنصور في سنة 999هـ/1590م، حيث يقول الفشتالي في ذلك: "وإن في سنة تسعة تسعين وتسعمائة ورد على المنصور الحر وهو في مدينة فاس بقدم رسول صاحب مملكة بورنو من ملوك السودان وجلب في هديته ما جرت عليه عادتهم أن يجلبوه من فتيان العبيد والإيماء وكسا السودان... وكان يوم ملاقاته يوما مشهودا... واعترف السفير بالمملكة العظيمة بحقها وأظهر، من الوضوح والتعلق والاستكانة والخدمة والطواعية وأوصاه به مرسله"³.

وانطلاقا من هذا نلاحظ أن سلطان بورنو إدريس اعترف بخلافة أحمد المنصور حسب رواية المؤرخين المغاربة، وبهذا يعني أن إدريس نقض عهده مع العثمانيين بعد خمسة سنوات من الاعتراف بخلافتهم، كما يجب التنويه هنا أيضا إلى أن دولة البرنو في عهده عرفت أوج قوتها وامتدادها، وكانت

¹ عبد الله كنون، رسائل سعية، د ط، دار الطباعة المغربية، المغرب، د ت، ص 20.

² الحاج بنيرد، "تاريخ تمبكتو من نشأتها إلى غاية القرن الحادي عشر هجري، دراسة ثقافية تاريخية"، دورية كان التاريخية، العدد 28، ص 78.

³ عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تقديم وتحقيق عبد الكريم كريم، د ط، مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون

على نهج الإسلام في تسيير شؤونها كما أنها استفادت من الأسلحة المقدمة من طرف العثمانيين لذلك نتساءل عن الداعي الذي دفع بإدريس إلى القيام بذلك الفعل؟، فالمؤرخ المغربي الناصري يقول أن ظروف سفارة إدريس إلى المنصور كانت بعد فشل بعثته إلى الخليفة العثماني، وكذلك كانت تهدف إلى الاستفادة من المدد والأسلحة النارية التي كانت عند المغاربة¹.

ومن هذا نتساءل كيف يقوم إدريس بهذا ويطلب من المغاربة الذين كانوا أصلاً يستفيدون بدورهم من الأسلحة العثمانية، ويوظفون الجنود العثمانيين لذلك الشأن؟، وبالتالي ظروف وأهداف السفارة فيها نوع من الشك حيث أشار إلى ذلك المؤرخ الجزائري عبد القادر زبادية الذي أكد أن سفارة إدريس إلى المنصور كانت بهدف إقامة علاقات طيبة مع ملوك وسلطين الإسلام وليس بهدف التبعية والبيعة، ولذلك نجد أن أثر العلاقات في المستقبل كان مصيرها الفشل²، وهذا الطرح يسايره الباحث سيباستيان الذي يرى أن الهدف من سفارة إدريس إلى المنصور ليس الأسلحة، وإنما محاولة تأمين حدود بلاده من الغزو الشمالي سواء العثماني أو المغربي، فهي سفارة دبلوماسية بامتياز³.

وعن موقف إدريس من طموح المنصور في الخلافة تقول المصادر التاريخية المغربية أن إدريس اعترف بخلافة المنصور على المسلمين وبعث برسالة، لكن الرسول توفي بالطريق ببلاد تيكورارين لكن رسالة الاعتراف والمبايعة جيء بها إلى المنصور من أهل تيكورارين لاستعمالها في البيعة⁴، وأمام هذا الموقف التاريخي المغربي يستوجب تفصي الوقائع في تلك الفترة، لمعرفة حقيقة نقض إدريس لمعاهدته للعثمانيين ومبايعته للمنصور، فخلال عملية استقراء الكتابات التاريخية المتعلقة بهذا الشأن نجد أن السلطان إدريس علومة حسب ما يذكر الإمام أحمد بن فرتوا كان ملكا شهما أنجد أبناء عمومته شعب صنغاي، وهم في محنتهم أثناء دفاعهم عن بلادهم ضد الغزو المغربي⁵، فالمقاومة العنيفة الذي خاضها شعب سنغاي بقيادة نوح بن أسكية بن داوود التي دامت أزيد من أربعة سنوات لم يستطع القائد محمود ولا القواد ولا الجنود الذين بعثهم المنصور لنجدة الجيش إخمادها حتى أصبح الجيش المغربي لا يستطيع

¹ أبو العباس بن أحمد خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري، ج 5، دار الكتاب، المغرب، 1955، ص105.

² زبادية، مرجع سابق، ص193.

³ Sébastien, opcit, p111.

⁴ الناصري، مصدر سابق، ص111.

⁵ باري، كريدية، مرجع سابق، ص139.

الخروج من الحواضر نظرا لاشتداد المقاومة ولم تخدم إلا بعد وفاة نوح¹، وعلى ضوء هذا نستخلص أن المقاومة استفادت من دعم إدريس لذلك لو كان هذا الأخير مواليا لمغرب المنصور لما دعمهم ولما قام المنصور بمهاجمتهم أصلا.

ولتأكيد ذلك تقرأ بعض الكتابات التاريخية أن المنسى محمد قام بمحاولة لاسترجاع عظمة مملكة السونغاوي بعد سقوط حكم الأسكيا إسحاق حيث جمع عددا من رؤساء منعطف النيجر وانظموا إلى صفه لمواجهة جيوش المنصور الذهبي الذي خرب بجيوشه مملكة قاو²، ومعروف أن نهر النيجر كان موطناً لأمراء مملكة برنو. كما لا يفوتنا أن تشير إلى أن مفهوم أو فكرة الخلافة كانت قائمة لدى المجتمع السوداني قبل غزو المنصور، حيث كان علماء البلاد وأهلها يؤمنون بأحقية سلاطينهم في الخلافة، حيث جاء في كتاب الفتاش للشيخ محمود كعت الكُرْميني التتبكتي أن أرض التكرور هي التي سيكون منها الخليفة الحادي والثاني عشر في الإسلام، ويذكر أحدهم عايش عصره حيث قال: "ومن الله تعالى علينا بأن أظهر لنا في زمننا هذا الخليفة العادل والسلطان الغالب والمنصور القائم أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر التزودي أصلا، الكوكوي دارا ومسكنا(ت1538م) فأنا لنا الهدى بعد ظلم الدجي..."³.

ويذكر أن علماء الإسلام أقروا بذلك ومنهم الشيخ عبد الكريم المغيلي، والشريف الحسني مولاي العباس أمير مكة، والشيخ جلال الدين السيوطي الذي كان له حوار مع الأسكيا الحاج محمد أثناء مروره بمصر عائداً من البقاع المقدسة حيث قال: "فلما وصل مصر وجد هنالك الشيخ عبد الرحمن السيوطي فسأله عن الخلفاء الذين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم سيأتون بعده، فقال له الشيخ هم اثنا عشر خمسة منهم بالمدينة، واثان بمصر، وواحد بالشام واثان بالعراق، وقد مضى هؤلاء كلهم وبقي اثان بأرض التكرور أنت أحدهما، ويأتي بعدك الثاني قبيلتك منسوبة بتزود من أهل اليمن، ومسكنك بكوكو أنت مؤيد منصور عادل"⁴.

¹ أبو رحاب، مرجع سابق، ص 104. للمزيد ينظر: زيادة، مرجع سابق، ص 384.

² إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 307.

³ Mauro Nobili, "Letter on the appearance of the twelfth caliph (Risāla fī zūhūr al-khalīfa al-thānī 'ashar)", Journal of Afriques, N° 07, 2016, p32. (p01 –p55).

⁴ Nobili, opcit, p33.

وانطلاقاً من هذا يلاحظ أن مملكة المغرب الأقصى استثنيت من الأحقية في الخلافة حسب ما جاء به الفناش، كما نستخلص أن فكرة الخلافة كانت قائمة بحد ذاتها في أرض السودان الغربي، وبالتالي المجتمع السوداني كان غير مقتنع بخلافة المنصور وغير مستعد لتقبلها، لذلك نلاحظ حالة الرفض الشديد التي قوبل بها الجيش المغربي من قبل هؤلاء وعلى رأسهم العلماء رغم ما قام به الجيش المغربي من انتهاكات في حقهم أثناء حملته، ومنهم العالم أحمد بابا التبكتي.

وعلى ضوء هذه الحقائق التاريخية يمكن القول أن الآراء التي تقول أن مملكة البرنو كانت خاضعة لخلافة المنصور، التي كانت تمتد من البحر المحيط من أقصى أرض المغرب إلى بلاد كنوا المتاخمة لبلاد البرنو، وتنتهي إلى بلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر كما ذكر الفشتالي: "كلمة المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة والبحر المحيط من ناحية الغرب"¹، غير صحيحة وهو كلام مبالغ فيه ناتج عن عقلية القدسية وتعظيم الأشخاص، وخاصة الملوك وهو تقليد قديم خاصة من طرف مقربي البلاط.

إضافة لذلك كانت العلاقات العثمانية البرنوية جيدة في الجانب الإقتصادي، وكان لها أثر كبير استمر لعقود طويلة، حيث كانت مدينة دامركو الواقعة في مملكة البرنو تمثل المحطة أو الموقع الثالث بعد غات وأغادس للقوافل التجارية المنطلقة من الشرق الجزائري، حيث كانت طريق عبور إلى كامبوه وكانو في الجنوب وكاتشة وسقاطو في الغرب، إضافة إلى نوفي في الجنوب الغربي²، وبصفة عامة تلخصت انعكاسات العلاقات العثمانية البرنوية في النقاط التالية:

- مكن القوافل وتجار الصحراء من العمل بسلاسة بين بحيرة تشاد وطرابلس الغرب.
- توفير الأمن للمنطقة وللقوافل التجارية.
- استفادة العثمانيين من تجارة الصحراء من خلال السيطرة على طرقها.
- كسب شريك تجاري موثوق وهي مملكة البرنو، وتمكين التجار العثمانيين من التوغل في إفريقيا.
- الدفاع عن العثمانيين من خلال دعم إدريس³

¹ الأقراني، مصدر سابق، ص168.

² محمد العربي الزبير، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، د ط، مطابع الشرق، لبنان، د ت، ص17.

³ Sébastian, op,cit, p119.

وبذلك تكون الخلافة العثمانية حققت جزء من طموحها السياسي في بلاد السودان، وتكون كذلك قد ضيقّت على حلم المنصور في الامتداد والخلافة في بلاد السودان.

2-2-ب/4- موقف الخلافة العثمانية من الغزو السعودي لبلاد السودان:

فهذه المسألة تعتبر ثغرة تاريخية حسب الباحث عبد الرحمان المودن الذي يتساءل بدوره عن موقف العثمانيين من الغزو السعودي؟، ويتساءل عن السياسة العثمانية في إفريقيا هل هي موجودة أم لا؟، معتبرا أن سؤاله هذا يبقى معلقا مادام البحث لم يكشف وثائق عثمانية تتعلق بهذا الأمر، لكن ذلك لم يثنيه من تقديم بعض الافتراضات التاريخية بقوله أنه من الممكن أن زيارة التمقروتي للباب العالي كانت لسبيل الحصول على حياد الخلافة العثمانية، على أساس أن المبادرة السعودية تقوم على أساس الجهاد، وسوف تعود بالنفع على جيوش المسلمين¹، وهذه الفرضية ممكنة إذا علمنا أن المنصور في تلك الفترة لم يكن يريد مواجهة العثمانيين، خصوصا وأن قوته لا تكفي لمجاراتهم في أفضل مراحل قوته العسكرية، فكيف يمكنه مجاراتهم وجيشه، وأفضل قياديه في بلاد السودان في الحرب، فالمنصور يكون قد أعد حسابه لهذا الأمر هذا من جهة، أما من جهة ثانية فالمنصور عرف بسياسته الدبلوماسية وذكاءه في خدمة مصالحه، ويظهر ذلك في سيطرته على فغيغ وتوات، وقبلها مكناس بطرق دبلوماسية، فالباب العالي يمكن أنه اعتبر الحملة في صالحه باعتبار أن المنصور كان مواليا للعثمانيين.

لكن هذه الفرضية يواجهها طرح تاريخي كان قائم آنذاك، فلو اقتنعت الخلافة العثمانية بحملة المنصور على أساس الجهاد من غير المنطقي أن تغض الطرف عن بلاد الأندلس القريبة، والتي تحتاج بالفعل المساعدة والجهاد، خصوصا وأن ثورات الأندلسيين كانت أصدائها تصل إلى بلاد المغرب، وحتى عاصمة العثمانيين، إضافة إلى ذلك إذا أراد المنصور الجهاد لماذا يوجه أنظاره لبلد مسلم؟، وبلاد الأندلس ومدنه محتلة وهي أولى بالجهاد حسب ما يقول القادري في كتابه نشر المثنائي².

أما بوفيل فله موقف آخر مغاير تماما مؤكدا أن الحملة السعودية لم تكن مباركة من طرف العثمانيين، والدليل على ذلك أن المنصور لما قدم إليه مرسل جودر باشا يعرض فيه حالة الجيش في

¹ المودن، مرجع سابق، ص 18.

² محمد بن شريفة، "بين أحمد بابا وأحمد المنصور"، فصل من كتاب "المغرب وإمبراطورية السنغاي في نهاية القرن السادس عشر"، منشورات مهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط 1، 1995، ص 64، (ص 63-73).

بلاد السودان، قام بعرض رأس إنسان مقطوع علنا على السفير العثماني في المغرب، معلنا أنه رأس الأُسكية إسحاق، وذلك بهدف إبراز قوته، وذلك لتخوفه من سماع العثمانيين بإخفاقه في تلك البلاد¹، فالمغاربة رغم ما قيل عن استفادتهم من هذا الغزو إلا أن أمالهم خابت بعد السيطرة على البلاد، بحيث لم تكن التوقعات في محلها خصوصا بعد المقاومة الشديدة التي لاقوها²، فالباحث ستيفن كوري يرى أن المنصور فشل في طموحه ومشروعه التوسعي، معتبرا أن ذلك صعبا جدا على البلدان ذات المستوى المتوسط آنذاك مثل المغرب السعدي، والسبب في ذلك حسبه هو بعد المسافة بين مراكش والسنغاي بآلاف الأميال عبر أكبر صحراء في العالم، إذ يؤكد أن حملة المنصور جعلت المنطقة تعيش في حالة فوضى كبيرة وهو ما جعل المغرب في حد ذاته وغرب إفريقيا دولة بلا حماية³.

وانطلاقا من هذه الفرضيات التاريخية نستطيع القول أن ردة الفعل العثمانية، وموقفها من غزو المنصور لبلاد السودان كان من خلال علاقتها مع دولة برنو، وما نتج عنه من دعم لمقاومة السنغاي والدليل على ذلك هو زوال الحكم المغربي سنة 1027/1618⁴، بالمقابل استمر الوجود العثماني ونفوذه في بلاد السودان الأوسط حتى القرن التاسع عشر، والوثائق العثمانية تتحدث عن الحقوق العثمانية في إفريقيا⁵، خاصة في ظل الصراع التنافس الاستعماري في القرن 19.

¹ بوفيل، مرجع سابق، ص 297.

² زيادة، مرجع سابق، ص 384.

³ Cory Stephen, "The Man Who Would Be Caliph: A Sixteenth Century Sultan's Bid for an African Empire", the International Journal of African Historical Studies, volume 42, n02, 2009, (pp22,23.)

⁴ زيادة، مرجع سابق، ص 384.

⁵ الجمهورية التركية، (طرابلس الغرب...)، مصدر سابق، ص 351.

الخاتمة

خاتمة:

على ضوء ما تناولناه في هذه الدراسة نستخلص أن الخلافة العثمانية كان لها حضور رسمي في مملكة المغرب الأقصى، سواء من حيث الحضور الفعلي الذي تجسد في تلك الحملات، والعمليات العسكرية البحرية المشتركة "الجهاد البحري" بين البحارة والمجاهدين العثمانيين، ونظرائهم المغاربة المتمركزين أساسا في المدن الساحلية المتوسطية للمغرب، وكذلك في العناصر القتالية الموظفة لدى السلطة السعدية كمقاتلين ومدربين وحراس شخصيين، وكذلك تقنيين عسكريين، حيث أثبتت الأحداث المتوالية أن هؤلاء كانوا على صلة وثيقة ورسمية بالسلطة العثمانية، سواء في الجزائر أو اسطنبول، أو من حيث التأثيرات المادية والمعنوية الناتجة عن هذا الحضور أو الاحتكاك، والتي تجلت في عدة مظاهر عرفها المغرب الأقصى في فترة حكم السلطان عبدالملك السعدي (1576-1578) الذي عمل على استنباط الأنماط العثمانية، وتطبيقها في بلاده سواء في الجانب العسكري أو الإداري، وحتى الاجتماعي والاقتصادي.

أما بخصوص السياسة التي انتهجها الباب العالي لبسط نفوذه على المغرب فكانت تتماشى مع معطيات كل مرحلة، وخاضعة لمعطيات اجتماعية ودينية وجغرافية، تمثلت مظاهرها بداية بسياسة الاختراق المباشر وغير المباشر، حيث تمثلت السياسة الأولى في تنصيب السلطان عبد الملك ملكا على المغرب بعد نجاح المشروع العثماني ضد عبد الله الغالب وابنه المتوكل، لتستمر في سياستها حتى سنة 1589 باعتبار المغرب ولاية تابعة لها متبعة "سياسة الولاء"، فيما تمثلت السياسة الثانية في اختراق المغرب سياسيا واجتماعيا وعسكريا بواسطة المقاتلين المرسلين، وكذلك ربط العلاقات مع أقطاب التصوف البارزين في المغرب، وكذلك القادة الأندلسيين الموالين لها، وخاصة في المناطق الساحلية.

وانطلاقا من دراسة الأوضاع التاريخية آنذاك تتجلى مظاهر الرفض السعدي للامتداد العثماني وخصوصا في الفترة 1550-1574 والتي اتبعت فيها الخلافة العثمانية سياسة الاختراق غير المباشر، فهذه الفترة عرفت صعود الدولة السعدية، ونشأتها رسميا كدولة ذات طابع ديني قائمة على النسب الشريف ساعدها في مواجهة المد العثماني، حيث عمل خلالها محمد الشيخ وابنه الغالب على قطع كل ماله صلة بالعثمانيين سواء في الداخل أو في الخارج، سواء في الجانب الديني في عهد السلطان محمد الشيخ أو العسكري في عهد الغالب، رغم مهادنة الغالب الحذرة للعثمانيين من خلال دفع الجزية السنوية، والدعاء للخليفة العثماني.

هذا وكشفت الدراسة كذلك أن سيطرة الباب العالي على المغرب الأقصى في الفترة 1574-1581 راجع أساسا إلى ولاء السلطان عبد الملك السعدي لها، وهو الذي عمل على فتح المجال للتأثيرات العثمانية، كما يرجع كذلك إلى سياسة الباب العالي القائمة على عدم الإقصاء أي إشراك الزعماء المحليين في الحكم وخاصة الشرفاء، فسياسة الباب العالي العامة كانت قائمة أساسا على الاعتراف بالخليفة العثماني كخليفة على المسلمين والدعاء له على المنابر، أما الأمور الداخلية والخارجية فلحكام الأقاليم وزعمائها حرية التسيير التام، وفي حالة المغرب الأقصى كان يوالي العثمانيين إسميا في هذه الفترة وكان حرا في تعاملاته الداخلية والخارجية الدائرة في فلك الاستراتيجية العثمانية العامة.

أما بخصوص طبيعة التقارب: المغرب الأقصى كان يمثل منطقة نفوذ عثمانية في إطار سياسة الولاء، وكان سلاطينها يعترفون بالخليفة العثماني ويدفعون له الهدايا ويخطبون باسمه على المنابر، كما هو الحال في عهد السلطان عبد الله الغالب و السلطان عبد الملك، وبدرجة أقل السلطان المنصور الذهبي الذي سعى إلى التخلص من تلك التبعية المفروضة عليه بعدة محاولات، وعموما المغرب في هذه الفترة (1574-1589) كان يوالي العثمانيين.

واستنادا على الوثائق التاريخية والمصادر تتجلى مظاهر ذلك التقارب في الجانب العسكري في مشاركة العثمانيين المؤثرة في معركة وادي المخازن، وكذلك تنظيم الجيش المغربي والتسميات الرتب العسكرية والإدارية من خلال تنظيم السلطة الرسمية وتنظيم الوظائف الإدارية العامة، وهو الحال كذلك بالنسبة للجانب الاجتماعي والعمراني والاقتصادي، كما تتجلى عناية السلاطين العثمانيين بالمغرب الأقصى في مراسلاتهم الرسمية سواء لولاية المغرب العربي أو لولاية المشرق (ولاية الحجاز)، وكذلك مراسلات أعيان المغرب للسلطان العثماني.

كما أبرزت الدراسة كذلك أن للنسب الشريف دور كبير في الصراع العثماني السعدي، وخاصة في المرحلة الأولى 1550-1574 حيث كان سند قوي للسلاطين السعديين الذين رفضوا الاعتراف بخلافة آل عثمان وأنهم الأحق بالخلافة منهم خصوصا مع التقاف الطبقة الشعبية والمرابطين بهم، كما تظهر أهمية النسب الشريف كذلك لدى السلاطين العثمانيين الذين كانوا يدركون خصوصية المغرب الدينية والاجتماعية العريقة، لذلك عملوا بشتى الوسائل لكسبهم إلى صفهم كما فعلوا مع أشرف الشام والحجاز واليمن، وهو ما نجحوا فيه مع بداية حكم السلطان عبد الملك الذي اعترف بخلافتهم ولو إسميا، ليسير خلفه السلطان المنصور على نهج سلفه أبيه محمد الشيخ، وعمه السلطان عبد الله الغالب في رفض

الاعتراف بخلافة العثمانيين من خلال سعيه ودعوته المستمرة إلى إعادة إحياء مجد الخلافة المغربية مع آل النبي صلى الله عليه وسلم لكنه فشل في محاولاته حتى سنة 1589.

وانطلاقاً من ذلك كانت العلاقة بين المنصور السعدي والباب العالي قائمة على الولاء المفروض، فالمنصور الذي ورث حكم المغرب كانت مظاهر التأثير العثماني متغلغلة فيه، وخاصة في الجانب العسكري فرغم محاولاته للتخلص من ذلك إلا أنه فشل، فالمنصور كان محل توجس عثماني، وخضع لسياستهم مرغماً رغم ما قام به داخلياً من إعادة إحياء الثقافة المغربية والعربية، مقابل إضعاف مظاهر التأثير العثماني.

كما أبرزت الدراسة نظرة الخلافة العثمانية لمسألة الحدود، وقضية التوسع المغربي في غرب إفريقيا من خلال النشاط العثماني، وعلاقته ببلاد السودان الأوسط، فالتوسع المغربي حسب النظرة العثمانية كان يتم في إطار عام باعتبار المنصور يوالي العثمانيين، وبالتالي استلاء المنصور على المناطق الحدودية مع ولاية الجزائر العثمانية لم يكن خارج نطاق تلك النظرة، والدليل على ذلك حجج المنصور أثناء استلائه على تلك المناطق أمام ولاية الجزائر بأن الخليفة العثماني هو من سمح له بذلك.

وعلى ضوء الوثائق والمصادر التاريخية أن نظرية عدم ارتباط المغرب الأقصى بالخلافة العثمانية في هذه الفترة (1574-1589) حسب رأينا غير صحيحة تاريخياً بحكم تعدد مظاهر التقارب، والارتباط الذي شكل معظم الجوانب تقريباً وخاصة السياسية، كما أن المغرب خضع للاستراتيجية العثمانية العامة تحت ضغط الظروف السائدة في المنطقة، ومسألة الحضور العثماني كانت تتحكم فيها بالدرجة الأولى الصراع الحضاري بين الخلافة العثمانية، والقوى الإيبيرية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

الملاحق

قائمة الملاحق:

الملحق رقم 01: حكم من الخليفة العثماني مراد الثالث إلى حيدر باشا أمير أمراء طرابلس الغرب

الملحق رقم 02: رسالة من الخليفة العثماني مراد الثالث إلى أمير أمراء جزائر الغرب جعفر باشا

الملحق رقم 03: حكم من الخليفة العثماني مراد الثالث إلى أعيان فاس، ومراكش، والسوس.

الملحق رقم 04: رسالة من الخليفة العثماني مراد الثالث إلى حاكم فاس المولى عبد الملك.

الملحق رقم 05: حكم من الخليفة العثماني إلى أمير أمراء جزائر الغرب.

DZ/AN/2C1/010/005

- 1 -

دفتر مهم 42

عدد 82

تاريخ 8

1581



حكم الى حيدر باشا امير امرا طرابلس الشرب

كنت قد امرت - من قبل - امير امرا جزائر الشرب حضرة القبطان - طليح طي - بالتوجه شخصيا الى ايالة تونس - ان اقتضى الامر - او بإرسال قوة كافية اليها حسب الاقتضا وذلك نظرا الى الاخبار التي وردت اليينا من تلك الجهة والتي تتعلق باو لائك الاثقيا والمصوص الذين خرجوا عن الطاعة واصبحوا قوة تشكل خطرا على الولاية لانها تريد الاستيلاء عليها والسيطرة على زمام ادارتها .

اما في الوقت الحاضر فان السفير الذي كان قد بعثه اليينا حاكم ناس محملا بهدايا جسمية ومكافا بتقديم تحياته المقرونة بالصدق والاخلاص الدالين على صداقته لنا وانقياده لاوامرنا . وبعد انتهاء مدة اقامته اي السفير في الاستانة اخبرنا بعزيمة طي مغادرة البلاد والى بلاده بعد الحصول على موافقتنا بذلك .

وبناء على ذلك فقد ارسلت فرمنا شاهانيا الى طليح طي قبطان الدريا والى حسن امير امرا

الجزائر امرا لهما بما يلي : عند وصول امري الشريف اليكم بادروا الى ارسال قوة تتكون من رجال الكفار لا يجازي فاسرهم كثر من اجدر ابيهم ولا كتمكم من لما يجربها هذا لك بين الكفار من جميع

الجهات وبين الكفار وحاكم ناس ومراكش من جهة اخرى لان هذا الرجل وان كان قد بعث اليينا رسوله الخاص لتقديم طاعته واخلاصه مع هدايا ذات اهمية كبيرة غير اننا نكاد نشك من صدق تصرفاته ونعتقد انه يخفي لنا مخ خلاق ما يظهر وما اقدم على ما اقدم الا من قبيل ربح الوقت حتى يتمكن من تحقيق فرضه واهدائه مع التعاون والتفاهم مع الكفار .

لهذا فان الامر يقتضى التيقظ والانتباه حتى لانفاجأ بخاوة مزدوجة من طرفهم وتكون هذه الشغور محمية جيدة ومحروسة حتى لو اقتضى ذلك التوجه الى هذه المناطق بالاسطول الشاهاني الكرم لتشد يد الحماية والحراسة اللازمين من اجل الدين والدولة .

كما امركم وانتم تقومون بهذه العملية بالتصهد على رعاية وحماية الميادى الاسلامية والاجتناب بشك جدى عن اقرار اي عمل يخالف الدين والشريعة الاسلامية .

كما امركم ايضا بتقديم واظهار الاحترام لحاكم ناس ومراكش وكذا السفيرة عندما يصل الى جهتم وتواجد وترعوه حق الموااة حتى يصل الى بلده كي تتم العملية في امن وامان لان كل شئ من اجل سلامة الدين والدولة .

المصدر: أ. و. ج، دفتر مهم رقم 42، عدد 82، بتاريخ: 989هـ = 1581م، مصدر سابق.

المركز الوطني للدراسات التاريخية	
الوثائق العثمانية	جمع وترتيب: أحمد توفيق المدني
رقم الوثيقة	الرقم العثماني
	42 ج
من دفتر مهم	82
تاريخها:	989
الوالي الجزائري	جعفر باشا
الموضوع	
المعرب	

جعفر باشا



172

DZ/AN/2010/005

المصدر: أ. و. ج، دفتر مهم رقم 42، عدد 82، بتاريخ: 989هـ = 1581م، مصدر سابق.

الملحق رقم 02: رسالة من السلطان العثماني إلى أمير أمراء جزائر الغرب

المركز الوطني للدراسات التاريخية	
الوثائق العثمانية	جمع وترتيب : أحمد توفيق المدني
رقم الوثيقة	الرقم العثماني
	42
من دفتر مهم 84	
تاريخها :	989 هـ السلطان مراد الثالث
الوالي الجزائري	جعفر باشا
الموضوع	
المغرب	

جعفر باشا



174

ع. 150، دفتر مهم 42
دكم 84

DZ/AN/ECA/010/007

المصدر: أ. و. ج، دفتر مهم رقم 42، عدد 84، بتاريخ: 989هـ = 1581م، مصدر سابق.

92 / 1 / 201 / 010 / 006

- 1 -

دفتر: مهم 42

عدد: 84

تاريخ: 1581



حكم الى امير امراء جزائر المغرب

لقد ارسل حاكم فاس والمراكش حالها سفيره الخاص الى الاستانة للمثل في حضرتي الشاهانية
وتقديم طاعة سيده وهدايا المرسلة اليها وهو بعد اداء مهمته كسفير وبقائه في الاستانة مدة من
الزمن سوف يخادر الاستانة بموافقتي الشاهانية متوجها نحو فاس .
وقد امرت حضرة القبطان باشا - قليج علي - بان يتولى امر ايصاله الى بلاده سالما وغانما
عندما يصل المشار اليه الى جنابه وكان امري يتضمن ما يلي :

عند وصول امري الشريف اليكم يادروا الى اتخاذ جميع الاجراءات اللازمة من اجل استقبال والتهيئة
السفير المشار اليه على احسن استقبال والحنانية به وهديافته على احسن ما يرام ثم قوموا بالتباحث
معه في الامور التي تتعلق بمصلحة البلدين .

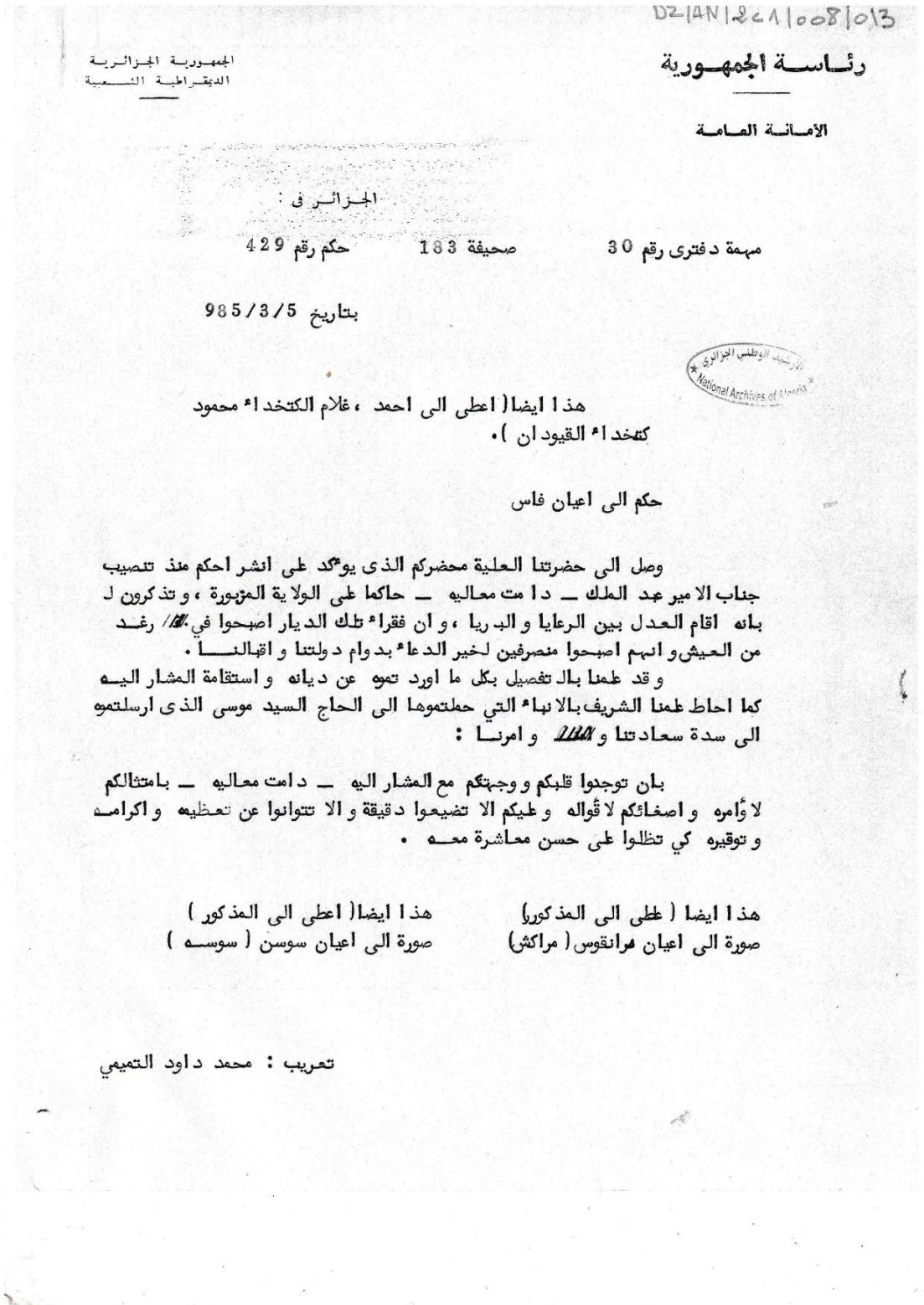
وعندما يريد التوجه الى بلاده اعطوا له محافظين لحراسته وحمايته حتى يصل الى بلده سالما وغانما
دون ان يتعرض الاقوى او ضرر من طرف احد .

ولكن على الرغم من التظاهر امامه بهذا الشكل راقبوا احواله جيد وترصدوا تصرفاته وايضا كونوا
دائما متيقظين ومتنبهين ازاء الامور والحوادث التي تجرى في فاس ومراكش حتى تتحققوا من نية حاكم
فاس والمراكش وموقفه الحقيقي منا ومن دولتنا وتبينوا غرضه الحقيقي من ارسال الرسل اليها وتقديم
الهدايا الكمية لنا وحتي تتجلى الحقيقة فيما اذا كان الرجل صادقا في تصرفاته وارتباطه وعلاقته
معنا ام يتظاهر فقط بالاخلاص لنا والانقياد اليها وهو يخفي خلاف ما يتظاهر به امامنا الان الرجل
من الممكن جدا ان يتظاهر امامنا بهذا المظهر المزيف ويتعامل خفية مع الكفار لخربتنا معه من
الخلف .

من اجل كل ذلك يجب عليكم ان تفتحوا عيونكم جيدا لكل ما يجري في ساحته من الاحداث وتراقبوا
بصيرة مستمرة نوعية علاقته مع الكفار كما يجب عليكم ان تتخذوا جميع الاحتياطات اللازمة من اجل
ترصد تحركات اسطول المدو وفي تلك الجهات وتصرفاته بصحة سرية ودائمة حتى يتكشف امر هذا
الرجل بشكل واضح وتتجلى الحقيقة وحتى لا تؤخذ على غفلة
ثم بعد كل تلك التحريات والترصديات اكتبوا الى تقريروا مفصلا عن احوال هذا الرجل واطواره
سواء كان ذلك في داخل بلاده ام مع المدو وحتى تكون على بينة من امره .

المصدر: أ. و. ج، دفتر مهم رقم 42، عدد 84، بتاريخ 981هـ = 1581م، مصدر سابق.

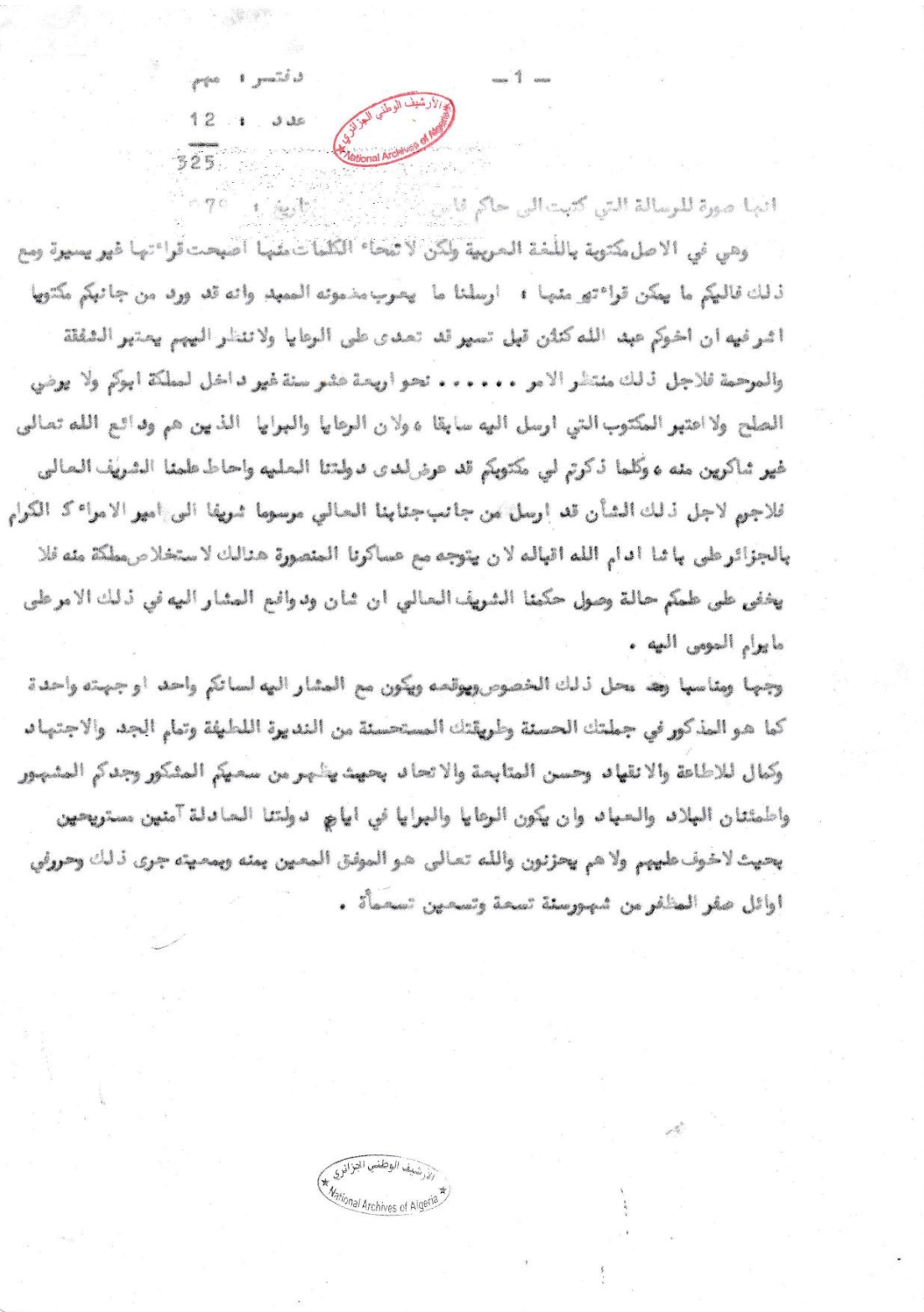
الملحق رقم 03: حكم من السلطان العثماني إلى أعيان فاس، ومراكش، والسوس.



المصدر: أ. و. ج، دفتر مهمة رقم 30، حكم رقم 429، صحيفة 183، بتاريخ

985/03/05 هـ = 23/05/1577 م، مصدر سابق.

الملحق رقم 04: رسالة من السلطان العثماني إلى حاكم فاس المولى عبد الملك.



المصدر: أ. و. ج، دفتر مهمة رقم 12، عدد 325، بتاريخ 979هـ=1571م، مصدر سابق.

DZ/AN/201/011/020

دفتر : مهم 58

- 1 -

عدد : 82

تاريخ : 3

1585



حكم الى امير امرا الجزائر

ان سعادة سلطان احمد سلطان فاس سابقا كان قد ارسل رسولا الى المقام الشاهاني العالي وهذا السفير الذي اقام مدة في الاستانة عزم الان على التوجه الى بلاده عن طريق الجزائر فاذا وصل اليك فأكرمه كما يلزم ثم ارفقه ببعض المحافظين كي يصل الى بلاده في امن وسلام . وكذلك عندما يأتي اليكم راجعا من بلاده تصوف معه بنفس التصرف الذي تصوفت معه في الاول من حيث الاكرام والاستضافة ثم ارسله الى الاستانة بمعية المحافظين الذين يحيئون من طرفك لمرافقته في الطريق حتى وصوله واوصيك ان تدخر جهدا في القيام بهذه الواجبات تجاه هذا الرجل في الذهاب والاياب .

المركز الوطني للدراسات التاريخية	
الوثائق العثمانية	جمع وترتيب : أحمد توفيق المدني
رقم الوثيقة	الرقم العثماني
	58 ٢
من دفتر مهم	8٢
تاريخها :	993 السلطان مراد الثالث
الوالي الجزائري	محمد صبي عميق باسنا
الموضوع	
المعرب	



092

محمد صبي عميق

DZ/AN/٢٤١/٥١١/٥٤٩

المصدر: أ. و. ج، دفتر مهم رقم 58، عدد 82، بتاريخ: 993هـ = 1585م، مصدر سابق.

البيباي ————— وغرافيا

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1/ الأرشيف:

1-أ/ أرشيف رئاسة الوزراء التركية:

- أرشيف رئاسة الوزراء التركية، الديوان الهمايوني، دفتر مهم رقم 12، حكم رقم 164، مرسوم من الخليفة العثماني إلى عبد الملك.
- أرشيف رئاسة الوزراء التركية، الديوان الهمايوني، دفتر مهم رقم 07، حكم رقم 37، رسالة من الخليفة العثماني لأهالي فاس ومراكش وسوس.
- أرشيف رئاسة الوزراء التركية، الديوان الهمايوني، دفتر مهم رقم 36، حكم رقم 59، رسالة من الخليفة العثماني إلى السلطان أحمد المنصور.
- أرشيف رئاسة الوزراء التركية، الديوان الهمايوني، دفتر مهم رقم 30، حكم رقم 109، رسالة من الخليفة العثماني إلى الملك إدريس، ص 494، ص 495.
- أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر المهمة، الديوان الهمايوني رقم 888، رسالة من الخليفة العثماني إلى محمد الشيخ، بتاريخ: أول محرم 959هـ / 1957م. (مركز التاريخ العربي للنشر-اسطنبول-).
- أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر المهمة، الديوان الهمايوني رقم 22، حكم رقم 656، رسالة من الخليفة العثماني الخليفة العثماني إلى الشريف عبد الله حاكم فاس، بتاريخ 144 جمادى الأولى 976/28 أكتوبر 1568. (مركز التاريخ العربي للنشر-اسطنبول).
- أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر المهمة، الديوان الهمايوني رقم 712، حكم رقم 2484، رسالة من الخليفة العثماني إلى عبد الله حاكم فاس، بتاريخ 14 جمادى الأولى 976هـ / 28 أكتوبر 1568. (مركز التاريخ العربي للنشر-اسطنبول-).
- أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر مهمة رقم 30، حكم 941، بتاريخ: 28 ربيع الأول 985هـ/05 ماي 1577، من الخليفة العثماني مراد الثالث إلى الشريف عبد الملك حاكم فاس. (مركز التاريخ العربي للنشر-اسطنبول-).

- أرشيف رئاسة الوزراء التركية، دفتر مهمة رقم 30، حكم رقم 942، بتاريخ 28 ربيع الأول 985هـ/1577م، رسالة من الخليفة العثماني مراد الثالث لعبد الملك. (مركز التاريخ العربي للنشر - اسطنبول -).
- الجمهورية التركية، رئاسة الوزراء، رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، طرابلس الغرب في الوثائق العثمانية، الكتاب رقم 125، رئيس المشروع أوغور أونال، إعداد كمال أورليغان وآخرون، مطبعة سجليل أوغست، اسطنبول، 2013، (رسالة إلى بكليبركي طرابلس الغرب).

1-ب/ الأرشيف الوطني الجزائري:

- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 05، حكم رقم 2462، حكم من الخليفة العثماني سليم الثاني إلى الأمير عبد الملك، بتاريخ: 18/05/976هـ=11/08/1568م.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة، رقم 06، حكم رقم 972، رسالة من الخليفة العثماني مراد الثالث إلى حسن باشا أمير أمراء جزائر الغرب، بتاريخ، 07/09/972هـ=04/08/1565.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 07، حكم رقم 2439، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب بتاريخ 12/05/976هـ=03/10/1568.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 07، حكم رقم 2481، حكم إلى الأمير عبد الملك، بتاريخ: 22/05/976هـ = 23/10/1568.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 07، حكم رقم 2461، حكم من الخليفة العثماني إلى عادل ريس، بتاريخ: 20/05/976هـ=10/11/1568م.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 07، حكم رقم 2481، حكم إلى أمير أمراء الجزائر علي باشا، سنة 976هـ=1568.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 12، حكم رقم 325، رسالة من الخليفة العثماني سليم الثاني إلى حاكم فاس، بتاريخ 979هـ=1571م.

- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 12، حكم رقم 1036، رسالة من السلطاني العثماني سليم الثاني إلى والي الجزائر أحمد عرب باشا، بتاريخ: 979/10/25هـ=1572/03/11م، أعطي إلى القابودان في 27 شوال.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم: 12 حكم رقم: 1025، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب، في: 979 /10 /23هـ=1572/11/01م.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 12، حكم رقم: 537، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب بتاريخ 979هـ=1571م.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 14، حكم 625، خطاب همايوني إلى سلطان فاس، حكم 625، تاريخ 978هـ/05/22=1570/10/22م.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم 14، حكم رقم: 1571، رسالة من الخليفة العثماني إلى عبد الملك حاكم فاس، بتاريخ 979/01/26هـ=1571/06/20م.
- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 14، حكم رقم: 1572، حكم إلى أمير أمراء الجزائر بتاريخ 979/01/26هـ=1571/06/20م.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم: 18، حكم رقم: 25، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب، بتاريخ: 27رمضان 979هـ=12فيفري1572م.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمة رقم: 25، حكم رقم: 3118، من الخليفة العثماني ، إلى رمضان باشا والي الجزائر، بتاريخ: 982/08/27هـ=1574/12/12م.
- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 25، حكم رقم 3113، في 982/08/27هـ=1574/12/12م، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب رمضان باشا، صحيفة رقم342.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 30، حكم رقم 466 ، بتاريخ985/03/05هـ، الموافق ل 1577/05/23م، خطاب همايوني إلى حاكم فاس ومرانقوش، صحيفة رقم 197.
- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 429، في 985/03/05هـ=1577/05/23م، حكم إلى أعيان فاس ومرانقوش، سوس، صحيفة رقم 183.

- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 419، في 985/03/05هـ=1577/05/23م، حكم إلى حسن باشا أمير أمراء جزائر الغرب. صحيفة رقم 179.
- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 462، في 985/03/05هـ=1577/05/23م، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب، صحيفة رقم 197.
- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 427، بتاريخ 1577/05/23، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب، صحيفة رقم 182.
- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 421، في 985/03/05هـ، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب، صحيفة رقم 180.
- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 428، في 985/03/05هـ الموافق ل 1577/05/23م، حكم إلى أمير أمراء وإلى قاضي مصر، صحيفة رقم 182.
- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 426، بتاريخ 985/03/05هـ، خطاب همايوني إلى شريف مكة، صحيفة رقم 426.
- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 30، حكم رقم 504، بتاريخ 985/03/13هـ=1577/05/31م، خطاب إلى شريف مكة، صحيفة رقم 219.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 30، صحيفة رقم 179، حكم رقم 419، حكم إلى حسن باشا أمير أمراء جزائر الغرب، في 985/03/05هـ=1577/05/23.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 30، حكم إلى أمير أمراء تونس، حكم رقم 440، 1577.
- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 42، عدد رقم 84، بتاريخ 989هـ=1581م، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب.
- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترية رقم 42، عدد رقم 82، بتاريخ 989هـ=1581م، حكم إلى حيدر باشا أمير أمراء جزائر الغرب.

- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفتري رقم 48، عدد رقم 31، حكم في: 990هـ، رسالة شاهانية إلى والي جزائر الغرب.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 48، عدد 31، رسالة شاهانية إلى حكم فاس في 990هـ=1582.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 51، عدد 227، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب، في 992هـ=1584.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 52، عدد 271، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب، في 992هـ=1584م.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 52، حكم 227، بتاريخ 992هـ=1584م، حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب.
- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهم رقم 58، عدد 82، حكم إلى أمير أمراء الجزائر، في 993هـ=1585.

2/ الكتب:

2-أ/ العربية:

- الوزان بن محمد الحسن، وصف إفريقيا، تحقيق عبد الرحمان حميدة، مراجعة علي عبد الواحد، ج1، د ط، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، 1399هـ.
- الوزان بن محمد الحسن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، ج02، ط02، دار الغرب الاسلامي، لبنان 1983.
- الزباني أبو القاسم، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، تحقيق رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، المغرب، د ت.
- الزباني أبو القاسم، الروضة السليمانية في ذكر ملوك الدولة الاسماعيلية ومن تقدمها من الدول الاسلامية، مكتبة الملك عبد العزيز، المغرب مخطوط رقم 3033.
- الأندريتي فريد الدين بن العلاء الدهلوي الهندي، الفتاوي التاتارخانية، ترتيب وجمع وتدقيق بشير أحمد القاسمي، م01، ط01، مكتبة زكريا بديونتي، الهند، 2010.

- خليفة حاجي، تحفة الكبار في أسفار البحار، ترجمة محمد حرب، تسنيم حرب، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، 2006.
- السعدي عبد الرحمن، تاريخ السودان، المدرسة الباريسية لتدريس الألسنة الشرقية، فرنسا، 1981، ص 208.
- محي الدين بيبي ريس، البحرية، طبعة بالعثمانية.
- كاربخال مارمول، افريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، المغرب، 1984.
- طوريس ديغو، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، د ط، شركة النشر والتوزيع، المغرب، 1989.
- الدكالي محمد بن علي، الاتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين، تحقيق مصطفى بوشعراء، ط2، دار المعارف الجديدة، المغرب، 1996.
- ابن زيدان عبد الرحمن، العز والصولة في نظام الدولة، المطبعة الملكية، المغرب، 1961.
- الأفراني محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف، الشادلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب 1998.
- الكنسوسي أبي عبد الله بن أحمد، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولاي على السجلماسي، ج1، تقديم وتحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، د ط، المغرب، د ت.
- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق على عبد الله الكبير وآخرون، ج4، د ط، دائرة المعارف، القاهرة.
- ابن خلدون عبد الرحمان، مقدمة ابن خلدون، ج2، تحقيق عبد الله محمد درويش، ج2، ط01، دار البلخي، سوريا، 2004.
- الراشدي أحمد بن محمد بن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي أعتني به، عبد الرحمن دويب، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

- الكتاني محمد بن جعفر إدريس، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني وآخرون، ج01، د ط، دار الثقافة، المغرب، د ت.
- الكانوني محمد بن أحمد العبدوي، أسفي وما آلت إليه قديما وحديثا، تحقيق علال ركوك وآخرون، تقديم محمد بنشريفة، مطبعة نت المغربية، الرباط، 2005.
- باشا لطف، خلاص الأمة في معرفة الأئمة، دراسة وتحقيق ماجدة مخلوف، ط1، دار الأفاق العربية، مصر.
- المليباري الشيخ أحمد زين الدين، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تقديم وتحقيق محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء، لبنان، ط1، 1985.
- الأنصاري محمد بن القاسم، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب منصور، ط2، الرباط، 1983.
- التمقروتي علي بن محمد، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي المطبعة الملكية، الرباط 2007.
- سرهنك الميرالاي اسماعيل، حقائق الأخبار عن دول البحار، ج1، ط1، المطبعة الأميرية، مصر، 1312 هـ / م 1894.
- الدكالي محمد بن علي، الاتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين، تحقيق مصطفى بوشعراء، ط2، مطبعة المعارف الجديدة، المغرب، 1996.
- الرهوني أبو العباس أحمد، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، ج02، ط02، مطبعة أطوبريس، المغرب، 2020.
- ابن القاضي أحمد، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، دراسة وتحقيق محمد زروق، ج1، مكتبة المعارف، للنشر والتوزيع، المغرب، 1566.
- البارون دي كولاصو ماكنمار، الملوك المغاربة، ترجمة عثمان المنصوري، ط1، مطابع الرباط نت، المغرب، 2016.
- الغزال أحمد بن المهدي، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد 1728 - 1766، تقديم تعليق الفريد التبان، منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الاسبانية 1941.

- بن هطال التلمساني أحمد، رحلة محمد باي بلكبير في الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري"، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط01، دار عالم الكتب، مصر، 1969.
- دي إيتا خينيس بيريث، الحرب ضد الموريسكيين، ج02، ترجمة عائشة محمود سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمان، ط01، المركز القومي للترجمة، مصر، 2009.
- الحموي ياقوت، معجم البلدان، ج4، دار صادر، لبنان، 1995.
- أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، تحرير وتقديم حماد الله ولد السالم، د ط، دار الكتب العلمية، لبنان، 1971.
- كنون عبد الله، رسائل سعدية، د ط، دار الطباعة المغربية، المغرب، د ت.
- الفشتالي عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تقديم وتحقيق عبد الكريم كريم، د ط، مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، المغرب، د ت.
- الناصري أبو العباس بن أحمد خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري، ج 5، دار الكتاب، المغرب، 1955.
- صاريناي يوسف وآخرون، الجزائر الوثائق العثمانية، ترجمة فاضل بيات، يشار محمد صالح الشريف، دار الوراق للدراسات والنشر، الجزائر 2018.
- ج.هابنسترايت، رحلة العالم الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وطرابلس 1145هـ/1732م، ترجمة وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، 2008.
- الحساني إبراهيم بن علي، ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، تحقيق عمر آفا، مطبعة القسمة، المغرب، 1989.
- الشيخ فريد الدين بن العلاء الأندريتي الدهلوي الهندي، الفتاوي التاتارخانية، ترتيب وجمع وتدقيق بشير أحمد القاسمي، م01، ط01، مكتبة زكريا بديونتي، الهند، 2010، ص08.

2-ب/ الأجنبية:

-Henry de castries, les sources inédites l'epiqire du maroc, première série
-- dynastie saàdienne :

- Archive et Bibliothèques Espagne, Tom1, paris 1921.
- Archive et Bibliothèques Espagne, tome III, paris 1921.
- Archive et Bibliothèques D'Angleterre, Tom1, Éditions Ernest Lerotjx, Paris, 1918.

-Joao De Sousa, Documentos Arabicos para a historia portugueze
copiados originaes, lesboa, 1789.

-H .D .Grammont de, histoire d'Alger sous la domination turque 1515-
1830, Edition Ernest le Roux paris.

-D. de Torres, Relation d'origine et sucez des chérifs, et de liftât des
royaumes de Maroc, fez et taraudant, Mife en François par
M.S.D.V.D.D.A, paris, 1630.

المراجع:

1-الكتب:

1-أ/ العربية:

- محمد محمود، تأسيس مملكة البرتغال، ط 1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، والاجتماعية، مصر، 1995.
- كريسي إدوارد شيفرد، تاريخ الأتراك العثمانيين، ترجمة أحمد سالم سالم، ط01، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، قطر، 2019.
- شرارة بلقيس، الطباخ ودوره في حضارة الانسان، ط1، دار الهدى للثقافة والنشر، العراق، 2012.
- صالح كولن، سلاطين الدولة العثمانية، ترجمة منى جمال الدين، دار النيل للطباعة والنشر، ط1، مصر، 2014.

- فيض الله حسن سولاف، دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية 132هـ - 656هـ/749-1258، ط1، دار ومكتبة عدنان، العراق، 2013.
- الجمل شوقي، تاريخ المغرب الحديث، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1977.
- بروفنسال ليفني، مؤرخو الشرفاء، ترجمة عبد القادر الخلافي، ط1، دار المغرب، 1577.
- بشير زين العابدين، البحرين وعلاقتها الخارجية إبان القرن السادس عشر ميلادي، ط1، مطبعة جامعة البحرين، 2003.
- مزين محمد، يونان لبيب رزق، تاريخ العلاقات المغربية المصرية من مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912، ط1، دار النشر المغربية، المغرب، 1982.
- المنوني محمد، من حديث الركب المغربي، د ط، مطبعة المغرب، المغرب، 1983.
- باتريك ماري ميلز، سلاطين بني عثمان، ط1، دار عز الدين للطباعة والنشر، لبنان، 1986.
- مانوفيتش نتاليا نيكولاي فئاتو، الدول الأوروبية في الخليج العربي من القرن 16 إلى القرن 19، ترجمة نجم الدين سطاس، تقديم ومراجعة قسم الدراسات والنشر والشؤون الثقافية مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، قطر، 2006.
- فاليت كات، التجارة بين أوروبا والبلدان الإسلامية في ظل الدولة العثمانية، تعريب أيمن الأرمنازي، ط1، مكتبة العبيكان، السعودية، 2004.
- أصاف يوسف بك، تاريخ سلاطين بني عثمان، من أول حتى الآن، تقديم، محمد زينهم محمد غريب، ط1، مكتبة مدبولي، مصر، 1995.
- مصطفى أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، ط1، دار الشروق، 1993، القاهرة.
- السهيل نايف عيد، العلاقات السياسية بين العثمانيين والصوفيين منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة جالديران (907-920هـ/1502م-1514)، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية، مصر، 2009.

- إنجاليك خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، ط1، دار المدار الاسلامي، لبنان، 2002.
- أوغلو خليل الساحلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثمانية، بحوث ووثائق وقوانين، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسیکا) اسطنبول، 2000.
- أبو غنيمة زياد، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك، د ط، دار الفرقان، لبنان، 1983.
- الأخضر محمد، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، محمد الأخضر (1664- 1894) ط1، دار الرشد الحديثة، المغرب 1977.
- أعبيد محمد، الشيخ المولي عبد السلام بن مشيش، قطب المغرب الأقصى، ط3، مطبعة دار أبي رقرق للطباعة والنشر، المغرب، 2013.
- لويس برنارد، اسطنبول حضارة الخلافة الإسلامية، تعريب سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، الرياض، 1982.
- المقرحي ميلاد، تاريخ أوروبا الحديث، 1453-1848، ط1، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 1996.
- أبو خليل شوقي، وادي المخازن، معركة الملوك الثلاثة، ط1، دار الفكر المعاصر، لبنان، 1988.
- الدراجي بوزياني، العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية على ضوء الفكر الخلدوني، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2003.
- البوزيدي أحمد، التاريخ الاجتماعي لحركة مطلع القرن 17 و 19، دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، د ط، دار أفاق متوسطة، المغرب، 1994.
- زروق محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17م ط3، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 1998.

- ملين محمد نبيل، السلطان الشريف الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، تر عبد الحق ، عامر بن عبد الله الزموري، د ط، مطبعة الكوثر، المغرب، 2013.
- المريني عبد الحق، الجيش المغربي عبر التاريخ، ط5، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1997.
- التر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في شمال افريقيا، تر محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، لبنان، 1989.
- عبد الرحيم عبد الرحمان، الدولة العثمانية، د ط، دار الفكر العربي، مصر، 2006.
- طوباش عثمان نوري، العثمانيون رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة، ترجمة محمد حرب، مراجعة وتصحيح أحمد أوقوش، اسطنبول، 2016.
- مانتييران روبير، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ج1، ط1، دار الفكر للدراسات، مصر، 1993.
- سالم علي أحمد سالم، استراتيجية الفتح العثماني، ط1، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 2012.
- كريم عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعيدية، ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، المغرب، 2006.
- التازي عبد الهادي، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، م2، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، المغرب، 2001.
- رزوق محمد، دراسات في تاريخ المغرب، ط1، دار افريقيا الشرق، المغرب، 1991.
- القبلي محمد، تاريخ المغرب تحيين وتركيب ، ط1، مطبعة عكاظ الجديدة، المغرب، 2011.
- بوشرب أحمد، دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي ونتائجه، ط1، دار الأمان، المغرب، 1997.
- بوشرب أحمد، دكالة والاستعمار البرتغالي الى سنة اخلاء اسفي وازمور (قبل 28 غشت اكتوبر 1541)، ط1، دار الثقافة، المغرب.

- الرجراجي محمد السعيد، رجراجة وتاريخ المغرب، ط1، مطبعة بات نت، المغرب سنة 2004.
- العطوي عبد الرحيم، الرحامنة القبيلة بين المخزن والزاوية، ط4، مطبعة توب بريس، المغرب، 2013.
- بوشرب أحمد، قرصنة المحيط الأطلسي، د ط، مطبعة أوقاد، المغرب، 1998.
- أباضا فاروق عثمان، أثر تحول التجارة العالمية على مصر وعالم البحر المتوسط الشمالية، ط5، دار المعارف، مصر، د ت.
- أوزوتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، مراجعة محمود الأنصاري، ج1، ط2، منشورات مؤسسة فيصل، تركيا، 1988.
- حنظل فالج، العرب والبرتغال في التاريخ 930هـ - 1134م / 711هـ - 1720م، ط1، منشورات المجمع الثقافي، الإمارات، 1957.
- بوشرب أحمد، "محاولات عودة المغاربة إلى البحر خلال النصف الأول من القرن السادس عشر نموذج بعض المبادرات الفردية من خلال محضرين لمحكمة التفتيش"، كتاب البحر في تاريخ المغرب، مراجعة عبد الجواد السقاط، سلسلة رقم 07، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، المغرب سنة 2013.
- روجرز ب. ج، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900 ترجمة يونان لبيب رزق، ط1، دار الثقافة، المغرب.
- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر وإسبانيا، 1492-1792، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ت.
- الميلّي مبارك، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج3، مطابع بدران وشركائه، لبنان، 1964.
- آكنوش، تاريخ المؤسسات الوقائع الاجتماعية بالمغرب، ط1، دار إفريقيا الشرق المغرب، د ت.
- حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج3، دار الرشاد الحديثة، المغرب 2000.

- لوكليرك جيل، من موكادور إلى بسكرة، رحلات داخل المغرب والجزائر، ترجمة بوشعبي الساوري، مراجعة الطاهر لكنيزي، د ط، منشورات الجمل، لبنان، 2016.
- الحجوني حسن أحمد، العقل والنقل في الفكر الإصلاحية المغربي (1757-1912)، د ط، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2003.
- بيهم جميل محمد، فلسفة التاريخ العثماني كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية، مطبعة مكتبة صادر، لبنان، 1925.
- ماسيه جورج، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمد عبد الصمد هيكل، مراجعة مصطفى أبو ضيف أحمد، منشأة المعارف، مصر، 1991.
- أورتاليي إلبير، العثمانيون في ثلاثة قارات، ترجمة عبد القادر عبد اللي، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، 2014.
- بركات مصطفى، الألقاب والوظائف العثمانية (1517-1924)، د ط، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2000.
- لوگران جورج، تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، ترجمة هاشم الحسيني، د ط، دار مكتبة الحياة، لبنان، د ت.
- عبد المنعم الجميعي، الدولة العثمانية والمغرب العربي، د ط، دار الفكر العربية، مصر، 2007.
- الطيبي أمين توفيق، دراسات في تاريخ مدينة سبتة الإسلامية، ط1، دار القلم، تونس، 1989.
- بن تاويت محمد، تاريخ سبتة، ط1، دار الثقافة، المغرب، 1982.
- حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج2، دار الرشاد الحديثة، المغرب، 2000.
- بيات فاضل، الدولة العثمانية في المجال العربي، دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية على ضوء المصادر والوثائق العثمانية مطلع العهد العثماني أواسط القرن التاسع عشر، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2001.
- حركات إبراهيم، المغاربة والبحر، د ط، مطبعة أوكاد، المغرب، 1998.

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج1، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1998.
- صابان سهل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة عبد الرزاق محمد حسن بركات، ط3، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، 2000.
- آق كوندوز أحمد، أوزتوك سعيد، الدولة العثمانية المجهولة 303 سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية، مجمع وقف البحوث العثمانية، إسطنبول، 2008.
- بيتير شوجر، أوروبا العثمانية (1354-1804)، ترجمة عاصم الدسوقي، ط1، دار الثقافة الجديدة، 1998.
- المنصور محمد، المغرب قبل الاستعمال، المجتمع والدولة والدين 1792-1822، ترجمة محمد حبيدة، ط1 المركز الثقافي العربي، المغرب 2006.
- حلاق حسان، صباغ عباس، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، ط01، دار العلم للملايين، لبنان، 1999.
- البيوي حسن، الفتاوى الفقهية في أهم القضايا في عهد السعديين إلى ما قبل الحماية، د ط، مطبعة فضالة المغرب، 1998.
- بيرقدار نجم الدين، العثمانيون حضارة وقانون، ط1، الدار العربية للموسوعات، لبنان، 2014.
- أمجان فريدون، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين حقائق في ضوء المصادر، ترجمة جمال فاروق، ط02، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، 2015.
- خلاصي علي، الجيش الجزائري في العصر الحديث، ط1، دار الحضارة، الجزائر، 2007.
- السدود عبد العزيز، تطوان في القرن 18 م السلطة، المجتمع والدين، ط1، مطبعة الخليج العربي، 2007.
- بتروسيا إيرينا، الإنكشاريون في الامبراطورية العثمانية، تقديم ومراجعة قسم الدراسات والنشر بمركز جمعة الماجد، ط1، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الإمارات، 2006.

- بركات مصطفى، الوظائف والألقاب العثمانية، ط1، دار غريب، مصر، 2000.
- بن أبي زيان بن شنهو عبد الحميد، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، ط1، الجزائر، 1972.
- عبد الكريم طه يوسف، المؤسسة العسكرية العثمانية دراسة تاريخية، ط 1، دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن، 2014.
- طوباش نورية عثمان، العثمانيون رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة، ترجمة محمد حرب، د ط، دار الأرقم اسطنبول، 2016.
- الشراوي أحمد عبد الوهاب، الفنون والآداب، د ط، دار أمواج للنشر والتوزيع، الأردن، 2015.
- مبيج جون لوي وآخرون، تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية، ترجمة مصطفى غطيس، ط1، دار الطوبريس، المغرب، 2002.
- التازي عبد الهادي، قصر البديع بمراكش من عجائب الدنيا، د ط، مطبعة فضالة، المغرب، 1977، ص05.
- حنش إدهام محمد، نظرية الفن الإسلامي المفهوم الحالي والبنية المعرفية، ط1، المعهد العالي للفكر الإسلامي، الو. م. أ، 2013.
- بوهليلة إدريس، الجزائريون في تطوان خلال القرن 13هـ/19م، ط 01، مطبعة الهداية، تطوان، 2012.
- عبد العزيز بن عبدالله، تاريخ تطوان، ط1، المغرب، 2005.
- زنيير محمد، شذرات تاريخية عن مدينة سلا"، فصل من كتاب "في النهضة والتراكم"، دار توبقال للنشر، ط01، المغرب، 1986.
- بن عبد الله، عبد العزيز، تطوان عاصمة الشمال ومنبع إشعاعه، د ط، منشورات جمعية تطاون أسمير، المغرب، 2005.
- الأرقش عبد الحميد وآخرون، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي ميديا كوم، تونس، 2003
- الطائي رعد مطر، "أثر الفنون الأوروبية على التصوير الاسلامي دراسة وتحليلية تاريخية"، د ط، دار النشر للجامعات، د ت.

- محمد أبو رحاب محمد السيد، العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عهد الأشراف السعديين، دراسة أثرية معمارية، ط1، دار القاهرة، مصر، 2008.
- سالم علي أحمد سالم، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي المتوسط في القرن 16، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، د ط، 2011.
- إيفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ط 2، منقحة ومزودة بقلم روبن هاليت، تعريب الهادي أبو لقمة، محمد عزيز، منشورات جامعة قاروينيس - بنغازي، ليبيا، 1988.
- ن.إ. بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، ترجمة وتقديم عماد حاتم، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط 2، 2001.
- بنعبد الله عبد العزيز، الرحلات من المغرب واليه عبر التاريخ، طه، دار المعرفة للنشر والتوزيع، المغرب، 2001.
- برينا كريستيانزو ، طرابلس من 1510 الى 1850، تعريب خليفة محمد التليسي، طه، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، 1985.
- المنصوري عثمان، المغرب والبرتغال أبحاث من الأرشيف البرتغالي، د ط، مطابع الرباط نت، المغرب، 2017.
- الحساني إبراهيم بن علي، ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، تحقيق عمر آفا، مطبعة القسمة، المغرب، 1989.
- زيادة نقولا، دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، ط 1، دار رياض الرئيس للكتب والنشر، بريطانيا، 1999.
- شبانة محمد كمال، الدويلات الإسلامية في المغرب، ط 1، دار العلم العربي، مصر، 2008.
- جادور محمد، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، منشورات عكاظ، 2011، المغرب.
- فيلالي مصطفى، المغرب العربي في عهد عقبة بن نافع، د ط، دار الكتاب الحديث، الأردن، 1988.

- حجي محمد، " تجديد الدراسة بالقرويين أيام السعدين "، فصل من كتاب: " محطات تاريخ المغرب الفكري الديني"، تنسيق وتقديم محمد العيادي، ط1، مطبعة فضالة، المغرب، 1999.
- اسماعيل مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد 106-1985، ط1، ج1، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1985.
- حجي محمد، الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين، ج2، مطبعة فضالة، د ط، المغرب، 1978.
- هلايلي حنفي، " أوراق قديمة من كراس الجزائر في العهد العثماني "، ط1، دار الهدى، الجزائر، 2008.
- المملكة المغربية، وزارة الداخلية، " إقليم فجيح : منوغرافية جماعة فجيح"، 2013.
- العلوي حسن حافظي، سجماسة وإقليمها في القرن 14/هـ/14م، م ط، مطبعة فضالة، المغرب، 1997.
- مزيان أحمد، فجيح، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن 19 (1845-1903)، د ط، مطبعة فجر السعادة، المغرب، 1988.
- عبو كمال، " من أجل الاعتراف بتراث الواحة وقصور فجيح "، فصل من كتاب "فجيح ومنظومة المدن والواحات للمغرب"، التنسيق العام روبرتو ماسكاروتشي، التحرير والمراجعة سيسيليا فوماكالي، نشر وكالة الجبهة الشرقية، مجموعة ORIENTAL الرباط، د ت.
- خشيم فهمي، أحمد زروقي والزروقية، دراسة حياة وفكر وطريقة ومذهب، ط 3، دار المدار الاسلامي، 2002، لبنان.
- المودن عبد الرحمان، "تساؤلات حول موقف العثمانيين من الغزو السعودي لبلاد السودان"، فصل من كتاب " المغرب وإمبراطورية السنغاي في نهاية القرن السادس عشر"، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط 1، 1995.
- حوتية محمد الصالح، توات والأزواد، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007.

- مياسي إبراهيم، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881-1912، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، د ط، 1996.
- الشيخ بلعالم محمد باي، الرحلة العلمية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، ج1، دار هومه، الجزائر، 2005.
- بن دهبنة مصطفى، قطوف من تاريخ تندوف، ط1، المجلس الأعلى للغة العربية، دار راجعي للنشر، الجزائر، 2010.
- أحدي أحمد، القبائل الأمازيغية بالجنوب الشرقي المغربي وعلاقتها بالمجال الصحراوي من القرن 16 إلى القرن 20، فصل من كتاب: "دراسات حول الجنوب والصحراء"، تنسيق أحمد المقرري، ط01، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، المغرب، 2011.
- بعلي حفناوي، صحراء الجزائر الكبرى في الرحلات وظلال اللوحة وفي الكتابات الغربية، ط01، دار دروب للنشر والتوزيع، الأردن، 2016.
- بيانوبيا فرانثيسكو ماركيث، القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى، ترجمة عائشة محمود سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمان، ط01، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2005.
- إي غيفيريا خوسي مينيوت، تاريخ ثورة الموريسكيين وطردهم من إسبانيا وعواقبه على سائر أقاليم المملكة، ترجمة عبد العزيز السعود، ط01، منشورات ليتوغراف، المغرب، 2010.
- بوستو غيبرمو غوثالبيس، الموريسكيون في المغرب، ترجمة مروى محمد إبراهيم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمان، ط01، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2005.
- مصطفى نادية، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي منظور حضاري مقارن، تقديم طارق البشري، دار البشير للثقافة والعلوم، ج01، ط01، مصر، 2015.
- بن حادة عبد الرحيم، "ما بعد الهدنة: الرد العثماني على مطالب زيدان المهدي"، مجلة أسطور، العدد01، 2015.
- زروق محمد، "العرائش داخل إطار القضية الأندلسية"، مجلة المليحة، العدد الأول، المغرب، 1667، ص60. (ص59، ص63).
- القدوري عبد المجيد، البحر في المتخيل المغربي، د ط، مطبعة أوقاد، المغرب، 1998.

- حجي محمد، صلحاء مغاربة لهم علاقات بالبحر، مطبعة أوقاد، د ط، المغرب، 1998.
- البشروش توفيق، جمهورية الدايات في تونس 1591-1675، مجموعة أيام الناس.
- كريسي إدوارد شيفرد، تاريخ الأتراك العثمانيين، ترجمة أحمد سالم سالم، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، ط01، قطر، 2019.
- التميمي عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، ط01، تونس، مطبعة فاز بريس، 1989.
- كروزيه موريس، تاريخ الحضارات العام القرنان السادس عشر والسابع عشر، المجلد 04، ط02، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريد داغر، منشورات عويدات، لبنان، 1987.
- خوجة مصطفى، تاريخ فزان، تقديم وتحقيق حبيب وداعة الحسناوي، مركز منشورات جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا.
- زبادة عبد القادر، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ت.
- الحموي ياقوت، معجم البلدان، ج4، دار صادر، لبنان، 1995.
- أحمد ياغي اسماعيل، محمود شاعر، (1993). تاريخ العلم الإسلامي الحديث والمعاصر. أفريقيا، ج2، دار المريخ، السعودية.
- علي باري محمد، فاضل محمد، كريدية سعيد إبراهيم، المسلمون في غرب إفريقيا، د ط، دار الكتب العلمية، لبنان، 2007.
- علي عبد الظاهر علي، ما أخفاه التاريخ: قصص منسية لبطولات أسطورية، ط1، دار المعرفة، مصر، 2017.
- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، انتشار الإسلام في غرب إفريقيا، د ط، دار الفكر العربي، مصر، د ت.
- ناعمي مصطفى، الصحراء من خلال بلاد تكتة-تاريخ العلاقات التجارية والسياسية، د ط، منشورات عكاظ، المغرب، 1988.
- إنجاليك خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرنؤوط، د ط، دار المدار الاسلامي، لبنان، 2002.

- آصاف يوسف بك، تاريخ سلاطين بني عثمان من الأول حتى الآن، تقديم محمد زينهم، محمد غرب، ط1، مكتبة مدبولي، مصر، 1995.
- قاسم جمال زكريا، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، د ط، دار الفكر العربي، مصر، 1996.
- العربي إسماعيل، الصحراء الكبرى وشواطئها، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- الزبيري محمد العربي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، د ط، مطابع الشروق، لبنان، د ت.
- بن شريفة محمد، "بين أحمد بابا وأحمد المنصور"، فصل من كتاب "المغرب وإمبراطورية السنغاي في نهاية القرن السادس عشر"، منشورات مهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط 1، 1995.
- الصافي جعفري أحمد بابا، من تاريخ توات أبجات في التراث، ط1، منشورات الحضارة الجزائر، 2001.
- ماري ميلز باتريك، سلاطين بني عثمان، ط1، دار عز الدين للطباعة والنشر، لبنان، 1986، ص21.
- نايف عيد السهيل، العلاقات السياسية بين العثمانيين والصوفييين منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة جالديران (907-920هـ/1502م-1514)، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية، مصر، 2009، ص30.

1-ب/ بالأجنبية:

- Renan Ernest, Documents Inédits Sur l'histoire de l'occupation en espagnol en Afrique (1506-1574), Editeur Journal Libraire, Alger 1875.
- dias farinha Antonio, os portugueses em marrocos, tradutor bader younis, youssef haranein, edicoinstitutu camos, bortugal, colle ccao lazuli, 1999.
- Encyclopédie of the Ottoman Empire crabor, Agoston and Bruce Maslers, Am impriment of infobax publishing, New York, 2008.

- Exposition de photos, Mosquées Marocaines A travers L'histoire, 1 exposition, Fondation de la mosquée, Université EL Hasan II, Casablanca, 2010.
- wiliam Stripling george, the Ottoman turks and the arabs 1511-1574, the university of illemois pres mbrand, 1942.
- Mercier Ernest, Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berberie) Tome03, Ernest Leroux Editeur, paris, 1868.
- Ben Chenab Mohamed, les mots Turks conserviez dans la parles Algérie, 1922.
- kaddache Mahfoud, l'Algérie durant la période ottoman, office des publications universitaires, Alger, 1992.
- walph Willis Jhon, «the Bayaa in morocco relations with the western Sudan», un chapitre d'un livre «Le Maroc et l'Afrique aux début des temps modernes», colloque international, morakech, 23-25 octobre 1992, édition 01, 1995.
- Manwel Riesgo Juan, «la formation de un ejeriction hispano - Marroque», la conquest del sudan negirian a end 1591, un chapitre d'un livre «Le Maroc et l'Afrique aux début des temps modernes», colloque international, morakech, 23-25 octobre 1992, édition 01, 1995.
- E.Mc Dougall, «The question of Tegaza and the conquest of Songhay: some Sahara considerations», un chapitre d'un livre «Le Maroc et l'Afrique aux début des temps modernes», colloque international, morakech, 23-25 octobre 1992, édition 01, 1995.
- Dewaer Renie, Du la Tchad A la Mecque: le sultanat de borno et son monde (16-17 siècle), Edition de la Sorbonne, 2017.
- Jane Hathaway, The Arabs lands under Ottoman Rule 1516-1800, Routledge taylor and francais group, new york, 2019.

2-المجلات والدوريات:

2-أ/ بالعربية:

- الجراري عباس، " البرتغال بصمات تاريخ مشترك"، مجلة المناهل، العدد 12، 1978، المغرب.

- الهادي هارون، بوسليم صالح، "التأثير السياسي للطريقة القادرية في غرب إفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث"، مجلة روافد للبحوث والدراسات، العدد02، 2017.
- بنيرد الحاج، "تاريخ تمبكتو من نشأتها الى غاية القرن الحادي عشر هجري، دراسة ثقافية تاريخية"، دورية كان التاريخية، العدد 28.
- الجهيمي حمد محمد حمد، العلاقات التجارية بين طرابلس ومملكة الكانم البرنو فيما بين القرن السابع وحتى القرن العاشر هجري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- انجاي مصطفى، "من كانم الى سوكوتو موجز التاريخ السياسي للسودان الاوسط"، مجلة قراءات تاريخية، العدد35، 2018.
- بلمسرحة هشام، "جوانب من العلاقات الثقافية بين المغرب السعودي والسودان الغربي"، مجلة ليكسوس، العدد35، أكتوبر2020.
- حسين بوبيدي، "التجارة والتجار في إفريقيا الغربية من خلال المصادر الاوروبية ق14-16م"، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد06، العدد01، جوان 2020، (الجزائر).
- الغنيمي عبد الفتاح مقلد، "السلطنات الإسلامية في السودان الغربي"، مجلة الفيصل، العدد 126، 1987، ص34.
- عبد المومني محمد، "وثيقة اسبانية حول تحرير الأسرى من قسبة سلا سنة 1632"، مجلة أسطور، العدد09، 2009.
- فيقيقي محمد الكبير، حاضرة بوسمعون في المصادر المغربية أثناء العصر الحديث، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع
- بوحفص سيرات، "الجنوب الغربي الجزائري، قصر بوسمعون نموذجا"، مجلة تنوير، العدد 02، 2017.
- موحن وليد، "العلاقات التجارية بين شمال المغرب والمغرب من الفترة الوسيطة إلى التاريخ المعاصر"، دورية كان التاريخية، العدد42، 2017.
- المنصوري عثمان، "تطور مركز العرائش في القرن16"، مجلة المليحة، العدد01، 1997.

- دادة محمد، " تلمسان في دوامة الصداق الثلاثي بين الاسبان والعثمانيين والمغاربة في القرن 16، مجلة عصور الجديدة، ع02، 2011، الجزائر.
- شعباني بدر الدين، تمزيذكت المدينة الزيانية المحصنة، مجلة دراسات بني آثار الوطن العربي، م1، ع14، المغرب، 2002.
- دين قادة، "الحدود الجزائرية المغربية عبر التاريخ"، مجلة عصور الجديدة، م07، ع07 أكتوبر 2017-2018، الجزائر.
- السويكت فهد بن محمد،" موقف الأشراف السعديين في المغرب من مسألة الخلافة العثمانية"، مجلة جامعة الملك مسعود، المجلد 19، ج01، السعودية، 2006.
- بوتشيش إبراهيم القادري، مذكرات أسير برتغالي في مغرب القرن السادس عشر، مجلة أسطور، ع01، مايو 2015.
- السديس عبد الرحمان بن علي بن عبد الله،" مراحل العلاقات العثمانية الفرنسية 948-1535/217-1002، مجلة العلوم العربية والإنسانية، مج09، ع01، 2015، السعودية.
- محمد حبيدة،" أكاد المغرب دخول العصور الحديثة؟" مقال من كتاب" مقالات الدكتور محمد حبيدة"، إعداد وجمع لحرش رضوان، د ط، سلسلة مقالات رقم 02، المغرب، 2017.
- باتو رضوان، "مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب للكاتب جادور"، مجلة عمران للعلوم الانسانية والاجتماعية، العدد 215، سنة 2013.
- بن شريفة محمد، "ملاح من شخصية محمد الأول"، مجلة دعوة الحق، العدد258، سنة1986، المغرب.
- بخدة الطاهر،" دور الأتراك في انبعاث ووحدة الدولة الجزائرية الحديثة"، مجلة عصور الجديدة، العدد 11، ج2، 2013-2014، الجزائر.
- سعيدوني ناصر الدين، الأوضاع الاقتصادية والثقافية والاجتماعية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب) من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الحادية والثلاثون، 2010/1431، الكويت.

- المنتفع محمد، "الألبسة المغربية وموضة العصر الحديث"، مجلة مدارات تاريخية، المجلد 01، عدد خاص، 2019.
- حركات إبراهيم، "تطور الأوضاع الاقتصادية على عهد السعديين"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 12، 1986.
- خليل الساحلي أوغلو، "قانون نامه آل عثمان"، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، المجلد 13، العدد 04، الاردن، 1986.
- علي محمد سعيد هند، "الزخارف النباتية المطرزة على المناديل والمناشف العثمانية المحفوظة بمتحف فيكتوريا والبرت بلندن خلال القرنين 12-13هـ/18-19م دراسة فنية أثرية"، مجلة دراسات وابحاث، العدد 23، مصر، 2016.
- طبان شريفة، "فن التطريز الحريري بمدينة الجزائر في العهد العثماني"، مجلة آثار، العدد 06، الجزائر، 2007.
- ياقوت هالة، "الزي المصري عبر العصور"، المجلة العربية، العدد 524، 2020، مصر.
- المحرر الثقافي، "قصر طوب قابي، التنوع الثقافي في الدولة العثمانية"، مجلة فكر الثقافية، العدد 16، 2016.
- محمد بنعتو، "الموروث الإنساني الهندسي أو التراث المتعدد القيمة الرمزية والدلالة حالة مدينة العرائش المغرب"، مجلة إنسانيات، العدد 4، الجزائر، 2003.
- بوشمال فاطمة، "شفشاون: حاضرة شريفة بلامح أندلسية وقسمات جبلية"، مجلة المناهل، العدد 98، 2020.
- آيت أمغار سمير، "تاريخ مقبرة الأشراف السعديين بمدينة مراكش من العهد الموحدى إلى سنة 1557"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد 100، 2017.
- آيت أمغار سمير، "جوانب من تاريخ مقبرة الأشراف السعديين بمراكش في النصوص والوثائق التاريخية"، مجلة هيسبريس تمودا، العدد 02، 2017.
- رافع محمد، "العقود في عمائر مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية تقنيات الرسم والبناء"، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، المجلد 01، العدد 04، 2016.

- حريش ياسين، "الدولة السعدية: تجليات السلطة والدين والمجتمع"، مجلة ليكسوس، العدد 25، يونيو 2018.
- عبد العزيز الحاج علاوي نسبية، "المعماري العثماني سنان باشا 1485 - 1588"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد 17، العدد 02، العراق، 2010.
- صالح محمد سيد أشرف، "المراكز الثقافية في دار السلطان (الجزائر) أواخر العصر التركي"، مجلة الأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا، المجلد 04، العدد 08، سنة 2013.
- برواق ملكية، زاوي الحسين، "البعد الجمالي للعمارة العثمانية بمدينة الجزائر، دراسة معمارية، أثرية وجمالية لجامع كتشاوة"، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، المجلد 02، العدد 02، الجزائر، 2017.
- مهناوي محمد، "المغاربة والبحر خلال القرن السادس عشر"، مقال في كتاب البحر في تاريخ المغرب، تنسيق وتقديم رقية بلمقدم، إعداد عثمان المنصوري.
- الفاسي عبد الإله، "تطور علاقة العدوتين سلا والرباط بالبحر من القرن 17 إلى القرن 19"، فصل من كتاب البحر في تاريخ المغرب، تنسيق رقية بلمقدم، إعداد عثمان المنصوري.
- أشرف صالح محمد السيد، "المراكز الثقافية في دار السلطان الجزائر أواخر العصر التركي"، المجلة الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيات، المجلد 4، العدد الأول، سنة 2018.
- عليش حبيبة، "الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في بايلك التيطري أثناء الوجود العثماني 1830 - 1519"، مجلة تاريخ المغرب العربي، مج 03، العدد 06.
- حركات إبراهيم، "الأجهزة السياسية المركزية لدى المخزن السعدي"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 11، سنة 1985.
- الفاسي محمد، "موقعه وادي المخازن الحاسمة"، مجلة البحث العلمي، العدد 09، سنة 1966.
- الياسري فاهم نعمة، عجة حسنين عبد الكاظم، "الإسهامات السياسية لمتصوفة المغرب الأقصى في العصر الحديث"، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد 12، العراق.

- إبراهيم إياد ترکان، " إنجلترا والدولة السعدية في المغرب الأقصى، جوانب من تاريخ العلاقات بين الطرفين (1554-1659)", المجلة العالمية لنشر الأبحاث، العدد 12، 2019.
- نمير عقيل، "السياسة الداخلية للمغرب الأقصى في عهد السلطان أحمد المنصور السعدي 1580-1603"، مجلة دراسات تاريخية، العدد 135، 2017.
- الكباشي أنعم محمد عثمان، تأسيس لواء سواكن في العهد العثماني، مجلة الدارة، العدد 04، 1433هـ / 2011م.
- الصفصافي أحمد المرسي، "الدولة العثمانية والولايات العربية"، مجلة الدارة، العدد الرابع، 1433هـ / 2011م.
- حجي محمد، "العلاقات المغربية التركية في القرن 16م"، مجلة المناهل، العدد 25، سنة 1982.
- هلايلي حنفي، "محاولات الجزائر العثمانية توحيد المغرب العربي: بين الطموحات الاستراتيجية والإخفاق السياسي"، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 05.
- بوشنتوف لطفي، "المغرب على عتبة الحداثة: قراءة بالزمن الاحتمالي"، مجلة رباط الكتب، د ع، يناير 2014، المغرب.
- المنصوري عثمان، "الانتصار للتصوف والمتصوفة الشمال من خلال دوحة الناشر لابن عسكر فصل من كتاب": "محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني"، تنسيق محمد العيادي، مطبعة فضالة المغرب، د ت.
- بن عثمان محمد، "المنصور الذهبي"، مجلة المغرب، العدد 38، 1936.
- بن عبد الله عبد العزيز، "القوام العسكري في الحضارة المغربية"، مجلة المناهل، جزء 12، المغرب، 1978.
- بويقران خالد، بويقران محمد، "علاقات المغرب بالأترك العثمانيين من خلال الوثائق الإسبانية بمجموعة المصادر الدفينة لتاريخ المغرب"، مجلة قضايا تاريخية، العدد 09، 2018.

- بوشنتوف لطفي، "صورة عالم القرن 10هـ/16هـ رضوان الجنوي من خلال تحفة الإخوان ومواهب الامتتان في مناقب سيدي رضوان"، مجلة أمل، مج02، العدد04، 1993.
- محمود شاکر محمود، "الشاعر الموريسكي مؤرخا"، مجلة كلية الآداب العدد103، مصر، دت.
- حجي محمد، "العلاقات المغربية التركية"، مجلة المناهل، العدد 25، 1978.
- اشهبان عمر، "بادس حاضرة بلاد الريف في المغرب"، دورية كان التاريخية، العدد 28، 2015.
- عطا الله الجمل شوقي، "صفحات من تاريخ الإستعمار في المغرب العربي على ضوء وثائق الأرشيف البرتغالي"، مجلة الدراسات الإفريقية، العدد04، مصر، 1975.
- بوشرب أحمد، "محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية 1559"، مجلة المناهل، العدد 21، المغرب.
- رابحي رضوان، "إطلالة على ظاهرة المهودية في المغرب الأقصى الوسيط والحديث، مقارنة بين اليهود والمسلمين"، دورية كان التاريخية، العدد 33- 2016 .
- عبد العزيز عبد الله الحاج علاوي نسيبة، "النشاط البحري لكامل ريس 1451-1511"، مجلة كلية أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد14، العدد01، 2017.
- وليد خالد يوسف، "الأوضاع العامة في ولاية طرابلس الغرب تحت حكم الولاة العثمانيين البكربكية 1551-1606"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد 21، العدد 01، سنة 2014، العراق.
- نشوي المصطفى، جيوبوليتيك التراب المغربي عبر التاريخ، ج2، مجلة المجال الجغرافي والمجتمع المغربي، العدد16، 2017.
- ابن العربي الصديق، "صفحات من تاريخ الصويرة"، مجلة المناهل العدد11، 1978.
- الفكيكي حسن، مسألة الثغور المغربية المحتلة في منتصف القرن الثامن عشر (1750-1787)، مجلة دار النيابة، العدد11، 1986.

- بن خروف عمار، "ملاح من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين"، مجلة الدراسات التاريخية، م02، ع01، الجزائر، 1987.
- مبروك الصغير، "أبحاث في التاريخ والآثار الإسلامية بالمغرب الشرقي: تازة، تاويرت، دبدو والنواحي"، المجلة الدولية للابتكار والدراسات التطبيقية، ج18، ع04، 2016.
- بن سيفي عز الدين، "ملاح من العلاقات السياسية الجزائرية المغربية على عهد الأتراك العثمانيين والأشراف السعديين في المغرب الأقصى"، مجلة القرطاس، العدد 11، 2019، الجزائر.

2-ب/بالأجنبية:

- Legorbure Almela, "La recuperación urbana de Marrakech: dos complejos religiosos de época saadí", en *anquel de estudios arabs*, N°31, 2020.
- Vincent Bernard, "les bandits morisques en andalouse aux XVI le siècle", *Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine*, tome 21, N°3, 1974.
- B. G Martins, "Mai Idris and ottoman Turks 1576-1578", *journal of Middle East*, 1972.
- Mauro Nobili, "Letter on the appearance of the twelfth caliph (Risāla fī zuhūr al-khalīfa al-thānī ‘ashar)", *Journal of Afriques*, N° 07, 2016.
- Cory Stephen, "The Man Who Would Be Caliph: A Sixteenth Century Sultan's Bid for an African Empire", *the International Journal of African Historical Studies*, volume42, n02, 2009.
- Nora Lafi**, « L'Empire ottoman en Afrique : perspectives d'histoire critique », *Cahiers d'histoire. Revue d'histoire critique*, n 128, 2015.
- Edmund Burke, « La Guerre Mondiale du XVIe siècle et la naissance du monde moderne: Une approche à partir de la périphérie », *Hespéris-Tamuda LV (1)*, 2020.
- De La Veronne Chantal, « Relations entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié du XVIe siècle et le début du XVIIe siècle (1554-1616) », *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°15-16, 1973. *Mélanges Le Tourneau. II.*

Gumes Esiksel, « haci murad(aji morato): an elusive dignitary active in the second half of the sixteenth centry”, the journal of ottoman studies, LVII, 2016.

3-المذكرات والرسائل الجامعية:

3-أ/بالعربية:

- بقادي مسعود، "العلماء الجزائريون بالمغرب الأقصى ودورهم في الحياة الثقافية خلال القرن 10هـ/16م"، مذكرة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجبالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، 2019-2020.
- عمار بن خروف، "العلاقات بين الجزائر والمغرب (923- 1069هـ/1517-1659م)", أطروحة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، 1983.
- شرف موسى، "علاقة المغرب الأقصى بالدولة العثمانية وإيالاتها العربية في المشرق والمغرب(1171-1265 / 1757- 1848)", أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 02، 2015-2016.
- زكار أحمد، حاضرة وارجلان وعلاقتها التجارية بالسودان الغربي من سنة 1000هـ إلى 1301هـ/1591 إلى 1883، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر، جامعة أحمد درارية أدرار، 2009-2011.
- ابن قومار جلول، "معركة وادي والمخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول أوروبا (البرتغال، إسبانيا، فرنسا 1578 - 1603)", رسالة ماجستير، جامعة غرداية، 2011.
- بلعربي خيرة، "المسالك والدروب وأثرها في تفعيل الحركة التجارية والثقافية في المغرب الإسلامي 15م/16"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، جامعة تلمسان، 2003.

- فائقة محمد حمزة عبد الصمد بحري، "أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا"، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أم القرى السعودية، 1989.
- دغموش كاميلية، "قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الإسباني والسلطة العثمانية (1509-1792)"، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران، 2014 /2013.
- صباح بعارسية، "حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي"، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، الجزائر، 2006/2005.
- غطاس عائشة، "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقارنة اجتماعية، اقتصادية"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2000-2001.
- بوسعيد عبد الرحمان، "الأوقاف والتنمية الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران، 2012/2011.
- أميرة علي وصفي، "العثمانيون والإمام القاسم محمد بن علي في اليمن (1598-1620)"، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، 1980.
- الرمال غسان علي محمد، " صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي"، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الملك عبد العزيز السعودية، 1981.
- محمد علي جواد نغم، "تأثيرات الديانة الكاثوليكية والبروتستانتية خلال القرن السادس عشر والسابع عشر في العالم العربي"، أطروحة دكتوراه، العراق، 2013.
- قاسم فيصل، "الحركة التجارية بين موانئ بلاد المغرب العربي خلال العهد العثماني"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الأمير عبد القادر لعلوم الاسلامية، الجزائر، 2014.

- السيد المكي جلول، مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من 631 إلى 1262/1234-
- 1847، رسالة جامعية للحصول على الماجستير، معهد التاريخ-جامعة الجزائر، 1993.
- الصباغ محمد، الصحراء في علاقات المغرب الدولية 1840-1975، رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الزقازيق، مصر، ذ.ت.
- بن سالم الصالح، "التواصل الثقافي بين الجزائر والمغرب خلال 1549-1664"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، الجزائر، 2013-2014.
- عبد الرزاق شقدان بسام كامل، "تلمسان في العهد الزياني(1235-1555)"، رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2002.
- مسعودي زهرة، الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب افريقيا من القرن 18 الى القرن 20 هـ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الافريقي الحديث والمعاصر، جامعة أدرار، 2009-2010.
- مفتاح عثمان علي عبد الكافي، الموريسكيون ودورهم في الحفاظ على الهوية الاسلامية في الأندلس، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاسلامي، كلية الآداب والتربية، جامعة التحدي، سرت، ليبيا، د.ت.
- بوداوية مبخوت، "العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الاوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، الجزائر، 2006.
- أميرة علي وصفي، العثمانيون والإمام القاسم محمد بن علي 1598-1620، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، السعودية، 1980.

3-ب/بالأجنبية:

- Flynn Sébastian, "the Relationship Between the ottoman empire and kanem borno during the King of sultan Murad III", a master thèses, Ihsan Dogramaci Bilkent université, Ankara, 2015.
- Earnest W. Porta, «Morocco in the early atlantic world, 1415-1603», in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in History, submitted to the Faculty of the Graduate School of Arts and Sciences of Georgetown University, 2018.

4-الملتقيات:

- أعمال المؤتمر الدولي الأول " اليمن في العهد العثماني الأول (1517-1635)، إعداد محمد شكر، مراد أوننتغ وآخرون، ط1، تركيا، 2016:
- صابان سهيل، "نظرة عامة في السياسة العثمانية لتثبيت الحكم باليمن من واقع دفاتر المهمة (1559-1591)".
- العمري حسين عبد الله، " موقف العثمانيين والقوى اليمنية المعارضة لدعوة الإمام القاسم بن محمد".
- علي صالح العزيز عبد الكريم، " التنظيم والتقسيم الإداري أثناء الحكم العثماني الأول في اليمن 1517-1635.
- محمد المصالح بوقشور، "اليمن في العهد الأول من خلال المصادر الأجنبية".
- بو الصمصاف عبد الكريم، " التصوف مفاهيمه وأبعاده، الملتقى الدولي الحادي عشر: "التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة"، نوفمبر 2008، الجزائر، د ط.
- واعي العربي، بوعملات منعم، قراءة في كتاب: " العلاقات المغربية الجزائرية، مقارنة سياسية ثقافية خلال القرن 16م /10هـ " تأليف الدكتورة زهراء النظام"، ندوة تاريخية من تنظيم كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة الحسن الثاني، المغرب، 2015-2016.
- النشوي مصطفى، "أثر المتغيرات السياسية والاقتصادية على تطور السكان بمدينة وجدة"، ندوة بعنوان: "المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر، الوسط الطبيعي، التاريخ والثقافة"، أيام 13-14-15 مارس 1986، جامعة محمد الأول، منشورات كلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية، جامعة محمد الأول.
- أحمد العربي، "وجدة مدينة الحيرة أو حيرة المدينة"، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 02، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط.
- مارية دادي، "أضواء على العلاقات الاسبانية المغربية خلال القرن 16 من خلال مراسلات باللغة الاسبانية"، الندوة الدولية لتكريم الأستاذ عثمان المنصوري، "المغرب والتحويلات الدولية"، الرقم 22، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة الحسن الثاني، المغرب، 2007.
- مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية، بحوث الندوة الدولية حول "المغرب والبحر الأبيض المتوسط الغربي في العصر العثماني الرباط 12-14 نوفمبر 2009"،

إشراف خالد أرن، إعداد جنكيز طومار، زينب دوروقال، فيصل بنعيسى، اسطنبول، 2013، ص07.

- أعمال الملتقى الدولي: "الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحربا"، انعقد يومي 07-08 ديسمبر 2009، جامعة الجزائر 02، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط الى نهاية العهد العثماني، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية:
- شترة خير الدين، "النشاط البحري للأسطول الجزائري خلال العهد العثماني".
- مصطفى داودي، "دور البحرية الجزائرية في القضايا الانسانية الخارجية بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديين".
- حنفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات انقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17.

5-المواقع الالكترونية:

5-أ/بالعربية:

- القاضي محمد، "القلاع والقصبات في المغرب"، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 40، البحرين، 2020، تم الاطلاع على المقال يوم: 15-12-2020، على الساعة: 13:20، على الرابط التالي: <https://www.folkculturebh.org/ar/index>
- البسيوني عبد السلام، مدهشات من الدولة العلية العثمانية ومساجدها، موقع رابطة العلماء السوريين، تم الاطلاع عليه يوم: 14/10/2020، 17:15، على الرابط التالي: https://islamsyria.com/site/show_library/927

https://islamsyria.com/site/show_library/927 -

- ركوك علال، "المولد النبوي بالمغرب طقوس واحتفال"، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 20، البحرين، 2020. تم الاطلاع على المقال يوم: 15-12-2020، على الساعة: 13:20، على الرابط التالي: <https://www.folkculturebh.org/ar/index>

5-ب/ بالأجنبية:

-Almagro Antonio, "Análisis arqueológico del pabellón occidental del palacio al-Badi' de Marrakech", Arqueología de la Arquitectura, 2013.

تم الإطلاع عليه يوم: 2020-12-15، على الساعة: 01:30، على الرابط التالي:

<http://dx.doi.org/10.3989/arq.arqt.2013.002>

فهرس المحتويات

الإهداء

شكر وتقدير

قائمة المختصرات

المقدمة.....ص05-13

الفصل الأول

ملاح السياسة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى خلال النصف الأول من القرن 16م

1500-1550).....ص15

1- أوضاع المغرب الأقصى خلال النصف الأول من القرن 16م.....ص15

1-1 ممارسات الاحتلال البرتغالي في الثغور المغربية.....ص15-16

1-1-أ سياسة التهريب والتنصير.....ص17-20

1-1-ب تجارة العبيد.....ص20-22

1-1-ج سياسة الضرائب.....ص22-24

2-1 رد الفعل المغربية اتجاه الاحتلال البرتغالي (حركة الجهاد).....ص24-29

3-1 الحضور العثماني في الحوض الغربي للمتوسط والأطلسي في الربع الأول

من القرن 16م.....ص29-36

2- الحضور العثماني في منطقة المغرب الأقصى ومظاهره خلال النصف

الأول من القرن 16م (سياسة الاختراق).....ص36

2-1 الحضور العسكري العثماني في المغرب ومظاهره.....ص36

2-1-أ الاختراق العسكري غير الرسمي.....ص36-43

2-1-ب الاختراق العسكري الرسمي.....ص43-48

2-2 الاختراق السياسي العثماني لمنطقة المغرب الأقصى.....ص48-51

2-3 موقف المغاربة من سياسة الدولة العثمانية (1520-1550).....ص51-55

الفصل الثاني

سياسة العثمانيين للتوسع في منطقة المغرب الأقصى (1550-1576).....ص57

1- العوامل المؤثرة في سياسة الدولة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى.....ص57

1-1 النسب الشريف وإشكالية الخلافة.....ص57-70

1-2 موقع المغرب الأقصى ودوره في محور الصراع العثماني الإيبيري.....ص70-81

1-3 الأهمية الاستراتيجية للمغرب في استقطاب الاهتمام العثماني.....ص81-88

2- سياسة الدولة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى وموقف المغاربة منها (الاستنزاف أو

الاختراق) (1550-1576).....ص88

1-2 سياسة التوسع العثماني في عهد السلطان سليمان القانوني وموقف محمد الشيخ

منها.....ص88

2-1-أ الصراع العثماني السعودي حول تلمسان.....ص88-91

2-1-ب- الاختراق السياسي والعسكري.....ص91-96

2-1-ج- الاختراق الديني.....ص96-98

2-1-د- رد فعل المولى محمد الشيخ السعودي على سياسة الاختراق العثماني.....ص99-10

2-1-هـ- موقف العثمانيين من التضييق السعودي على حلفائهم الصوفيين.....ص100-101

2-2 عبد الله الغالب في مواجهة سياسة الدولة العثمانية، وموقف هذه الأخيرة منه (1557-

157).....ص101

2-2-أ السياسة الداخلية.....ص101-105

2-2-ب السياسة الخارجية.....ص105-106

2-2-ج- موقف العثمانيين من سياسة الغالب اتجاههم(مشروع الإلحاق والتبعية).....ص107-117

الفصل الثالث

التقارب والتفاعل العثماني المغربي (1574-1581).....ص119

1- طبيعة التقارب العثماني المغربي وعوامل تشكيل التفاعل.....ص119

1-1- طبيعة العلاقات العثمانية المغربية.....ص119-140

1-2- عوامل الاحتكاك والتأثير العثماني على الأوضاع العامة في المغرب الأقصى (العوامل التي ساهمت في عثمنة المغرب الأقصى).....ص140

1-2-أ- سياسيا وعسكريا.....ص140-144

1-2-ب- اجتماعيا.....ص144-146

1-2-ج- تجارياص146-147

2- مظاهر التأثيرات العثمانية في المغرب الأقصى 1574- 1581.....ص147

1-2- التأثير العثماني على التنظيم السياسي والإداري.....ص147-148

1-2-أ تنظيم السلطة.....ص148-152

1-2-ب التنظيم الإداري.....ص152-153

1-2-ج تنظيم الوظائف.....ص154

1-2-ج-أ/ تنظيم القصر.....ص154-155

1-2-ج-ب/ الوظائف العامة(الرسمية).....ص155-157

2-2 مظاهر التأثير العثماني على النظم العسكرية.....ص157

2-2-أ مظاهر العثمنة في الجيش المغربي.....ص157

163-157ص.....	2-2-أ/ الجيش البري
166-163ص.....	2-2-أ-ب/ الجيش البحري
171-166ص.....	2-2-أ-ج/ الحضور العثماني في معركة وادي المخازن (1578)
171ص.....	2-3- مظاهر التأثير العثماني على الحياة الفنية، الثقافية والاقتصادية
171ص.....	2-3-أ- مظاهر تأثير فن العمارة العثماني على النمط المغربي
175-171ص.....	2-3-أ- بناء العقود والقباب المثلثة الشكل
178-175 ص.....	2-3-أ-ب/ الصوامع المثلثة والأقواس والنوافير والقلاع
181-178ص.....	2-3-أ-ج/ مقارنة فنية هندسية معمارية بين قصر طوب قابي وقصر البديع
182ص.....	2-3-ب- تأثيرات الفنون العثمانية على نمط الفنون الحرفية والفنون الاحتفالية في المغرب الأقصى
185-182ص.....	2-3-ب-أ/ فن الطرز
186-185ص.....	2-3-ب-ب/ فن الطبخ
186ص.....	2-3-ب-ج/ الفنون الاحتفالية "موكب الشموع"
188-186ص.....	2-3-ب-د/ التأثير الديموغرافي
191-188ص.....	2-3-ب-هـ/ التأثير الاقتصادي

الفصل الرابع

193ص.....	التبعية المفروضة وبوادر التحدي المغربي للطموح العثماني (1581-1603)
193ص.....	1- السلطان أحمد المنصور وطموحه للخلافة
199-190ص.....	1-1- طبيعة العلاقات العثمانية المغربية فيما بين 1581-1603

- 1-1-أ موقف المنصور من سياسة الباب العالي اتجاهه (عودة لمسألة النسب الشريف وإشكالية الخلافة).....ص193-210
- 1-2-1- سياسة التوسع المغربية (لمسألة الحدود).....ص206
- 1-2-1-أ-الحدود الشمالية.....ص210-212
- 1-2-1-أ-أ/وجدة.....ص212-214
- 1-2-1-أ-ب/ تلمسان وأحوازها.....ص214-216
- 1-2-1-أ-ج/ مدينة مكناس.....ص216-217
- 1-2-1-أ-د/ تازة، تميزدكت، غرسيف.....ص217-219
- 1-2-1-ب- حدود الجنوب الغربي الأعلى والأوسط والأسفل.....ص219
- 1-2-1-ب-أ/ الجنوب الغربي الأعلى "قصر بوسمغون".....ص219-221
- 1-2-1-ب-ب/ منطقة الجنوب الغربي الأوسط "فيجيح"، "وادي الساورة".....ص221-224
- 1-2-1-ب-ج/ حدود الجنوب الغربي الأسفل (توات وتيكورارين).....ص224
- 1-2-1-ب-ج/1- الجنوب الغربي الأسفل قبل القرن 16م.....ص224-228
- 1-2-1-ب-ج/2- منطقة توات في القرن 16.....ص228-231
- 1-2-1-ب-ج/3- غزو المنصور لتوات وتيكورارين.....ص231-232
- 2- سياسة الدولة العثمانية في التعامل مع الطموح المغربي.....ص233
- 1-2-1- السياسة العثمانية العامة في الحوض الغربي للمتوسط 1581-.....ص233-237
- 1-2-1-أ/ النشاط العثماني على سواحل المغرب الأقصى خلال 1581-.....ص238-242
- 2-2- علاقة الدولة العثمانية ببلاد السودان وموقفها من حملة المنصور الذهبي سنة 1591.....ص242

245-242	2-2-أ- التواصل العثماني ببلاد السودان الغربي.....ص
245	2-2-ب/ علاقات الدولة العثمانية ببلاد السودان الأوسط، وتأثيره على الحضور المغربي في المنطقة.....ص
248-245	2-2-ب/1- تعريف مملكة برنو.....ص
253-248	2-2-ب/2- التواصل العثماني البرنوي الرسمي.....ص
257-253	2-2-ب/3- تأثير سفارة إدريس علومة على مستقبل الطموح المغربي في بلاد السودان (1603-1581).....ص
258-257	2-2-ب/4- موقف الدولة العثمانية من الغزو السعودي لبلاد السودان.....ص
262-260	خاتمة.....ص
275-264	الملاحق.....ص
311-277	قائمة المصادر والمراجع.....ص
317-312	فهرس المحتويات.....ص
319-318	الملخص.....ص

الملخص بالعربية:

تهدف هذه الدراسة الموسومة بـ"سياسة الدولة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى خلال النصف الثاني من القرن 10هـ/16م (1550-1603)"، إلى تقصي الحقائق حول طبيعة العلاقات بين الجانبين خلال هذه الفترة، والتي يصفها البعض بدائمة التوتر والتناظر أي أنها علاقة عكسية، نافين وجود أي ارتباط أو تأثير على الأقل بين الطرفين، جاعلين من الأمر مسلمة تاريخية غير قابلة للنقاش.

والواقع أن هذا الوصف أو هذه الآراء المبنية على تحليلات شخصية انطلقا من مصادر محلية وأوروبية، غير منصفة في الحكم على طبيعة العلاقات العثمانية المغربية في هذه الفترة المدروسة، وغير مكترئين بالمستجدات أو الحقائق التي يمكن أن توفرها المصادر العثمانية، فهذه المصادر باختلافها مخطوطات، كتب، وثائق أرشيفية، تتحدث عن صلات رسمية بين الجانبين شملت جميع المجالات، وصلت إلى حد التبعية والولاء في أوقات معينة خلال هذه الفترة، كما تكشف مظاهر ذلك التواصل والتقارب في الكثير من الأحداث، مع كشفها لمظاهر التوتر والصراع أيضا في أحيان عدة، مما جعلها تقدم تفسيراً جديداً من زاوية مغايرة للسابق، يستطيع الباحث من خلالها تحديد طبيعة العلاقات العثمانية المغربية.

الكلمات المفتاحية: الدولة العثمانية؛ التأثير؛ المغرب الأقصى؛ التبعية؛ الصراع؛ الولاء.

Abstract:

The current study, entitled «the Ottoman State's policy towards far Morocco through the second half of the 16th century 1550-1603," aims at figuring out facts about the nature of relationships between the two sides during that period. These relationships were qualified as strained and disparate, namely, an inverse relationship, excluding at least any link or affect between the two parties. They rendered it an indisputable historical fact.

As a matter of fact, this qualification or views relied on individual analyses on the basis of local and European sources are unjust in qualifying the nature of Ottoman-Moroccan relationships in this examined period and they are not careless to the new information or facts that might be provided by Ottoman sources. These diverse sources including manuscripts, books, archival documents tackled official relationships between the two sides involving all fields, which reached dependency and loyalty at some times through that period. They equally revealed the aspects contact and rapprochement in many events, and demonstrated tension and conflict aspects at several times. This made it provide a new interpretation from a diverse angle that enables the researcher determine the nature of Ottoman and Moroccan relationships.

Keywords: Ottoman state, impact, far Morocco, dependency, conflict, loyalty